جليس

الامبراطورية العالمية الأولى والحرب على الغرب



نار فارسية

ترجمة/ مأمون الزائدي

توم هولاند

الـى جيـمي وكـارولـين

مقدمة

في صيف عام 2001 عُيّنَ صديق لي رئيسًا لقسم مدرسة التاريخ. ومن بين العديد من القرارات التي كان عليه اتخاذها قبل بدء ولايته الجديدة في سبتمبر، كان أحدها ملحاً بشكل خاص. لانه بقدر ما قد يتذكر أي شخص، كان الطلاب في سنتهم الأخيرة ملزمين باعداد دراسة خاصة مكرسة لصعود هتلر. والآن، مع ترقية صديقي، كانت رياح التغيير مواتية. فاقترح على زملائه الجدد الإطاحة بهتلر واستبداله بموضوع دراسي مختلف تمامًا وهو: الحروب الصليبية. فتعالت صيحات الأحتجاج من هذا الاقتراح الراديكالي. وطالب زملاء صديقي بمعرفة الهدف من دراسة فترة غريبة جدًا وبعيدة عن الاهتمامات المعاصرة؟ عندما رد صديقي بالقول إن طلاب التاريخ قد يستفيدون من دراسة موضوع لا يتعلق حصريًا بطغاة القرن العشرين، تفاقم السخط فحسب. جادل المعلمون الآخرون بأن الشمولية كانت موضوعًا حيًا، بطريقة لا يمكن أن تكون بها الحروب الصليبية. كراهية الإسلام والمسيحية في الشرق والغرب-أين هي الصلة المحتملة في ذلك؟

الجواب، بالطبع، جاء بعد بضعة أسابيع، في 11 سبتمبر، عندما قام تسعة عشر مختطفًا بإحراق أنفسهم وآلاف آخرين بسبب بعض المظالم من القرون الوسطى. الحروب الصليبية، في رأي أسامة بن لادن، على أي حال، لم تنته أبداً. ولقد حذر العالم الإسلامي في عام 1996، "لا ينبغي أن يخفى عنكم، أن أهل الإسلام عانوا دائمًا من العدوان والظلم والبغي الذي فرضه عليهم التحالف الصهيوني الصليبي"[1]. قد يكون بارعًا في استغلال العالم الحديث المزوّد بالطيران والاتصالات الجماهيرية، لكن بن لادن فسر الحاضر منذ فترة طويلة في ضوء العصور الوسطى. في بياناته، يميل الماضي والحاضر إلى الاندماج كما لو كانا واحدًا: الإساءة المروعة التي تجمّد الدماء وجرائم أمريكا أو إسرائيل سوف تختلط بمطالب استعادة الحكم الإسلامي لإسبانيا أو خلافة كالتي في العصور الوسطى. لا عجب أنه عندما اختار الرئيس بوش في لحظة غير مدروسة أن يصف حرب إدارته على الإرهاب بأنها "حملة صليبية" وتوسل إليه مستشاروه ألا يستخدم هذه الكلمة العقائدية مرة أخرى.

أن يكون الرئيس الأمريكي أقل مهارة ودراية بتاريخ العصور الوسطى من المتعصب السعودي ليس من المستغرب، بطبيعة الحال. "لماذا يكرهوننا؟" في الأيام والأسابيع التي أعقبت 11 سبتمبر، لم يكن الرئيس بوش الشخص الوحيد الذي تصارع مع هذا السؤال. امتلأت الصحف في كل مكان بالنقاد الذين حاولوا تفسير استياء المسلمين من الغرب، سواء من خلال تتبع أصل الأمر إلى تقلبات السياسة الخارجية الأمريكية الأخيرة، أو أبعد من ذلك، إلى تقسيم القوى الاستعمارية الأوروبية للشرق الأوسط ،أو حتى-بعد تحليل بن لادن إلى نقطة البداية-إلى الحروب الصليبية نفسها. هنا، في الفكرة القائلة بأن الأزمة الكبرى الأولى في القرن الحادي والعشرين ربما تكون قد نشأت من دوامة من الأحقاد القديمة والمربكة، تكمن مفارقة واضحة. كان من المفترض أن تكون العولمة قد أدت إلى نهاية التاريخ، لكنها بدت بدلاً من ذلك وكأنها تثير وتحيي عدداً من الأشباح غير المرحب بها من أماكن استراحة أجدادهم. ولعقود من الزمان، كان الشرق الذي حدد الغرب أنه ضده هو الشرق الشيوعي. اما في الوقت الحاضر، فكما كان دائمًا، وقبل الثورة الروسية بوقت طويل، الشرق الإسلامي. الحرب في العراق. صعود المشاعر المعادية للمهاجرين والمسلمين على وجه التحديد في جميع أنحاء أوروبا؛ مسألة ما إذا كان ينبغي السماح لتركيا بالانضمام إلى الاتحاد الأوروبي. تضافرت كل هذه مع هجمات 11 سبتمبر لتعزيز وعي متألم من خط الصدع الذي يفصل بين الغرب المسيحي والشرق الإسلامي.

وأن الحضارات محكوم عليها بالصراع في القرن الجديد، كما جادل كل من إرهابيي القاعدة وأكاديميين من جامعة هارفارد بشكل مختلف، ولا يزال، هذا حتى الآن، أطروحة مثيرة للجدل. ومع ذلك، فإن ما لا يمكن الجدل فيه هو مدى إلزام الثقافات المختلفة، في أوروبا والعالم الإسلامي بأي حال من الأحوال، بفحص أسس هوياتها. يعتقد إدوارد جيبون أن "الاختلاف بين الشرق والغرب تعسفي وسيتغير في جميع أنحاء العالم"[2]. ومع ذلك، فإنه موجود -وأن الشرق هو الشرق، والغرب هو الغرب- وهو الافتراض الأكثر ثباتًا في التاريخ بسهولة. أقدم بكثير من الحروب الصليبية، وأقدم من الإسلام، وأقدم من المسيحية.

نسبه جليل لدرجة أنه يعود إلى ما يقرب من ألفين وخمسمائة عام. "لماذا يكرهوننا؟" مع هذا السؤال ولد التاريخ نفسه-فقد اكتشف أول مؤرخ في العالم، في القرن الخامس قبل الميلاد، موضوع حياته في الصراع بين الشرق والغرب.

كان اسمه هيرودوت. وبصفته يونانيًا جاء مما يُعرف اليوم بمنتجع بودروم التركي، ولكنه كان يُعرف آنذاك باسم هاليكارناسوس، فقد نشأ على هامش آسيا. وتساءل لماذا وجدت شعوب الشرق والغرب صعوبة بالغة في العيش بسلام؟ ظهر الجواب، ظاهريًا، بسيطًا. أفاد هيرودوت أن الآسيويين رأوا أوروبا مكانًا غريبًا بشكل لا يمكن التوفيق فيه. "ولذلك فهم يعتقدون أن اليونانيين سيكونون أعداءهم دائمًا."[3] ولكن لماذا انفتح هذا الشرخ في المقام الأول، يعترف هيرودوت، انه كان لغزًا. ربما كان السبب وراءه اختطاف أميرة أو اثنتين على يد قراصنة يونانيين؟ أو إحراق طروادة؟ "هذا، على أي حال، هو ما تجادل به العديد من دول آسيا-ولكن من يستطيع أن يقول على وجه اليقين ما إذا كانوا على حق؟"[4] كما يعلم هيرودوت جيدًا، كان العالم مكانًا لامتناهياً. وقد تكون الحقيقة عند انسان ما كذبة عندشخص آخر بسهولة. ومع ذلك، إذا كانت أصول الصراع بين الشرق والغرب قد بدت ضائعة في الأسطورة، فقد لا تكون آثارها كذلك. وقد اتضح ذلك مؤخرًا وبشكل مأساوي. لقد ولّد الخلاف الشكوك والريبة وولّد الحرب.

في الواقع، كانت حرباً لا مثيل لها. في عام 480 قبل الميلاد، قبل حوالي أربعين عامًا من بدء هيرودوت تاريخه، قاد زركسيس، ملك بلاد فارس، حملة لغزو اليونان. لطالما كانت المغامرات العسكرية من هذا النوع تخصصًا للفرس. لعقود من الزمان، بدا أن النصر-النصر السريع المذهل-هو حقهم الطبيعي. عكست هالة من لا يقهر النطاق والسرعة غير المسبوقة لغزواتهم. ذات مرة، لم يكونوا شيئًا، مجرد قبيلة جبلية غامضة محصورة في سهول وجبال ما هو الآن جنوب إيران. ثم، في مدة جيل واحد، اجتاحوا الشرق الأوسط، وحطموا الممالك القديمة، واقتحموا المدن الشهيرة، وحشدوا إمبراطورية امتدت من الهند إلى شواطئ بحر إيجه. ونتيجة لتلك الفتوحات، حكم زركسيس باعتباره

أقوى رجل على هذا الكوكب. كانت الموارد المتاحة له مذهلة للغاية لدرجة أنها بدت بلا حدود تقريبًا. لم تكن أوروبا لتشهد قوة غزو أخرى تنافس قوته حتى عام 1944، وصيف يوم النورماندي.

في مواجهة هذا الطاغوت غير المسبوق، ظهر الإغريق قلة من حيث العدد ومنقسمين بشكل ميؤوس منه. كانت اليونان نفسها ليست أكثر من مجرد تعبير جغرافي: لم تكن دولة بل خليطًا من دول المدن الشوفينية المتشاكسة والعنيفة في كثير من الأحيان. صحيح أن الإغريق اعتبروا أنفسهم شعبًا واحدًا متحدًا باللغة والدين والعادات. ولكن كان أكثر ما يبدو أن تلك المدن المختلفة تتشارك فيه هو إدمان قتال بعضها البعض. وجد الفرس، خلال السنوات الأولى من صعودهم إلى السلطة، أنه من السهل إخضاع الإغريق الذين عاشوا في ما يعرف الآن بغرب تركيا-بما في ذلك مسقط رأس هيرودوت- واستيعابهم في إمبراطوريتهم. حتى القوتان الرئيسيتان في البر الرئيسي لليونان، الديمقراطية الوليدة في أثينا ودولة اسبرطة ذات الطابع العسكري الصارم، بدتا غير مهيأتين لخوض معركة أكثر فاعلية. ومع عزم الملك الفارسي على تهدئة هذا الشعب الفريد والعنيد على الحافة الغربية لإمبراطوريته العظيمة، مرة واحدة وإلى الأبد، فقد بدت النتيجة وكأنها محتومة.

ومع ذلك، من المدهش أن اليونانيون تمكنوا من الصمود أمام أكبر قوة استكشافية تم جمعها على الإطلاق. وصُدّ الغزاة. وبقيت اليونان حرة. بدت قصة كيف استطاعوا الاستيلاء على القوة العظمى وهزمها لليونانيين أنفسهم، القصة الأكثر استثنائية في كل العصور. فكيف بالضبط فعلوا ذلك؟ ولماذا؟ وما الذي تسبب في شن الغزو عليهم في المقام الأول؟ مثل هذه الأسئلة، التي لا تفتقر إلى الإلحاح حتى بعد أربعة عقود، دفعت هيرودوت إلى أسلوب جديد تمامًا في التحقيق. ولأول مرة، وضع المؤرخ نفسه في تتبع أصول الصراع ليس في تتبع ماضٍ بعيد جدًا بحيث يكون رائعًا تمامًا، ولا أهواء ورغبات بعض الآلهة، ولا إلى مطالبة شعب بمصير واضح، بل بالأحرى. للتفسيرات التي يمكنه التحقق منها شخصيًا. ملتزمًا بتدوين شهادات المخبرين الأحياء أو شهود العيان فقط، قام هيرودوت بجولة في العالم-كأول عالم أنثروبولوجيا، وأول مراسل

استقصائي، وأول مراسل أجنبي[5]. لم تكن ثمرة فضوله الدؤوب مجرد سرد، بل تحليلا شاملا لعصر كامل: رحيبا ومتنوعا ومتسامحا. وصف هيرودوت بنفسه ما انخرط فيه "بالاستفسارات"-" التأريخية". أعلن في الجملة الأولى من أول عمل تمت كتابته في التاريخ على الإطلاق، " ولقد وضعته هنا، حتى يتم الحفاظ على ذكرى الماضي من خلال تسجيل الأعمال غير العادية لليونانيين والأجانب على حد سواء-وفوق كل ذلك، لإظهار كيف تحتّم عليهم خوض الحرب[6] ".

يحب المؤرخون دائمًا أن يجادلوا بأهمية مادتهم بالطبع. في حالة هيرودوت، كان أمام ادعاءاته ألفان وخمسمائة عام لتُختبر. خلال ذلك الوقت، تأكّد افتراضه التأسيسي-أن الحرب الكبرى بين اليونان والفارسية كانت بالغة الأهمية وغير مسبوقة-بشكل لا لبس فيه. زعم جون ستيوارت ميل أن "معركة ماراثون، حتى كحدث في التاريخ الإنجليزي، أهم من معركة هاستينغز[7]" أعلن هيجل، في اللهجة الأكثر رحابة التي قد يتوقعها المرء من فيلسوف ألماني، أن "مصلحة تاريخ العالم بأسره معلقة تضطرب في الميزان"[8]. وهذا ما حدث بالتأكيد. إن تحدي أي حساب للاحتمالات ببطولة، هو أمر مثير-ولكن إلى أي مدى يصل التوتر عندما تكون الاحتمالات عالية بشكل لا يُضاهى. كان هناك الكثير على المحك أثناء المحاولات الفارسية لإخضاع البر اليوناني، أكثر من استقلال ما اعتبره زركسيس بمثابة خليط من الدول الإرهابية. فبصفتهم رعايا لملك أجنبي، لن يكون لدى الأثينيون الفرصة لتطوير حضارتهم الديمقراطية الفريدة. والكثير مما جعل الحضارة اليونانية مميزة كان سيُجهض. الإرث الذي ورثته روما ونقلته إلى أوروبا الحديثة كان سيصبح أكثر فقرًا بلا حدود. لن يكون الغرب قد خسر كفاحه الأول من أجل الاستقلال والبقاء فحسب، بل سيكون من غير المحتمل، لو استسلم اليونانيون لغزو زركسيس، أن يكون هناك كيان يعرف "بالغرب" على الإطلاق.

لا عجب إذن أن تكون قصة الحروب الفارسية بمثابة الأسطورة التأسيسية للحضارة الأوروبية. كنموذج أولي لانتصار الحرية على العبودية، وللفضيلة المدنية الصارمة على الاستبداد المتردي. بالتأكيد، عندما بدأت كلمة "العالم المسيحي" تفقد صداها في أعقاب الإصلاح، بدأت بطولات ماراثون

وسالاميس تطرق بال العديد من المثاليين باعتبارها تجسيدًا للفضائل الغربية أكثر من الحروب الصليبية. في النهاية، هي الاكثر تأسساً في الدفاع أكثر من الغزو؛ والأفضل في النضال من أجل الحرية بدلا من قضية التعصب. حدثٌ واحد فوق كل شيء، دفاع محكوم عليه بالفشل عن ممر تيرموبيلاي قامت به قوة متشبثة يونانية صغيرة-"أربعة آلاف ضد ثلاثة ملايين[9]،" كما قال هيرودوت-اكتسب القوة الخاصة بالأسطورة. جحافل الآسيويين الصاخبة، مدفوعين إلى المعركة بالسوط؛ والملك الاسبرطي ليونايدس، الذي قرر أن ينتصر أو يموت؛ موتاً مثالياً، حيث قُضي عليه هو وثلاثمائة من مواطنيه وهم يقفون وقفة انتحارية أخيرة[10]: احتوت القصة على كل شيء. في وقت مبكر من القرن السادس عشر الميلادي، أمكن للكاتب الفرنسي العظيم ميشيل دي مونتين أن يجادل بأنه على الرغم من أن المعارك الأخرى التي خاضها الإغريق كانت "أروع انتصارات أخوية شهدتها الشمس على الإطلاق، إلا أنهم لن يجرؤوا أبدًا على مقارنة مجدهم مجتمعاً مع الهزيمة المجيدة للملك ليونايدس ورجاله في مضيق ثيرموبيلاي[11]". بعد قرنين ونصف، شعر اللورد بايرون بالرعب من أن تكون اليونان في عصره مقاطعة تحت حكم السلطان التركي، وعرف بالضبط أين يجب البحث في كتب التاريخ للعثور على أكثر النداءات المحركة للقلب دعوة لحمل السلاح.

أرضنا! ارجع واخرجها من قلبك
بقايا موتانا الاسبرطيين!
من الثلاثمائة لا احتاج سوى ثلاثة
لصنع ثيرموبيلاي جديدة! [12]

واضعاً افعاله حيث كلامه، سيحاكي بايرون لاحقًا مثال ليونايدس بموته في القضية الحرية اليونانية المجيدة نفسها. سحرُ نهايته، أول وفاة حقيقية لشهير في العصر الحديث، أضاف إلى بريق ليونايدس فحسب، وساعد في ضمان أن تكون ثيرموبيلاي، لأجيال بعد ذلك، نموذجًا للاستشهاد من أجل الحرية. لماذا، سأل الروائي ويليام غولدينغ نفسه أثناء زيارته للممر في أوائل

الستينيات، أنه كان يشعر بقلق شديد، رغم حقيقة أن اسبرطة نفسها كانت "مدينة مملة وقاسية"؟

> لا يقتصر الأمر على أن الروح البشرية تتفاعل مباشرة وبشكل يتجاوز كل الجدالات مع قصة التضحية والشجاعة، كما قد يهتز كأس النبيذ مع صوت الكمان. هذا أيضًا لأن تلك الجماعة، وقفت في المكان الصحيح من التاريخ. يكمن القليل من ليونايدس في حقيقة أنه يمكنني الذهاب إلى حيث أحب وكتابة ما يعجبني. فلقد ساهم في تحريرنا[13].

كلمات مؤثرة، وصحيحة-ومع ذلك فمن الواقعي التفكير في أن ثناء غولدنغ ربما كان مفيدًا في إثارة حماسة أدولف هتلر. فبالنسبة للنازيين، كما كان الحال مع مونتين، كانت ثيرموبيلاي بسهولة الحلقة الأكثر روعة في التاريخ اليوناني. الثلاثمائة الذين دافعوا عن الممر اعتبرهم هتلر ممثلين عن عرق سيد حقيقي، تربى وترعرع من أجل الحرب، وكانوا شماليين أصليين لدرجة أنه حتى مرق الاسبرطيين، وفقًا لإحدى تصريحات الفوهرر الأكثر تأملاً، قد جاء من شليسفيغ هولشتاين. في كانون الثاني (يناير) 1943، عندما كانت معركة ستالينجراد في أوجها، قارن هتلر صراحة الجيش السادس الألماني بالإسبرطيين الثلاثمائة-ولاحقًا، عندما استسلم قائده، غضب من أن بطولة جنوده "أُلغيت على يد شخص ضعيف بلا شخصية."[14] وقد حُرم من ليونايدس، غضب هتلر، وكان الفيرماخت محبطًا من ضياع فرصة مثالية لصنع ثيرموبيلاي الجديدة الخاصة به.

أن يستطيع النازين-مثل مونتين أو بايرون أو غولدنغ-الشعور بمثل هذا الإحساس العاطفي بالتماهي مع مثال الثلاثمائة يشير إلى أن أي تصوير للأسبرطيين كمدافعين عن الحرية ربما لا يروي القصة كاملة. كما هو الحال في كثير من الأحيان، فالحقيقة أكثر فوضوية وإثارة للاهتمام من الأسطورة. لو نجح زركسيس في غزو اليونان، واحتلال اسبرطة، لكان قد حدد بالفعل نهاية لحرية تلك المدينة الفخورة-لأن جميع رعايا الملك الفارسي صُنفوا على أنهم عبيد له. ومع ذلك، حتى العبودية يمكن أن تكون مسألة درجات: فما كان يمكن

اعتباره قدرًا أسوأ من الموت عند الأسبرطيين أنفسهم قد يكون بمثابة انفراج سعيد لجيرانهم. استندت عظمة اسبرطة، كما كان يدرك هتلر جيدًا، إلى الاستغلال القاسي لجيرانها، وهو دليل على كيفية التعامل مع الأونتيرمينشن (الأعراق المتخلفة) التي كان النازيون سيحاكونها بوحشية في بولندا واحتلال روسيا. النظام الملكي الفارسي، الذي كان ماهرا ببراعة في استغلال خصومات رعاياه، كان من الممكن بالتأكيد أن يمنح عرضًا متغطرسًا للكرم والتحرر والرعاية لجيران اسبرطة. للأشخاص الذين عانوا من الاضطهاد الاسبرطي لأجيال، وربما كان حكم زركسيس يبدو وكأنه الحرية.

المفارقة بالغة الأهمية، بل هي بالفعل المفارقة التي تشكّل التاريخ: هي أنه ربما يكون الضم من قوة أجنبية موضع ترحيب في ظل ظروف معينة. كان زركسيس بالتأكيد، كما اتهمه الإغريق بأنه الطاغية، والإيراني الذي حكم وريثًا لتقاليد العراق القديمة التي تعود إلى آلاف السنين، وممالك آكاد وآشور وبابل، وهي ممالك اعتبرت دائمًا أن من المسلم به أن يحكم الملك ويفتح البلدان كرجل قوي. القسوة والقمع: كانت هذه هي الكلمات الرئيسية للأسلوب الإمبراطوري العراقي. ومع ذلك، فإن إمبراطورية الفرس، على الرغم من أنها تأسست بالتأكيد وسط "هدم الجدران، وضجيج سلاح الفرسان، والإطاحة بالمدن"[15]، فقد طورت أيضًا، مع توسعها، استجابة أكثر ذكاءً لتحديات الهيمنة. من خلال ضمان السلام والنظام للخاضعين المطيعين، ومن خلال تقديم عرض بارع حول أفضل السبل للتقسيم والحكم، فازت سلسلة من الملوك الفرس لأنفسهم وشعبهم بأكبر إمبراطورية على الإطلاق. في الواقع، كان إنجازهم التاريخي هو أن يثبتوا للأزمنة المقبلة إمكانية وجود دولة متعددة الأعراق، ومتعددة الثقافات، وشاملة للعالم. على هذا النحو، فإن تأثير مثالهم على الاجتياح الكبير للتاريخ سيكون أطول على المدى البعيد من التجربة الغريبة والعابرة التي كانت عليها ديمقراطية أثينا. كان النموذج السياسي الذي وضعه الملوك الفارسيون مصدر إلهام لإمبراطورية بعد إمبراطورية، حتى في العصر الإسلامي: كان الخلفاء، الذين كانوا حكامًا محتملين للعالم، يرددون بدقة، وإن كان ذلك باستعمال المصطلح الإسلامي المتدين، ادعاءات زركسيس. في الواقع، كان النموذج السياسي الذي

أرسته الملكية الفارسية القديمة، هو النموذج الذي استمر في الشرق الأوسط حتى عام 1922، وإقالة آخر خليفة حاكم، وهو السلطان التركي[16]. إن الهدف المعلن لأسامة بن لادن، بالطبع، هو إعادة إحياء الخلافة وحقها في حكم العالم.

من المسلم به أن تأثير بلاد فارس القديمة، مقارنةً باليونان بالتأكيد، كان دائمًا غير مباشر، محجوبًا، ومخفياً. في عام 1891، زار عضو البرلمان البريطاني الشاب، جورج ناثانيال كرزون، موقع قصر زركسيس، الذي تُرك متفحمًا ومهجورًا منذ حرقه، بعد 150 عامًا من تيرموبيلاي، على يد الإسكندر الأكبر المنتقم. كتب كرزون: "بالنسبة لنا، إنه مشحون بدرس الأزمان الجاد. يأخذ مكانه في باب الأشياء التي زالت عن الوجود؛ وأحجاره الصامتة تجد صوتًا وتخاطبنا بأسى الدمار الذي لا يوصف[17]". بعد سبع سنوات، تم تعيينه وأصبح البارون كرزون الكيدلستوني الآن نائبًا للملك في الهند. على هذا النحو، فقد حكم على أنه وريث المغول-الذين كانوا يفاخرون أنفسهم بحمل اللقب، ليس لقب الملوك، بل لقب نواب ملوك بلاد فارس. كان الحكم البريطاني، الذي تحكمه منتجات المدارس الاسبرطية الداخلية الواعية بذاتها، مُشبَعًا تمامًا أيضاً "بتلك الثروة الرائعة من الخيلاء والأبهة التي يمكن للشرق وحده أن يقدمها"[18]-والتي جاءت في النهاية من مديح قصور زركسيس التي اختفت. ربما كان من المغري للإمبراطورية البريطانية أن تتخيل نفسها وريثة أثينا؛ لكنها كانت مدينة أيضًا بدين معين من الالتزام نحو عدو أثينا اللدود.

بعبارة أخرى، كانت بلاد فارس هي بلاد فارس، وكانت اليونان هي اليونان-وفي بعض الأحيان يلتقي التوأم. ربما كانوا مقاتلين في صراع الحضارات البدائي، لكن تموجات تأثيرهم، التي امتدت عبر آلاف السنين حتى يومنا هذا، يمكن أن تؤدي في بعض الأحيان إلى تعقيد الانقسام بين الشرق والغرب بدلاً من توضيحه. فلو خسر الأثينيون معركة ماراثون، وعانوا من تدمير مدينتهم، على سبيل المثال، لما كان هناك أفلاطون-وبدون أفلاطون، والظل الهائل الذي ألقاه على جميع اللاهوتيات اللاحقة، من غير المرجح أن يكون هناك إسلامٌ كي يُلهم بن لادن. بالمقابل، عندما يتحدث الرئيس بوش عن "محور الشر"، فإن رؤيته لعالم مقسّم بين قوى متنافسة من النور والظلام هي تلك التي تنبثق في

نهاية المطاف من زرادشت، نبي إيران القديم. ورغم أن هزيمة زركسيس كانت بالتأكيد حاسمة في إعطاء الإغريق، وبالتالي جميع الأوروبيين، شعورًا بتميزهم الخاص، إلا أن تأثير بلاد فارس واليونان على التاريخ لا يمكن حصره تمامًا ضمن مفاهيم جامدة عن الشرق والغرب. فالتوحيد ومفهوم الدولة العالمية، والديمقراطية والشمولية: كلها يمكن للجميع تتبع أصولها إلى فترة الحروب الفارسية. التي وُصفت بحق بأنها محور تاريخ العالم.

ومع ذلك، بشكل عام، كم هو قليل ما نقرأه عنها اليوم. بيتر غرين، الذي كان كتابه الرائع "**عام سلاميس**"، الذي نُشر قبل أكثر من ثلاثين عامًا، آخر رواية كاملة مكتوبة لجمهور غير أكاديمي، مندهش، بطريقته البارعة المعتادة، من النقص في النظرات العامة للموضوع.

> بالأخذ في الاعتبار حقيقة أن الانتصار اليوناني في الحروب الفارسية يوصف بشكل روتيني بأنه نقطة تحول أساسية في التاريخ الأوروبي (لا يجادل المدافعون عن هذا الرأي بأننا كنا اليوم، لو سارت الأمور في الاتجاه المعاكس، سنجد المساجد والمآذن تهيمن على أوروبا، ولكن يمكنك أن تشعر بالفكرة غير المعلنة في الهواء)، يبدو هذا الإغفال غير قابل للتفسير[19].

ربما لم يذهب غرين إلى روتردام أو مالمو مؤخرًا؛ ومع ذلك، فإن حقيقة أن تستطيع رؤية المساجد والمآذن في الوقت الحاضر حتى في أثينا، وهي العاصمة الوحيدة في الاتحاد الأوروبي التي ظلت بدون مكان للعبادة الإسلامية فترة طويلة، لا تكاد تنتقص من الشعور بالحيرة الذي يُعبّر عنه. إن كانت أي شي ء فهي تعطيها قوة إضافية. قد تكون الحروب الفارسية تاريخًا قديمًا، لكنها أيضًا، وبطريقة لم تكن بها كذلك خلال القرن العشرين، هي التاريخ المعاصر أيضًا.

ومع ذلك، فإن ما يصفه غرين بأنه لا يمكن تفسيره ليس كذلك تمامًا. وعلى الرغم من أهميتها، واكتساحها، ودراميتها، فإن قصة الحروب الفارسية ليس من السهل تجميعها معًا. الحقيقة التي لا جدال فيها وهي أنها كانت أول

صراع في التاريخ يمكننا إعادة بنائه بالتفصيل لا يعني أن هيرودوت يخبرنا بكل شيء عنها؛ بل هو بعيد عن ذلك للأسف. نعم، يمكن للمؤرخين محاولة تغطية بعض الفجوات عن طريق حياكة قطع ورُقع تم الحصول عليها من مؤلفين كلاسيكيين آخرين؛ لكن هذه مهمة إصلاح لا تتم تجربتها إلا بأقصى درجات الحذر. العديد من المصادر تستمد بعد قرون-وحتى آلاف السنين-من الأحداث التي تزعم وصفها، في حين أن العديد منها لم يُكتب كـ"استفسارات" بل في صورة شعر أو دراما. علقت إيريس مردوخ، في روايتها "الجميل والصالح"، عن التاريخ اليوناني المبكر بأنه "يشكل تحديًا خاصًا للعقل المنضبط. إنه لعبة تحتوي على عدد قليل جدًا من القطع، حيث تكمن مهارة اللاعب في تعقيد القواعد"[20] مؤرخو اليونان القديمة، الذين نادرًا ما يظهرون في الروايات، يحبون اقتباس هذا المقطع: لأن المهمة التي وضعوها لأنفسهم، في إعادة بناء عالم متلاشٍ من قصاصات أدلة هزيلة في كثير من الأحيان، تشبه في الواقع، على مستوى معين، اللعبة. لا يمكننا أن نعرف على وجه اليقين ما حدث في معركة مثل سلاميس ، عندما تكون المصادر التي يجب أن يعتمد عليها أي تفسير، متناقضة ومليئة بالثغرات في نفس الوقت: كما قد يتطلع المرء لإكمال مكعب روبيك نصف مكسور. بغض النظر عن عدد المرات التي يتم فيها دراسة الحقائق، وتحريفها، وإعادة ترتيبها، فمن المستحيل مواءمتها جميعًا؛ لا يمكن العثور على حل نهائي. ومع ذلك، حتى سالاميس، التي تشتهر بصعوبة فهمها على الرغم من أنها كذلك، يمكن أن تبدو غنية بالتفاصيل بشكل مبهر بالمقارنة مع تاريخ اسبرطة المبكر، على سبيل المثال. هذا الموضوع بالذات، كما اعترف أحد العلماء البارزين، "هو لغز يتحدي أفضل المفكرين[21]." ووصفه أخر بأنه يتطلب "جمبازاً فكرياً[22]". وثالث، أكثر تقدمًا، عنون كتابه ببساطة "**السراب الاسبرطي**[23]"

لكن مصادر التاريخ اليوناني على الأقل، مهما كانت غير مكتملة، مستمدة من الإغريق أنفسهم. لم يكتب الفرس، باستثناء رئيسي واحد، أي شيء على الإطلاق يمكننا تحديده على أنه سرد لأحداث حقيقية. لا تزال الألواح التي نقشها البيروقراطيون الإمبراطوريون باقية، إلى جانب الإعلانات الملكية المنقوشة على جدران القصر، وبالطبع أنقاض القصور المذهلة نفسها. خلافًا

لذلك، إذا كنا سنحاول فهم الفرس وإمبراطوريتهم بأي معنى، فيجب أن نعتمد، إلى حد ينذر بالخطر، على كتابات الآخرين. هؤلاء، كما هم بشكل أساسي، هم من اليونانيين-شعب غزته الجيوش الإمبراطورية واحتله ونهبته-لا يميل إلى أن يكون حريصًا بشدة على إعطاء صورة متوازنة عن الشخصية والإنجازات الفارسية. كان هيرودوت، الفضولي دائمًا والمنفتح الذهن، هو الاستثناء الذي يثبت القاعدة. " Philobarbaros "-"عاشق البرابرة"-كما وصفه أحد الوطنيين الساخطين[24]: هو الأقرب إلى عبارة "الليبرالي المتعاطف" التي اقترب منها اليونانيون القدماء. ومع ذلك، حتى هيرودوت، الذي يكتب عن الشعوب البعيدة والغريبة التي لم يتكلم لغاتها، يجب أن يُعذر لعدم الدقة العارض، والتحيز العابر، والميل التصادفي لمعاملة التاريخ الفارسي المبكر على أنه قصة خيالية. ولا شيء من هذا يجعل مهمة المؤرخ الحديث أسهل.

ثلاث ردود واضحة على التحدي تقدم نفسها. الأول هو قبول الأحكام المسبقة اليونانية في ظاهرها، وتصوير الفرس على أنهم جبناء فاعلين بطريقة ما، لسبب غير مفهوم، غزوا العالم. والثاني هو إدانة كل ما كتبه اليونانيون عن بلاد فارس كتعبير عن العنصرية، والنزعة الأوروبية، ومجموعة كاملة من جرائم الفكر الأخرى. والثالث، والأكثر إنتاجية، هو استكشاف الدرجة التي تعكس بها التفسيرات الإغريقية الخاطئة الحقيقة عن عدوهم العظيم ، مهما كانت مشوهة، لكيفية عيش الفرس ورؤيتهم لعالمهم. وهذا هو النهج الذي تبنته مجموعة هائلة من العلماء على مدى الثلاثين عامًا الماضية، وكانت النتائج مذهلة: أعيدت إمبراطورية بأكملها إلى الحياة، واستُردت من النسيان، وأصبحت صلبة لدرجة أنها صارت، في كلمات أحد المؤرخين، "شيئا يمكنك أن تصدم إصبع قدمك به"[25]. وكدليل على هذا البعث، من الجدير الوقوف مع افتتاح قبر توت عنخ آمون.

ومع ذلك، ظل الفرس يكتنفهم الغموض. وربما لا يكون هذا مفاجئًا. فلم تكن هناك أقنعة موت ذهبية تمنح وجهاً لإعادة اكتشافهم-فقط الكتب والمجلات العلمية. تعتمد دراسة بلاد فارس، أكثر من دراسة اليونان، على أدق غربلة للأدلة المتاحة، والتحليل الأقرب للمصادر، والوزن الأكثر دقة

للاستدلالات والبدائل. إنه مجال يمكن فيه مناقشة كل التفاصيل تقريبًا. وبعض الموضوعات-ديانة الملوك الفرس ، الأكثر شهرة-هي مستنقعات خادعة جداً لدرجة أنه حتى أبرز العلماء المعروفين يتخبطون في احتمال المغامرة فيها.

الحمقى يندفعون إلى حيث تخشى الملائكة أن تضع أقدامها؛ لكني آمل، حتى مع ذلك، ألا تنتهي محاولتي في بناء جسر بين عوالم الأكاديميين والقراء عموماً الى الظهور بمظهر مغرور كما فعل الجسر العائم الذي بلغ طوله ميلين والذي بناه زركسيس من آسيا إلى أوروبا، وإلى السخرية المروعة من جانب اليونانيون. يجب تحذير القراء بالتأكيد من أن العديد من التفاصيل التي بُني سرد هذا الكتاب منها، غامضة ومتنازع عليها بشدة-وأن الظهور المفاجئ لرقم في النص، يحوم مثل ذبابة فوق مزبلة، يشير عمومًا إلى أن القيد يذكر في تعليق ختامي. ومع ذلك، وفي حين أنه من الصحيح أنه لا يمكننا أبدًا إعادة بناء فترة بعيدة جدًا عن أنفسنا بشكل نهائي، إلا أن الأمر الأكثر إثارة للدهشة من جهلنا، ربما، هو حقيقة أنه يمكن القيام بالمحاولة. لقد سعيت مع هذا الكتاب لتقديم شيء أكثر من مجرد سرد، لأنه كان من طموحي، على خطى هيرودوت نفسه، أن أرسم بانوراما للعالم بأسره الذي ذهب إلى الحرب-الشرق والغرب على حد سواء. سينتقل القارئ إلى آشور وبلاد فارس وبابل قبل اليونان؛ سيقرأ عن صعود أول ملكية عالمية قبل ذلك النظام العسكري الاسبرطي أو ديمقراطية أثينا؛ وفي منتصف الكتاب فقط سيبدأ الحديث عن الحروب الفارسية نفسها. وأن تصبح قصة تُروى تقليديًا من جانب واحد ،وقد صارت تُلمح الآن، وإن كانت غير واضحة، من الجانب الآخر أيضًا، هو مبرر كاف، كما آمل، لمحاولة تجميع أجزاء كثيرة متناثرة وغامضة من الأدلة، وسرد جديد لتلك الحروب، من خاضها ولماذا. إنها، في نهاية الأمر، ملحمة قوية وغير عادية مثل أي ملحمة

موجودة في الأدب القديم. وهي، على الرغم من كل الأشياء التي لا يمكن تصديقها، ليست أسطورة بل مادة التاريخ ذاته.





THRACE
Abydos
Troy
AEGEAN SEA
Phocaea
Sardis
LYDIA


Samos
IONIA
Miletus
Delos
Naxos
CARIA
Halicarnassus

استمع الآن إلى نقطة أخرى: لا يوجد شيء فانٍ
له بداية، ولا ينتهي بالموت والفناء؛
لا يوجد سوى المزج ثم فصل ما كان مختلطًا،
ولكن عند البشر الفانين تسمى هذه العمليات
"البدايات."

إيمبيدوكليس

الفصل الأول-طريق خراسان السريع

ويل للمدينة الدامية

كانت الآلهة وقد أبت تشكيل عالم مستوٍ، قدفضلت بدلاً من ذلك تقسيمه إلى قسمين. هكذا بدا الأمر لمن عاش في زاغروس، سلسلة القمم الكبيرة التي تفصل الهلال الخصيب عن هضبة إيران. ولكن هذه الجبال، على الرغم من همجيتها، لم تكن غير سالكة. وكان يعبرها طريق وحيد: الأشهر في العالم، طريق خراسان السريع، الذي يقود من حدود الشرق إلى الغرب، وينضم إلى شروق الشمس الغاربة. في بعض الأماكن، أثناء صعوده عبر جبال زاغروس، أو الالتفاف على طول مجاري الأنهار، أو تشعّبه بين القمم المتعرجة والوديان، قد لا يكون أكثر من ممر للمشاة-ولكنه حتى وهو كذلك، كان بالنسبة لأولئك الذين استخدموه، معجزة كافية. وكان يُفترض أن إلهًا صالحًا فقط هو من يمكن أن يصنع مثل هذه الأعجوبة. لكن من هو، ومتى، لم يكن أحد يعرف حقًا وعلى وجه اليقين[26]، لكنه بالتأكيد قديم جدًا-ربما، كما قال البعض، قديم قدم الزمان نفسه. على مدى آلاف السنين، كان يتبع طريق خراسان السريع عدد من المسافرين: البدو والقوافل-وجيوش الملوك الغزاة.

كانت إحدى الإمبراطوريات، على وجه الخصوص، ولقرون، مرادفة للمناعة القاسية التي لا ترحم، قد أرسلت رحلات استكشافية متكررة إلى الجبال، وصبغت القمم، بتبجحها الشرس، "كالصوف، المحمر بالدم القاني"[27]. الآشوريون، سكان ما هو الآن شمال العراق، كانوا من سكان المدن، وهم شعب من السهوب الواسعة الغرينية. لكن بالنسبة لملوكهم، أمراء الحرب



الذين نشروا الرعب والإبادة حتى مصر، لم تكن زاغروس عائقًا بقدر ما كانت تمثل تحديًا. هم أنفسهم رعاة الحضارة الفخمة والرائعة، المترفة بالقصور والحدائق والقنوات، كان ملوك آشور يرون دائمًا أنه من واجبهم تسوية المقاومة في البراري خارج حدودهم. هذا، لكون البراري ما كانت عليه، فقد ثبت أنها دعوة بلا حدود. حتى مع آلة الحرب التي لا تضاهى، لم يتمكن الآشوريون من



تهدئة جميع القبائل الجبلية-فقد كان هناك بعض الذين يعيشون في زاغروس والذين تشبثوا بالقمم مثل الطيور، أو الكامنين في أعماق الغابات الكثيفة، متخلفين لدرجة أنهم عاشوا بالكامل على الجوز، والمتوحشون الذين بالكاد يستحقون الاهتمام الملكي. ومع ذلك، يمكن تعليم هؤلاء أيضًا، مع التوغلات المنتظمة، الخوف من اسم آشور، وتزويدها بالغنائم البشرية التي أصبحت تعتمد عليها عظمتها بشكل متزايد. مرارًا وتكرارًا، كانت الحملات العقابية تعود من الجبال إلى سهولها الأصلية، إلى مدن آشور ونمرود ونينوى المقدسة، بينما في أعقابها، عراة ومقيدون، تتبع طوابير الأسرى المتعثرين. على نحو متزايد، اعتاد الآشوريون على نقل شعوب بأكملها، وتوزيعهم حول إمبراطوريتهم، وزرع العدو

المهزوم في أراضي الآخر، والعيش هناك في منازل من تم نقلهم بالمثل، لإزالة الأعشاب الضارة من الأنقاض، أو زراعة الحقول المهجورة المسودة بالدخان.

كان لهذه التكتيكات في النهاية التأثير المناسب. بحلول أواخر القرن الثامن قبل الميلاد، استوعِبت روافد طريق خراسان السريع رسميًا في الإمبراطورية ووضعت تحت حكم الحاكم الآشوري. تباهى أعظم ملوك آشور، سرجون الثاني، بقوله: "لقد أتوا إليّ وهم يتذللون من أجل حماية حياتهم. عارفين أنني لولا ذلك لهدمت جدرانهم، فخرّوا وقبّلوا قدمي[28]."

لا يعني ذلك أن الأسرى كانوا المصدر الوحيد للثروة التي يمكن العثور عليها في زاغروس. فرغم أن الجبال كانت في كثير من الأحيان مناخًا قارسًا، فقد اشتهرت الوديان بمراعيها الغنية بالبرسيم. وعلى مر القرون، وبأعداد متزايدة، كانت هذه تجتذب القبائل التي أطلقت على نفسها اسم "آريا"-"الآريون": وهم بدو مهرة في ترويض الخيول امتدوا من الهضبة إلى الشرق[29]. حتى بعد أن استقر هؤلاء المهاجرون، حافظوا على غرائز أسلافهم، وملأوا وديان وطنهم الجديد بقطعان كبيرة من الماشية ذات القرون الطويلة، وفضلوا، حيثما أمكن، العيش على السرج. كان الآشوريون، الذين لم يكونوا من مربي الخيول أنفسهم، يتحدثون بعبارات متعجبة عن مزارع الخيول في زاغروس، "بخيلهم التي لا تعد ولا تحصى[30]". كان من السهل نسبيًا على الجيش الآشوري انتقاء هذه الخيول كجزية، لأن أفضل الخيول، بموافقة عامة، كانت تلك التي يربيها الميديون، وهم اتحاد فضفاض من القبائل الآرية استقر بشكل ملائم على طول طريق خراسان السريع نفسه. لا عجب أن الآشوريين ثمنوا المنطقة عالياً. فسيطرتهم على ميديا[31]، بالإضافة إلى تمكينهم من السيطرة على أهم طريق تجاري في العالم، سمحت لجيوشهم بتطوير ميزة السرعة الجديدة والقاتلة. وبحلول القرن الثامن قبل الميلاد، أصبح سلاح الفرسان حيويًا لقدرة آشور على الحفاظ على تفوقها العسكري. أصبحت اتاوة الخيول من الجبال شريان الحياة لعظمتها. لا يمكن أن يكون أغنى منجم للفضة أغلى بالنسبة لها من مزارع الخيول في زاغروس.

ومع ذلك، في هيمنة آشور وُضعت بذور سقوطها. كانت الجبال عبارة عن خليط من شعوب مختلفة، من الآريين والسكان الأصليين على حد سواء، حتى أن الميديين أنفسهم كان يحكمهم عدد كبير من الزعماء الصغار المتشاكسين. ومع ذلك، بدأ الاحتلال الأجنبي، من خلال فرض سلطة موحدة على المنطقة، في تشجيع القبائل المنقسمة على التماسك. بحلول سبعينيات القرن السادس قبل الميلاد، وبسبب التهديد الذي خلقه زعيم غامض لاتحاد الميديين الرسمي، بدأت سيطرة الأشوريين على زاغروس في التفكك بشكل مقلق. توقفت الاتاوات حيث أصبح جمعها أكثر صعوبة من أي وقت مضى. اشتعلت نيران الثورات وانتشرت. وعلى مدى العقود التالية، توقف كتبة الملوك الآشوريين، الذين تم توظيفهم لتسجيل انتصارات أسيادهم، عن ذكر الميديين على الإطلاق.

لقد حجب هذا الصمت تطوراً مشؤوماً. في عام 615 قبل الميلاد، انضم الملك الذي ادعى السيادة على جميع رؤساء عشائر الميديين، سياخريس، إلى تحالف من الرعايا الآخرين المتمردين على الإمبراطورية وقاد قواته بسرعتهم ضد الجناح الشرقي للآشوريين. كان تأثير هذا الانفجار المفاجئ لرجال الجبال مدمرًا. وبعد ثلاث سنوات فقط من النضال، حدث ما لا يمكن تصوره: نينوى، أعظم معاقل القوة الآشورية، تم اقتحامها وتدميرها. لدهشة-وفرح-الشعوب الخاضعة للإمبراطورية، سُحقت "المدينة الدامية" تحت حوافر الفرسان الميديين. "فرسان يتجهزون، بسيف بارق ورمح لامع، حشود من القتلى، وأكوام من الأشلاء، وجثث لا نهاية لها-كانوا يتعثرون بالجثث[32]!"

بعد أربع سنوات، تلاشت جميع آثار العملاق الآشوري، الذي أبقى الشرق الأدنى تحت ظله لفترة طويلة. سقط مندرساً. المنتصرون، بطبيعة الحال، حازوا الغنائم. وعلا الميديون، بسرعة إلى مرتبة القوة العظمى، واستولوا على رقعة شمالية ضخمة من الإمبراطورية المهزومة. واستطاع ملوكهم، الذين لم يعودوا زعماء قبليين صغار، الآن أن ينغمسوا في الانشغالات المناسبة لوضعهم المكتسب حديثًا-الدفعُ بثقلهم والتخلص من القوى العظمى الأخرى. في عام 610 قبل الميلاد، اجتاح الميديون شمال سوريا، وأحرقوا ونهبوا

كل ما وصلوا إليه. في عام 585، خاضوا حرباً مع الليديين، وهم شعب مقيم في غرب ما يُعرف الآن بتركيا، ولم يستطع سوى كسوف الشمس، الذي ظهر في ساحة المعركة، أقناع الطرفين أخيرًا بالتراجع. بموجب شروط معاهدة معدلة على عجل، وتم اعتبار نهر هاليس، وهو نهر يتدفق في منتصف الطريق بين ميديا وليديا، كحد فاصل بين الإمبراطوريتين المتنافستين، وعلى مدى الثلاثين عامًا التالية، وفي جميع أنحاء الشرق الأدنى، جرى الحفاظ على السلام، وتوازن القوة[33].

لا يعني ذلك أن ملك الميديين الجديد، أستياجيس، كان لديه أي نية في تعليق سرجه. فهو ليس مشتتًا الآن بالحرب مع الإمبراطوريات الكبرى الأخرى، ووجه انتباهه بدلاً من ذلك إلى البراري شمال وشرق مملكته، بعيدًا عن قمرة القيادة في الهلال الخصيب. قاد رحلة استكشافية إلى الأراضي الوعرة في أرمينيا وما يعرف الآن بأذربيجان، وكان يسير على خطى الملوك الآشوريين، ويعلم المتوحشين خارج حدوده الخوف من اسمه الملكي[34]. من نواحٍ أخرى أيضًا، يبدو أن تقاليد الممالك العظيمة في الشرق الأدنى، الغريبة جدًا عن تقاليد شعبه، والتي لا تزال شبه قبلية وبدوية كما هي، قد أثارت طموحات الملك الميدي. ففي النهاية، لم يكن من المتوقع أن يحكم حاكم من مكانة أستياجيس، ليس أقل قوة من ملك ليديا أو فرعون مصر، إمبراطوريته من خيمة. وما كان ملوك الأراضي القديمة يعتبرونه دائمًا أمرًا مفروغًا منه-القصر، والخزينة، وعاصمة عظيمة-كان لابد أن يمتلك أستياجيس، بطبيعة الحال، أيضًا: أدلة على روعته مُقامة من الذهب وكتل الحجر.

يمكن للمسافرون الذين قاموا بالصعود الأخير عبر الجبال على طول طريق خراسان السريع أن يروا، حارساً المداخل إلى الهضبة الإيرانية التي أمامهم، رؤية كان من الممكن استحضارها من ملحمة رائعة: قصراً يقع داخل سبعة جدران لامعة، كل واحد منها مطلي بلون مختلف، وعلى الدائرتين الداخليتين، مثبتة على أسواره، صفائح من الفضة والذهب. كانت هذه إيكباتانا، معقل ملوك ميديا، والتي بالكاد بعد قرن من تأسيسها، كانت مفترق طرق العالم[35]. تتحكم في التجارة بين الشرق والغرب، كما فتح لسيدها النطاق

الكامل من زاغروس، وما وراءها. هنا، بالنسبة لرؤساء العشائر الميدية، على وجه الخصوص، كان تطور مقلق تمامًا. كان الضمان الأكيد لحريتهم من التدخل الملكي، واستمرار الشقاق في المملكة نفسها، دائمًا هو عدم إمكانية الوصول إلى إقطاعياتهم الخاصة-لكنهم وجدوا أنفسهم بشكل متزايد خاضعين لنفوذ بلاط أستياجيس. في وقت من الأوقات، وقبل بناء جدران القصر متعددة الألوان، كانت إيكباتانا عبارة عن حقل مفتوح، ومكان اجتماع مجاني للقبائل، وهي وظيفة محفوظة في معنى اسمها: "نقطة التجمّع". ولكن تلك الأيام ولت الآن ووجد الميديون، الذين قاتلوا طويلًا لتحرير أنفسهم من طغاة نينوى، رعايا لمستبدٍ أقرب ومن الوطن.

لا عجب أن الأجيال اللاحقة ستحتفظ بذكرى أستياجيس كغول. ولا عجب، أيضًا، أنهم عندما سعوا إلى شرح فقدانهم للحرية، نظر الميديين إلى إيكباتانا كرمز لعبوديتهم وقضيتهم[36].

ملك العالم

قيل إن أستياجيس، حتى وسط كل البراهين على عظمته، كانت تطارده كوابيس الهلاك: عذبته أحلام غريبة، وحذرته من سقوطه وخراب مملكته. كانت هذه هي القيمة التي ينسبها الميديون إلى رؤى من هذا النوع، حيث كانت طبقة كاملة، هي المجوس، تقوم بتوضيح معنى هذه الرؤى. لقد قدم الخبراء في الطقوس هولاء، الماهرون في جميع فنون إبعاد الظلام، طمأنة حيوية لمواطنيهم. لأنه كان من مبادئ الميديين، وهم شعب متدين وأخلاقي، الايمان بأن هناك ظلًا كامنًا وراء حتى ألمع ضوء. وبدا أن العالم بأسره يشهد على هذه الحقيقة. قد يتم إعداد النار بحيث تشتعل إلى الأبد، ولكن لا يوجد مكان، ليس بجانب أبرد نبع، ولا حتى على أعلى قمة جبل، بحيث قد لا تتهدد نقاوة اللهب بالتلوث. ولد الخلق الظلام وكذلك ضوء النهار. العقارب والعناكب والسحالي والثعابين والنمل، وكلها تسللت وبحثت، عن المظاهر المرئية للظل الشامل. تمامًا كما كان من واجب المجوسي قتل مثل هذه المخلوقات أينما وجدها، كذلك كان عليهم مراقبة الظلال عندما تُظلم أحلام الناس-وخاصة كوابيس

الملك. "لأنهم يقولون إن الهواء مليء بالأشباح، التي تتدفق بالزفير، وتتغلغل في بصيرة أصحاب الرؤية الثاقبة[37]". العظمة، كالنار، لا بد من العناية بها.

إن مملكة قوية مثل مملكة ميديا، بعد أقل من قرن من صعودها الأول إلى الاستقلال والعظمة، قد تسجد مرة أخرى وتخضع للسيطرة الأجنبية. لا بد أن تبدو فكرة كهذه، بالنسبة للكثيرين، غير قابلة للتصديق. لكن هذا، كما كان لدى الميديين أنفسهم سبب وجيه ليعرفوه، هو دائمًا الإيقاع البغيض لتلاعب القوى في المنطقة: تصعد إمبراطوريات عظيمة، وإمبراطوريات عظيمة أخرى تنهار. لم تسحق أي مملكة، ولا حتى أشور، كل من قد يرغب في رؤيتها مدمرة. في الشرق الأدنى، يكمن المعتدون في كل مكان، يتشممون الهواء بحثًا عن أي ضعف، في انتظار فرصتهم ليضربوا. ستختفي الدول القديمة، وتحل محلها دول جديدة، وقد يجد المؤرخون، في توثيقهم خراب الممالك المشهورة، أنفسهم يصفون شعوبًا غريبة وغير معروفة سابقًا.

العديد من هؤلاء، تمامًا مثل الميديين أنفسهم، كانوا من الآريين-البدو الرحل الذين تركوا القليل من آثار هجراتهم على سجلات ذلك الوقت. في 843 قبل الميلاد، على سبيل المثال، شن الآشوريون حملة في الجبال شمال مملكتهم ضد قبيلة أطلقوا عليها اسم "بارسوا". وبعد قرنين من الزمان، أقام شعب يحمل اسمًا مشابهًا وجوداً له بعيدًا إلى الجنوب، على أنقاض مملكة أنشان الجليلة، بين الروافد السفلية لنهر زاغروس والأراضي الساحلية شديدة الحرارة في الخليج. ومع ذلك، لا يمكن لأي مؤرخ أن يعرف على وجه اليقين ما إذا كانا متشابهين[38]. فقط عن طريق وضع الجذور، واستيعاب شيء من ثقافة الأشخاص الذين نزحوا، تمكن القادمون أخيرًا من التطفل على وعي جيرانهم الأكثر استقرارًا. هؤلاء، مع ترددهم في تغيير عادات استمرت لقرون، استمروا في الإشارة إلى المنطقة كما فعلوا دائمًا؛ لكن الغزاة، عندما تحدثوا عن وطنهم الجديد، فضلوا بطبيعة الحال تسميته باسمهم. لذلك فإن ما كان يومًا ما آنشان أصبح معروفًا تدريجيًا باسم مختلف تمامًا: بارسا، بلاد فارس، أرض الفرس[39].

في عام 559 قبل الميلاد، بينما كان أستياجيس لا يزال يحكم ميديا، تولى شاب عرش هذه المملكة الناشئة. كان اسمه كورش، ومن بين صفاته كان أنفه المعقوف وطموحه الهائل وقدرة لا حدود لها. حتى قبل ولادته، بدا أنه قد تميز بالعظمة؛ لأنه-إذا أردنا تصديق القصص-هو الذي تم التنبؤ به باعتباره اللعنة التي ستحل على العظمة الميدية. كان من المفترض أن يكون أستياجيس قد رأى كل شيء في المنام: رؤية ابنته، ماندان، وهي تبول، والتيار الذهبي يتدفق دون توقف، حتى غرق أخيرًا كل الميديين. عندما أبلغ الملك عن هذا في صباح اليوم التالي، شحب قراء أحلامه المجوس وحذروه من أن أي ابن لماندان سيكون مُقدرًا على تعريض العرش الميدي للخطر. وعلى عجل، قام أستياجيس بتزويج ابنته إلى تابع، فارسي، أمير مملكة متخلفة وغير مهمة، أملا بهذه الطريقة دحر سوء النذير. لكن بعد أن حملت ماندان، حلم أستياجيس مرة ثانية: الآن رأى كرمة تخرج من بين ساقي ابنته، ولم تتوقف عن النمو حتى أصبحت كل آسيا تحت ظلها. في حالة ذعر، انتظر أستياجيس ولادة حفيده، ثم أصدر على الفور أوامره بإعدام الصبي. كما يحدث دائمًا في مثل هذه القصص، لكن هذه الأوامر لم تطبق. وتُرك الطفل على سفح الجبل ليعثر عليه راعٍ ويترعرع على يديه؛ أو ربما، كما قال البعض، لصوص؛ أو ربما حتى كلبة، حلماتها منتفخة بصورة ملائمة بالحليب. ومهما كانت تفاصيلها الدقيقة، فإن الطبيعة المعجزة لمثل هذه التربية قد أوجدت له بوضوح مستقبلًا شبيهًا بالإله -وهكذا، بالطبع، تبينت الأمور. نجا كورش وترعرع. بمجرد أن كبر لينال رجولة رائعة، ساعده نبله الطبيعي في الفوز بالعرش الفارسي. وهكذا أُحبطت جميع حيل أستياجيس-وتم القضاء على إمبراطورية الميديين.

أو هكذا تقول الأساطير. من طبيعة الرجال العظماء أن يجتذبوا القصص الطويلة، وقد تكون البراهين المبكرة على مصير كورش غير واضحة تمامًا كما ادعى الفرس لاحقًا[40]. ومع ذلك-وبغض النظر عما إذا كانت هناك نبوءات بالفعل-كانت إمكاناته كافية بشكل واضح لتحذير أستياجيس: بالنسبة للملك الميدي، السيّد الأعلى لزاغروس، اليقظ لطموحات اتباعه العالية، فقد قرر، بعد ست سنوات من مراقبة حفيده على العرش الفارسي، أن كورش كان

قادرًا تمامًا وخطيراً بحيث لا يمكن تركه في مكانه لفترة طويلة. وعليه، في عام 553 قبل الميلاد، حشد فرسانه المخيفين وضرب الجنوب. بعددهم القليل جداً، قاوم الفرس بشراسة. وعندما بدا أن الاستسلام كان وشيكًا، انتقلت حتى نسائهم إلى ساحة المعركة، لتشجيع كورش ومحاربيه على القتال.ولمدة ثلاث سنوات، هز الصراع زاغروس-ثم فجأة، في عام 550 قبل الميلاد، انتهت الحرب. حتى الآلهة، على ما يبدو، فوجئت بذلك. بدأوا بالظهور في أحلام الملوك المجاورين لبث الأخبار المذهلة. "شتت كورش الجيوش الكبيرة للميديين بجيشه الصغير. وأسر أستياجيس ملك الميديين. وأخذه إلى بلده كأسير[41] ". لم يحدث اضطراب بهذا الحجم منذ سقوط اشور.

كيف حدث ذلك؟ نعم، لقد أثبت كورش نفسه خصمًا صلبًا لا يقهر. كما كان رعاياه الفارسيون، شعب قاسى من الفقر لدرجة أنهم تحملوا دون شكوى أشد المصاعب-حتى انهم، كما اشتهر عنهم، لبسوا السراويل الجلدية. ومع ذلك، كان أستياجيس، بكل موارد الإمبراطورية القوية وراءه، لا يزال من المؤكد أنه سينتصر-لولا طعنه بشكل مؤلم في ظهره. كانت قصة خيانته قصة غريبة-ومع مرور السنين، تطورت رواياتها بشكل أكثر خيالا وغرابة أكثر من أي وقت مضى. الأساسيات المجردة لم تكن موضع شك. كان هارباغوس، قائد جيش الميديين، وأبرز زعماء العشائر، قد انظَم إلى كورش، وقاد تمردًا في منتصف المعركة، وأسر أستياجيس. لكن لماذا حدثت هذه الخيانة؟ لأنه-وهكذا سارت القصة-كان هارباجوس، أحد أقرباء أستياجيس، وكان مرتبطًا في نفس الوقت بأكثر العلاقات فظاعة من الالتزامات تجاه ملك بلاد فارس. وبحسب الميديين، كان هارباغوس هو من كُلّف بقتل كورش الرضيع، وهي مهمة ادعى أنه نفذها. وبعد سنوات، عندما ظهرت الحقيقة أخيرًا، تردد أن أستياجيس انتقم منه بصورة دموية، وذبح ابن هارباغوس، وضم الجثة، ثم قدمها مطهية كلحم ضأن للأب الذي يشك في شيء. هارباغوس نفسه، بعد أن أكل ابنه، ابتلع الإهانة أيضًا، وظل خادمًا مخلصًا لملكه، وإن كان معاقباً. أو هكذا تظاهر. كان تصرفه مقنعًا بالتأكيد، لأنه عندما اندلعت الحرب ضد الفرس، عيّنه

أستياجيس في القيادة العليا. ربما لم يكن هذا أذكى تصرف في الإدارة البشرية، وفي الواقع، من الحماقة لدرجة أنها غير معقول بشكل جلي.

إذن كيف تم تصديق هذه القصة الطويلة؟ ربما-في مكان ما داخل لعبة الظل من اللامعقولية والشائعات-لا يزال من الممكن رؤية تلميح خافت بالحقيقة؟ عكست العلاقة الأسرية بين أستياجيس وكورش الروابط الوثيقة بين الثقافة والدم، والتي كانت تربط الفرس دائمًا بالميديين. كلا الشعبين، في نهاية الأمر، كان آرياً. وبالنسبة للشخص آري، لم يكن سوى " الأنيريا "-غير الآري- هو من يعتبر أجنبياً. في الواقع، كان على أي من رجال الحاشية التابعين لأستياجيس الذين قد يعانون من الحنين إلى الماضي النظر فقط إلى الجنوب لرؤية لمحة عن الأيام الخوالي. مثل أبناء عمومتهم الميديين، كان الفرس في حقيقتهم شعبًا من البدو الرحل، وكانت بلادهم "غنية بالخيول الجيدة، ومليئة بالرجال الطيبين[42]" ظلوا اتحادًا كونفدراليًا من عشائر مختلفة في صورة امة. على الرغم من كونه "ملك أنشان"، فقد طالب كورش أيضًا بعرشه بحكم وضعه كأعظم زعيم لشعبه-لأنه كان رئيسًا للأخمينيين، العائلة الحاكمة في باسارجادي، القبيلة الفارسية الرائدة. كان كورش يتقن الطقوس القاسية لبلاط الشرق الأدنى وتجمعات الفرسان المتوحشين تحت السماء المفتوحة، والمدن القديمة والتلال والسهول، ومستقبل الفرس وذكريات وعادات ماضيهم. كان كورش بارعاً في لعب كل هذه الأدوار، وأكثر من ذلك. وبالتالي، تجنبت بلاد فارس إلى حد كبير التوترات التي أصابت الميديين: بين ملك نفد صبره مع الهياكل القبلية التقليدية لشعبه ونبلاء ما زال مرتبطا بهم. كما لاحظ زعماء عشائر الميديين، الذين عانوا من الطموحات الاستبدادية لأستياجيس. وبمرور الوقت، لا بد أن التناقض بين ملكهم وكورش قد صدمهم أكثر من أي وقت مضى. يكاد يكون من المؤكد أن هذا هو الذي أقنع هارباغوس باتخاذ خطوته المصيرية. "لذلك أصبح الفرس، الذين كانوا عبيد الميديين في يوم من الأيام، أسيادهم[43]." وكان كورش، وهو يزحف إلى إكباتانا، يحصد المكافآت الواجبة لرحابة صدره وفطنته وسحره.

وحتى بعد هذا الانتصار العظيم الأول، لم تتوقف كياسة افعاله الموزونة. وعلى عكس ملوك آشور، الذين مارسوا حقوق الغزو التقليدية بذروة الوحشية، وتصرفوا بقسوة لا توصف مع الأعداء المهزومين، كان كورش، مدفوعًا بالحسابات-ودون شك بطباعه أيضًا، فضّل مسار الرحمة. وبعد أن استدرج قطاعات مهمة من الطبقة الأرستقراطية الميدية إلى معسكره، قاوم إغراء معاملة أبناء وطنه كعبيد. حتى أستياجيس، بدلًا من سلخ جلده أو إطعامه للحيوانات أو وضعه على الخازوق، احاله إلى تقاعد أميري. صحيح أن الخزانة أفرغت ونُقلت محتوياتها إلى آنشان، لكن إيكباتانا نجت بخلاف ذلك من مصير نينوى. لم يكن لدى كورش أي نية لتدمير المدينة الأكثر استراتيجيًا في زاغروس. والأكثر متعة أيضًا-لأنه إذا كان البرد قاسياً في الشتاء، حيث كانت العواصف الثلجية تسد الممرات، في الصيف، بينما تكون الأراضي المنخفضة في بلاد فارس حارة، تكون إكباتانا جنة من الخضرة، ولا تزال قمم الجبال خلفها مغطاة بالثلج البارد، والمنحدرات أسفل الجدران تحفّها البساتين والحدائق، والهواء مشرق ونقي. لم تبقى المدينة عاصمة لميديا فحسب، بل أصبحت، خلال أشهر الصيف الحارقة، العاصمة الفعلية لإمبراطورية كورش بأكملها. لا عجب أن الميديين كانوا قادرين على الشعور، إن لم يكن بالمساواة تماماً مع غزاتهم، فعلى الأقل بالشراكة في المغامرة العظيمة لحكم ملكهم الجديد.

وهذه المغامرة، كما كانت الأحداث ستثبت سريعا وبشكل مبهج، قد بدأت للتو. تسبب سقوط ملك كبير مثل أستياجيس في إحداث موجات من الصدمة في جميع أنحاء الشرق الأدنى. لم يقتصر الأمر على الإمبراطورية الميدية فحسب، بل خَر الوضع الدولي القائم منذ عقود تحت الأنقاض. فجأة، بدا أنه سيستميل كل شيء، وبدأت القوى العظمى المجاورة، التي ظلت بالكاد قادرة على أخذ الفرس على محمل الجد، تتساءل عن الخيارات التي قد تكون معروضة أمامهم. في عام 547 قبل الميلاد، قاد كرويسيوس، ملك ليديا، جيشًا ضخمًا فوق نهر هاليس لمعرفة ذلك. بعد أن نزل كورش من زاغروس، تقدم على عجل لمقابلته، كانت مدن آشور المدمرة تقف خافرة أثناء مروره، لا شيء الآن سوى أكوام الطين المبعثرة والمختلطة، كشاهد صامت على هشاشة السلطة. ومع

ذلك، قد يخدم مثل هذا الدرس رجلًا طموحًا كمصدر إلهام بالإضافة إلى تحذيره، وقد ضغط كورش بشكل عاجل، على الرغم من أنه كان في وقت متأخر من موسم حملته، حريصًا على مقاتلة كرويسيوس. كما كان من قبل، عندما التقى الليديون مع الميديين، جرت معركة غير حاسمة: لكن هذه المرة لم يكن هناك كسوف ولا نهاية للحرب. بدلاً من ذلك، ومع اقتراب فصل الشتاء، انسحب كرويسيوس إلى عاصمته، ساردس، ولم يتخيل أبدًا أن كورش سيجرؤ على اتباعه، لأن المدينة كانت بعيدة جدًا إلى الغرب لدرجة أن بحر إيجه لم يكن سوى على بعد مسير ثلاثة أيام وراءها-على بعد مسافة هائلة من الحدود الميدية. لكن الفرس لم يتراجعوا. وبدلاً من ذلك، تحدوا البرد القارس، وظللوا كرويسيوس، ولم ينبهوه أبدًا إلى وجودهم، واتاحوا له الوقت ليصرف حلفائه، واختبئوا وانتظار تشتت مجنديه. ثم، مع انكشاف ساردس، ضرب كورش. وبجنون، جمع كرويسيوس ما تبقى من قواته القليلة. وخاض معركة يائسة، وقام الليديين بحشد كل شيء في هجوم اخير للفرسان-ثم اقتحمت ساردس وتم الامساك بكرويسيوس نفسه. بعيدًا في الهلال الخصيب، سُجّلت هذه التفاصيل بإيجاز لم يلمّح إلى تأثيرها الزلزالي: "هزم [كورش] ملك [ليديا]، واستولى على ممتلكاته، وأقام حامية خاصة به هناك[44]." في الإمبراطورية الليدية نفسها، انتشرت أخبار سقوط كرويسيوس كقصف الرعد لدرجة أن كاهنة أحد المعابد قيل إنها أنبتت لحية من الصدمة. وكما كان من الممكن أن تفعل ذلك، في غضون ست سنوات فقط، صار للفرس، القليلون جدًا من حيث العدد، والمتخلفين والمجهولين، مملكتهم كأعظم قوة في العالم.

لا يعني ذلك أن النصر كان نصرهم وحدهم. كان سلاح الفرسان الميديين، المجهز تجهيزًا مثاليًا لحملة الشتاء بمعاطفهم المصنوعة من جلد الغنم وخيولهم الجبلية المتحملة للصعاب، قد لعب دوره. وكذلك القادة الميديين أيضا. ومن بين كل النصائح التي أعطيت لكورش خلال الحملة، كانت الأفضل من هارباغوس، الذي اقترح، قبل الحملة الأخيرة لسلاح الفرسان الليديين، أن توضع جمال الأمتعة في طليعة خط المعركة الفارسي. كان كورش قد أعطى الأمر على النحو الواجب، فذهلت خيول الليديين بسبب الرائحة

الكريهة غير المألوفة، وانحرفت وانسحبت، وهكذا كُسبت المعركة. ربما لم يكن غريبا إذن أن كورش، مدعوما بهذا الانتصار، سعى إلى استرضاء الليديين كما سعى من قبل لكسب الميديين، على الرغم من أن رعاياه الجديد كانوا غير أريين. نجا كرويسيوس، مثل أستياجيس، من الإعدام، وتم الترحيب به في حاشية الفاتح؛ واحتُفظ بخزنته الرائعة المجهزة جيدًا في ساردس؛ حتى جمع الجزية كان يعهد به إلى عظماء القوم. لكن الليديين الذين أذهلتهم هذا الشهامة فسروها على أنها ضعف. و ما أن غادر كورش إلى إيكباتانا حتى انتفض الأرستقراطيون الذين يثق بهم كثيرًا، والمسؤولين عن الخزانة، في ثورة. لقد كان سوء تقدير فادح منهم. فرد كورش، الذي كان مهددًا بما اعتبره حقًا أسوأ غدر ونكران الجميل، بحملة غاضبة. و إرسلت القوات الجديدة، بأوامر جديدة، مسرعة من إكباتانا. لم يكن هناك أي أثر الرأفة الآن. وبدلاً من ذلك، أمر الفرس بإثبات إتقانهم للطرق التقليدية في التهدئة: كان يجب تدمير المدن، وإعدام قادة المتمردين، واستعباد أتباعهم. وكان كل شيء كما أمر ملك فارس.

ومع ذلك، حتى عندما أظهر كورش قدرته على القمع، لم يتخل عن أساسيات سياسته الإمبراطورية. والميديين، إن لم يعد الليديين، سيمنحون شكلا من الشراكة في نظامه الجديد المبهر. وفقًا لذلك، إرسل هارباغوس، وهو الأول والأكثر قيمة بين جميع خدام كورش الأجانب، غربًا لتولي قيادة القوات الفارسية. حصد زعيم العشيرة من زاغروس هذا فرصًا لم تكن لتأتي في طريقه أبدًا لو ظل مخلصًا لأستياجيس، ووصل إلى ليديا يحمل اللقب الرائع "أمير البحر"[45] من خلال عمله في هذا المكتب بكفاءة متوحشة. لم يكد ينتهي من الليديين حتى صار يتطلع إلى وضع معاييره على طول أطراف آسيا، على شاطئ "البحر المر"[46] مباشرةً، بحر إيجة نفسه. هناك، منتشرة على طول الساحل، ومزدهرة بشكل جذاب، كانت هناك مدن متلألئة لشعب معروف لدى الفرس باسم "ايونيا"-الأيونيون[47]. وكانوا قبل قرون من المهاجرين من اليونان، ظل رجال إيونيا يونانيين بتصميم وتحدي مثل أي من مواطنيهم في الوطن الأم عبر بحر إيجه. وقد كان من الصعب جدًا عليهم تكوين جبهة موحدة، تبين بالتأكيد أنهم لقمة سائغة لهارباغوس. مدينة تلو الأخرى، أخضعهم جميعًا بوحشية. في

الواقع، كانت سمعته مرعبة لدرجة أن العديد من الأيونيين، بدلاً من الخضوع للحكم الفارسي، اختاروا الجلاء عبر البحر، أو الهجرة إلى صقلية أو شبه الجزيرة الإيطالية. إحدى المدن، وهي فوسيا، أخلت جميع سكانها، "النساء، الأطفال، الممتلكات المنقولة، كل شيء، في الواقع... ولم يترك الفرس ليستحوذوا على شيء سوى قشرة فارغة "[48]. ألقي ظل مظلم على المخيلة الأيونية، وستعمل ذكرى مجيء هارباغوس لفترة طويلة على تشويش حتى أكثر لحظات الفرح حميمية:

في الشتاء وأنت مستلقٍ على أريكة ناعمة قرب النار،
شبعاً بالطعام الجيد، تقضم المكسرات وتشرب النبيذ الحلو،
عندها عليك طرح أسئلة مثل هذه:
"من أي بلد جئت؟ قل لي، وما هو عمرك؟
كم كان عمرك عندما جاء الميديون؟ "[49]

وليس ،كما يلاحظ، "كم كان عمرك عندما جاء الفارسيون؟"-لأن تأثير هارباغوس على الأيونيين تركهم في حيرة من أمرهم، حتى عندما خضعوا لأسيادهم الجدد، حول من هم بالضبط هؤلاء . ومن الان وصاعداً، عند الإشارة إلى الفرس، كان اليونانيون دائمًا ما يقولون، "الميديين". لم يكن هذا الارتباك مفاجئًا. ما هي التعقيدات الإثنية في زاغروس بالنسبة لشعب بعيد عنهم ؟ أن تجد المدن الواقعة على البحر الغربي نفسها خاضعة لشعب بالكاد سمعوا عنه، يشير إلى بزوغ فجر عصر جديد ومقلق. بدا العالم منكمشًا فجأة. لم يسبق لرجل واحد أن امتد حتى الآن. ومع ذلك، وبعيدًا عن أن يفتخر كورش بإنجازاته، ظل قلقًا ومتلهفًا للمزيد. على الرغم من حجم انتصاراته في ليديا، فقد كان يخشى الخطر الذي تخيله يكمن في مؤخرته. بعد عودته من ساردس، وجه نظره نحو الأفق الشرقي. وتجاهل ما يكمن وراء ذلك، وحتى الفاتح الأكثر ذكاءً قد يجد أن عظمته قد نشأت على رمال متحركة. لا يمكن لأي مملكة أن تعتبر نفسها آمنة تمامًا بينما لا تزال تخشى نهب القبائل المهاجرة وضجيج ضربات الحوافر عبر سهول إيران. من يقدر أن يقدّر ذلك أفضل من الفارسي الذي هو نفسه من نسل البدو؟

لذلك كان كورش ، الذي كان يزدري القضاء على التمرد في ليديا شخصيًا، قد اتخذ بدلاً من ذلك الطريق المعاكس من إيكباتانا، متبعًا طريق خراسان السريع حيث كان يتجه نحو الشرق[50]. كان هذا، بالنسبة للفرس والميديين على حد سواء، رحلة العودة إلى ماضيهم، نحو موطن أسلافهم الأسطوري، "الغني بالمراعي والمياه... ومأوى الماشية[51] " حيث بدا كل شيء على نطاق أكثر بطولية، والسهول أكثر اتساعًا، والجبال تلامس السماء. في طريقه إلى المرتفعات، محدقًا أخيرًا نحو هندو كوش، كان كورش قادرًا على مشاهدة بزوغ فجر الشمس فوق قمم آسيا الوسطى-"الشمس التي لا تموت، وخيولها السريعة؛ التي، في المقام الأول باشعتها الذهبية، تمسك القمم الجميلة، ومنها تظر إلى موطن الآريين بعين كريمة"[52]. "وطن الآريين" هذا، بعد فترة طويلة من هجرة الفرس منه، ظل إقطاعية للنبلاء المبتهجين، متخلفين مقارنة بأبناء عمومتهم في زاغروس، ربما، لكنهم أثرياء، ومدمنون على الحرب. وبمجرد أن نجح كورش في إجبارهم على الخضوع، كان عليهم تزويده بموارد جديدة هائلة من القوى البشرية والثروة. لن تفقد الأراضي الوعرة أبدًا طابعها المتعكر، لأن سيدها الجديد، الذي يشبه الحرباء كما كان دائمًا، كان حريصًا على تصوير نفسه على أنه وريث تقاليد المنطقة، تاركًا النبلاء المحليين يواصلون طرقهم الجامحة-ولكن في خدمة، من الآن فصاعدا، الملك الفارسي. على الرغم من أنه فضفاض، فقد ضُبط الأمر الذي فرضه كورش بمهارة لتلبية احتياجاته: ليس فقط القوات والذهب، ولكن منطقة عازلة. أدى إنشاء قوس هائل من المقاطعات، يمتد من هندو كوش إلى بحر آرال، إلى تسييج الطرق المؤدية إلى بلاد فارس حيث كانت دائمًا أكثر عرضة للخطر، في الشمال الشرقي، الذي كان في السابق مفتوحًا على مصراعيه للتوغلات من اسهوب آسيا الوسطى. وصارت مدن غاندهارا وباكتريا وسوجديانا: وهي الأراضي، التي كانت ذات يوم أرضًا خصبة للتهديد وعدم الاستقرار، تحولت الآن إلى حصون تحمي القوة الفارسية.

وحصون الكثير إلى جانب ذلك. فالهمج، كما تتفق جميع الشعوب المتحضرة، كانوا ينتمون بالضبط إلى المكان الذي كان كورش يحصرهم فيه، في العزلة البعيدة عند حافة العالم. ما كان يمكن أن يحدث بخلاف ذلك ظل

موضوعا للكوابيس. فقد حافظ الميديون، على سبيل المثال، على الحكايات الشعبية المروعة عن كيفية تعرض إمبراطوريتهم، في ذروة قوتها، إلى الساكا المائل العينين، وهو شعب معروف بالوحشية، قاسٍ وغير مروض مثل السهوب التي أتوا منها، والذين صمدوا في وجه الميديين لمدة ثمانية وعشرين عامًا. كان هناك قلق كبير، حينها، عندما تقدم كورش من سوغديانا في ما يعرف الآن بكازاخستان، ووجد نفسه في مواجهة نفس هؤلاء الشياطين من الماضي الميدي، والذين يمكن تمييزهم بسهولة من خلال قبعاتهم المدببة وبراعتهم المريعة في استخدام الفؤوس. زعيم الساكا، الذي امسك به كورش وعاملة بفروسية عالية، خضع على النحو الواجب للغزاة، و خدم وشعبه، لملك الفارسي، وسرعان ما أثبت جدارته كاكثر القوات الإمبريالية شراسة. لكن هذه كانت قبيلة واحدة فقط. خارج موطنها، كانت توجد سهول أخرى، موحشة ويسكنها قطاع الطرق، تسخر ضخامتها من كل الطموحات البشرية-حتى تلك التي لدى أعظم الفاتحين على الإطلاق. ومهما تمددوا لم يستطيع أحد أن يعرف على وجه اليقين، ولا ما يمكن العثور عليه في أطرافها: طيور العنقاء، كما ادعى البعض؛ وقبائل لرجال بأرجل ماعز. والنفايات المجمدة، حيث يبيت السكان في حالة سبات لمدة ستة أشهر كل عام؛ وما وراءها، محيطاً بالعالم، نهر رانغا العظيم، واسعاً مثل بحر هائل[53]. لم تكن لدى كورش، الذي عبر رتابة السهول، أي نية بالتأكيد للتقدم إلى هذا الحد. وعندما وجد نهراً عريضاً يعيق طريقه، استراح على ضفته، وهناك، وسط السهول الطينية وأزيز البعوض، توقف أخيراً عن تقدمه. كان النهر نفسه، نهر سير داريا، ضحلًا وموزعًا على جزر، ولا يوفر سوى الحد الأدنى من الحدود الطبيعية؛ لذا، فقد أمر كورش، بعد إصلاح أوجه القصور في الطبيعة، ببناء سبع مدن حدودية، وسمي أعظمها على اسمه[54]" سيرابوليس. ومن الآن فصاعدًا، ومثل العبد، وسم على وحشية السهوب علامة الملك الفارسي.

أعلن وسم هذه العلامة على هويته على أرض الساكا رسالة مزدوجة مستبدة. لم يعد يُسمح لفرق الحرب الجامحة خلف نهر سير داريا بالإغارة جنوبًا؛ ولن يضطر أولئك الذين يقفون وراء النهر إلى الخوف على أمنهم. لطالما

كانت إستراتيجية كورش تتمثل في تهديد أعدائه وطمأنة عبيده-وبحلول عام 540 قبل الميلاد، مع استقرار الحدود الشرقية، شعر بالاستعداد لوضعها في اختبارها النهائي. عند عودته إلى زاغروس، ركز نظرته المفترسة على هذا الهدف الأسمى لطموح كل فاتح، الأراضي المسطحة الغنية لما هو الآن جنوب العراق، الممتدة من أشور إلى الخليج الفارسي، مسرح المدن الرائعة منذ فجر التاريخ. لا يمكن حقًا الترحيب بإنسان على أنه سيد العالم حتى يخضع قلبه القديم-كما كان كورش، الطامح للسلطة، يدرك جيدًا. ومع ذلك، كان سيعرف أيضًا أن سكانها لم يكونوا من رجال التخوم المتخلفين، الجهلة بدعايات الطغاة. في الواقع، كانوا هم من اعتبر الفرس متوحشين. اختار كورش، وهو رجل تخصص في قلب الأفكار المسبقة العدائية، مواجهة هذا التحدي الجديد وجهاً لوجه. وشن غزوه لأراضي العدو مدعياً أنه يدافع عنها. قاد جيشا هائلا، وتصنع أن يكون رمزا للسلام. وفي كل مكان، استقبلته الحصون بفتح أبوابها.

في الحقيقة، كانت القوة النارية الفارسية على ما هي عليه، وكانت هذه هي السياسة العقلانية الوحيدة التي تبناها المدافعون كي يتأقلموا. الجيش الوحيد الذي سعى إلى تحدي الغزو قُضي عليه بشكل عاجل. بالنسبة إلى كورش ، كما أظهر في ليديا، لم يكن ينفر من الفظائع العرضية عندما يشعر أنها قد تخدم غرضًا مفيدًا. ومع ذلك، فإن تفضيله، إلى حد كبير، كان أن يرقى إلى مستوى الادعاءات عالية الارتفاع لدعايته. بمجرد تأسيس نظامه، لايعود هناك المزيد من المذابح. وتم الإبقاء على عمليات الإعدام في أدنى مستوياتها. كانت مراسيمه مصاغة بنبرة معتدلة وكريمة. إلى المدن المزدحمة بالمعابد القديمة والرائحة بالبخور، قدم كورش نفسه على أنه نموذج "للخير والعدالة" و "سيادته العالمية" على أنها منحة من الآلهة[55]. وأما أي الآلهة بالذات. فبرود، تظاهر كورش بأنه المرشح المفضل لهم جميعًا. اجتمع كهنة متنوعون على النحو الواجب للإشادة به باعتباره يخصهم، كما اعتبرته الشعوب المتنوعة وربما لعاداتهم واهتماماتهم-التذهيب المثالي له لسيادته على العالم. انه شيء مجيد، أن يكون زعيم عشيرة الأخمينيين حديثة النعمة، راعيا لمدن قديمة مثل أور

وأوروك. وحتى في سجلاتهم، رغم أنهم بحثوا حتى فجر التاريخ، لم يعثروا على رجل آخر صعد بهذه السرعة، حتى الآن.

بالنسبة للكثيرين، بدا حتمًا أن هناك شيئًا مخيفًا، بل وحشيًا، في هذه المعجزة. عندما سقط كورش أخيرًا في المعركة كان يبلغ من العمر سبعين عامًا، كانت شهيته للغزو لا تزال غير محسوبة، لأن وفاته جاءت شمال نهر سير داريا، إلى ما هو أبعد بكثير من الحدود التي كان قد حددها ذات مرة لطموحاته الخاصة[56]. في نشوة انتصارها، قيل أن ملكة القبيلة التي التي قتلته قطعت رأس جثته، وأسقطت رأسه في قربة نبيذ مملوءة بالدماء، حتى يرتوي عطش الرجل العجوز اخيراً. كان هذا من أجل تصوير كورش على أنه شبح من ذلك النوع الذي يطارد مخيلات سكان الشرق الأدنى، شيطان الليل، الجائع إلى الأبد للجسد البشري. من بين أولئك الذين خضعوا له، مع ذلك، سيتم الحفاظ على تقليد مختلف تمامًا. سيُذكر كورش، الرجل الذي هز العالم، بإعجاب غير مشروط تقريبًا، لنبل شخصيته الاستثنائي، الاستثنائية وكمهندس للسلام العالمي. ولقرون بعدها، حتى بين ألد أعدائها، كان وهج ذكرى مؤسسها يملأ إمبراطورية الفرس. "لقد تفوق على كل الملوك الآخرين، سواء قبله أو منذ ذلك الحين." كان هذا هو حكم زينوفون، الأثيني، الذي كتب بعد ما يقرب من قرنين من وفاة كورش. "بغض النظر عمن غزاهم، كان يلهمهم شوقًا عميقًا لإرضائه، والاستمتاع برأيه الحسن. ووجدوا أنفسهم يتوقون إلى أن يهتديوا بأحكامه، هو ولا أحد غيره"[57]. حكم مدهش، كما قد نعتقد، ان كورش في الواقع قد أغرى وكذلك فرض نفسه على العالم، مقتعاً مجموعة من الشعوب المختلفة انه كان يفهمها، ويحترمهم ويرغب في محبتهم. لم تنشأ إمبراطورية من قبل على مثل هذه الأسس. لم يسبق لأي فاتح أن أبدى مثل هذه الرأفة، ومثل هذه الدرجة من ضبط النفس.

كانت تلك هي عبقرية كورش-وكانت مكافأته هي الهيمنة على نطاق يتجاوز كل الأحلام.

أه يا أخي، أين أنت؟

توفي في صيف 529 قبل الميلاد. جثته، التي استعيدت من القبيلة التي قتلته، أعيدت إلى بلاد فارس، حيث كان ضريح حجري ضخم ينتظر استلامه. وكان قد أعَد، وفقًا للأسطورة، على موقع الهزيمة الحاسمة لأستياجيس، وكان مجرد واحد من عدد من الهياكل التي رعاها كورش في المنطقة. أقل في كونه مدينة من مجموعة من القصور والأجنحة والحدائق، كان الموقع بالتأكيد شاهدًا وافرًا على حجم عظمة الفرس-ولكنه أشار أيضًا إلى مدى التشويش والاندفاع الذي صاحب صعودهم. فيما وراء البناء، ما زالت قطعان الماشية تجوب عزلة التلال والسهول المفتوحة. تهب الرياح عبر المناظر الطبيعية المستقرة والمداخل المطلية بالذهب والأعمدة المغطاة بالغبار. حتى مجمَع القصر نفسه، على الرغم من بنائه من الحجر، نقل في تصميمه أكثر من مجرد تلميح الى المعسكرات والخيام. لم يكن عبثا أن عُرف الموقع باسم باسارجادي: اسم قبيلة كورش. لم يكن من التناقض، في نهاية الامر، أن تكون للبدوي جذوره أيضًا.

الآن، بموت كورش، ستؤثر المناورات بين عشائر وقبائل بلاد فارس على الملايين. هل يمكن أن يأمل من يخلفه في أن يحل محل كورش، أم أن إمبراطورية الفرس، التي حُرمت فجأة من كاريزما مؤسسها، محكوم عليها بالزوال بالسرعة التي ظهرت بها؟ كما تشهد سجلات عدد لا يحصى من الإمبراطوريات المتلاشية، فإن موت الملك كان لحظة محفوفة بالمخاطر حتى بالنسبة لأعظم الممالك. كان كورش، الذي يتمتع بحماسة الحاكم الطبيعية للوريث، قد أنجب ثلاث بنات-والأهم من ذلك-ولدين؛ لكن هذا لا يضمن شيئًا. بالنسبة لإمبراطورية عظيمة كما لعشيرة من البدو، قد يثبت وجود فائض من الورثة أنه محفوف بالمخاطر مثل عدم وجودهم.

ومع ذلك، فقد أدرك كورش، الذي كان بعيد النظر كما كان دائمًا، الخطر وسعى للتأمين ضده، ملبياً بعناية آمال أبنائه. وقبل وفاته، عيّن الاكبر قمبيز وليًا للعهد، وصغيره برديا، حاكمًا لباكتريا. وكانت هذه أكبر وأهم المقاطعات الشرقية، وعلى الرغم من حرمانه من الكيداري، تاج السلطة الملكية المرصع، فقد أعفي برديا من دفع الجزية، وهو امتياز يليق بالملك. سواء كان

استياءه من أخيه قد هدأ بسبب هذا الشرف، أو ما إذا كان قد أثار رغبته للمكانة الملكية، فإن الزمن سيخبرنا بذلك. في كلتا الحالتين،عرف العالم بخطط كورش لمستقبله: كان على قمبيز الجلوس على عرش الفرس، وكان بارديا هو مساعده. لم يكن لدى أي شخص آخر أي ذرة من السلطة. لمجرد التأكيد على هذه النقطة، رتب قمبيز وشقيقتاه، أتوسا وروكسان، لقاء كان فضيحة. فسفاح القربى كان غير مسبوق في التقاليد الفارسية، لكنه يحقق طموحات أي عائلة نبيلة. إحبطت طموحاتها بشكل مرض[58]. ففي النهاية، من هو أحق ببنات كورش من أبناء كورش؟ أصبح دم الفاتح العظيم -تمامًا مثل مياه الينابيع التي يحرسها الساحر أو شعلة النار المقدسة -شيئًا ثمينًا يجب الاعتناء به وحمايته من أي تلوث

حتى عندما دُفنت جثة كورش في تابوت من الذهب، داخل قبر موجه بعناية نحو شروق الشمس، وسط صلوات واناشيد الحاضرين المجوس، تحرك قمبيز للمطالبة بحق المولد. أصبحت ملكية العالم الآن ملكه. صحيح أنه عندما أخذ مكانه على عرش أبيه، ربما تحولت بعض العيون نحو أخيه؛ لكن بارديا، الواثق في حكم إقطاعيته الكبرى في الشرق، لم يبد أي علامة على أي نية غادرة. ثبت أن شهادة كورش ووصيته الأخيرة قد بُنيت بدهاء. كان لدى الشقيقين الكثير من المكاسب من خلال تشابك مصالحهما. ربما كان يُعتقد أن قمبيز سيسعى، كأولوية له، إلى الانتقام لموت والده-لكن ذلك كان سيتطلب منه قيادة جيش ضخم في المقاطعات الشرقية، وإثارة استياء أخيه الصريح. وبالمثل، ربما كان يُعتقد أن بارديا، الذي يمتلك قاعدة قوية خطيرة، كان سيسعى إلى إرغام قمبيز للحصول على المزيد من الامتيازات الإضافية-لكن ذلك كان سيخاطر بإغضاب الملك الجديد صراحة. وسواء أكان الأمر ضمنيًا أم لا، فقد شكلا الاخوان اتفاقًا. كان من المقرر أن يُترك فيه بارديا دون إزعاج في مقاطعته، لكنه كان سيحمي ظهر أخيه[59]؛ أما قمبيز، الذي كان طموحًا للغزو مثل والده، فلم يوجه جيوشه ضد رجال القبائل الفقراء الذين قتلوا كورش بل نحو مملكة في الطرف المقابل من حدوده، غنية بالذهب والمعابد الضخمة، القوة العظمى

الوحيدة التي بقيت حتى الآن. على قيد الحياة من النظام العالمي القديم، وهي الأكثر شهرة وقدماً من الجميع. وسيشن حرباً على مصر.

مثل هذه الحملة، بالطبع، لا يمكن التسرع فيها. ربما تكون قوة الفراعنة قد تضاءلت كثيرًا عن روعتها القديمة، بعد أن أصبحت معتمدة على دعم المرتزقة الخاملون، واستنزف دخلها كهنة المعابد الأقوياء، لكنها لا تزال تمثل تحديًا هائلاً. أمضى قمبيز أربع سنوات في التحضير للغزو. جرى الاعتماد على الأمم الخاضعة للإمبراطورية لتقديم الجزية والجبايات. تم بناء السفن أو الاستيلاء عليها، وأصبح الملك الفارسي، لأول مرة في تاريخ بلاده، سيد أسطول بحري عظيم وقوي. جُمعت المعلومات الاستخباراتية وتحليلها بعناية. عندما التقى الفرس أخيرًا بالمصريين في المعركة، قيل إنهم فعلوا ذلك والقطط معلقة على دروعهم، ما أدى إلى إصابة رماة خصومهم، الذين كانت الحيوانات مقدسة بالنسبة لهم، بحالة من الشلل الغاضب[60]. تم الفوز بالنصر على النحو الواجب. واقتُحمت لوسيوم، بوابة مصر، وتناثرت جثث المنهزمين على الرمال. وبعد قرن من الزمان، كان لا يزال من الممكن رؤية عظامهم. ولم يكن جيش قمبيز، بالطبع، هو الشوكة الوحيد في هجومه. فطوال الوقت، كان أسطول المعركة يزحف على طول الساحل. مع قيام القوات البحرية والجيش بتغطية بعضهما البعض في عملية برمائية منسقة تمامًا، تقدم الفرس للاستيلاء على جائزتهم الذهبية. فسحقت المقاومة بوحشية. وخضعت مصر. وأشاد شعبها بالفرعون "الزعيم العظيم للأراضي الغريبة".

لكن سرعة انتصار قمبيز كانت مضللة. لم يكن من السهل استيعاب أرض قديمة وغامضة في إمبراطورية أي شخص. صحيح أنه تم اتخاذ بعض الإجراءات بسهولة: فقد تم توجيه الدخل من بلدة الى اخرى، على سبيل المثال، لإبقاء الملكات الشقيقات[61]. لكن سرعان ما بدأ آخرون في جر قمبيز الى الرمال المتحركة. لم يكن التغيير في مصر أمرًا مباشرًا على الإطلاق، وحدث أن التحدي الأكثر إلحاحًا، وهو ترويض الكهنة وفرض الضرائب عليهم، كان أيضًا الأكثر صعوبة. نجح قمبيز، الوحشي بطريقة لم يجرؤ الفراعنة الأصليون على القيام بها، في فرض أتاوات من أراضي المعابد المتضخمة، لكن هذا الجهد استغرق أربع

سنوات وأكسبه بطبيعة الحال عداء الكهنة الأبدي. فلم يدخروا أي جهد لتشويه اسمه، وسيُذكر قمبيز بعد ذلك في مصر على أنه مجنون، يستمتع بالقتل ويثرثر مستهزئاً بالآلهة. في بعض الأحيان تم اتهامه بالجمع بين الاثنين للتسلية، كما افترض أنه بصق على ثور يعبده المصريون على أنه إله.

أكاذيب، كل تلك أكاذيب. وبعيدًا عن الاستهزاء بالثور المقدس، كما تصوره الدعاية السوداء، تصرف قمبيز في الواقع بلياقة مثالية، وأمر بتحنيط الثور الميت ووضعه في مكانه بوقار. تمامًا كما فعل كورش، سعى لإظهار نفسه في احترام صارم للآلهة الأجنبية، مهما كانت غريبة. وفي نهاية الامر، وبصفته فرعونًا، فقد أصبح ابنًا لرع نفسه. بالنسبة لرجل على بعد جيل واحد فقط من ارتداء السراويل الجلدية، لا بد أن عظمة التقاليد المصرية، التي لا مثيل لها، قد وفرت مجالًا للتفكير بشكل كبير. ربما يكون هناك مجال كبير جدًا: فبينما اعتبر الكهنة المصريين أن قمبيز كان مهووسًا قمعيًا، كذلك فعل رؤساء العشائر الفارسية أيضًا، وبشكل أكبر بكثير. لم ينس كورش جذوره أبدًا، حتى عندما غزا العالم، ونتيجة لذلك كان محبوبًا، وأطلق عليه لقب "أب" شعبه- ولكن سيتذكر الفرس قمبيز بطريقة مختلفة تمامًا، " كقاسٍ ومتعجرف "، وكانوا يعتبرونه" طاغية[62] ". وكدليل، سيتم تقديم قصص مذهلة عن همجيته: كيف استخدم ساقيه للتدرب على التصويب، وأرداه قتيلاً؛ وكيف دفن اثني عشر نبيلاً أحياء مقلوبين رأسًا على عقب. المزيد من اللطخات؟ ربما-ومع ذلك يعكس هذا بالتأكيد ذكريات أزمة حقيقية، تلك الأزمة التي كانت معروفة تماما لدى الميديين في حاشية قمبيز ، عن ملك غير متسامح مع أي تلميح بالمعارضة، و المصمم على كسر إرادة زعماء العشائر المتنافسة. العديد من هؤلاء، بعد أن ذهبوا في المغامرة المصرية، بقوا بأمان الى جانب قمبيز، حيث يمكنهم خدمة ملكهم كرهائن ومساعدين. لكن لم يكن الجميع قد ذهبوا الى مصر. ومع ذلك، وعلى الرغم من غياب البلاط، ظلت بلاد فارس المنبع الأضمن للسلطة الملكية. ومن يستطيع السيطرة على قلب الأرض قد يسيطر أيضًا على الإمبراطورية خارجها. أدى غياب قمبيز الطويل في مصر إلى جعل هذا الحساب موحيًا بشكل متزايد. بدأت الخيانة تتمتم في أراضي عشيرة الفرس.

قبل ثلاثة عقود، كان رؤساء الميديين، في يأسهم للإطاحة بأستياجيس، قد رضوا بقبول أجنبي كملك. لكن النبلاء الفرس ، رغم غضبهم من استبداد قمبيز، كان لديهم بديل أكثر قبولا. فلم يكن بارديا ابن كورش الكبير فحسب، بل كان أيضًا-وبنفس الأهمية-بارعًا في جميع الصفات التي أعجب بها الفرس في الملك. أكسبته قوته الجسدية لقب تانيوكسارسيس او الجسد الجبار، وكانت مهارته في القوس-السلاح المفضل لدى الفرس-أسطورية[63]. كان بقاءه على رأس المسيرات الشرقية المزعجة لما يقرب من عقد من الزمن دليلًا واضحًا على مواهبه كأمير حرب. من نواحٍ أخرى، أثبت بارديا أنه ابن أبيه. ومثل كورش، على ما يبدو، يمكنه التصالح وكذلك القتال. حساسًا تجاه استياء الطبقة الأرستقراطية الفارسية، كان أيضًا مهتمًا بالشعوب الخاضعة، التي كانت مثقلة بشكل متزايد بسبب مطالبات قمبيز. فهمس بهذا لمن يهمه الأمر، بدأ بارديا في طرح إجراء مذهل: ربما، لمدة ثلاث سنوات، يمكن إعفاء رعايا الشعب الفارسي من دفع الجزية والرسوم الإضافية للملك؟ بالطبع لا يعني ذلك أن قمبيز سيوافق على ذلك أبدًا. لكن ملكاً جديداً؟ قد يوافق الملك الجديد. . .

مثل هذه الفتنة بالكاد يمكن أن تبقى صامتة لفترة طويلة. كان الجواسيس في كل مكان. استيقظ قمبيز، بعد أن تم تأمين فتوحاته الأفريقية، فجأة على الخطر يطرق مؤخرته. على الرغم من كل إنجازاته العظيمة، التي أظهرته يوسّع سيادة الشعب الفارسي بعيدًا في الصحراء الليبية وحتى أرض الإثيوبيين الأسطوريين، "الأطول والأفضل مظهرًا بين جميع الرجال في العالم[64]،" فقد كان بعيدًا عن المنزل لفترة طويلة جدًا. بحلول أوائل عام 522 قبل الميلاد، بعد أن انطلق أخيرًا على طريق العودة الطويلة إلى بلاد فارس، وجد قمبيز نفسه في سباق يائس مع الزمن. على الرغم من أنه كانت لا تزال معه قواته-والكثير من النبلاء أيضًا-إلا أن الأحداث كانت تخرج عن سيطرته. في 11 مارس، طالب بارديا علانية بالعرش. وبعد شهر، تم الترحيب به كملك في جميع أنحاء المقاطعات الشرقية[65]. هل كانت إمبراطورية الشعب الفارسي، التي رفعها كورش إلى هذه الروعة، قد تحطمت الآن بسبب طموحات أبنائه المتنافسين.

أوستنقسم إلى نصفين منفصلين، أو ربما تنهار تمامًا؟ يبدو أنه لا مفر من قتل الأشقاء الذي يلوح في الأفق.

ثم تدخل حادث-أو شيء مثل الحادث[66]. قمبيز، وهو يقفز على حصانه لمواصلة تقدمه عبر سوريا، يجرح نفسه في فخذه بسيفه. وبدأت الغرغرينا. وتوفي في غضون أيام. مغامرة خاطئة مذهلة-والأكثر ملاءمة في توقيتها، إذا كانت صحيحة. كان المستفيد الواضح، بالطبع، هو بارديا، الذي تُرك الآن باعتباره الوريث الذكر الوحيد الباقي على قيد الحياة لكورش، وبالتالي هو الملك بالحق وكذلك القوة. كل ذلك توقعه المجوس، الذين لمحوا، في مشهد الطفل الذي ولدته روكسان بلا رأس، انقراض سلالة قمبيز، على الرغم من أن الكهنة المصريين، الأكثر خبثًا وابتكارًا، كانوا يهمسون بأن قمبيز جلب الرعب على نفسه-لأنه قيل إنه ركل عروسه وشقيقته في بطنها، فقتل ليس الجنين فحسب، بل الملكة. الآن، في ظل عدم إنجاب قمبيز، بدت هناك فرصة طيبة للسلام-وتحرك بارديا بسرعة لاغتنامها. في يوليو، بعدما كلفه المجوس رسميا، مرتديًا أردية والده والتاج الملكي. في الوقت نفسه، تزوج من أتوسا، أخت وعروس قمبيز الباقية على قيد الحياة. الخلافة والسلالة: كلاهما يبدو الآن مضمونًا. من هناك أيضًا، في نهاية المطاف، ليتحدى بارديا في فرض ملكه على العالم؟

ولكن في حين أن الملك الجديد، الذي كان واثقًا من تفوقه، انسحب في الصيف إلى جو إيكباتانا البارد، ظلت المؤامرات والشائعات تنتشر عبر سهول الأراضي المنخفضة الحارة[67]. وسواء أكان موت قمبيز مصادفة أم لا، فقد شكل إغراءً مخيفًا للآخرين باستثناء بارديا. وعلى الطريق الرئيسي المؤدي من سوريا إلى زاغروس، وقف الجيش الملكي الآن بلا قيادة. لكن إلى متى؟ وقد عاد الضباط رفيعو الرتب، وهم سليلوا العائلات العظيمة، من معركة المغامرة الإفريقية، وهم عازمين وقريبين من أمور السلطة، غالبًا قبل اعمارهم. كان "حامل رمح" قمبيز، على سبيل المثال، وهو ابن عم بعيد للملك اسمه داريوس، يبلغ من العمر ثمانية وعشرين عامًا فقط. تُقاس الرتبة، في البلاط الفارسي، من خلال القرب من شخصية الملك، لذا فإن لقب الشاب داريوس، كان بعيدًا عن الإشارة إلى المكانة الوضيعة، وكان شرفًا رائعًا ومرموقًا. وقد ميزه علناً كلاعب

رئيسي في البلاط، وتركه مطلعاً على أكثر الأسرار الملكية حساسية. في الأسابيع التي سبقت مقتل قمبيز، لم يكن في وضع أفضل ليفحص المعلومات الاستخبارتية حول الانقلاب.

وان يحلل ويغربل. بالنسبة لداريوس، كان بإمكانه أن يرى، بالعينان غير المشفقتان لمن وُلِدَ سياسيا، أن موقف بارديا قد لا يكون قوياً كما بدا في الأصل. كان ولاء زعماء العشائر منقسمًا وغير مؤكد. ومن غير المرجح أن يثبت بيان إصلاح الجزية، رغم الترحيب به في الدول الخاضعة، شعبيته لدى الطبقة الحاكمة الفارسية. إذا لم يرد لخزائنه أن تفرغ، فسيتعين على بارديا تعويض خسارة الإيرادات بطريقة ما. وبما أنه لم يكن لديه الرغبة في الانتحار السياسي، لم يستطع الملك الجديد أن يضغط على مؤيديه؛ ولكن مع وجود الكثير من النبلاء في مناطق بعيدة في سوريا، وفي معسكر قمبيز، بدا أن هناك مصدر دخل بديل جاهز للتسليم. وخرجت الأوامر حسب الأصول. أملاك من يعتبرون خصوم بارديا "ومراعيهم وقطعانهم وعبيدهم ومنازلهم"[68]، تمت مصادرتها جميعها. ومع ذلك، فإن هذه المكاسب المفاجئة، التي كانت هناك حاجة ماسة إليها، جاءت بتكلفة مخيفة. تم تأكيد الانقسام في طبقة النبلاء. في نظر العديد من الفرس، ووُصِف بارديا نفسه بأنه "وصمة عار على بلده وعرشه القديم"[69]. مات ملك في ذلك الصيف. والآن يتم وضع الخطط على عجل للتخلص من الثاني.

كان المتآمرون سبعة في المجموع. كانوا جميعا من أعلى رتبة. كان من بينهم داريوس، حامل رمح قمبيز الشاب -والأخميني. لم تكن العضوية في القبيلة الأولى في بلاد فارس قد ضمنت له بالضرورة قيادة المتآمرين، حيث شاركه متآمر ثان، أحد النبلاء الأثرياء واسمه أوتانيس، الذي يبدو أيضًا أنه كان قد وضع عينه على العرش. علاوة على ذلك، ووفقًا لتقليد لاحق، كان أوتانيس هو أول من نظم المؤامرة-ودعى داريوس للانضمام فقط كفكرة لاحقة. لكن هذه الرواية لا تضيف شيئًا. بالنسبة إلى الوافد المتأخر المفترض، تم الاعتراف بداريوس على أنه محور المؤامرة بسرعة ملحوظة. يبدو أن مكانته، منذ البداية، كانت بارزة. مرتبطًا بالدم مع كورش، وقف أيضًا في قلب الشبكة التي ربطت المتآمرين

السبعة معًا. كان أحدهم وهو، غوبرياس، صهره وزوج أخته: علاقات الزواج ربطت بين الاثنين بصورة أكثر إحكاما. كان شقيق داريوس، ارتفارنس، وهو رجل ذو جرأة وذكاء نادر، أيضًا، على الرغم من أنه لم يكن أحد المتآمرين السبعة الرئيسيين، مستعدًا للمضي قدمًا في أي شيء يتم اقراره. وأكثر من مجرد إشارة إلى علاقة عائلية. أينما نظر المرء، يبدو يلوح داريوس الأفق باعتباره زعيما للمؤامرة.

لماذا إذن الإصرار على عدم مشاركته فيها منذ البداية؟ كيف كان يمكن أن يستفيد من هذا التشويه الظاهر للإطار الزمني؟ بصراحة، ما الذي كان سيضطر إلى التستر عليه؟ هناك إجابة واضحة ومصيرية تشير إلى نفسها-قتل الملك. في النهاية، من هو أفضل من حامل رمح الملك للتخطيط لقتل الملك؟ مثل هذا العمل الخادع كان سيعتبره حتى أعداء قمبيز عملا مستهجناً. بينما سيثبت داريوس نفسه قريبًا أنه جريء بقدر ما كان قاسياً. لم يكن أبدًا من يتباهى بجرائمه. نتيجة لذلك، فإن حقيقة كونه مذنبا أو غير ذاك قد ضاعت منا إلى الأبد[70]. ومع ذلك، إذا كان تورط داريوس في موت قمبيز، مضنوناً وليس مثبتاً، فإن دوره في تحفيز المؤامرة ضد برديا أمر مؤكد أكثر بكثير. عندما حث أوتانيس على اتباع مسار الحكمة، واقترح تجنيد المزيد من المتآمرين والسعي للحصول على مزيد من الوقت، جادل داريوس باتخاذ إجراء فوري. وأصر على أنهم يجب ألا يعتمدوا على قوة العدد، بل على السرعة والمفاجأة. فالتردد يعني خسارة ميزتهم. وكلما زادت جرأتهم، زادت فرص نجاحهم.

مع أخيه، ارتفارنس، وأغلبية السبعة الذين يدعمونه، شق داريوس طريقه. كانت حساباته دقيقة. وقد بدأت فرصة نادرة بالفعل تتاح الآن. مع اقتراب المتآمرين وركبهم، بعد قطع طريق خراسان السريع، من سفوح زاغروس، كانوا سيشعرون بحرارة الصيف الشديدة في السهول وقد بدأت في الانخفاض. كان الخريف في طريقه. وسرعان ما سينزل الملك من الجبال. وإذا تمكنت فرقة الاغتيال من نصب كمين له على أرض مفتوحة، في مكان ما على الطريق بين إيكباتانا ومعقل السلطة الملكية في بلاد فارس، فقد يتم التخلص منه بسهولة نسبية. كل المتآمرين كانوا متمرسين-لأنه لم يكن هناك نبيل فارسي لم يُترَب على

امتطاء السرج-سار المتآمرون السبعة وشركاؤهم بوتيرة سريعة، في محاولة يائسة لأن لا يفقدوا فرصتهم. وبحلول سبتمبر، وصلوا إلى حدود ميديا. أمامهم كان طريق خراسان السريع، الملتوي عبر الجبال حتى إيكباتانا. وكان بارديا نازلا منه، مقتربا منهم، في مكان ما.

كان من الممكن أن تأتي أخبار تقدمه بسهولة. كان الطريق دائمًا مزدحمًا. بدأ التجار، الذين استفادوا من توطيد السلطة الفارسية، في حشد الطريق السريع الكبير بأعداد متزايدة، وكذلك رجال الأعمال من المدن التجارية الغنية في الأراضي المنخفضة، يتحدثون بلغة بابل الغريبة، وهم يجرون حيواناتهم المحملة[71]. أولئك القادمون من إيكباتانا كانوا قادرين على طمأنة المتآمرين أن الملك قد غادر بالفعل عاصمته الصيفية، وأنه كان في حالة تحرك، وأنه لم يكن بعيدًا عنهم. بعدها، ومع اقتراب بارديا، صارت حركة المرور على الطريق اكثر تنوعًا، كان أتباع الملك ادلائه في المقدمة، بأزياءهم الفاخرة، ولحاهم وشعرهم المصفف بشكل متقن، كان تبخترهم كالطواويس ينبه المسافرين إلى اقتراب سيدهم، ملك بلاد فارس، ملك العالم.

ومع ذلك، وسط كل الصخب والابواق والألوان، بقيت آثار لنظام أقدم بكثير. بحلول أواخر أيلول (سبتمبر)، بينما كان المتآمرون يهرعون على طول الحافة الشمالية لنيسيا، أكثر وديان زاغروس خصوبة، كانوا قادرين على استهداف أكثر فجائية. بعيدًا عن الحاشية والقوافل على الطريق السريع، التي تغطي المراعي الغنية بالبرسيم، انتشر مشهد مألوف لأجيال لا حصر لها؛ في الواقع، تذكير بطرق أكثر بدائية من الميديين نفسها. الخيول، الخيول البيضاء، غطى السهل-ما يصل إلى 160.000 منها كما قيل. كانت هذه هي نفس السلالة التي دفعت تكريمًا للآشوريين قبل ما يقرب من قرنين من الزمن، "الأفضل والأكبر[72]" في العالم، لأنه حتى في ممالك الهند الرائعة-حيث، كما كان معروفًا، ينمو كل حيوان إلى حجم مذهل-لم يكن هناك أي شيء للمقارنة. كان الميديون ذات يوم بدوًا، وأصبحوا الآن رعايا لملكية أجنبية؛ لكنهم كانوا يركبون الخيل عبر سهل نيسيا، بجانب القطعان المتلألئة، كانوا يعرفون أنهم لازالوا متفوقين كمروضين للخيول. وكان ذلك عزاء رائعاً لهم في عبوديتهم: لأن الخيول البيضاء،

القوية والسريعة والجميلة، كانت تعتبر عند شعب زاغروس كائنات مقدسة مرتبطة بعلاقات سرية مع الإله والملك.

حتى الفرس الفاتحين اعترفوا بذلك. في باسارجادي، كان يُضحى بحصان من نيسيا أمام الضريح المبجل لكورش نفسه كل شهر. ربما كان هذا هو السبب في أن بارديا، الذي أنحرف عن طريق خراسان السريع وتوقف في نزوله نحو الأراضي المنخفضة، وتباطأ في وجود القطيع. سواء أكان سعياً لنيل الشرعية، أو أنها كانت علامة من السماء، أو ربما مجرد قراءة للأحلام السيئة، فقد كان سيجد في نيسيا خبراء جاهزين في متناول اليد. المجوس، المفسرون لكل ما هو غامض، كانوا حراس الخيول المقدسة أيضًا. هل استدعى بارديا أسياد الطقوس هؤلاء وسألهم عما قد يحمله مستقبله؟ ربما. ما هو مؤكد، مع ذلك، هو أنه في 29 سبتمبر سنة 522 قبل الميلاد، كان في نيسيا رجل يطلق على نفسه بارديا ، وكان في حصن اسمه سيكيفاوتيش-وأنه هناك حيث تعقبه داريوس أخيرًا.

ما حدث بعد ذلك سيعيد سرده كل من ينحدر نسبهم من قادة فرقة الاغتيال السبعة. حصلت العديد من الروايات على مر السنين. واتفق الجميع، مع ذلك، على أن بارديا فوجئ بالكامل. يبدو أن المتآمرين وأتباعهم، صعدوا ببرود إلى بوابات القلعة، وأعلنوا بجرأة أنهم جاءوا لمقابلة الملك. سارع الحراس، الذين تجاوزتهم رتبة الوافدين الجدد، إلى السماح لهم بالدخول. فقط الى الفناء، وعندما اقتربوا من المقر الملكي، كان الاوان قد فات ليفكر أي شخص في ايقافهم. القتلة، الذين تغلبوا على رجال الحاشية في طريقهم، اقتحموا غرفة بارديا. ويقال إن الملك الذي كان مع احدى محضياته. سعى يائسًا لدرء مهاجميه بساق كرسي مكسور، لكن دون جدوى. ويقال أيضًا أن شقيق داريوس، "المخلص ارتفارنس"، هو الذي قام أخيرًا بدس الخنجر في هدفه[73].

وسقط بارديا إبن كورش ملك الفرس ميتاً على الارض.

رؤية مزدوجة

فهل فعل ذلك؟ ما إن أكمل القتلة عملهم الدموي حتى كانوا يروجون لقصة مختلفة تمامًا. ربما لم تكن جثة الرجل المقتول قد عُرضت على الملأ ،

ولكن تم الكشف الآن عن قدر كبير آخر، يثير دهشة العالم. كانت القصة التي رواها المتآمرون مذهلة. زعموا أن الرجل الذي قتلوه لم يكن برديا ، ابن كورش على الإطلاق. لقد مات برديا بالفعل منذ فترة طويلة. كان قمبيز، غيورًا ووحشيًا، وقد أمر بإعدامه قبل سنوات. ولولا فطنة داريوس ورفاقه الوطنيين، الذين عثروا على هذا السر، وشجاعتهم في الجرأة على كشفه، لما علم الشعب الفارسي أبدًا بالخدعة الشنيعة.

كل ذلك يطرح سؤالًا بديهيًا إلى حد ما. إذا لم يكن الرجل الذي تم اغتياله في سيكيفاوتيش هو ابن كورش-والملك الشرعي-فمن كان إذن؟ هنا تأخذ الاجتلاءات منعطفًا أكثر شراً. كان المحتال الذي تولى القيام بدور أمير من الدم الملكي مثيرًا للقلق بدرجة كافية، لكن لكونه لعبه لسنوات دون أن يشك به حتى افراد عائلته وأسرته فلا يمكن إلا أن يكون دليلاً على استحضاره الأرواح الأكثر سوادًا. وهو بالتأكيد، إذن، كان مجوسياً، تم تعليمه إتقان ما هو خارق للطبيعة. فمن هو المشتبه به الأكثر احتمالية؟ هل يمكن أن تكون مجرد مصادفة أن المحتال فوجئ في نيسيا، في سهل الخيول المقدسة، المعروفة باسم موطن المجوس؟ لم يكن الأمر كذلك-بالنسبة لشبيه برديا، أعلن المتآمرون على عجل، أنه كان بالفعل مجوسيا، "اسمه غوماتا[74]". ربما كان شريرًا مغمورًا ووضيع المولد، ومع ذلك فقد أثبت سحره جدواه، ومؤامرته الجريئة جدًا ، لدرجة أنه كاد أن يفوز بالإمبراطورية من خلال خداعه.

من شأن عمليات إعادة الرواية المثيرة أن تستنبط الآثار الكاملة لهذه الفضيحة وتزينها أكثر. فعلى الرغم من كل قوته، يبدو أن المجوسي قد نسي إخفاء أحد التفاصيل الهامة: أذناه، اللتان لارتكابه جرائم غير محددة، كان كورش قد قطعهما قبل فترة طويلة. وكانت ابنة أوتانيس المسماة فيديم، زوجة برديا التي لم تشك أبدًا في أنه ربما يكون قد قُتل واستُبدل بشخص آخر، تقوم بالتنظيف بقرب رأس زوجها ذات مساء أثناء نومه، واكتشفت الحقيقة المروعة. وعندما أخبرت والدها باكتشافها، كانت قد بدأت بذلك التسلسل الدرامي للأحداث الذي بلغت ذروته بقتل المحتال. هذه، على أي حال، كانت القصة التي

سيتم سردها بعد سنوات عبر الإمبراطورية. ولم يكن هناك أحد، بحلول ذلك الوقت، قد بقي ليختلف في الأمر.

حتى في ليلة الاغتيال، لو كان في نيسيا من قد يستفسر عن مصداقية المتآمرين، أو يشير إلى بعض الأمور غير المنطقية الصارخة، أو يسأل لماذا تم التخلص من جثة المحتال المفترض بهذه السرعة، لعرف أن الأفضل هو عدم التحدث بما يدور في رأسه. والدماء لازالت تُزال عن مباني سيكيفاوتيش، لم يكن هذا هو الوقت المناسب للانتقادات. لم يكن المتآمرون في مزاج يتسامح مع المعارضة. لا يمكن أن يكون التحذير الذي قدمه داريوس أكثر صرامة: "يا من ستصبح ملكًا فيما بعد، احم نفسك بقوة من الباطل؛ فالرجل الذي سيكون من أتباع الباطل، أنت من يعاقبه جيدًا[75]!" هنا، من استراتيجي سياسي بارز، تظهر براعة الخداع. لن يخدم هذا وضع القتلة فقط بل يضع من يتهمهم في موقف دفاعي. فالمتشككون سيوصمون بأنهم أعداء الحقيقة.

وهذا، بالنسبة لأي فارسي، كان مصيرًا مروعًا ومخيفًا. لقد كانت مقالة إيمانية لمواطني داريوس بأنهم كانوا أكثر الناس صدقاً في العالم. فقد تعلموا ثلاثة أشياء، كما يقال: "ركوب الخيل، وإطلاق القوس وقول الحقيقة[76]". بتهديد داريوس أولئك الذين قد يشككون في قصته عن جرائم المجوس، لم يكن فقط يدعم قصة متهالكة. بل كانت ادعاءاته أكثر ارتفاعًا. والفارسي فقط من يمكن أن يصنعها-لأن الفارسي وحده هو الذي يستطيع أن يفهم ما تعنيه الحقيقة حقًا. كان يعلم، كما لم يعرف الكثير من الناس الجهلة، أن الكون بدون الحقيقة سوف يتفكك ويضيع في الليل الأبدي. وأكثر من كونها مجرد فكرة، بل أكثر من كونها مثالاً، فقد شكلت بدلاً من ذلك نسيج الوجود ذاته.

لهذا السبب، في البداية، عندما استدعى أهورا مازدا، أعظم الآلهة، الوقت والخلق إلى الوجود، قام بتوليد أرتا، التي كانت الحقيقة، ليمنح النظام للكون. فبدون آرتا، كان سيفتقر إلى الشكل أو الجمال، والدورات العظيمة للوجود التي بدأها الرب مازدا لن تتمكن من جلب الحياة إلى العالم. ومع ذلك، فإن عمل الحقيقة لم يكتمل أبدًا. تمامًا كما كانت النار، عندما صعدت إلى السماوات، مصحوبة بدخان أسود، هكذا عرف الفرس أن أرتا كانت مظللة

بدروجا، الباطل. كانا نظامين -أحدهما الكمال، والآخر الباطل، وكل منهما صورة الآخر-كانا مشتبكين في صراع قديم قدم الزمن. إذن، ما الذي يجب أن يفعله البشر، سوى الوقوف إلى جانب أرتا ضد دروجا، الحق ضد الباطل، لئلا يتزعزع الكون ذاته وينهار؟ "البائس الذي ينسج الخداع يجلب الموت الى وطنه[77]": وهكذا كان قد أُعلن قديما. فكم سيكون الخطر المميت إذن، إذا استولى "البائس" بطريقة ما على عرش بلاده. ومن استخدام المجوس لصورة بارديا. وانتحال شخصية الملك الشرعي، يكونون قد سلموا دروجا صولجان العالم. اما داريوس ورفاقه، بالركوب إلى سيكيافوتيش، فقد أطاحوا بشرٍ أكثر تهديدًا من مجرد محتال. وبعيدًا عن قيامهم بانقلاب بغيض، لم ينخرطوا في شيء أقل من افتداء الكون.

والآن، مع الإطاحة العادلة بغوماتا والتخلص منه، ظل العرش الذي كان قد دنسه خاويًا. انتظرت شارة القوة الملكية-رداء وقوس ودرع-في سيكيفاوتيش المدعي الشرعي. ومع ذلك، من يكون هذا، وكيف سيتم التعرف عليه، بقي هذا، في مساء يوم الاغتيال، لغزا. نجت فقط الرواية المشوشة لما تبع ذلك. وقيل إن المتآمرين خرجوا ليلا إلى السهل المفتوح. عند نقطة متفق عليها، كبحوا جماح خيولهم وانتظروا بزوغ الفجر. وعندما ظهرت أشعة الشمس الأولى فوق خط الجبال الوعر إلى الشرق، كان حصان داريوس هو من صهل نحوهم محيياً. وفي الحال، نزل رفاقه عن سروجهم وخروا على ركبهم إجلالا. عندما ردد الإغريق هذه القصة، ادّعوا أنه تم الاتفاق بين المتآمرين على أن "من يصهل حصانه أولًا بعد الفجر سوف يتولى العرش[78]" واضافوا أن داريوس قد غشّ. قيل إن سائسه قد دس أصابعه داخل فرج احدى الأفراس مسبقًا، وبعدها، بينما تشرق الشمس، قربها من منخر حصان داريوس. لكن هذا كان هراءًا فظيعًا، ونموذجيا عن اليونانيين.وكيف يحبون تشويه شعائر الحقيقة المقدسة!

لأنه من الواضح، حتى من النسخة غير المرضية التي لدينا، أن اعتلاء داريوس للعرش قد تميز بطقوس قوية ورهيبة. اجتمع المتآمرون تحت برودة ليلة سبتمبر تلك ليس لأنهم أرادوا اكتشاف الملك القادم، ولكن لأنهم كانوا

يعرفون بالفعل. أوتانيس، الذي يمكن تصوره كمنافس داريوس الوحيد، انحنى بالفعل للأمر المحتوم وأبعد نفسه كمرشح للعرش: كان النبلاء الذين يركبون عبر سهل نيسيا يحتفلون بالأمر الواقع. وقد باركه صهيل الخيول البيضاء المقدسة، وبحلول فجر الجبل، أمكن لداريوس أن يعتبر نفسه أيضاً نصير أرتا. عندما أضاءت الأشعة الأولى السهل، بدأ نظام دروجا، المهدد وغير الواضح، في التلاشي قبل ضوء الشمس الساطع. "لذا هل سأقدر على الاعتراف بقوتك وقداستك، يا مازدا، عندما باليد التي تمسك فيها بأقدار الرجل الشرير والرجل الصالح، وبوهج نيرانك التي تكمن في قوتها الحقيقية، ستصلني قوة الفكر الصالح [79]". والآن، في فجر أواخر سبتمبر ذاك، وصلت قوة الفكر الصالح حقاً إلى نيسيا، لأن الكاذب مات، والرجل الصالح صار ملكًا.

أو هكذا كان من دواعي سرور داريوس أن يدّعي. ومع هذا، فإن التخيلات، التي رغم أنها سوف تغطي الدعاية له، لم تكن صوره الخاصة. فإن كان يشهد على تقديس أرتا بين جميع الآريين، فهو قد يعتمد أيضًا على تعاليم ثنائية أكثر صرامة. "المصير المزدوج للرجل الصالح والشرير": ليست كلمات داريوس بل كلمات أكثر الحالمين شهرة، زرادشت، نبي الآريين، الرجل الذي كشف لأول مرة لعالم مذهول أنه ساحة معركة في حرب لا هوادة فيها بين الخير والشر. هنا، في هذه الحرب، كان صراع الموت العظيم للأشياء-بالنسبة للنبي، استمرارًا لعقائده الجديدة، فقد كان يبشّر بأن دورات الكون لن تستمر في الدوران إلى الأبد، كما كان يُفترض دائمًا، بل تتحرك بدلاً من ذلك نحو نهاية عظيمة، قيامة عالمية، نهاية العالم التي تقضي فيها الحقيقة على كل الأكاذيب، وتؤسس على خرابها عهدًا أبديًا من السلام. سيترأس هذا الانتصار النهائي والحاسم رب الحياة والحكمة والنور، أهورا مازدا نفسه-ليس، كما كان يعتقد الإيرانيون الآخرون دائمًا، واحد من بين العديد من الآلهة، ولكن الأعلى، القدير، الوحيد غير المخلوق، الذي منه، مثل النار التي تنتقل من منارة إلى منارة، انطلق كل الخير: ستة انبثاقات عظيمة من نوره الأبدي، اميترا سبنتنا، مقدسة وخالدة[80]: كوكبة موسعة من الأرواح الطيبة: العالم بجماله الكثير، النباتات والحيوانات (وعلى وجه الخصوص، التي تقضي أيامها في افتراس

الحشرات، وحشود نتاج الجانب المظلم، والقنفذ)؛ والكلب الأمين والصالح. وأخيرًا، أشرف المخلوقات، الإنسان نفسه. "افتح أذنيك، إذن، لسماع الأخبار السارة-انظر إلى اللهب الساطع بفكر واضح الرؤية!" لقد أعلن النبي، محذرًا البشرية من القرار العظيم الذي يواجهها. "لديك الخيار فيما يتعلق بالعقيدة التي ستتبعها، كل شخص، شخصًا بشخصه، بهذه الحرية التي مُنحناها جميعًا في اختبار الحياة العظيم[81]." اختر خطأً فينفتح طريق الكذب والفوضى. اختر بشكل صحيح وستجد طريق النظام والطمأنينة والأمل.

هل كان داريوس المغتصب الأول يقدّر مدى ملاءمة دين السلام والعدالة العظيم لأهدافه؟ لن نعرف أبدًا على وجه اليقين. كان التاريخ المبكر لزرادشت ومذاهبه لغزًا حتى لأتباعه. أن النبي كان الطفل الوحيد الذي ضحك عند ولادته ولم يبكي. وأن رؤيته الأولى لأهورا مازدا كانت وهو في سن الثلاثين، عندما كان يخرج من النهر؛ وأنه قد تعرض أخيرًا، في السابعة والسبعين، لسكين القاتل: هذه القصاصات القليلة من سيرته الذاتية حفظها المتدينين. ولكن فيما يتعلق بالوقت الذي عاش فيه، وأين كان، هناك آراء متباينة بشدة: بعضها يؤرخ لزرادشت بفجر التاريخ، والبعض الآخر فقط في عهد الملك أستياجيس[82]. رأى البعض أنه نشأ في باكتريا، والبعض الآخر في السهوب. لكن ما اتفق عليه الجميع هو أنه لم يكن ميديًا ولا فارسيًا-وأن المعرفة بتعاليمه قد أتت أولاً إلى زاغروس من الشرق[83].

لكن ما مدى تأثيره؟ من المؤكد أن الإمبراطورية التي أسسها كورش لم تكن ثيوقراطية. لم تكن أبدًا، بأي معنى حقيقي، "زرادشتية" على الإطلاق. واستمر الفرس في عبادة آلهتهم القديمة، وتكريم الجبال والجداول المتدفقة، والتضحية بالخيول أمام قبور ملوكهم. ولكن إذا بقي البلاط الأخميني وثنياً في كثير من ممارساته، فإنه أيضًا، في وعيه المهيمن، لم يتخلص تمامًا من تعاليم زرادشت. كما هو الحال في ممالك إيران الشرقية، حيث كان لتوحيد النبي أقوى سيطرة عليه، وكذلك في الغرب أيضًا، كان أهورا مازدا يُعبد منذ فترة طويلة باعتباره الأسمى. بين الوثنية الأصلية للفرس وتعاليم زرادشت، يبدو أنه لم يكن هناك تنافس، بل تآزر، وانصهار. كان كلاهما تعبيرًا عن دافع ديني واحد، تطور

على مدى قرون، وكان لا يزال، فيما غزا الفرس العالم، في حالة تغير مستمر. على وجه الخصوص، بين المجوس، كانت هناك العديد من المراسلات بين المجوس، الذين كانوا لفترة طويلة أتباعًا للمعرفة الأكثر غموضا وقدسية، وكهنة لزرادشت. لم يكن من الواضح حتى أيُ نظامٍ أعلن لأول مرة الحرب الأبدية على الحشرات والزواحف، أو ارتدى الجلباب الأبيض لأول مرة كدليل على مكانته، أو أول من عرض جثث اتباعه لتلتهمها الطيور والكلاب (وهو مصير يُنظر إليه بين الفرس على أنه فظيع لدرجة أنه يُحتفظ به لمن يقتل الملك). وكذلك مع عبادة الرب الطيب، أهورا مازدا نفسه، كان التأثير يتغلغل منذ فترة طويلة في كلا الاتجاهين. بعيدًا عن فصل الميديين والفرس عن أبناء عمومتهم في الشرق، يبدو أن "المازدية" خدمتهم كمصدر للوحدة.

رباط كان يقدره كورش بالتأكيد. في محاولة لإضفاء الطابع الدرامي في هيمنته غير المسبوقة على مختلف الشعوب الإيرانية، تبنى بوعي عادات معينة من ملاذاتهم القديمة. في معقل قبيلته، في باسارجادي، بعيدًا جدا عن باكتريا أو سوغديانا، أمر ببناء ثلاثة مبانٍ جديدة مذهلة: حوامل نار مصنوعة من الحجر، وقممها مجوفة في أوعية عميقة وواسعة، يمكن فيها الاحتفاظ بالرماد الساخن مشتعلًا إلى الأبد[84]. كانت النار مقدسة منذ فترة طويلة عند جميع الإيرانيين. فليس من أحد سوى زرادشت نفسه، الذي كان علمهم أن لهيبها كان رمزا حقيقيا للخير والحق. وكانت الصلاة اليومية امام النار قد فرضت على أتباعه كواجب مقدس، وكان كورش، في سياق فتوحاته الشرقية، قد شهد بالتأكيد مشهد هذه العبادة بنفسه. ليس هناك شك في أنه من زرادشت استمد الفرس " قاعدة عدم حرق الجثث أو تدنيس النار بأي شكل من الأشكال". كما علق عالم ليدي، في أقرب إشارة إلى النبي من شخص غير آري، على نفس القدر[85]. حاملات النار التي بناها كورش، وألسنة اللهب التي تتصاعد منها إلى السماء الزرقاء الفارسية، كانت تعلن العقيدة الجديدة بشكل عالٍ وواضح- لكنها كانت ستفيد أيضا في بث درس مختلف تمامًا. لقد وقع كورش على الصورة المثالية لقوته. فما هي أفضل طريقة لتمثيل العظمة الملكية من ربطها بالنار؟ حتى أولئك الذين يجهلون عادات الإيرانيين قد يقدرون بسهولة مثل هذه

الفكرة. بعد فترة وجيزة، في جميع أنحاء الإمبراطورية، بدأت ملاذات مماثلة في الظهور، وكان المجوس يحرسون ألسنة لهبها، ولم تطفئ أبدًا إلا عند وفاة الملك الحاكم، لترمز الى كلا من أرتا وحكم الملك الفارسي.

والآن صار داريوس، ويداه ملطختان بالدم الملكي، يتحرك لجعل هذا التعارف بين النظامين، السماوي والفاني، أكثر وضوحًا. فيما لا يتوقف أبدًا عن الاعتراف، بإن كل شيء كان عليه، وكل ما حققه، هو في سبيل أهورا مازدا: "لقد جلب لي المساعدة، وكذلك فعلت الآلهة الأخرى أيضًا، لأنني لم أكن غير مؤمن، ولم أكن من أتباع الباطل، ولم أكن مخطئًا في أفعالي[86]". كان داريوس بالتأكيد يتحجج كثيرا. ولكن بصفته قاتلاً للملك ومغتصبًا، لم يكن أمامه سوى خيارات قليلة. نظرًا لضعف أحقيته بالعرش، لم يكن بإمكانه الاعتماد عليها لتبرير انقلابه. وكان لابد من إعداد شرعية أخرى-وبسرعة. ولهذا السبب، أكثر بكثير مما شعر كورش أو أبناؤه بالحاجة إلى فعل ذلك، أصر داريوس على دوره باعتباره الشخص الذي اختاره الإله.

ومع ذلك، من قد يكون هذا الاله بالتحديد، سواء أكان أهورا مازدا من مجمع آلهة أسلافه، أو الواحد الأسمى الذي أعلنه زرادشت، كان الملك الجديد راضياً عن ترك الأمر غير واضح. فللغموض فوائده. وفي النهاية، كان من الضروري أن يُظهر داريوس احترامه لتقاليد شعبه-وحدث أن وضعه في سهل نيسيا كان بمثابة المسرح المثالي. على بعد حوالي خمسة عشر ميلاً شمال سيكيفاوتيش، ترتفع عالياً ومن وسط سهل مستوٍ، تلوح في الأفق القمتان المزدوجتان لبيستون، "مكان الآلهة"، أكثر الجبال قداسة في سلسلة زاغروس بأكملها[87]. هنا، بالقرب من مكان كمينه الذي نصبه لبرديا، يمكن لداريوس أن يقدم القربان كما فعل الفرس والميديون دائمًا، في قدسية الهواء النقي والطلق. ومع ذلك، فإن القتل نفسه، والجودة الصارمة والملحمية لتنفيذه، وتشكيل القتلة، كان من شأنه أن يستحضر ارتباطات بأتباع زرادشت جاهزين تماما للدعاية المحتملة لداريوس. ستة، وفقًا لتعاليم النبي، هم اميشا سبينتاس، الخالدون الرحيمون الذين انطلقوا من اهورا مازدا -وستة كانوا شركاء داريوس في حربه ضد الباطل. إن تفكير الناس في هذه المصادفة-أو التماثل-لن يؤدي إلا

الفصل الثاني -بابل

سلّم إلى الجنة

بدون التراب، ما كانت لتكون هناك مدن أو ملوك عظماء. هكذا ادعى أهل بابل الذين عرفوا جيدًا أن حضارتهم قد صُنعت من الطين. بالعودة إلى البداية، عندما كانت الأرض كلها عبارة عن محيط، بنى الرب مردوخ، ملك الآلهة، طوفاً من القصب، وغطاه بالتراب، وخلطه بالماء ليشكّل وحلًا بدائيًا، ومن هذا بنى لنفسه منزلًا هو، إيساكيلا، أول مبنى في العالم. لا يزال من الممكن رؤيته بعد دهور، يقف في قلب بابل-لكنه لم يكن بحاجة إلى معبد لجعل البابليين يقدرون ما يمكن فعله بالأرض والمياه. كانوا يعرفون ذلك في اعماقهم. أعلن مردوخ، في أيام العالم الأولى، "سآخذ دمًا، وسأنحت الجسد، واكوّن الرجل الأول[89]." وبقدر ما قاله، فقد مزج التراب على النحو الواجب مع دم خصم مذبوح، وصنع البشرية من المركّب اللزج. هنا، عند الفعل البدائي لخلق الإنسان، تم تعيين نمط لكل العصور. المحاصيل في الحقل، والطوب في سور المدينة: ماذا يمكن أن يكون بدون الطين؟ محاطين بقتامة الجبل والصحراء، كان بإمكان البابليين أن ينظروا الى أرضهم، ويعرفون أنهم أكثر الناس حظًا، فهم لا ينعمون بنهر واحد بل نهرين عظيمين، وهذا دليل مذهل على نعمة الآلهة. خصوبة اراضيهم، وروعة مبانيهم الشاهقة، وسهولة مرور تجارهم إلى البحر؛ كلها هدايا من دجلة والفرات. ربما وصف الرحالة اليونانيون السهوب الطينية بأنها "بلاد ما بين النهرين" و "الأرض الواقعة بين الأنهار". لأنه لولا الماء لكانت ثروة بابل كلها ترابا جافا.

وكما كانت حقا، صُنفت المدينة على أنها جوهرة تاج ملك بلاد فارس، التي إن فقدها، فقد يفقد كل شيء-كما كان البابليون أنفسهم يدركون جيدًا. لم يفتقروا أبدًا إلى احترام الذات، فقد اعتادوا تمامًا على رؤية مدينتهم مرتكزاً للأحداث العظيمة. ولقرون، هزت طموحاتهم الشرق الأدنى. فمن بين كل أعداء الإمبراطورية الآشورية، كانت بابل الأكثر قسوة، وقادت مع الميديين الثورة التي

كان القابلة التي ولّدته. كان سيتضح أن رؤيته للإمبراطورية باعتبارها اندماجًا للنظام الكوني والأخلاقي والسياسي هي رؤية مثمرة بشكل مذهل: وحجر الأساس ليس فقط لحكمه الخاص ولكن لمفهوم النظام العالمي ذاته. الهيمنة التي أعلاها كورش، بعد أن تم الحفاظ عليها من الانحلال، أصبحت الآن، في الواقع، تتأسس مرة ثانية-والملكية العالمية، التي تم تأمينها من جديد، كان من المفترض أن تخلق سلامًا عالميًا.

لأنه، على الرغم من أن اغتصاب داريوس كان مزلزلاً، إلا أنه لم يكن أبدًا في نيته قلب العالم كله رأسًا على عقب. وعلى العكس تماما. الممالك القديمة في الشرق الأدنى، بعد آخر ساعة من تمردها، انتهى دور ملوكها الآن كلاعبين دوليين. ومع ذلك، كان داريوس، الرجل المسؤول عن طعنة الاجهاز عليهم، لا يزال ينغمس في أشباحهم. ورغم وحشية الفرس عند الحاجة، إلا أن الثورة العنيفة لم تكن مثالية لهم. والملك الجديد، حتى عندما يشرع في بناء نظامه الجديد، يقوم بتجهيزه وتزيينه بكسوة الماضي. بقي فرعون ملكا في مصر، وملك في بابل في بلاد ما بين النهرين. ومدعي كوريث لبيت أستياجيس في ميديا. كان داريوس كل هذه الأشياء وأكثر. "ملك الملوك[109]": كان هذا هو اللقب الأكثر تمجيدًا، ليس لأنه نظر إلى الممالك الأجنبية على أنها إقطاعياته-على الرغم من أنه فعل ذلك-بل بالأحرى لأنه كان يرضيه أن يمثل جوهر الملوكية. كل الممالك التي كانت موجودة في أي وقت كان يجب اعتبارها مكرسة في شخصه. كان الملك العظيم.

ولم يتبق أحد دون أن يتضاءل. حتى أقرانه السابقون، حتى أولئك الذين يمتلكون أشهر الأسماء وأكثرها تكريمًا في بلاد فارس، وحتى المتآمرين الستة الآخرين، تم تصنيفهم جميعًا على أنهم مجرد " بنداكا "-خدم للملك. لم يعد النبلاء، الذين أهلكتهم الحرب الأهلية، واخافتهم جيوش داريوس التي قوّتها المعارك، يتجرأون على مناقشة ادعاءات السلطة الملكية. داريوس نفسه، الذي لم يمض الأشهر الأولى من حكمه في بابل من أجل لا شيء، تحرك بسرعة لقيادة هذا الى وطنه. في سوزا ، عاصمة العيلاميين المهزومين، صدرت أوامر بهدم جزء كبير من البلدة القديمة وبناء مدينة ملكية جديدة هائلة، أعليت احتقارًا

من المؤكد أن الإسبرطيين قد استفادوا من موقع مدينتهم. وتركهم أحرارًا ليتمتعوا بالحرب الطبقية كان مدينًا بكل شيء تقريبًا للجغرافيا. فلاكاديمون، الاقليم الواقع في المناطق النائية من جنوب اليونان والذي كانت تسيطر عليها مدينتهم، كانت محاطا في كل مكان بحواجز طبيعية هائلة: من جهة الشرق والجنوب، البحر: من الشمال، التلال الموحشة الكئيبة؛ ومن الغرب، جبل تايجيتوس، وحشيًا وضخما، بقممه الخمس التي تشبه المخالب والتي تتخللها الثلوج حتى في حرارة الصيف. وخلف مثل هذه الحدود، مدينة قد تصل بسهولة إلى نقطة الخراب، لكنها تظل هادئة.

لكنها خلف هذه الحدود قد تتطور وتتحول بنفس القدر. كان الإسبرطيون، كالفرس، ملكية قبلية في الأصل، بدولة لها جذورها في الماضي البدوي القديم. كانت اسبرطة نفسها، على الرغم من اسمها الجليل، ليست أكثر من مجرد تجمع من أربع قرى، تأسست على ما كان في السابق موقعًا شبه بكر. من المؤكد أنها لا تدين بأي شيء لأسبرطة الأصلية، أسبرطة هيلين ومينيلوس. وعلى الرغم من أن قبر الزوجين كان يلوح في الأفق عبر سهل لاكاديمون ، بشكل مثير للإعجاب، فإن الضريح لم يشهد على الاستمرارية بل على العكس تمامًا: القطيعة الموجعة مع الماضي. أحاطت به روابي من الأنقاض المدفونة، وهي كل ما تبقى من قصر مهجور منذ فترة طويلة، ربما كان من سكنته هيلين مع مينيلوس نفسيهما؛ ومع هذا، في حوالي 1200 قبل الميلاد، تم نهبه وجميع المباني العظيمة الأخرى في لاكاديمون وأحرق حتى سُوّي بالأرض. لماذا، ومن فعل ذلك، سرعان ما حال النسيان بين معرفة من فعل ذلك ولماذا: كان الخراب شاملاً للغاية بحيث لم تُحفظ أي ذكرى. لقد مرت قرون. وتدريجيًا، ملأ الفراغ الذي خلفه انهيار مملكة مينيلوس الوافدون الجدد من الشمال، والقبائل المتجولة التي عُرفت لاحقًا باسم الدوريين، في تناقض مُتَبَاهٍ مع اليونانيين المهزومين[124]. ومع ذلك، كان الدوريون أيضًا يونانيين، وبعيدًا عن إغفال الماضي الذهبي لوطنهم المتبنى. في الواقع، سيقال عنهم إنه لم تكن هناك أمة أكثر منهم تكريسًا "لقصص عصر الأبطال، والبدايات القديمة للمدن، وأي شيء يتعلق بالأزمنة البعيدة[125]". بدأ المستوطنون، مفتونين بعراقة لاكاديمون

ملطخًا بالدماء ولكنه كان لا يزال على قيد الحياة، ليتهمهم بالتخلي عن ساحة المعركة، والمطالبة بالنصر لنفسه. عندما عارض الارغوسيين هذا بنبرات من السخط الشديد، كان مواطنو اسبرطة هناك لدعم بطلهم: ولاقوا العدو في اليوم التالي بكامل قوتهم الغازية، وحققوا انتصارًا ساحقًا. تم ضم مناطق حيوية استراتيجيًا من حدود الارغوسيين بشكل دائم إلى لاكاديمون، وقام الارغوسيين أنفسهم، بحلق رؤوسهم علامة على خضوعهم، وظلوا عاجزين لجيل كامل. حتى عندما كانت المقصات تعمل في أرغوس، كان الأسبرطيون يأخذون على عهداً معاكسًا تمامًا: سوف يطيلون شعورهم إلى الأبد، ويضعون جدائل مزينة، التي كالعباءات الحمراء، ستكون دليلاً على هويتهم.

كانوا في خضم احتفالاتهم، عندما وصلت الأخبار عن سقوط كرويسيوس الى أسبرطة. كان فشلهم في الالتزام بشروط تحالفهم مع ملك ليديا إهانة واضحة. والاسوء كان قادماً. كانت اسبرطة لا تزال غير راغبة في إرسال قوات إلى ما وراء بحر إيجه، وأرسلت بدلاً من ذلك سفارة صغيرة فقط، والتي اجتمعت على النحو الواجب مع كورش وتعرضت لتجريحه الشهير: "من هم الأسبرطيون؟" من المؤكد أنه لم يكن لدى الفرس أي سبب للاهتمام. كان الدرس مثيراً للانتباه. فعلى الرغم من أن اسبرطة ظهرت كعملاق لليونانيين، إلا أنها بالكاد تُعرف في آسيا كاسم، ولا تزال أقل قوة. لماذا هي كذلك؟ مقارنة بالمقياس الخيالي لسيادة كورش، لم تكن كل جزر البيلوبونيز سوى نقطة صغيرة.

ولكن سيأتي الوقت الذي يرد فيه الأسبرطيون سخرية الفرس ويقذفوها في أسنانهم. "من هم الاسبرطيون؟" هذا السؤال، الذي يُطرح بازدراء، يمكن أن يُطرح في خوف أيضًا. محصنين وراء حدودهم الجبلية، مكتفين ذاتيًا، معادون للأجانب ومرتابون، كان الأسبرطيون يأخذون ولا يعطون أبدًا، تجسسوا لكن لم ينكشفوا. وحدهم من بين شعب اليونان، لم يحاولوا التمييز بين اليونانيين وغير اليونانيين، وكانوا يستنكرون جميع غير الإسبرطيين ويعتبرونهم "أجانب"، ويطردونهم بشكل دوري من مدينتهم. بالنسبة لجيرانهم، على أي حال، كان أسياد الذئاب في لاكاديمون مصدرًا للفتنة الساحرة والخوف. كان

اللغز الذي طرحوه على جيرانهم، مثل سؤال كورش، لم يجد إجابات جاهزة. الحقيقة كانت محجوبة بالخيال والواقع بالسراب. مدركين على الدوام قيمة الرعب، عرف الأسبرطيون تمامًا أنه سيقلل من قيمتهم إذا انتزعت الجسارة من غموضهم. لأن في غموضهم تكمن رهبتهم.

عبيد القانون

عند سفح الجرف الذي كان ينتصب عليه ضريح هيلين تدفقت التيارات السريعة والموحلة لنهر يوروتاس. باتباع مجرى النهر المتعرج برفق باتجاه الشمال، سيرى المسافر قريبًا، على الضفة البعيدة، ما بدا وكأنه تجمع من القرى المتناثرة. هناك القليل في المظهر الإقليمي لأسبرطة للتلميح بالرهبة التي كان يُنظر بها إلى مواطنيها. "لنفترض"، كما قال الأثيني ثوسيديديس ذات يوم، "أن المدينة هُجِرت، ولم يبق منها سوى معابدها وتخطيط مبانيها-بالتأكيد، مع مرور الوقت، ستجد الأجيال القادمة صعوبة متزايدة في تصديق أن الناس الذين عاشوا هناك كانوا أقوياء على الإطلاق[143]".

كان هذا مصدرا لبعض القلق عند الأسبرطيين أنفسهم. إن شعبًا تقوّى على فضائل ضبط النفس والثبات لا يمكنه إلا أن يحتقر العمارة الفخمة. دع جبناء الدول الأخرى يرفعون أسوارًا حول مدنهم. لم يكن الأسبرطيون بحاجة إلى البناء عندما كانت لديهم رماحهم ودروعهم المصقولة. لماذا نبني نصباً تذكارية من الرخام الباهت بينما كانت العلامة الصادقة عن الرجل هي أن يعيش حياته كما لو كان في ثكنة عسكرية؟ المعابد فحسب-كتطفل للروحي والغريب داخل خواء المدينة الشبيهة بالثكنات-ارتفعت بشكل مميز فوق المسار المشترك للمباني. وعلى هذه، على الأقل، أمكن للأسبرطيين أن يسخوا بالثروات التي نهبوها. في الضريح الكبير على الأكروبوليس، وهو تل منخفض كان بمثابة قلعة في المدينة، كان الجزء الداخلي بأكمله مكسوًا بألواح مستطيلة من البرونز الصلب. في معبد آخر، إلى الشمال مباشرة من اسبرطة، انتصب تمثالٍ لأبولو، الإله رامِي السِّهام، مغلفًا بالذهب النقي.

ومع ذلك، فإن أكثر المعابد زيارة في لاكاديمون هو الضريح المخصص لأخت أبولو، الصيادة العذراء أرتميس، "سيدة الوحوش البرية[144]". بالاستمرار

شمالًا على طول نهر يورتاس مرورًا بوسط المدينة، سرعان ما يمر المسافر خارج مناطق التمرين المفتوحة إلى غور مستنقعي، حيث الصنم الأسود والقديم للإلهة. قام الأسبرطيون، في أول تدفق لهيمنتهم على بقية البيلوبونيز، في حوالي 560 قبل الميلاد، ببناء معبد رائع من الحجر كله. ومع ذلك، وعلى الرغم من بريق البناء الجديد، احتفظ الموقع بجو من التهديد. لم يكن الأمر مجرد وجود الضفادع التي واصلت النقيق بين الاعشاب المائية المحيطة به، ولا أن ضباب المستنقعات قد يرتفع أحيانًا كالأشباح من النهر: بل كان المعبد نفسه مكانًا يثير القشعريرة في الجسد. لم تكن كل تجهيزاته حديثة. ومعلقة على الأعمال الحجرية الجديدة كانت الزخارف المحفوظة من ضريح أقدم بكثير، ووجوه من الطين، بعضها صور مثالية لشباب بلا لحى أو جنود شائبون، لكن البعض الآخر كان لمسوخ بشعة ومشوهة، نظراتها كريهة، وأفواهها مفتوحة على اتساعها في صرخات حيوانية من الوحشية أو الألم[145]. كانت هذه أشياء من كوابيس الاسبرطيين: نادرًا هو المواطن الذي لم تكن هذه الصور تطارده، لأن معبد أرتميس، منذ طفولته وحتى شيخوخته، كان المكان الذي يأتي إليه ليحدد مواقع تنظيم حياته. كانت الأقنعة حاضرة دائمًا، عيونها فارغة ولكنها تراقبه. وجوه الأبطال كي تلهمه؛ وتكشيرات البلهاء، صوراً لغرغونات، صورا لساحرات شمطاوات مشوهات وهتماوات، لتذكره ببشاعة الفشل. فأن تفشل يعني أن تكون منبوذًا: ضائعًا خارج حدود المدينة، حيث لا يوجد سوى المخزي، والمشوه والبهيمي. كان على جميع الأسبرطيين أن يتعايشوا مع مضامين هذه الحقيقة. وكان على الجميع أن يعيشوا وفقًا للشيفرة الصارمة التي تصيغها.

كمواطنين كان يتم تعقبهم في كل مكان، ومراقبتهم. وكل جيل، كان كالسجان، يراقب الجيل الذي يليه. الاسبرطيون، الذين عرفوا معنى الإعجاب بـ "جوقات الأولاد والبنات والرقص والاحتفال[146]،" مع ذلك لم يثقوا في وفرة الشباب. كان ليكورغوس، والذئب المنفرد الذي كان عليه، يخشى الى أين يمكن أن تؤدي طاقات الأشبال غير المضبوطة. وبالسوط وحده، كان قد علّم أبناء وطنه، أنه من الممكن ترويض صغار الحيوانات المفترسة بشكل كافٍ. كما عرف الأسبرطيون جيدًا من المثال القاتم لتاريخهم المبكر، فإن وحشية الغرائز

والدوافع التي خلعت اللجام قد تمزق الدولة بسهولة شديدة. وبعد أن مروا بفترة من الثورة، لم تكن لديهم رغبة في تحمل أخرى. وليس من الممكن إعطاء فسحة للقلق الطبيعي وشهوات الشباب. بل الانضباط فحسب، الانضباط الصارم، هو ما يمكن أن يعمل على كبحهم. إن كانت هناك تغييرات لابد منها في اسبرطة، سواء أكان ذلك بسبب عُرفٍ يُخفق أو قانون كان قد حل يومه، فعندئذ يجب على كبار السن أن يتناقشوا ويمرروا الإصلاح المطلوب[147]. ولماذا ينبغي قبول أي إجراء خلاف ذلك؟ ففي النهاية، كان شيوخ اسبرطة دليلًا حيًا على ما يمكن أن تحققه التقاليد: وأنها قادرة على صياغة عرق متفوق من الأبطال.

لذا كان يُشاد باسبرطة على نطاق واسع، رغم سمعتها المخيفة، باعتبارها موطن الأخلاق المثالية. فهنا فقط، من بين جميع المدن في اليونان، كان الشاب يتنحى بشكل معتاد كي يُفسح الطريق لمن يكبرونه؛ لأنه كان، بمثل هذا الاحترام، يكرّم في نفس الوقت قوانين وعادات شعبه. وصلت هذه الفكرة الى أقصى حد لدرجة أن الاسبرطيين الفزعين من فكرة المراهق غير القادر على النهوض في حضور من هم أكبر منه، استاءوا من وجود المراحيض العامة. قد تكون "رماح الرجال الشباب" كانت تلوح في المدينة، لكن لم يكن هناك شك في أن "كبار السن هم من كانوا يملكون السلطة هناك[148]". حتى رئيسا الدولة الفخريين-لأن الأسبرطيين، المتميزين في كل شيء، لم يكن لديهم ملك واحد بل ملكان-كانا مضطرين إلى احترام سلطتهم. وإذا تصرفوا بقوة خلاف ما كان دستوريًا، فسرعان ما سيجدان نفسهما مدانين من المحكمة العليا في مدينتهم، وهي هيئة تشريعية، بصرف النظر عن الملكين أنفسهم، تتكون بالكامل من كبار السن الذين تزيد أعمارهم عن الستين. أطلق الأسبرطيون على هذا الجسد المخيف اسم جيروسيا-وهو اسم، مثل مجلس الشيوخ الروماني، له المعنى الحرفي لمجلس الشيوخ. ونظرًا لأنه، بصرف النظر عن دوره كوصي على الدستور، كان له أيضًا الحق في رفض جميع الاقتراحات المعروضة عليه، وتقديم ثمار مداولاته على أنها أمر واقع فعلي، وهكذا مارست الجيروسيا بسهولة قبضتها الخانقة على السياسة في اسبرطة. لم يكن الانتخاب لها الشرف

الأعلى الذي يمكن أن يحصل عليه المواطن فحسب، بل كان شرفاً مدى الحياة. "لا عجب أن هذا، من بين جميع الجوائز البشرية، والتنافس الأكثر حماسة." حتى غير الإسبرطيين قد يعترفون بنفس القدر: "نعم، المسابقات الرياضية شريفة أيضًا، لكنها مجرد اختبارات للبراعة الجسدية. إن الانتخاب لعضوية جيروسيا هو الدليل القاطع على الروح النبيلة[149]".

لم يكن هناك ركن في اسبرطة، او زاوية مظلمة، ولا تلج الأصابع النحيلة هناك. حتى الطفل المولود حديثًا كان يتعرض لجس كبار السن. وإن حكم على الرضيع بأنه مريض جدًا أو مشوه كي يتمكن من تقديم مساهمة مستقبلية للمدينة، فإن كبار السن يأمرون بإنهاء حياته على الفور. ونظرًا لأن الاستثمار المطلوب من الدولة لتربية المواطن كان كبيرًا، فقد اعتبر معظم الاسبرطيين هذا الأمر مناسبًا وحسب. في الواقع، قد تلعب الأم دور اختصاصية تحسين النسل بنفسها، حيث تغسل طفلها بالنبيذ، والذي كان، كما يعلم الجميع، أضمن اختبار للصرع. من هو الأب الاسبرطي الحقيقي، في نهاية المطاف، الذي يرغب في تربية ابن قد ينهار فجأة في نوبة صرع؟ الفجيعة المبكرة أفضل من خطر مثل هذا العار. كان جرفٌ بجانب الطريق يمتد عبر الجبال إلى ميسينيا، يسمى أبوثيتا، أو "أرض المكبّ"، هو المكان المناسب لقتل الأطفال. هناك، حيث لا يعودوا يُخجلون المدينة التي ولدتهم، يُلقى الضعفاء والمشوهين في أعماق الهوة، المحكوم عليهم إلى الأبد بالضياع في غياهب النسيان. لم يكن هذا تخليًا، كما كانت تمارسه الشعوب الأخرى تقليديًا، بل كان طقسًا للإعدام مقيتًا ورسميًا. لم يكن هناك أمل في الخلاص-مثلما قيل إنه أنقذ الرضيع كورش –أمام الطفل الاسبرطي غير المرغوب فيه. وكان عليه أن يموت، وأن يُرى موته، مشجعًا للآخرين.

وبلا شك، بالنسبة لمن سُمح لهم بالعيش، لا بد أن مشهد العظام الصغيرة التي تناثرت في أعماق أبوثيتا عمل على تركيز العقل بشكل رائع. لم يستطع الأطفال الاسبرطيون إلا أن يكبروا بفخر وهم يحسون بأنفسهم من النخبة، تم اختيارهم على هذا النحو عند الولادة؛ ومع ذلك، فرضت الدولة، مقابل رعايتها، التزامات صارمة ومخيفة. كما قيل، أن ليكورغوس بدلاً من

تقديمه برنامجه الإصلاحي كتابة. قد فضل نقشه على شخصيات وأجساد أولئك الذين سيعيشون وفقًا له، حتى يتمكنوا من خدمة بعضهم البعض كدساتير سائرة. كانت عملية الهندسة الاجتماعية هذه قابلة للتطبيق، طبعا، إذا بدأت في المهد فقط. كان يجب تقوية الأطفال، الناعمين والعاجزين، وتشكيلهم في أسبرطة. لا قماط لهم. لا ملاطفة للأطفال الصغار. ولا ارضاء لرغباتهم. "عندما يقدم لهم الطعام، عليهم أن يأكلوه، وليس عليهم الاختيار او الامتعاض؛ مخاوف الليل والتشبث بالوالدين يجب أن تقمع بقوة؛ ونوبات الغضب والنحيب أيضًا[150] ". ومما لا يثير الدهشة، أن المربيات الاسبرطيات كن موضع إعجاب على نطاق واسع لنهجهن النشيط الذي لا يسمح بالتوافه. ومع ذلك، ورغم صرامتهن، فقد وضعتهن في الظل هيئة المعلمين في المدينة. كان لهذه دور لم يسبق له مثيل في أي مكان آخر في اليونان، أو في الواقع خارجها. كانت لأسبرطة، في حرصها على تشكيل المواطن المثالي، قد طورت فكرة غريبة وجذرية حقًا: أول نظام تعليمي شامل تديره الدولة.

كما كان يهتم بالفتيات!. إذا كان الأولاد الصغار، كما يبدو محتملاً، أكثر عرضة للحكم عليهم في أبوثيتا من أخواتهم، فهذا لايعني ان الاسبرطيين كانوا غير مهتمين بقوة رصيدهم من الإناث. وكانت الأمهات العفيات يجهّزن ليمنحن سلالة محاربة سليمة، تمامًا كما يتم تدريب الأولاد على الحرب، كان لابد من تربية الفتيات من أجل مستقبلهن كولودات. وكانت النتيجة-بالنسبة للعيون الأجنبية، على أي حال-انعكاسًا لكل معيار مقبول تقريبًا. في اسبرطة، كانت الفتيات يُطعمن على حساب إخوانهن. ولذهول اليونانيين الآخرين، فقد تعلمن أيضًا القراءة والتعبير عن أنفسهن ليس بشكل متواضع، كما كان الحال بالنسبة للنساء، بل بطريقة جافة وعدوانية، حتى يستطعن تعليم أطفالهن بشكل أفضل ما يعنيه أن يكون المرء اسبرطياً. كُن يتمرنّ في الأماكن العامة: على الركض، ورمي الرمح، وحتى المصارعة. وعندما يرقصن، كنّ يفعلن ذلك بتفانٍ لدرجة أنهن قد يصفعن كعوبهن على الجلد العاري لأردافهن. نعم-وهنا ستصل درجة عدم تصديق الأجانب تقليديًا الى الذروة -كانت عادة الفتيات الاسبرطيات، أثناء تدريبهن، أن يلبسن فقط أرق الثياب، القصيرة التي تكشف

الفخذين بشكل واضح. وفي بعض الأحيان-يا لرعب الرعب! -كُن يُسلين أنفسهن عاريات.

تلامعت رؤى الجسد الأنثوي، المضمخ بالزيت والمسمر، في تخيلات العديد من مراقبي اسبرطة. كان الأسبرطيين أنفسهم، الحساسين للسخرية التي وصفت بناتهم بـ"عاريات الأفخاذ[151]" يجيبون بصرامة "أنه لا يوجد شيء مخجل في عري الأنثى، ولا شيء غير أخلاقي على الإطلاق." وفي الواقع، "نظرًا لأنه يشجع على الشعور بالرصانة والشغف باللياقة البدنية[152]،" فهو بالضبط عكس ذلك تماماً. ومع هذا، وبرغم من أن متطلبات برنامج اسبرطة لتحسين النسل كانت هي الأسمى بلا شك، إلا أن هالة الإيروتيكية ظلت عالقة بملاعب التدريب. قد يجادل الاسبرطي أن أفضل مقياس لخصوبة الأم المستقبلية هو نضارة بشرتها وكمال ثدييها. وكان الجمال الجسدي-الشعر الأشقر الطويل والكاحلين الأنيقين اللذين تتميز بهما الفتيات الاسبرطيات-أفضل مقياس يمكن من خلاله الحكم على الجمال الأخلاقي أيضًا. كانت الابنة القبيحة تسبب لوالديها القلق والضيق حتمًا. وقد يتعين اتخاذ تدابير يائسة. كانت طفلة غير جميلة بشكل صادم، كما يقال، وكانت مربيتها، وهي كالمتعلقة بقشة، قد أخذتها أخيرًا إلى قبر هيلين. هناك، خارج الضريح، ظهرت امرأة غامضة ومشّطت شعر الفتاة الصغيرة. فالطفلة، كما تنبأت المرأة، "ستكبر وتصبح أجمل امرأة في لاكاديمون.[153]" وهكذا حدث: أصبحت الفتاة مشهورة بجمالها وانتهى بها الأمر زوجة لملك اسبرطي. من الواضح أن روح هيلين ما زالت تجوب في بعض الأحيان في موطنها الأصلي.

كشفت مثل هذه القصة حقيقة مهمة حول طبيعة العقل الاسبرطي. على الرغم من أن فكرة الليكورغوسية المثالية كانت المساواة، إلا أنها لم تعزز أي مفاهيم للمساواة. إن الشعور بالمنافسة المحمومة الذي جعل النساء يرغبن في التفوق على نظيراتهن في الجمال كان يقض مضجع جميع من في المدينة. "ما هو أفضل أنواع الحكم؟" سئل الملك الاسبرطي ذات مرة. وكانت إجابته بلا تردد: "الذي يستطيع فيه أكبر عدد من المواطنين بذل الجهد مع بعضهم البعض في نزاهة، دون تهديد الدولة بالفوضى[154]". وكان هذا السبب في أن نظام

التعليم، في ما يبدو تناقضا، عمل على حد سواء في تطبيق قالب واحد على الذين يمرون به، والتعجيل بتحديد نخبة. كان واضحًا في تربية الفتيات، وكان الأمر أكثر وضوحًا في تدريب إخوانهن. والاسبرطي الذي يذعن له بشكل أفضل هو الاسبرطي الأكثر تفوقًا.

لأنه لم يكن هدف المدربين مجرد سحق شخصية الصبي، بل دفعه إلى أقصى درجات التحمل والانضباط واللامبالاة، حتى يثبت نفسه، بشكل كبير، كأنه قُدّ من حديد. في سن السابعة، عندما يغادر الصبي الاسبرطي منزله ليعيش بشكل جماعي مع الأولاد الآخرين، يكون ماهو أكثر من إحساسه بالعائلة ما يكسر و يُعاد تشكيله: وهو مفهوم امتلاك هوية خاصة. فمنذ تلك اللحظة وصاعداً، سيكون تحت الاعتداء المستمر. أطلق الاسبرطيون على تدريبهم اسم التأهيل البدني " agoge "، وهي كلمة يتم تطبيقها بشكل أكثر تقليدية على تربية الماشية. كان المشرف يسمى " paidonomos "-وتعني حرفياً، "راعي الأولاد". وبحرمان الاسبرطي الشاب من الحصص الغذائية الكافية، يتم تشجيعه على البحث عن الطعام في مزارع لاكاديمون المجاورة، وتقفي الاثر والسرقة مثل ثعلب، وصقل موهبته في التخفي[155]. وسواء في حر الصيف أو في برد الشتاء، كان يرتدي زيًا واحدًا، مطابقًا لذلك الذي يرتديه زملاؤه، ولا شيء آخر، ولا حتى الأحذية. ستوضع قيود صارمة على حديثه، لتعزيز أسلوب الكلام المقتضب المعروف في جميع أنحاء اليونان باسم "لاكوني". ومع ذلك، حتى عندما يخضع الشاب الاسبرطي لهذه الانضباطات الشرسة والموحدة، يبقى متعرضا بشكل مستمر للتقييم والمقارنة والتصنيف: " يحفَز الفتيان دائماً أثناء التمرن على المصارعة والتنافس مع بعضهم البعض، حتى يتمكن كبار السن من الحكم بشكل أفضل على شخصياتهم وشجاعتهم ومدى جودة أدائهم عندما يحين الوقت، أخيرًا، ليأخذوا مكانهم في صفوف المعركة[156] ". حتى الفتيات قد يدخلن في هذا الفعل: يُؤمر الأولاد بشكل روتيني بالتجرد من ملابسهم أمامهن، ليتعرضوا إما للمدح أو الضحك الساخر. لم يكن لدى الاسبرطي الحقيقي أي شيء يخفيه أبداً.

كان الدرس الأكثر إثارة للقلق بالنسبة للصبي عندما يصبح، في سن الثانية عشرة، معدا قانونيا للتجوال. كان اللواط يمارس على نطاق واسع في أماكن أخرى في اليونان، ولكن في اسبرطة فقط تم إضفاء الطابع المؤسسي عليه-حتى انه، كما يقال، فرضت غرامات على الأولاد الذين رفضوا اتخاذ اخلاء. والفتيات أيضًا، كما تردد الشائعات، إن لم يكن متزوجات، كان متوقعاً أن يلاط بهن مرارًا وتكرارًا خلال فترة المراهقة[157]. وفي كلتا الحالتين، كان المنطق هو نفسه بالتأكيد: لم يكن هناك مكان خاص جدا، حميمي جدا، ولايكون للدولة الحق في التدخل فيه. ومع ذلك، وعلى الرغم من أن تجربة الخضوع كانت مؤلمة بالنسبة لمعظم شباب اسبرطة، إلا أنه كانت هناك، بالنسبة للأولاد على الأقل، بعض التعويضات المهمة. لم يكن من المقبول فقط أن يخدم المحب صديقه الصغير كراعٍ؛ بل كان هذا متوقعاً بصورة أكيدة. كلما كان المواطن الأكثر شرفاً، كلما كان تواصله أفضل، كان بإمكانه تعزيز مسيرة صاحبه بشكل أكثر فعالية. سوف تدفع النخبة النخبة الى الامام: لذا كان ذلك الصبي، الذي يخضع للاعتداء الليلي من رجل أكبر منه سنًا ويعاني من ندوب المعركة، يجد المنابع السرية لقوة اسبرطة مفتوحة أمامه.

بالتأكيد، بحلول الوقت الذي يُنهى فيه التدريب البدني، سيعرف الشاب على وجه اليقين ما إذا كان قد تم تمييزه كي ينال العظمة في المستقبل. يُمنح أكثر الخريجين الواعدين شرف تحدٍ دموي نهائي. ويُضمون الى الفرقة المتفوقة المعروفة باسم كريبتيا، ثم يرسلون إلى الجبال، مسلحين فقط بخنجر واحد لكل منهم، ويأمرون بالعيش على ما تجود لهم به الأرض. ومع ذلك، كانت فترة النفي عن مدينتهم أكثر بكثير من مجرد اختبار للقدرة على التحمل.
مسافراً بمفرده، كان كل عضو في كريبتيا سيعبر حتمًا نطاق تايجيتوس ويتسلل إلى ميسينيا. هناك، يتقدم بلا صوت في الليل، كما تم تدريب كل خريج من خريجي التأهيل البدني على القيام بذلك، ويكون متوقعا منهم أن يثبتوا أنهم قتلة. قيل انه، من بين جميع الرجال، كان الأسبرطيين فقط من أنكروا أن القتل كان بالضرورة جريمة؛ لأنه كان، في رأيهم، شرعيًا تمامًا إعدام عبيدهم. وخشية أن يتم استفزاز الآلهة ضدهم، مع ذلك، كان الإسبرطيين يعلنون كل عام حالة

حرب ضد الهيلوتيين، وهي مناورة نموذجية من الحذر القاتل، محسوبة لتجنيب كريبتيا أي خطر لتلوث الدماء[158]. وإلا كيف، في نهاية الامر، باستثناء التقليم الدقيق للميسينيين الأكثر قدرة، يمكن أن يأمل الاسبرطيون في تربية أقنان طبيعيين؟ تمامًا كما تخلصوا في أبوثيتا من حثالة مدينتهم، كذلك كانوا يهدفون إلى إطفاء أي شرارة للموهبة أو التمرد في عبيدهم. والخانعين حقًا فقط من يمكن أن يُسمح لهم بالتزاوج. سيتم تغريم السادة الأفراد الذين يفشلون في السيطرة على زيادة عبيدهم وكبح قدراتهم. يعرض الأمر على كبار السن. وبعدها، تُبلّغ كريبتيا بالمعلومات سرا وتتسلل لتبدأ أعمالها.

على الرغم من أنه يكون قاتلًا، فإن الشاب الاسبرطي الذي يدس خنجره في حلق رجل مسيني مدان كان يؤدي شيئًا أكثر من مجرد الإعدام: لقد كانت تقريبًا طقوس بدء، عمل سحري. وهو يشعر بشفرة نصله تدخل عميقا، يكون محظوظًا بأن يعرف انه يتعاون مع أعمق ألغاز دولته. لا يمكن لأسبرطي أن يقود شعبه ويكون قد امتنع عن القتل بدم بارد. كان كبار السن الذين منحوا كريبتيا تفويضهم يضعون أعضاءها في نفس الوقت تحت الاختبار. بمجرد أن يشتم بنفسه رائحة الكراهية عند الميسيني المطارد، ويراها في عينيه، يمكن للاسبرطي أن يقدّر حقًا المدى الكامل للخطر الذي تتعرض له مدينته. وبمجرد أن يقتل، يمكن أن يقدّر حقًا ما هو مطلوب لإبقاء ذلك الخطر بعيدًا.

هذه، بالنسبة إلى الملتحق بكريبتيا، كانت المعرفة الخاصة التي يضعها مع قوته. لا يمكن أن يسمح بجهل ذلك عند أي اسبرطي، بطبيعة الحال-سواء أكان ذكرا أو أنثى. فقد قيل إن هيلين، وهي لا تزال طفلة صغيرة، فوجئت وهي ترقص أمام معبد أرتميس، واغتصبت. كان الغزاة الميسينيين، قبل استعباد بلادهم، قد انتهكوا بالمثل مجموعة كاملة من الراقصين. وقد يفعلون ذلك مرة أخرى، إذا أتيحت لهم أقل فرصة. عرفت كل فتاة اسبرطية مصيرها إذا سقط السوط من يد مدينتها. ومع ذلك، تُرك لإخوتها اختبار هذا اليقين إلى حدود قدرتهم على التحمل. فكل مواطن، كجزء من تدريب طفولته، عرف ما يعنيه أن يعاني من ألم السوط. بملابسهم الخشنة المقطعة إلى شرائط، والندب على أكتافهم النازفة قد يبدو أطفال العرق السيد في لاكاديمون في بعض الأحيان،

بعد الطقوس التي تتطلب الجلد، أفضل قليلاً من العبيد الاحقر والاوضع شأناً. ومع ذلك فقد أثبتوا أنهم نقيض العبيد. فالسوط الذي يهين الهيلوتي كان يشَرف الصبي الاسبرطي. "المعاناة القصيرة تؤدي إلى فرحة الشهرة الدائمة[159]"، كما علم ليكورغوس شعبه. كان أولئك الذين تحملوا السياط بأقصى درجات الثبات هم الذين واصلوا، بلا شك، الانخراط في كريبتيا. وكان السيد هو الأكثر قدرة على تحمل مشاق العبد.

كانت الفكرة التي سيطرت على الاسبرطي طوال حياته البالغة. انه برغم تخرجه من التدريب البدني فهو لن يضطر أبدًا إلى تحمل إذلال الجلد، إلا أن حياته تستمر تحت وطأة القيود التي كان من الممكن أن يجدها أي مواطن في أي دولة يونانية أخرى عبئاً لا تطاق. لم يُسمح للاسبرطي بالتحكم في شؤونه المالية حتى يبلغ الثلاثين من العمر. وبدلاً من العيش مع زوجته، سيكون مضطرًا بدلاً من ذلك إلى التسلل من ثكنته من أجل جماع الحيوانات السريع. قد يحمل ندوب المعركة، لكن الشاب الذي يتشاجر مع شخص آخر سيتوقع أن يعامله شيوخه مثل طفل شقي-أو، في الواقع، مثل عبد. كان رمز وضعه الغامض هو حقيقة أن المحارب الاسبرطي في العشرينات من عمره يكون شعره قصيرًا، تمامًا مثل الهيلوتي. و الأمر الأكثر إثارة للصدمة ان هذا هو الحال بالنسبة للعروس الاسبرطية[160].

في اليونان، كانت النسوة الوحيدات اللواتي يشاهدن عموما برؤوس حليقة هن الفتيات الاماء اللاتي جُزّت جدائلهن ليضعن بدلها شعراً مستعاراً. ولكن كان من النموذجي في العديد من الخصائص المميزة لأسبرطة أنه كان ينبغي عليهن اعتبار ما كان في مكان آخر علامة على الإذلال كرمز للفخر الأمومي. وبعد أن تربت لتتناسل، يمكن للمرأة الأسبرطية المتزوجة حديثًا-وهي عذراء لانقة وسليمة وذات كفاءة شرجية بالفعل-أن تستوعب مصيرها في النهاية. فقد شجعها المجتمع على طول الطريق. وكلما أثبتت خصوبتها، زادت هيبتها. إذا أنجبت ثلاثة أبناء، يُعفى زوجها من واجب الحامية؛ إذا ماتت أثناء الولادة، فستحصل على الأقل على عزاء تسجيل اسمها إلى الأبد على شاهدة القبر. وبهذه الطريقة، كانت الدولة تهدف إلى جعل حتى الأمومة مسألة منافسة شديدة.

بالطبع لا يمكن مقارنة أي شيء بهوس الشباب بالمكانة. أصبحت القسوة التي يتم بها تعزيز هذا الأمر، بين الشباب العشريني الاسبرطي، شيئًا آكلًا للحوم حقًا. كان التكريم الأعلى، الذي كان يُمنح لثلاثة خريجين فقط في المرة الواحدة، هو أن يسميه الشيوخ " هيباغريتي"-أو "قائد الحصان". يعطي هذا اللقب الشاب الاسبرطي الحق في ترشيح مائة آخرين من أقرانه للعضوية في فرقة " هيباغريتاي"، وهي فرقة النخبة المكونة من الثلاثمائة، والتي تعمل بشكل متميز عن هيكل القيادة الذي كان يحكم الوحدات العسكرية الأخرى، وخدمت في مركز خطوط القتال كحارس شخصي للملك القائد. كانت غيرة أولئك الذين تتجاهلهم هيباغريتاي مخيفة بشكل طبيعي. تم تشجيع المرفوضين على إبقاء العين الحسودة والساهرة على هيباغريتاي، والإبلاغ عن أي مخالفات، والتطلع دائمًا إلى طرد أعضائها منها مكللين بالعار، والسعي لاستبدالهم. لا عجب في أن المشاجرات بين الشباب الاسبرطيون كانت شائعة جدًا. ولا عجب، أيضًا، أن يتم تأطيرهم، حتى في رجولتهم المبكرة، بمثل هذه القواعد الشرسة للسلوك.

ومن هنا جاءت المفارقات المقلقة التي سادت المجتمع الاسبرطي: الإذلال كان كبرياء. التقييد فرصة، الانضباط حرية، والتبعية أصدق إتقان. حتى عندما، في سن الثلاثين، يصبح الاسبرطي أخيرًا مواطناً كاملاً، هوموبوس "مماثلاً"، أو "نظيراً" لزملائه، ويستمر في العيش في ظروف كانت ستظهر لنخبة أي مدينة أخرى شبيهة بالعبودية. كل مساء، سيضطر لتناول الطعام وسط فوضى عارمة؛ كان يحضر حصة محددة من المكونات النيئة التي يخلطها الطهاة في مرق أسود ملطخ بالدماء. كان هذا المزيج مثيرًا للاشمئزاز لدرجة أن الأجانب الذين حظوا بامتياز تذوقه كانوا يمزحون بأنهم تمكنوا أخيرًا من فهم سبب عدم خوف الإسبرطيين من الموت. دعابة ضحلة وغير مفهومة. عرف الأسبرطيون أنفسهم، الذين لم يكونوا محصنين من ذوق النكات، بل شيدوا ضريحًا للضحك في مدينتهم، لكن بعض الأشياء كانت مهيبة للغاية بحيث لا يمكن المزاح بشأنها.

بالنسبة للهوموبوسي، كان الإفراط هو العدو دائمًا. في ولايات أخرى، كان الفقير جلداً على عظم وربما يلقب الغني بـ "البدين"-لكن ليس في اسبرطة.

في ولايات أخرى، كانت النخبة هي التي تنغمس في النبيذ والرقص الثمل -ولكن ليس في اسبرطة. أما في اسبرطة، فالعبيد من يفعل ذلك. في بعض الأحيان، فيما يتناول الهوميوسيين طعامهم في فوضى، قد يُجرَ أحد الهيلوتيين إلى الداخل، كشيء منحني الأكتاف، وحيواني، يرتدي جلود الحيوانات الجرباء، وعلى رأسه غطاء قبيح من جلد الكلب المصاب بالبراغيث. من أجل الترفيه على اسياده واسعادهم، يُجبر البائس على شرب النبيذ الصافي، وابتلاعه حتى ينسكب الخمر من شفتيه على جلده. يضحك الأسبرطيون ثم يأمرون العبد بالرقص. وجنتاه حمراء زاهية، وذقنه مبللة باللعاب، كان الهيلوتي يترنح ويتأرجح ويتمايل حتى يغمى عليه ويسقط على الأرض. بينما يتسلى أسياده برشقه بالعظام.

مع بعض العدالة، إذن، يمكن القول عن لاكاديمون أن "جوهر كل من الحرية والعبودية موجود هناك[161]." أحدها، في النهاية، كان صورة طبق الأصل عن الآخر. على جدران معبد أرتميس، صُنعت أقنعة المحاربين الشباب والشيوخ الحكماء لتظهر جميعًا أكثر نبلًا بسبب قبح الأقنعة التي أحاطت بها، أقنعة الشمطاوات والبلهاء والمتوحشين والمشوهين. وبالمثل، بالنسبة إلى الهوميوسيين غير الثملين على مائدتهم غير المرتبة، فإن كل قسوة وصرامة تدريبهم قد صار لها معنى من خلال مشهد الهيلوتي ولعابه المتقاطر الذي انهار عند أقدامهم. كان الأسبرطيون، الذين كانوا سادة أجسادهم وشهواتهم بالاضافة الى عدد كبير من العبيد، أكثر الرجال حرية على الإطلاق لأنهم كانوا خاضعين لأقسى وأشد القوانين تشدداً. "لديهم حريتهم، نعم-لكن حريتهم ليست مطلقة. لانه حتى الأسبرطيون لديهم سيد. وهذا السيد-الذي يحكمهم-هذا السيد هو شريعتهم[162]."

أصوات الأسلاف

أدى الكمال الواضح في دستورهم، ناهيك عن رهاب الأجانب الذي شجعوه حتماً، إلى جعل معظم الأسبرطيين ينظرون إلى العالم خارج حدودهم بمزيج من الشك والازدراء. لقد أدت سلسلة من كوارث السياسة الخارجية إلى تشجيعهم في مواصلة عزلتهم. أعقبت إهانة التجاهل التي قدمها كورش، في عام 525 قبل الميلاد، كارثة أسوأ، عندما تم صد حملة بحرية ضد ساموس، وهي

جزيرة قوية قبالة إيونيا التي يحتلها الفرس . منذ تلك اللحظة فصاعدًا، وبدلاً من المخاطرة بمزيد من الاشتباكات في بحر إيجة، كان معظم الأسبرطيين راضين عن إدارة ظهورهم للمغامرات الشرقية. من الأفضل إلى حد بعيد ترسيخ تفوقهم بالقرب من الوطن. وإذا أُرسل عدد كبير جدًا من رجالهم المقاتلين منقطعي النظير الى الخارج فما الذي سيوقف انتفاض الهيلوتيين في ثورة مفاجئة؟ ناهيك عن حلفائهم المفترضين. ابقهم جميعًا في مقود محكم، وستكون لاكاديمون آمنة. دع حدود البيلوبونيز تخدم الأسبرطة كجدران لحمايتها.

ومع هذا، فإن جزيرة بيلوبس، على الرغم من اسمها، لم تكن "مطوقة بالبحر"[163] بالكامل. فعلى مسيرة ثلاثة أيام شمالًا من اسبرطة وقفت مدينة كورنث التجارية العظيمة، ووراءها، على شريط ضيق من الأرض لا يزيد عرضه عن ستة أميال، تقع مدن وجبال البر اليوناني الرئيسي. كان الأسبرطيون، رغم أنهم كانوا بيلوبونيزيون، بالكاد يستطيعون التصرف كما لو أن هذا البرزخ غير موجود. لم يكن الأمر مجرد أن بعض المدن الواقعة شماله، المدن الشهيرة مثل أثينا وطيبة، كانت هي نفسها لاعبًا رئيسيًا في ألعاب القوة في اليونان. بل كانت غرائز المشاعر وكذلك الحفاظ على الذات على المحك. ورغم محاولاتهم تقديم أنفسهم على أنهم ورثة مينيلوس، فإن الإسبرطيين كانوا دوريين، وفي نهاية الأمر، كانت البلاد الجبلية شمال البرزخ موطن أجدادهم. بمجرد أن يمر طريق البرزخ أولاً بأثينا ثم طيبة، يكون مضطراً بسبب القمم التي تطوق الأراضي المنخفضة أن يمتد على طول الساحل، حتى في أضيق نقطة له، بالكاد يكون هناك متسع لعربتين تتنقلان جنبًا إلى جنب. سُمي هذا الممر ثيرموبيلاي-موقع له صدى كبير في أسبرطة، لأنه من تلك القمة التي تلوح في الأفق عالياً فوقه إلى الغرب، يقع جبل أويتا، حيث ضحى هرقل بنفسه على المحرقة، صعد من النيران لينظم الى الآلهة في محفلهم على جبل الأوليمب. وإلى الجنوب مباشرة من أويتا كانت توجد منطقة غنية بنفس القدر من الأهمية، وهي سهل دوريس، والتي يُرجع الدوريون أسمائهم إليه. والى الجنوب من سهل دوريس بدوره، انتصبت قمة أخرى، هي جبل بارناسوس، شديد الإنحدار والذي يشقه الوادي؛ وبعدها، على الجانب

الآخر من ذلك الجبل، في المكان الأكثر قداسة على الإطلاق، يقع الضريح المقدس في أسبرطة أكثر من أي ضريح أخر في مدينتهم، أو في الواقع في كافة انحاء اليونان. في مقام دلفي، كان الهواء يعبق بالعِرافة الخالصة. فهناك، ولمدة تسعة أشهر من كل عام، يكون مسكن الإله أبولو، كما كان يُعتقد. وأكثر من أي مكان آخر في العالم، كان هذا المكان الذي يمكن الكشف فيه عن لمحات ورؤىً عن المستقبل. وعميقا بداخل العرّافة، كان حجاب الزمن نفسه ممزقًا.

لم يكن من المستغرب أن يكون لدى الاسبرطيون إعجاب خاص بأبولو. وتمامًا كما هاجر أسلافهم إلى لاكاديمون، فقد جاء الإله رامي السهام إلى دلفي باعتباره غازيًا من الشمال. ترك أبولو قاعات الأوليمب خلفه، وسافر حول العالم "بقوسه الرامي الى البعيد، باحثًا عن عرّافة بحيث يستطيع أن يخاطب البشر الفانين[164]." ووجدها حيث كان ثعبان هائل مُتخماً بفريسة بشرية، نائمًا قرب نبع جارٍ بارد وعذب، وجسمه ملتف ومكوّم على صخرة بارناسوس، بينما تحلق النسور تحته فوق مضيق منعزل ومظلم. كان سهم واحد من قوسه القاتل كفيلا بإنهاء سطوة الوحش، ومنذ تلك اللحظة صار أبولو هو الذي يحكم بصفته سيد دلفي. عملت أغصان الغار التي زرعها الإله على تنقية الحرم. وبمرور الوقت، أقام البشر معبدًا هناك، من الأغصان المقطوعة من شجيرات الغار، كما قيل، وكان أبولو يهمس النبوءات عبر حفيف الأوراق. ونظرا لشباب الاله، نجح في ارساء قواعده. المعبد الثاني كان مبنيًا من سيقان السرخس، والثالث من الشمع والريش، والرابع من البرونز-كان تاريخ عرّافة أبولو رائعًا، وتميّز بالتغيير المستمر. بمرور الوقت، صمتت أوراق الغار، واختار الاله أن يتكلم بدلاً من ذلك عبر نشوات الكاهنة الشابة، بيثيا، التي من اسمها يمكن سماع صدى لعدو أبولو[165] المتعفن منذ فترة طويلة. حوالي 750 قبل الميلاد، عندما بدأ تاريخ دلفي في الظهور لأول مرة من الأسطورة، بُني المعبد من الحجر. وبعدها بوقت قصير، على ما يبدو، تقرر أنه يجب تعيين امرأة عجوز فقط لتكون بمثابة العرافة بيثيا، على الرغم من أنها بقيت، كرمز للنقاء، ملزمة بارتداء فستان الفتاة الصغيرة[166]. في 548 قبل الميلاد، احترق المعبد بالكامل. ومع ذلك، ووسط كل هذا الاضطراب، تحدث صوت أبولو.

لم يكن هناك عرافة آخرى يمكن مقارنتها بها. في الواقع، كانت تلك هي هيبة دلفي لدرجة أنها أصبحت، من بين جميع المعابد العديدة التي أسسها اليونانيون، الوحيدة التي يخدمها جسم من الكهنة المتفرغين. وفي حين أن فكرة مثل هذا الكادر لم تكن لتثير الدهشة وسط بيروقراطيات المعابد العظيمة في الشرق، إلا أنها كانت، بالنسبة لليونانيين، ابتكارًا حاسمًا. لم تتوقف حكايات المسافرين عن التصرفات الغريبة للكهنة المصريين أو البابليين عن إدهاشهم. تم الترحيب بدهشة خاصة بالأخبار التي تفيد بأن المجوس فقط في بلاد فارس من يمكنهم أن يشرفوا على القربان. ففي اليونان، يمكن لأي شخص، حتى النساء، وحتى العبيد، تقديم الاضحية. وليس سوى كهنة دلفي، البعيدون في وادي جبلهم عن جميع أشكال الدخل الممكنة الأخرى، من كانوا يكسبون عيشهم من عائدات ضريحهم. فقد أمرهم أبولو: "احرسوا معبدي، استقبلوا حشود البشر[167]". واطاعه كهنة دلفي، وربحوا بسخاء. كانت المدن الأخرى، بعيدة عن أن تحسد الكهنة على مهنتهم، وسعيدة بالتواطؤ في ذلك. فهذا الترتيب يناسب الجميع. أي ضمان يمكن أن يكون أفضل من إنصاف الكهنة بفرضهم على الجميع نفس الرسوم الثابتة؟ وعندما تلجأ الفصائل المتنافسة إلى العرّافة للفصل بينهم، تكون بحاجة إلى الوثوق بكلمات الاله تمامًا. ولا يسمح أحد بأن يرى حيادية دلفي تتعرض للخطر. فعندما حاولت مدينة كريسا المجاورة، في عام 595 قبل الميلاد، ضم عرّافة، صُدمت اليونان بأكملها بافعال وحشية[168]. وزحف تحالف كبير من المدن دفاعا عن الإله. وعُلقت مؤقتًا قواعد السلوك الحضاري، التي تحظر الحرب الكيماوية كجريمة ضد الآلهة، وأضيف السم إلى إمدادات المياه في كريسا، بحيث "أصيب المدافعون بنوبات عنيفة من الإسهال، وكان عليهم الاستمرار في مغادرة اماكنهم[169]". ثم اقتُحمت الاسوار ومُحيت المدينة المارقة. وبعد قرون، ظل السهل الذي كانت تقف عليه كريسا قاحلًا وخاليًا من الأشجار، "كما لو كان تحت تأثير اللعنة[170]".

وتعلم اليونانيون الدرس المرعب. اما أن تكون دلفي عرّافة لكل الإغريق أو لا تكون شيئًا. ارتفعت ألسنة اللهب المقدسة إلى الأبد على المذبح العام للمعبد في توضيح لهذه الحقيقة على وجه التحديد: رعتها الكاهنات بنشاط،

وتغذت بخشب الصنوبر والغار، ولم يُسمح لها أبدًا بالخروج، واشتعلت النيران كنار موقد اليونان بأكملها. ومع هذا، كان ممكنا حتى لأولئك الذين لم يكونوا يونانيين الوصول الى أبولو والامل في الحصول على إجابة. كانت ادعاءات دلفي عن القداسة على نطاق عالمي حقًا. فمنذ البدء، كما قيل، عندما جاء زيوس لأول مرة إلى مملكة الكون، سعى إلى قياس حجم تركته بإطلاق نسر من الشرق وآخر من الغرب، ومشاهدتهما وهما يطيران، ليحدد موقع مركز العالم. التقى الطائران في دلفي، ولا تزال بيضة كبيرة من الصخور، تسمى "حجر السرة"، أو Omphalos، تقبع كعلامة على المكان. كان من الطبيعي، إذن، أن يرحب الكهنة بالمتوسلين الأجانب كمجرد استحقاق لمعبدهم. وعندما واجه كرويسيوس، على سبيل المثال، التهديد المتزايد من بلاد فارس، سعى للحصول على الإرشاد الإلهي، وأرسل رسلًا إلى جميع العرافين الرائدين في العالم، مع تعليمات بسؤالهم عما كان سيدهم يفعل في ليديا في يوم معين. وكانت دلفي هي الوحيدة التي قدمت الإجابة الصحيحة: كان كرويسيوس يطهو طبقًا من لحم السلحفاة والضأن. ومنذ تلك اللحظة، أصبح ملك ليديا راعي العرافة الأكثر سخاءً. أرسل لها هدايا لا مثيل لها من الذهب وأوعية خلط وسبائك وتماثيل للأسُود لتنضم إلى الكنوز التي تقبع في ظلال المعبد بالفعل. وفي المقابل، قدم أبولو نصيحة لكرويسيوس بشأن السياسة الخارجية. وكان بناء على نصيحة الاله تلك، على سبيل المثال، أن عقد ملك ليديا تحالفه مع الاسبرطيين.

لا يعني ذلك أن هذا قد أنقذه على المدى الطويل بالطبع. فإن كانت نصيحة أبولو تبدو واضحة في كثير من الأحيان، الا إنها لم تكن كذلك دائمًا. "الاله الذي توجد عرّافته في دلفي لا يتكلم ولا يسكت، لكنه يقدم تلميحات[171]." أولئك الذين أساءوا تفسير الإله، الذين لم ينجحوا في التعرف على الغموض الذي قد يسكن أقواله، والذين أخطأوا بالتصرف على أساس ما يريدون تصديقه، سوف يخسرون دائمًا. بعد أن صار كرويسيوس معتمداً على مشورة أبولو، خُدع في النهاية بمجده الباطل وغطرسته واتجه الى كارثة. كان يفكر فيما إذا كان سيهاجم كورش، وكان قد استشار دلفي وتلقى إجابة مفادها

أن إمبراطورية قوية ستسقط إذا فعل ذلك. وذهب كرويسيوس إلى الحرب على النحو الواجب وشهد سقوط إمبراطوريته.

عندما يتُهم أبولو بالجحود تجاه المتبرع له، يرد كهنته في دلفي بأن الإله، في حين أنه لم يكن قادرًا على تجنب مسار القدر، فقد منح كرويسيوس ثلاث سنوات من الازدهار أكثر مما منحه له القدر. وتم تصديق هذا التفسير بسهولة: كان الملوك دائمًا هم المفضلين لدى الآلهة. كان هذا واضحًا من قصص العصور القديمة، عندما كان الأبطال يتمتعون دائمًا بالدم الملكي. لكن ما كان مقبولًا في الأسطورة أصبح، أولاً بالنسبة للأرستقراطيين في مختلف الولايات اليونانية ثم لكل طبقة من المواطنين، مسيئًا بشكل متزايد. إن الادعاء بأن أحد البشر قد يتمتع بامتياز على رفاقه لم يعمل، كما هو الحال في الشرق، في إضفاء الشرعية على مفهوم الملكية، بل شوهه بالأحرى-لأنه لم يكن هناك يوناني واحد اهتم بتخيل أنه قد يكون عبدًا بشكل طبيعي. وقد قيل: "اعرف نير العبودية فقط، وسيسرق منك زيوس، الراعد، نصف فضائلك[172]." ربما كان من الجيد جدًا أن تعيش شعوب الشرق المستعبدة كالنساء وقدم الطاغية على أعناقها-ولكن ليس اليوناني المولود حراً. والملوك، ما لم يكونوا محصورين بأمان في الأراضي البعيدة والمخنثة، ينتمون بشكل صحيح إلى القصائد القديمة. وكلقب يُسبغ على بعض الكهنة فحسب، حافظت هذه الرتبة، في بعض المدن اليونانية، على حياة شبحية-لأن العلاقة الحميمة التي كانت في يوم من الأيام امتيازًا للملكية تتشاركه مع الآلهة، لا يمكن تنحيتها جانباً، وبقيت طقوس التبجيل تعتمد عليها. وحتى عندما يكون كاهنًا، يظل "الملك" رمزًا للخطر. كان لابد من سحق الكاريزما الطبيعية التي يتمتع بها لقبه بدقة. فلا يمكن أن يسمح له بأية صلاحيات خارج نطاق الدين. حتى أن فترة ولايته، في مدينة مثل أثينا، اقتصرت بشدة على عام واحد.

كم هو غير عادي، إذن، أن يُعتقد المرء، أنه لم يكن من المفترض في اسبرطة، من بين جميع الدول، حيث كان الجماعي هو كل شيء، أن تستمر الملكية فحسب، بل وينيرها وهج مقدس مخيف. كان الأسبرطيون من الهومويوس، لكن الملوك كانوا أكثر من ذلك. وهو صبي، يعفى ولي العهد من

قانون التدريب البدني. وعندما يصبح قائداً عاما، يقود الملك مواطنيه إلى الحرب. وكرئيس دولة، لم يقف مع أي رجل في المدينة؛ ولم يُسمح لأحد بلمسه أو حتى الاحتكاك به علانية. الأمر الأكثر غرابة، والذي يميزه حقًا عن أبناء وطنه، هو علاقته الحميمة مع الآلهة. بالتأكيد، لا يمكن لأي إنسان في العالم أن يبحث عن علاقة أوثق مع عرافة دلفي أكثر من تلك التي يتمتع بها الملكان الاسبرطيان. فكل واحد، في ترتيب لا مثيل له في أي ولاية أخرى، كان له سفيرين، من "البيثيين"، في وضع الاستعداد الدائم، متأهبين لإيماءة ملكية كي يُسرعوا شمالًا ويطرحوا الأسئلة على أبولو. كانت هذه امتيازات السلالة. اذ كان الملوك، في نهاية الامر، من أقارب زيوس البعيدين.

وبطبيعة الحال، كان أبناء وطنهم يتطلعون إلى الاستفادة من مثل هذه السلالة. على الرغم من احترامهم للملوك، إلا أن الأسبرطيين لم ينغمسوا في ذلك النوع من الخنوع الجبان. وعلى العكس تماما. في حين كان الإغريق الآخرين يجفلون امام سحر الملكية، فإن الأسبرطيين، بهذا المزيج من الفطرة السليمة والخرافات المطابقة لجميع سياساتهم، نظروا إلى استغلالها لتحقيق غاياتهم الخاصة. إذا كان أبولو يسمع للملوك، فإن للدولة ان يحكمها الملوك. كالحيوانات المفترسة الرائعة ولكن الأسيرة، تم إبقاؤهم، بأشد الطرق المتقنة، تحت المراقبة الدقيقة والمتواصلة. من قبل بعضهم البعض. وبواسطة جيروسيا ومن قبل جماهير الشعب. حتى عندما يكون الملوك غائبين عن المدينة في الحملات، كما كان الحال بشكل متزايد في أواخر القرن السادس قبل الميلاد، لم تتراخى المراقبة أبدًا.

في الواقع، إذا كان هناك أي شيء، فقد كانت البراغي تشَد. مع ازدهار العظمة الاسبرطية، وفرص المغامرات الأجنبية معها، بدأ مجلس قضاة الإيفور، الذي لم يكن مهمًا من قبل، في العمل كمحقق ووصي على الملوك. كانوا خمسة في العدد، وكان الايفور ينتخبون انتخاباً سنويًا من مجلس المواطنين بأكمله، وبالتالي يمكنهم أن يدّعوا بشكل شرعي تمثيل الشعب. وكان الملك، على الرغم من أنه قد يتجاهل استدعاءهم الأول والثاني، مضطرًا إلى النهوض وإجابة الثالث.دعوة الايفور الملك إلى الحديث، وهي طقوس تحدث مرة واحدة على

الأقل في الشهر، تمثل انعكاسًا حادًا للأدوار. قيل في البداية، أن الأيفور خدموا الملوك كخدام لهم، لكن على مر السنين، وبواسطة عملية سرية وماكرة، تقدموا ليصبحوا ظلال أسيادهم. مجهولي الهوية مقارنة بالملوكية التي ربما كانوا عليها، ومع هذا كانت لديهم أيضًا قوى خارقة. كانوا يجتمعون في الظلام ويتتبعون المستقبل في السماء. وإذا اكتشفوا أن الملك كان "مُهيناً للآلهة[173]"، كان للايفور الحق في عزله من عرشه. يمكنهم بعد ذلك أن يأخذوا على عاتقهم القيام بما يفعله الملك نفسه تقليديًا، وإرسال الرسل إلى دلفي. وكان يُفترض أن تؤكد العرافة حكم السماوات.

لكن هل هذا ممكن؟ في صراع الموت بين الملك والايفور، في أي جانب سيقف أبولو وكهنوته؟ لم يكن هذا سؤالًا اهتم به الإسبرطيون كثيرًا، مع خوفهم العميق من الاضطرابات الدستورية. ولم يتوقعوا أن يضطروا إلى ذلك: كانت اسبرطة مدينة يحكمها، في الحساب النهائي، ليس الملوك أو الايفور، بل العرف، والطابع الفريد لشعبها. كانت الصفة التي يقدّرونها بشكل كامل، قد أسماها الاسبرطيون سوفروسن "sophrosyne": وتعني سلامة العقل، والاعتدال، والحصافة، وضبط النفس. على الرغم من أن صلاحيات الملك أو الإيفور قد تكون كبيرة، فكلاهما كان مصمما، على عدم دفع المواطنين الاسبراطيين الى أقصى الحدود. "لأن هذه هي طبيعتك دائمًا"، كما اشتكى أحد أهل كورنثوس يومًا ما، "أن تفعل أقل مما كان يمكن أن تفعله، وأن تتراجع عن التوجه إلى حيث قد يقودك حسن تقديرك[174]". لكن مثل هذا النقد يمكن أن يعتبره الأسبرطيون ثناء. السوفروسن موجود في كل شيء: في ترويض روح الثورة في لاكاديمون جيدًا، تمامًا كما يدمج المحارب ضمن نظام الكتيبة، وكذلك كان الإيفور والملك داخل الدولة: بلا أنانية، ولا تسابق مسعور، ولا سقوط مفاجئ للرتب.

ثم في 520 قبل الميلاد[175] جاء ملك جديد الى العرش. وطالب بالسلطة كما كان سيستخدمها، بلا رحمة، ولحقته الفضيحة. حتى قبل ولادته، كان كليومينيس متورطًا في تمتمة من الشائعات المروعة. والده، الملك، كان غير قادر على جعل زوجته الأولى المحبوبة تحبل، فأمره الايفوربتطليقها والزواج بثانية؛

لكن الملك، على الرغم من عدم رغبته في تحدي الإيفور علانية، اختار بدلاً من ذلك ممارسة الجمع بين زوجتين. لم تكد شريكة فراشه الجديدة تحمل له كليومينيس، حتى تفوقت زوجته الأصلية، لدهشة الجميع، على منافستها وأنجبت ثلاثة أبناء في تتابع سريع. نظرًا لأنها كانت ابنة أخت الملك وكذلك محبوبته، فقد جعل هذا الأمر، على نحو غير مفاجئ، كليومينيس مستاءً جدًا من والده. كان الملك يتباهى بمحابته، وقد أطلق اسم دوريوس على أكبر الأخوة غير الأشقاء لكليومينيس-"الدوري"-ثم أدخله التأهيل البدني، الذي مر به الأمير على النحو الواجب وحقق انتصارا. كان دوريوس، الذي كان يمثل الوريث الشرعي ورجلًا للشعب، قد وضع كليومينيس، شقيقه الأكبر غير المرغوب فيه، في الظل تمامًا. "لقد صنفه الجميع في المرتبة الأولى بين كل شباب جيله. ولم يكن لدى دوريوس نفسه أدنى شك في أن صفاته العديدة ستعمل على فوزه بعرش والده[176] ".

لكن الأسبرطيين لم يكونوا شيئًا إن لم يكونوا شعبًا متقيدا بالشرعية، واحتفظ كليومينيس بالمطالبة الأولى بالملكية. ما أن مات والده حتى انتقل للاستيلاء على العرش. دوريوس، على الرغم من كل بريقه وشعبيته، وجد نفسه مغلوبا. وكليومينيس، الذي شدد قبضته على السلطة، نظر بعد ذلك إلى إخراج أخيه غير الشقيق من اسبرطة تمامًا. كان من الممكن أن يكون منفى دوريوس، عندما جاء، يرتدي زي مهمة أجنبية غريبة، لكن لا يمكن أن يكون هناك إخفاء لحجم هزيمته. أثبتت اسبرطة أنها صغيرة جدًا بالنسبة للأخوين. ولن يكون هناك أي عودة لدوريوس بشكل متزايد. بعد محاولة فاشلة لتأسيس مستعمرة في إفريقيا، انتهى به الأمر إلى مرتزق في صقلية، حيث وقع في شجار غامض ومخزي. كان بإمكان كليومينيس، الذي عاد إلى اسبرطة، السيطرة من الآن فصاعدًا.

ومع ذلك، فإن ظروف صعوده ظلت تلقي بظلالها. أدرك كليومينيس تمامًا أن العديد من مواطنيه يعتبرونه شبه شرعي في أحسن الأحوال، فاختار الرد بشجاعة وتحدي. لم يكن بالنسبة له الالتزام بالتقاليد الرصينة المتوقعة من الملك الاسبرطي، ولا، كما هو ملائم، الحذر. سواء أكان بدافع الرغبة في

إثبات نفسه لمنتقديه، أو بدافع الازدراء لآفاقهم المحدودة، أو لأنه كان ماهرًا وسريع البديهة، كما كان يعتقد، صالحاً يخدم مصالح مدينته، فقد قرر كليومينيس منذ البداية أن يلقي بثقله. أشارت السهولة التي أوفد بها دوريوس إلى أن هذا قد يكون كبيرًا. ولأول مرة منذ ثورة الليكورجوية، جلس ملك على عرش اسبرطة وقد عقد العزم على تجربة صلاحياته بالكامل.

أنبأ كل ذلك بأوقات مضطربة في مستقبل أسبرطة. كما هددت المدن البعيدة عن حدود لاكاديمون. كان الرجل القوي المسؤول عن آلة الحرب الأكثر دموية في اليونان بمثابة احتمال ينذر بالخطر بالنسبة لمنطقة البيلوبونيز بأكملها وما وراءها. في عام 519 قبل الميلاد، بالكاد بعد عام من توليه العرش، قاد كليومينيس جيشًا عبر البرزخ. لقد كان اعلان نوايا متوعداً-وكما سيثبت الوقت مشؤوما- لم يكن الملك الجديد متقيدا بحدود فناء منزله الخلفي. وبالفعل، في وقت مبكر جدًا من حكمه، كان اهتمامه محدداً على وسط اليونان: على دلفي، حيث سرعان ما تورط الكهنة في الرشوة والفضائح؛ وعلى بيوتيا، سهل تربية الماشية الكبير الذي تهيمن عليه طيبة ولكن تنتشر فيه أيضًا مدن أصغر، مستاءة من تنمر طيبة وتوفيرها مجالا واسعا للمتطفلين لإحداث الأذى؛ وعلى أتيكا، المنطقة الحيوية استراتيجيًا من التلال والأراضي الزراعية التي يمر عبرها طريق البرزخ الرئيسي عندما يتجه شمالًا. وعلى أتيكا ومدينة أثينا أكثر من أي مكان آخر بالفعل. لأن أثينا كانت قوة متنامية-وبالتالي فهي تهديد محتمل. كان لابد من تحييدها. وعلى الرغم من اندفاع كليومينيس في بعض الأحيان، إلا أنه بالكاد يمكن اعتباره منشقًا لمجرد أنه كان يقدّر القوة الاستباقية.

ومع ذلك، بدأت الهزات تتراكم بشكل أعمق مما قد يشعر به هو أو في الواقع أي شخص آخر. إن تدخل كليومينيس في السياسة الأثينية من شأنه أن يساعد في إحداث زلزال سياسي. سيكون أكبر اضطراب بعيد المدى في أي مدينة يونانية منذ زمن ليكورغوس نفسه. كانت توابعه محسوسة، ليس فقط في جميع أنحاء اليونان، بل أيضًا، امتدت عبر بحر إيجة، شرقًا إلى إمبراطورية الفرس. حتى، وإن كانت بعيدةً، داخل مجالس داريوس نفسه.

كانت الثورة قادمة إلى أثينا-والحرب على العالم بأسره.

الفصل الرابع-اثينا

وليد الأرض

في اليونان، كانت المدينة بالكاد تعتبر مدينة بدون أسطورة تأسيسية غريبة. لم يكن الأسبرطيون وحدهم في الهوس بجذورهم. والقلق من الأشخاص الذين كانوا دائمًا ينظرون إلى منافسيهم، والذين يهتمون باكتساب الرتب، وإخضاع الآخرين، والمطالبة بالتفوق، روى الإغريق في مدنهم في كل مكان قصصًا طويلة عن ماضيهم. كان بعضها أطول من البعض الآخر. فالارغوسيين، على سبيل المثال، على الرغم من أنهم كانوا دوريين، مثل الاسبرطيون، وبالتالي قادرين بالمثل على ادعاء النسب الى سلالة هرقل، لم يكونوا يرتاحون الى نفس نسب جيرانهم المكروهين. على الرغم من أن الاسبرطيين كانوا يتفوقون عليهم مرارًا وتكرارًا في ساحة المعركة، فقد كبرت تخيلاتهم عن نسبهم بشكل متزايد. وتفاخروا بأنها امرأة من ارغوس، من كانت أصل المصريين والعرب ومجموعة من الشعوب الأخرى. في الواقع، بالكاد تكون هناك أمة في العالم لم يكن لديها بعض روابط الدم مع ارغوس-أو هكذا كان الارغوسيين يحبون أن يدعوا.

لم تكن الادعاءات المفرطة بهذا الأمر هي الطريقة الوحيدة لوضع الأسبرطيين في مكانهم. فمواطنوا تيجيا، على سبيل المثال، الذين يفخر تاريخهم بعدد من الأسماء المشهورة، لا يزالون قادرين على السخرية من جيرانهم المخيفين الوضيعين-لأنهم، على عكس الدوريين، كانوا يعيشون دائمًا في البيلوبونيز. كانت الجذور العميقة، بين الإغريق، مصدرًا أكيدًا للهيبة. تفاخر الارغوسيين، الذين لم يكتفوا بالتباهي بعلاقاتهم الخارجية الجذابة، بأنهم كانوا أيضًا من السكان الاصليين لوطنهم، وكانوا كذلك دائمًا. سعداء بتجاهل أصلهم الدُوري، والذي ربما كان يجعل هذا التأكيد إشكاليًا. نادرًا ما كان المنطق سمة من سمات الأساطير الإغريقية التأسيسية. في البيلوبونيز، على وجه الخصوص، حيث كان هناك عدد من التقاليد المتنافسة، انتشرت الادعاءات وسط الادعاءات المضادة، وأمكن بسهولة تكييف الماضي.

كان الهدف النهائي بالطبع هو أن تدعي منطقة باكملها أنها لم تتعرض للاحتلال أبدًا، بل دائمًا ما احتفظت بعاداتها وحريتها من الغزاة. "نفس الأصل العرقي، جيلًا بعد جيل، نفس الأشخاص، عاشوا دائمًا في أرضنا الأصلية هذه -وهم، بحكم مزاياهم، أورثوها لنا، بلد حراً إلى الأبد[177]." لم يتعب الأثينيون، عبر تاريخهم، من هذا النوع من الكلام. لا توجد عندهم حكايات شعبية عن الهجرة، وعن بوتقة الانصهار. وبدلاً منها، بالاعتزاز الذي وجده باقي اليونانيين مضجراً الى أقصى الحدود، أشاروا إلى القيمة المقدسة لحدودهم، وكيف لم ينجح الهراقلة أو الدوريون في إخضاعهم على الإطلاق، وكيف انهم، مثل "القمح والشعير" التي نبتت في حقول اتيكا، و "الكروم والزيتون والتين[178]،" ولدوا من الأرض، وانبثقو من التربة-"كسكانٍ أصليين".

لم تكن هذه استعارة، ولا غروراً متكلفاً. وبالنسبة للأثينيين، كانت هذه هي الحقيقة الحرفية البسيطة. عندما داسوا أرضهم الأصلية، والمسارات الترابية التي التفت فوق تلال أتيكا، وسهولها ووديانها الصخرية، كانوا يعلمون أنهم جزء من المناظر الطبيعية مثل باقات البردقوش والزعتر الذي تفوح منه رائحة زكية، أو مروج نبات البرواق متعدد الالوان، المحبوبة من الآلهة، أو الرخام الذي قد يُلمح أحيانًا من خلال المنحدر الجبلي. كان هنا أحد أسرار الغموض الابعد بكثير مما ادعى اليونانيون الآخرون عندما تتبعوا السلالات الاسطورية ونسبوا أنفسهم اليها وتفاخروا بالنسب الإلهي. في الواقع، كان من التجديف أن يتظاهر الأثيني بأي شيء من هذا القبيل. ففي النهاية، كانت الإلهة التي عبدوها حامية لهم والتي أخذوا منها اسمهم هي أثينا: المحاربة رمادية العينين، سيدة الفنون، ابنة الحكمة، العذراء. فليست لها، السامية والغامضة، مذلّات الولادة. لن يمتلكها أي رجل. كان أقرب شخص إلى تحقيق ذلك هو شقيقها هيفايستوس، حداد الآلهة الكسيح، الذي كانت مواهبه في الصنعة لا حدود لها كما كانت رجليه المقوستين ضعيفتين. قد تغلبت عليه الرغبة في أخته لدرجة أنه كان يعرج خلفها، متعرقا وملطخا بالسخام، وسعى إلى عناقها بين ذراعيه. كانت أثينا، باحتقار شديد، قد ألقته جانباً-ولكن ليس قبل أن يقذف هيفايستوس، مرتجفاً من الإثارة، على فخذها. قامت الإلهة

بمسح التلطخ بقطعة من الصوف، ثم أسقطتها، وهي لا تزال رطبة، إلى أتيكا- حيث قام السائل المنوي، مثل الندى الثقيل، بترطيب رحم أمنا الأرض. من هذا التخصيب "للحقول المنتجة للحبوب" ولد طفل بذيل ملفوف مثل ثعبان. تبنته أثينا، وأطلقت عليه اسم اراكثيوس[179]. واسكنته في الأكروبوليس، "في هيكلها الغني"، وهناك، "إلى يومنا هذا، مع كل دورة من أيام السنة، يقدم له أبناء أثينا ثيرانًا وكباشًا[180]".

بالكاد يمكن ان تكون هذه نوع القصة التي يروج لها الهراقلة. إن اكتفاء الأثينيين بنسب أصول مدينتهم إلى قطعة قماش مهملة يتحدث ببلاغة عن الأهمية التي تعنيها الأسطورة بالنسبة لهم. على مر القرون، تم تطويرها بشكل متزايد، لكن جذورها كانت قديمة، وتعكس حقيقة قديمة بنفس الدرجة. كان الأثينيون بالفعل، كما أصروا، شعباً متميزاً. يبدو أن ما إذا كانت حدودهم قد بقيت حقًا مقدسة كما زعموا لاحقًا أمر غير محتمل، لكن أتيكا، من بين جميع مناطق اليونان، قد نجت بالتأكيد من العاصفة التي دفعت قصر مينيلوس والعديد من العواصم الأخرى الفخورة نحو الخراب. طوال فترة الاضطراب والغموض التي سادت القرون التي تلت ذلك، حافظت المجتمعات المختلفة في أتيكا على إحساسها بأنها أمة منفصلة، توحدها العادات المشتركة واللهجة والعرق. بعد أن خرجوا من عصرهم المظلم، كانوا لا يزالون قادرين على تذكر أنهم، على أي حال، لم يكونوا أبدًا مهاجرين بلا مأوى، لكنهم كانوا "أقدم السكان في اليونان[181]". صحيح أن أثينا، حتى القرن السابع قبل الميلاد، كانت، مثل اسبرطة، أكبر بقليل من قرية رثة، متجمعة بشكل مزعج حول صخرة الأكروبوليس. كما أن سكان المستوطنات الأخرى لم يفكروا في أنفسهم على أنهم من أهل أثينا، أو حتى، ربما، كمواطنين في دولة واحدة[182]. ومع ذلك، خدم الأكروبوليس نفسه، العمودي والهائل، كل مجتمعات أتيكا كمحور طبيعي للتبجيل، لأن كل وادي يؤدي إليه؛ ولم يكن هناك أي ملاذ آخر في أتيكا يمكن أن ينافس هالة الغموض. كانت مستطيلات البناء ثقيلة لدرجة أنه كان من الواضح أن العمالقة فقط هم الذين يمكن أن يرفعوها لتطوق قمته بجدار هائل. تشهد الأطلال القديمة بشكل لا يُحصى على استخدامها في الأزمنة

السابقة من قبل الأبطال والملوك[183]. مقدسًا بحضور أثينا، وهو الذي كان مكان سكنها. كانت صخرتها أيضًا بمثابة قبر اراكثيوس، المولود من الأرض. لذلك كان بإمكان جميع سكان أتيكا، وليس الأثينيين فقط، النظر إلى الأكروبوليس وتذكّر التربة التي نشأوا منها، والميراث الذي تقاسموه، والولاء لوطنهم الذي يدينون به.

وكانت النتيجة هوية إقليمية لا مثيل لها في اليونان. أن أثينا تقف مهيمنة باعتبارها المدينة الوحيدة في كل أتيكا، في نظر اليونانيين الآخرين، كانت مذهلة ومنحرفة. منطقة بيوتيا، وهي مساحة مماثلة لجارتها، تم تقطيعها بين ما لا يقل عن عشر مدن متشاحنة. أرغوس، المدينة الأكثر اكتظاظًا بالسكان في البيلوبونيز، حكمت سهلًا كان بالكاد في نصف حجم أتيكا. وكانت اسبرطة فقط، من بين جميع القوى اليونانية، من تسيطر على مساحة واسعة من الأراضي مقارنة بأثينا-ولكنها كانت قد غنمتها، واستولت عليها، بحد السيف. لم يحاول الأثينيون أبدًا أي شيء فعال بعيدًا. في القرن السابع قبل الميلاد، بينما كان الأسبرطيون يكملون تهدئتهم لميسينيا وكانت المدن في جميع أنحاء اليونان تمر باضطرابات عنيفة، كان زائر أتيكا من أرغوس أو كورنث يجدها معزلا هادئاً. امتنع الأثينيون بشكل قاطع عن غمس أصابع اقدامهم في تيارات عصرهم. فليست لهم الثورات العسكرية والسياسية التي كانت تؤثر على بقية اليونان، والتي كانت تغير من اسبرطة، على وجه الخصوص، وتحولها إلى شيء مخيف وجديد. وبدلاً من الخضوع لتجربة مماثلة، فضل الأثينيون أمان ضيق الأفق والحنين إلى الماضي. وبالمقارنة مع تلك الموجودة في أصغر جزر بحر إيجه، كانت معابدهم مملوءة بالحيوية ومتواضعة؛ كانت طقوس جنائزهم قد عفا عليها الزمن كما يعلمون؛ حتى فخارهم، الذي وفر فرص عمل لربع سكان المدينة، والذي كان في يوم من الأيام الأكثر ابتكارًا في اليونان، عاد بشكل متزايد إلى الماضي. تمامًا كما كان بقية العالم اليوناني يركز نظرته على آفاق جديدة مبهرة، بدا أن الأثينيين عازمون على العودة إلى عصر حرب طروادة[184].

وبالفعل، في بنية مجتمعهم، كان الأمر كما لو أنهم لم يتركوه أبدًا. في حقول وبساتين أتيكا، على بعد رحلة يوم كامل من أثينا، ربما، أو ربما أكثر،

يمكن للرجل أن يعيش بسهولة كعبد أقل من كونه مواطنا، كمزارع، يدفع سدس ما يكسبه لمالك على مسافة بعيدة. كان الملاك أنفسهم، بالطريقة التقليدية للأبطال، يعيشون بشكل جيد بعيدًا عن الناس، ويتزوجون من بعضهم البعض، ويتوزعون الحاكمية فيما بينهم، ويسخرون من أي شخص آخر بازدراء صارخ. كانت هذه الرغبة في التفرد لدى بعض العشائر الأرستقراطية حتى أنهم احتقروا ما كان يفخر به الأثينيون عادةً، وكانوا يتتبعون الأنساب الأجنبية الغريبة لينسبوا أنفسهم اليها، لعدة مشاهير من حرب طروادة. زعمت احدى العائلات، وهي عائلة بيسيستراتوس، أنها تنحدر من ملك ميسيني؛ وادعت آخرى، وهي عائلة فيلايوس، انها من سلالة اجاكس، وهو أطول محارب قاتل على الجانبين في طروادة، وملك سالاميس، وهي جزيرة قبالة ساحل أتيكا. حسنًا، ربما كان النبلاء الأثينيون قد منحوا أنفسهم لقب "اليوباتريد" أو "كرماء المحتد". لم تكن هناك أرستقراطية أخرى في اليونان عالقة في الماضي بهذا الشكل المغرور.

لكن قوى التغيير في العالم خارج أثينا لم تُبعد بسهولة، وبحلول عام 600 قبل الميلاد بدأ حتى النبلاء في احتضانها. لطالما وعدت الكوزموبوليتية، أولئك الذين لديهم إحساس اسلوبي كافٍ، بالدخول الفوري إلى مجموعة دولية. يشعر أعضاؤها بإحساسهم الحقيقي بالهوية ليس مع مواطنيهم من الطبقات الدنيا المتعثرة ولكن مع زملائهم المحنكين من جميع أنحاء العالم اليوناني بأسره. "أنا ببساطة أعشق الأشياء الجيدة في الحياة[185]": بيان لا يمكن تصوره على شفاه بطل أشعث ومتجهم الملامح، لكنه لا يثير الدهشة على الإطلاق بين أولئك الذين اعتقدوا أن الفخامة تحمل انعكاسا للآلهة. حتى المرأة، إذا كانت أذواقها أنيقة بدرجة كافية، فإن مجوهراتها الذهبية، وأرديتها ناعمة ومصبوغة بشكل قوي، قد تأمل في إلقاء نظرة خاطفة على الإله والتحدث معه: "تعالي، إلهة الحب الخالدة يا من تجلسين على عرش قوس قزح، إذا كنت في الماضي قد سمعت صرخاتي البعيدة واستجبت لها، تاركة أروقة والدك، مسافرة في عربتك الذهبية، وعصافيرك الجميلة تحملك بسرعة على رفرفة أجنحتها، من الجنان عبر السماء إلى الأرض المظلمة[186]." صلاة تستحق أن

ترفع-من أجل الملذات، المستمتع بها بشكل صحيح، وقد تكون رفعت الميزان بالفعل في عيون البشر، فحفل العشاء يوفر عالمًا أفضل تنظيماً من أي دولة. إغراءات المجتمع الراقي، الرقيقة والعطرة كما كانت، مارست على أولئك الذين يستطيعون تقديمها جاذبية روحية تقريبًا. أصبح الذوق وكذلك الخلق الرفيع سمة النخبة.

ومع ذلك، فإن ما حدده كان أيضًا بمثابة تهديد له. كان الشغف بالكماليات، والتي كان يجب شحن معظمها من أماكن ساحرة في الخارج، قد عزز حتمًا من ثروات أولئك الذين يمسكون بتجارة الاستيراد والتصدير. رأس المال، الذي كان مقيّدًا في السابق بشكل شبه حصري في حوزة النبلاء، أصبح أكثر سيولة بشكل متزايد. وبحلول عام 600 قبل الميلاد، ظهر ابتكار بالغ الأهمية لمدن إيونيا: العملات المعدنية. وعلى مدى العقود التالية، ستعبر هذه بحر إيجه وتبدأ في الانتشار في اليونان. كان رد فعل الطبقة الأرستقراطية، على نحو غير مفاجئ، هو الاشمئزاز والقلق المتزايد. لقد شعروا بالقلق من احتمال أن يكون لرجل الأعمال نفس القوة الشرائية التي يملكها النبلاء، وردوا بإهانات محمومة على نحو متزايد. وأطلقوا على الأثرياء الجدد: اسم "كاكوي" ويعني " الوضيع "، "الكريه "، " الغشاش ". اما الكاكوي أنفسهم، مع ذلك، فلم يفعلوا شيئا، سوى هز أكتافهم ومواصلة جمع المال. ففي النهاية، وكما أشار الاسبرطيون ذات مرة، في أيام الاضطرابات الاجتماعية في مدينتهم، "ليس الرجل سوى مجموع ما يملك." شعار مناسب لعصر جديد محير. "الذهب هو الشيء الوحيد الذي يتكاثر الآن." لذلك، وقد مطّ شفتيه، قد يشتكي نبيل من الطبقة الوسطى. "لا يوجد أي تقدير آخر".[187]

وبطبيعة الحال، فإن الإسبرطيين أنفسهم، بعد أن انزعجوا من هذه الشكاوى على وجه التحديد، قد طوروا علاجهم الخاص منذ فترة طويلة. بالنسبة للكثيرين، في أتيكا في 590 قبل الميلاد، لا بد أن الامر بدا وكأن التاريخ يعيد نفسه. مرة أخرى، كما حدث في لاكاديمون قبل قرن من الزمان، أصيبت منطقة بأكملها في اليونان بالشلل بسبب أزمة زراعية. ولم يكن سوق العقارات بهذه الانسيابية من قبل. نظرًا لأن النبلاء المعسرين، المهددين بفقدان ميراثهم،

قاموا بتضييق الخناق على المستأجرين، لذلك تم نقل البؤس عبر السلسلة الغذائية إلى أفقر الفئات، من قصور العائلات الكبيرة إلى أضعف الأراضي وأكثرها صخراً. قام الدائنون، الذين رسموا حدود بساتين وحقول الزيتون المرهونة، بملء الريف بخطوط مشؤومة من الحجارة. ربما كانوا يقومون أيضًا بتحديد قبور الفلاحين المدمرين.

مع تفاقمها، أدت المجاعة إلى ملجأ حتمي. مباشرة فوق المضيق جنوب أتيكا، بالقرب من جزيرة سالاميس بشكل مغري، بل لا يقاوم بالفعل. تمكن العلماء الأثينيون، الذين قدموا حججًا معقدة من الملاحم القديمة، من الإثبات، على الأقل بما يرضيهم، أن مملكة أجاكس القديمة تنتمي إليهم. أخبار، هي بالتأكيد، لمواطني ميغارا، وهي مدينة صغيرة في منتصف الطريق بين أثينا وكورنث، والتي طالبت أيضًا بسالاميس، وقد زرعوا فيها فعلا عددا من المستوطنين. دخلت المدينتان في الحرب حسب الأصول. وهُزمت أثينا وأجبرت على التماس السلام. كان الأمر الأكثر إثارة للقلق بالنسبة للمهزومين هو حقيقة أن ميغارا، صغيرة كما كانت، تم تصنيفها كقوة من الدرجة الثالثة فقط. انغمس الأثينيون في استبطان قاتم. بسبب الأزمة في الداخل، والإذلال من الخارج، لم يعد بإمكانهم إنكار أنهم تعرضوا للضرب بشكل يرثى له ممن هم أقل من وزنهم. كان هناك شيء فاسد في دولة أثينا.

بدأت الأشكال الشبحية بالظهور في شوارع المدينة، وكأنها نذير خراب وشيك. بدا الموقف يائسًا للغاية لدرجة أن الأثينيين، مع هذا الحماس اليوناني لمراكز الفكر الفردية التي تجسدها بشكل أفضل حكايات ليكورغوس، بدأوا في البحث عن حكيم. ولحسن حظهم، كان هناك مرشح جاهز في متناول اليد. في 594 قبل الميلاد[188] ، كان سولون، الذي عُرف عالميًا أنه أكثر الرجال حكمة في أثينا (ناهيك عن كونه واحداً من أحكم الإغريق السبعة الذين عاشوا على الإطلاق)، قد مُنح منصب الأرخون، أعلى سلطة قضائية في المدينة، وعُهد إليه بمهمة إنقاذ الدولة. قوبل تعيينه، بشكل ملحوظ في مجتمع ممزق طبقياً مثل أثينا، بتصفيق شامل. انخرط سولون، وهو سليل دم أزرق لملك عتيق ، في

التجارة، بينما ترك في الوقت نفسه للفقراء إحساسه بالغضب من محنتهم. كان رجلا يمكن أن يروق لجميع ناخبيه.

على الرغم من كونه ماهرًا في تكييف خطته مع جمهوره، إلا أن سولون لم يكن مجرد مهذّب كسول. وكانت حكمته من نوع عضلي خاص. وكان قبل عام واحد فقط من أن يصبح أرخون، قد تمكن من حشد الرأي العام اليوناني للدفاع عن دلفي عندما سعت مدينة كريسا الأثمة لضم عرافة. وقد جعلته هزيمة مدينته على يد ميغارا يصل الى مستويات أعلى من الغضب. "دعونا نتوجه إلى سالاميس"، كان قد حثهم في شعر مؤثر "قاتلوا من أجل تلك الجزيرة الجميلة، ومسح العار عن أنفسنا [189]". الآن، كرئيس للدولة، كان في وضع يسمح له بعمل أكثر من مجرد الشعار. كان واضحًا لسولون أن الأزمتين الكبيرتين اللتين واجهتا أثينا، الزراعية والعسكرية، قد نشأتا من نفس الأصل: إفقار الريف كان يضعف احتياطيات القوى العاملة في أتيكا؛ كان المزارعون يغرقون في القنانة أكثر من أي وقت مضى. الفقراء، إذا كانوا يانسين حقًا، قد يخاطرون بحريتهم مقابل ديونهم، وربما ينتهي بهم الأمر مقيدين بالاصفاد والسلاسل كعبيد في حقولهم الخاصة. ولو كان سولون قد أظهر قسوة ليكورغوس المحسوبة، لكان بإمكانه بسهولة رعاية هذا الاتجاه، وحكم على فقراء مدينته بالتحول الى هيلوتيين. بدلا من ذلك، اختار استرجاعهم. حتى أولئك الذين تم بيعهم في الخارج، وحتى أولئك "الذين نسوا كيفية التحدث بلهجة أتيكا"، تم تحريرهم، بينما في أتيكا نفسها، أينما رهنت الممتلكات، أمر سولون بالعفو العام عن الديون. وفي الحقول، تم تعيين الرجال للعمل على "حفر أحجار التخوم حيث وضعوا في التربة السوداء [190]."

كان معظم الملاك، بطبيعة الحال، غاضبين؛ لكن سولون، الذي لعب دور الحكيم المتفاني إلى أقصى حد، جادل بشدة في أن إصلاحاته كانت في مصلحتهم أيضًا. ففي النهاية، بدون الأساس الذي قدمه الفلاحون الأحرار، اي أمل سيكون في الاستيلاء على سالاميس، أو الحفاظ على أثينا من الانهيار الاجتماعي، أو الفوز بالمدينة بمرتبة تتناسب مع حجمها؟ نعم، لقد سعى سولون للتخفيف من معاناة الفقراء-لكنه أيضًا جاهد لإبقاء الأغنياء في

السلطة. تم إقناع النبلاء، الممسكين بأنوفهم، بالتحالف على النحو الواجب مع الكاكوي؛ كانت الثروة بدلاً من النسب هي الشرط الأساسي للمنصب؛ وعلى الرغم من منح الفقراء العضوية في مجلس المواطنين، فقد حرموا من امتياز التحدث فيه. لقد كان انتصارا ليس للثورة ولكن لطريق وسط حيز بشق الأنفس. أشار سولون إلى "برغم انهم كانوامحسودين على ثروتهم، فقد سعيت للحفاظ على الأقوياء من كراهية المظلومين. من خلال موقفي، استخدمت درعي القوية لحماية جانبي الانقسام الطبقي، دون السماح لأي منهما بالحصول على ميزة على الآخر قد تكون غير عادلة[191] ".

باختصار، كان التباهي بالوسطية الفطرية. كان شعار سولون هي الكلمة التقليدية: الحكم الرشيد: ذلك الحلم اليوناني المألوف بنظام عادل وطبيعي، يعرف فيه الجميع مكانهم، وحيث "تُنَعم الحواف الخشنة، وتروض الشهية، ويكبح الافتراض[192]". ما هو هذا المثل الأعلى، في النهاية، إن لم يكن حق المولد لشعب أثينا الناشىء من الأرض؟ بعيدًا عن إطلاق تجربة سياسية جديدة، رأى سولون نفسه منخرطًا في عملية ترميم وإصلاح. وبامتلاكه موهبة إعادة اختراع التاريخ التي كانت تُنسب إلى الاسبرطيين، أقنع مدينته بأن الدستور الذي صاغه كان في الواقع نفس الدستور الذي امتلكته في ماضيها البعيد. عملت نسخ من قوانينه، المكتوبة علنًا على ألواح خشبية دوارة، على توضيح ذلك لكل فئة من المواطنين. لقد كفلت للفقراء الحرية والملجأ القانوني ضد انتهاكات الأقوياء؛ وللأثرياء، أعطت الحق الحصري للقضاة وإدارة المدينة. ما الذي يمكن أن يكون أكثر عدلاً وطبيعية وتقليدية من ذلك؟

قبل التخلي عن السلطة ومغادرة أثينا في رحلة بحرية على البحر المتوسط لمدة عشر سنوات[193]، أصدر سولون مرسومًا بأن تظل شرائعه سارية المفعول لمدة قرن على الأقل. لكن ما إن أبحر حتى بدأت المشاكل المألوفة تطل برؤوسها القبيحة. لم يتم الحفاظ على الحكم الرشيد بسهولة في أثينا كما كان سولون الراحل يأمل. تركت قواهم دون قيود، تبجح النبلاء وتنازعوا كما فعلوا دائمًا. وخارج أثينا نفسها، ظلت أتيكا خليطًا من الولاءات والعشائر المتنافسة.

استمرت الحرب من أجل سلاميس ، برغم أنها حققت بعض النجاحات، في الاستمرار. وعلى الرغم من كل جهود سولون، ظلت أثينا رجل اليونان المريض.

ومع ذلك، فإن إصلاحاته أدت إلى شيء بالغ الأهمية. متأثرًا بأساطير مدينته، وادعاءاتها عن العصور القديمة وفي صالح الآلهة، كان سولون يعتبر من المسلم به أن هناك إرثًا على كل أثيني أن يطالب به. بعد أن شعر بالفضيحة عند رؤية مواطنيه يعملون في عبودية وسط الغبار الذي انبثق منه أسلافهم، أمر بخلع قيودهم. لا يمكن أن يكون هناك شك، منذ تلك اللحظة، فيمن كان أثينياً ومن لم يكن. لا شيء، بالطبع، مثل مشهد استعباد الآخر لتعزيز احترام الذات: وبفضل سولون، يمكن حتى لأفقر الفلاحين الآن أن ينظر إلى العبد بازدراء، ويعرف أنه يتمتع بنفس الحرية مثل أي متعجرف من الاثرياء. من المسلم به أنه لم يكن مواطنًا بالقدر نفسه: وكيف يكون وهو ممنوع من الترشح لمنصب أو إسماع صوته في المناظرة؟ ومع ذلك، فإن الأغنياء، على الرغم من أنهم ظلوا يحتكرون السلطة السياسية لأنفسهم، لا يمكنهم تحمل تجاهله وتجاهل زملائه. ربما كان الفقراء صامتين في المجلس-لكنهم ليسو بدون تصويت. "لأن في أيديهم سلطة انتخاب المسؤولين ومراجعة أدائهم-وفي الواقع، لو حُرم الناس حتى من هذا الامتياز، لكانوا لا يزالون يعتبرون على أنهم أكثر بقليل من العبيد"[194].

من الواضح أنه تمت إضافة تيار متقاطع جديد ومثير للاهتمام إلى دوامة المنافسات الأرستقراطية التي لا تنتهي. أفضل طريقة للتفاوض بشأنه كانت تحديًا يتعين على كل نبيل طموح مواجهته من الآن فصاعدًا. من المؤكد أنه لم تكن هناك دعوة لتملق الفقراء-الفكرة ذاتها كانت ستكون سخيفة! -لكن النجاح أو الفشل، حتى بالنسبة الى طبقة النبلاء، قد يعتمد الآن على رفع الأيدي. الدباغون والنجارون والمزارعون والخزافون والحدادون: قد يأتي أي واحد منهم أو كل هؤلاء إلى المجلس لاستخدام أصواتهم. حتى مع استمرارهم في صنع السياسة في الغرف المغلقة في قصورهم، لم يكن بوسع النخبة أن تنسى تمامًا مكان السيادة الآن. كما يليق بالمدينة ذات الأصول الأرضية، فهي لا تقع

فقط في أيدي النبلاء، ولا حتى مع الأثرياء وحدهم، ولكن أيضًا مع مجلس جميع الأثينيين، مع الشعب-مع العامي "demos".

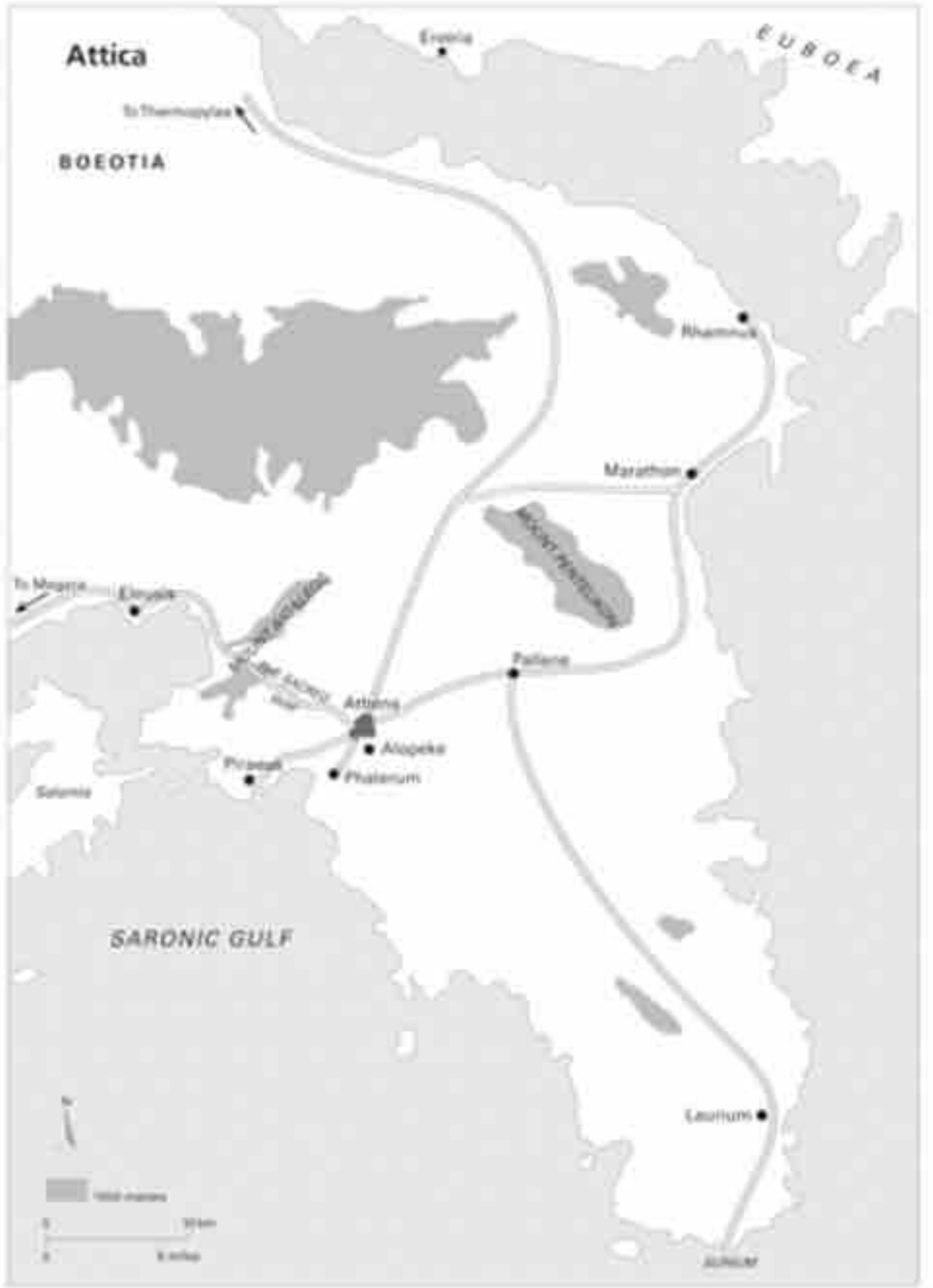
سأحتل الأكروبوليس

لم يكن من المستغرب أن تختار أثينا الأكروبوليس مقراً لها. في البداية، كان هناك المنظر. فعلى ارتفاع خمسمائة قدم فوق باقي أثينا، يمكن حتى للبشر أن يروا لأميال حولها. إلى الجنوب، على بعد ساعة سيرًا على الأقدام، يقع فاليروم، الخليج المفتوح الذي خدم الأثينيين كميناء لهم؛ إلى الغرب، يحجب رؤية سالاميس، قمة جبل إيجاليوس؛ إلى الشمال الشرقي جبل آخر، بنتليكون، حيث يسافر العمال من أثينا لاستخراج الرخام، مما تسبب في جرح منحدراته بالندوب. بالنسبة للإلهة، بالطبع، المتلألئة في سطوع السماء، فإن هذا لن يشكل أي عائق؛ لكن بالنسبة للبشر، المرتبطين بالطرق، كان الأمر أكثر تحديًا. طوق الجبل دربان، أحدهما يلتف باتجاه الشمال والآخر يدور حول الجنوب. كان النبلاء، على وجه الخصوص، المتجهين من أثينا، مسافرين متكررين في الحلقة حول بنتليكون-لانه وراءها، مستوٍ وقرب الشاطيء، كان الموقع المثالي لواحدة من الرياضات المفضلة للطبقة الأرستقراطية. فقد ازدهرت الخيول ومدربوها في ماراثون.

لكن ارتفاعات الأكروبوليس الشاهقة أتاحت أكثر من مجرد المنظر. فأسفل منحدراتها، في المدينة الضيقة والعامرة، لم تكن الأزقة الضيقة منزلًا مناسبًا للإلهة. كانت شوارع أثينا غير ممهدة، وغالبًا ما تكون صخرية، ومغطاة دائمًا بالقذارة، تنعطف وتلتف دون تخطيط. الكلاب والدجاج والماعز والخنازير والأبقار، كلها ساهمت في الرائحة الكريهة ووجود البراغيث. كانت العربات، تهدر وتُصرّ على طول أخاديد معلمة خصيصًا، وتزيد من الضوضاء. كانت أثينا، بحلول ستينيات القرن الخامس قبل الميلاد، قد توقفت منذ فترة طويلة عن تخلفها. كانت هناك دائمًا عربات في المدينة، مكدسة بالأواني، وخاصة الفخار، لأن الحرفيين الأثينيون كانوا يقودون العالم الآن في صناعة السيراميك. حتى ان احدى مناطق المدينة سميت باسمه-على الرغم من حقيقة، أن منطقة سيراميكوس اشتهرت بمقبرتها وعاهراتها الرخيصات.

كم كانت عالية جدا إذن بكل معنى الكلمة.مرتفعات الأكروبوليس. لم تترك الصخرة العارية أدنى شك في قدسيتها. هناك، وقد نمت من الحجر، ارتفعت شجرة الزيتون البدائية، هدية من أثينا وقديمة مثل أثينا نفسها. في الواقع، قيل إنها خالدة. لكن الأثينيين، الذين يحبون الأمان، وغير الراغبين بطبيعة الحال في رؤيتها عارية مجردة من أوراقها، اختاروا منع الماعز من صعود التل: كلها ما عدا واحد، ومرة واحدة في السنة، كان يقاد إلى القمة ويقدم كذبيحة للآلهة. في الواقع، لم يُسمح إلا لمخلوق واحد بالعيش على الصخرة المقدسة: الثعبان. وعاش هذا في حظيرة بالقرب من قبر اراكثيوس، المواطن الأول في أثينا ذو ذيل الأفعى، المولود من الأرض، حيث كانت الكاهنات يطعمنه بمحبة كعك العسل. ويهمس الرجال أنه إذا اختفى، فسيُحكم على المدينة بالسقوط.

ومع ذلك، فإن اقتناع الثعبان بالعيش في الأكروبوليس يمكن اعتباره معجزة. قد يكون مقدسًا، ومع ذلك لم يكن مكانًا للهدوء.



لسنوات، كان موقع بناء دائم. حوالي عام 575 قبل الميلاد، تم دفع منحدر حجري كبير، يبلغ طوله حوالي 250 قدمًا، إلى بوابة القلعة القديمة، ما أدى إلى تحسين الوصول إلى القمة بشكل دائم-وانتقل العمال على الفور. المطرقة لم تتوقف أبدا. ما كان في السابق خليطًا من الأطلال البدائية تحول إلى مزار مذهل مثل أي مزار في اليونان. لم يقتصر الأمر على أعمال البناء فحسب، بل ازدحمت القمة بتماثيل من كل حجم يمكن تصوره: تماثيل للشباب ذوي الضفائر الحلزونية والابتسامات الساحرة؛ وللعذارى المدمّلات بخصلات شعر

متساقطة، وأردية مطوية وأردية ضيقة؛ وللغرغونات، المرسومات بشكل مرعب؛ وللخيول الراقصة والأسود الزمجرة. في مثل هذه الصور، ربما يمكن خافتا، ولكن لا لبس فيها، وجود لمحة من تأثير الشرق، رائعا وشاهقا، كان موطن أصحاب الثراء الفاحش والملوك والأقوياء. كانت أيام المقاطعة الريفية، باختصار، قد ولت بالفعل. ولم يعد هناك أي شيء يتعلق كثيرا بالمصلحة الذاتية في ملاذ الأثينيين الآن.

إلا أن أياً من الأعمال تم فعلاً باسم الأثينيين. وبعيدًا عن الإشارة إلى اندلاع انسجام مدني، نقلت سحابات الغبار في الأكروبوليس الرسالة المعاكسة تمامًا. كان كل مشروع بناء هدية عشيرة مختلفة. فما هي أفضل طريقة للتباهي بين النبلاء من تزيين أفق المدينة؟ كان التفوق، بالنسبة لأحد النبلاء، ليس مجرد القيام بخطوة سياسية، بل محاكاة عصر الأبطال، وتقليد الآلهة الخالدة. "كن دائما الأشجع،" كان المحاربين في حرب طروادة يُنصحون. "كن الأفضل دائمًا".[195] وبعد قرون من الزمان، كانت هذه رسالة ظل الأرستقراطي يرضعها مع حليبه. وعند الطبقات العليا في جميع أنحاء العالم اليوناني كله، كانت بمثابة بيان افتراضي. وهذا هو السبب في انه، إذا كان الولع بحفلات العشاء إحدى علامات النخبة العالمية، فقد صارت سمة مميزة أخرى، خلال القرن السابع قبل الميلاد، وهي متعة الرياضة: المسابقات المذهلة في القدرة على التحمل والمهارة، حيث تألق الشباب من ابناء الذوات. المتقنون للألعاب الرياضية، وهم يتنافسون مع زملائهم النبلاء من أجل المجد الوطني. صحيح، انه قد قيل إن الفائز الأول في الألعاب الأولمبية كان طباخًا، وربما كان في امكان راعي الماعز أن يختلس نصراً خرافياً، ولكن بشكل عام، كان فقط أولئك الذين يملكون الوقت والمال، من يستطيع تحمّل تكاليف التدريب لعشرة أشهر المطلوبة رسميا حسب القواعد. بحلول النصف الأول من القرن السادس، كانت الألعاب في أولمبيا قد اكتملت بدائرة كاملة من المهرجانات الأخرى، لذلك كان بإمكان المتسابقين قضاء عام بعد عام على الطريق، وغالبًا مافعلوا ذلك، وهم ينحتون أجسادهم وينغمونها، والثرثرة مع الأعضاء الآخرين في نخبة النخبة من العالم اليوناني. في عام 566 قبل الميلاد، حتى الأثينيون، الذين كانوا في

القرن الماضي مترفّعين بشكل متمرد بشأن الألعاب الأولمبية، شاركوا في هذا الحدث. تم افتتاح مهرجان رائع على شرف أثينا، مهرجان الباناثينا العظيم، في مدينتهم، حيث تضمنت الجوائز، بالإضافة إلى المجد، قارورة ضخمة من زيت الزيتون. تحدثت المشاريع الكبرى في الأكروبوليس، والجوائز الرياضية: عن "الحلاوة" التي كان عليها "النصر والقوة الخارقة[196]".

ومع ذلك، لم يكن التصفيق عالميًا. قد يكون الابتهاج والتمجيد الذاتي جيدًا للغاية في أولمبيا، ولكنه ليس كذلك، على سبيل المثال، بالنسبة للجنود الذين يتقدمون إلى المعركة. كان من الملاحظ أن الاسبرطيون، الذين نشأوا كي يؤخروا فردانيتهم أمام ما هو جماعي، كانوا هم الوحيدون في اليونان الذين يلعبون مباريات جماعية؛ وتجدر الإشارة أيضًا إلى أنهم أظهروا مشاعر متناقضة بشكل ملحوظ تجاه الرياضيين الأولمبيين. قد يتوقع منافس من مكان آخر في اليونان فاز بالجائزة الأولى في الألعاب أن يرفع نصبٌ تكريماً له، أو الحصول على مكافأة، أو حتى أن يخرق جزء من أسوار مدينته الأصلية، "للاشارة"، كما قيل، الى " أن دولة بمثل هذا المواطن تكون بالكاد بحاجة إلى تحصينات[197] ". لا يوجد مثل هذا الهراء بالنسبة للأسبرطيين-لأسباب ليس أقلها إنه لم يكن للمدينة اسوار كي يهدموها في المقام الأول. وبطبيعة الحال، نظرًا لأن مكانتهم كانت على المحك، كان من المتوقع أن يتنافس رياضيوهم ويفوزوا في أولمبيا، لكن النصب التذكارية لانتصاراتهم، بالعودة مرة أخرى الي اسبرطة، كانت واضحة في غيابها. لم يُمنح الأبطال العائدون أنفسهم أي مكافأة باستثناء تلك الخطيرة المتمثلة في إرسالهم إلى خط المواجهة في المعركة، مباشرة أمام الملك.

لانه دائما، مع الاستثنائي، الشبيه بالاله، يكون الخطر. ارتفع، في عالم الأشياء، مقياس للكمال، شاهقاً مثل جبل أوليمبوس، بوجود الخالدين على القمة، والبشر أسفل التلال، يتطلعون إلى الأبد إلى الصعود إلى أعلى. لكن كان من الخطير أن يصل الرجل بعيدًا جدًا. والأخطار التي تنتج عن ذلك قد لا تؤدي بالبطل وحده، بل من عرفه-في الواقع كل مدينته-الى الخراب. إن الأثينيين، على سبيل المثال، في أيام تفوقهم، لم يكونوا مجرد ساذجين في شكوكهم في الألعاب

الرياضية الدولية، كما أثبت ذلك بشكل كبير مصير كايلون، وهو أحد الاثرياء، وأحد نجومهم الأولمبيين القلائل. عاد البطل إلى منزله حاملاً زيتون جائزة انتصاره، وقد بلغ في النهاية من الغرور درجة أنه تجرأ، في عام 632 قبل الميلاد، على احتلال الأكروبوليس وإعلان نفسه سيد أثينا. غرقت المدينة المروعة في قتال الشوارع. وجد كايلون وأتباعه أنفسهم محصنين على التل؛ طلبوا ملجأ في المعبد. وحصلوا على وعد بالمرور الحر من قبل الأرخون، وعندما ظهروا، تم رجمهم وإعدامهم[198]. كان ذلك درسا مفيدا في الثمار المرة للطموح المرتفع.

فيما عدا أنه في الدول الأكثر انسجامًا مع عصرها من أثينا، أثبت رجال مثل كايلون أنهم بالفعل طلائع المستقبل. كانت قليلة تلك المدن الرائدة في كل مكان من العالم اليوناني التي لم تقع في وقت ما خلال القرنين السابع والسادس قبل الميلاد بين يدي رجل قوي ذو أهداف عالية-وكانت اسبرطة، كما هو الحال دائمًا، الاستثناء الذي يثبت القاعدة. الطغاة " Tyrannides "، كما سمى الإغريق مثل هذه "الأنظمة الاستبدادية". وبالنسبة لهم، لم يكن للمصطلح الدلالات الملطخة بالدماء التي تحملها لنا كلمة "طاغية" اليوم. في الواقع، كان على الطاغية اليوناني، بحكم التعريف تقريبًا، أن يتمتع بلمسة شعبية، لأنه بخلاف ذلك لا يمكنه أن يأمل في الامساك بالسلطة لفترة طويلة. الأبواق والشعارات والأعمال العامة: كانت تلك هي مثيرات الحماسة التي كان يستعرضها على الدوام. كما كان يُتوقع منه أن يقدم، لشعب ربما أنهكه الاقتتال بين الفصائل لعقود، طابعاً لحكومة حازمة-على أقل تقدير. وقد قدم معظمهم الكثير: لقد أثبت بيرياندر، طاغية كورنث الشهير، على سبيل المثال، أنه رجل دولة بارع لدرجة أنه كان يُذكر، إلى جانب سولون، كواحد من حكماء اليونان السبعة[199]. وبطبيعة الحال، وفي مقابل منح مواطنيه نعمة النظام والازدهار، يمكن أن ننتظر من الطاغية أن يطالب ببعض المطالب الخاصة به. قد يطلب أن يتم التغاضي عن بعض الإجراءات غير القانونية، وبعض الاحتياطات المؤسفة: الحراس الشخصيون، على سبيل المثال؛ ضوابط على حرية التعبير؛ الطرق على الأبواب بعد منتصف الليل.

وبطبيعة الحال، كان نظراء الطاغية هم من سيشعرون بألم شديد من هذا الإذلال. قليلة هي العذابات التي يمكن تخيل أن يتحملها الأرستقراطي أكثر من الاستبداد: ما يعادل مشاهدة بطل واحد يفوز في كل سباق، سنة بعد سنة. ولا عجب أن ميغاكليس، الأرخون الذي خدع أتباع كايلون في ملاذهم في المعبد حتى موتهم، كان على استعداد لخطر وصمه بتدنيس المقدسات-لأنه كان زعيم أسرة ألكمايون، أحد أعظم العشائر الأثينية، المنحدرة من ملك، فخور وطموح، وبالتأكيد ليس عبدًا لأحد. ومن المؤكد أن العقوبة التي دفعها هو وجميع أفراد أسرته كانت رهيبة. حتى عند الدفاع عن الحرية، فإن جريمة مثل جريمة ميغاكليس التي ارتكبت ضد الآلهة لا يمكن أن تغفر بسهولة. لقد استغرق الأمر ثلاثين عامًا كاملة من تثاقل أسرة ألكمايون الغاضب قبل أن يتم تقديمهم في النهاية إلى المحاكمة؛ عدا عشيرة ميغاكليس. وفي النهاية، حوالي 600 قبل الميلاد، حُكم عليهم جميعًا بالنفي إلى الأبد[200]. نبشت عظام آبائهم البالية وألقيت خارج حدود المدينة. وصارت أسرة ألكمايون عائلة ملعونة.

لكن حتى الغائبين عن أثينا، استمروا في إلقاء ظلال طويلة وساحرة. في الواقع، وفي الغالب، فإن اللعنة زادت فقط من جاذبيتهم الخطيرة. لقد كان نموذجًا لوقاحة أسرة ألكمايون الرائعة أنهم في اللحظة التي تم فيها نفيهم دخلوا في علاقة مربحة للغاية من المنفعة المتبادلة مع الكهنة في دلفي. نجل ميغاكليس ألكميون، الذي أظهر مقدرة سافرة بشكل خاص على النفاق، قاد الحملة ضد مدينة كريسا المدنسة. ثم نجح في اعداد نفسه للعمل كوسيط بين العرافة الممتنة والملك كرويسيوس، وحصد مكافآت رائعة-لأن كرويسيوس كان سعيدًا جدًا بدبلوماسية وكيله لدرجة أنه دعاه لزيارة الخزانة الملكية في ساردس وأخذ كل الذهب الذي استطاع أن يحمله[201]-استفاد ألكميون من هذا العرض، كما قيل، بارتداء ثوب نسائي فضفاض وحذاء رقيق وجده، ثم ملأهما بالذهب. حتى أنه "عندما خرج مترنحًا، كان بالكاد يستطيع أن يجر قدميه، وكان رداؤه منتفخًا بشكل فاحش، وحتى شدقيه كانا ممتلئتين حتى كادا ينفجران[202]".

بقيت نظرة أسرة ألكمايون ثابتة لفترة طويلة على مدينتهم الأصلية، على الرغم من أن المنظر بحلول عام 560 قبل الميلاد أصبح محبطًا بشكل

متزايد. بدت أثينا في ذلك العقد تحت سيطرة النبلاء من أصحاب الفخامة الهائلة، ليكورغوس، زعيم البوتيين، وهي عشيرة من ذاك النسب الذي لا تشوبه شائبة لدرجة يمكنها أن تدعي التحدّر من شقيق اراكثيوس نفسه. زودت هذه السلالة ليكورغوس بما يكاد يكون ادعاء بملكية الأكروبوليس-وهي ميزة استغلها بعيون المتعهد إلى أقصى حد. يكاد يكون من المؤكد أن ليكورغوس كان مسؤولاً عن بناء الطريق المنحدر الضخم المؤدي إلى القمة، وافتتاح المهرجان الجديد الأول في المدينة، الباناثينا العظيم. مما لا جدال فيه، أنه تم ترسيمه في أكثر المعابد احترامًا في الأكروبوليس بأكمله، وهو معبد أثينا بولياس، "حارسة المدينة"[203]. ربما كان هذا الضريح متواضعًا وقديمًا، لكنه احتوى في غموضه على قداسة لا حد لها: تمثال سقط من السماء منذ أوقات بعيدة، صورة ذاتية صنعتها أثينا نفسها من خشب الزيتون[204]. وعلى الطريق المنحدر، والمهرجان، والتمثال: كانت بصمات ليكورغوس فوقها جميعًا. نُظم لأول مرة في عام 566 قبل الميلاد، و كل أربع سنوات بعد ذلك، كلما أقيم الباناثينا العظيم، كان موكب عظيم يصعد المنحدر إلى معبد أثينا ويُقدم للتمثال، الذي يحمل الان حول رقبته رأس ذهبية لغورغونة، ورداء جميلا مطرزاً نسجته أنبل عذارى المدينة. كان الهوبليت والفرسان، والشيوخ الموقرون والفتيات الصغيرات، وحتى الأجانب المقيمين في المدينة، كلهم سيأخذون أماكنهم في الموكب المذهل. وكان باختصار، عرضاً قدم لعشيرة البوتيين ذيوعاً يستحق الموت لأجله.

لا يعني ذلك أن ليكورغوس كان العنوان الرئيسي الوحيد في ستينيات القرن السادس قبل الميلاد. فوسط كل إثارة الاحتفالات في أثينا، كان جنرال يُدعى بيسستراتوس قد أنهى أخيرًا الضغط المالي المستمر للحرب مع سلاميس . ورغم أنه بالتأكيد لم يكن يفتقر إلى العلاقات-حتى قيل إنه كان محبوبَ سولون عندما كان صبيًا-لم يكن بيسستراتوس يتوهم أنه يستطيع تحدي البوتيين عندما يتعلق الأمر بالجاذبية المتغطرسة. لكن بحلول نهاية العقد، مع هزيمة ميغارا ووقوع سلاميس أخيرًا بشكل آمن في أيدي الأثينيين، كان قد وطد مكانة هائلة. لم يكن بيسستراتوس مجرد بطل حرب، بل كان أيضًا ساحرًا ومخططًا، ينعم بلمسة شعبية، ويمتلك انتباها نادرا للفرص التي أوجدتها إصلاحات

سولون. بعد أن وضع نفسه في البداية كمتحدث باسم أفقر فقراء الريف، قام بعد ذلك باصطناع هجوم دراماتيكي على نفسه، وناشد الجمعية أن يتوفر له حراس شخصيون. على الرغم من إنجازات سولون، حبيبه السابق القديم الآن، الذي خرج من التقاعد ليحذر بشكل فاضح من طغيان وشيك، فقد أُعطي بيسستراتوس ما طلبه-وسرعان ما احتل الأكروبوليس.

اشتمت أسرة ألكمايون، التي كانت ما تزال في المنفى، ولكنها كانت تتشمّم الهواء، فجأةً رائحة الفرصة. ارسلت الاقتراحات المبدئية الى البوتيين. ليكورغوس، وقد أذهله الانقلاب، اعاد تقييم اعتراضاته على عودة اسرة ألكمايون، ووجد نفسه يبتلعها على عجل. كان التقارب بين العشيرتين الكبيرتين محضّرًا على النحو الواجب. كان هناك القليل مما يمكن أن يفعله بيسستراتوس ضد مثل هذا الاقتران الثقيل. بدأ موقعه ينهار يومًا بعد يوم. وبدلاً من اتخاذه وقفة محكوم عليها بالفشل، كما فعل كايلون، اختار أن يوقف خسائره والفرار إلى المنفى.

ومع ذلك، ربما، وسط مايبدو الخراب الواضح لكل آماله، تمكن بيسستراتوس من طمأنة نفسه بأن وقته سيأتي مرة أخرى. لابد أنه قد حسب أن أسرة ألكمايون -المراوغين والمتغطرسين والأثرياء الفاحشين-هم بالكاد صالحون كشركاء مُتَيَسِّرين لأي شخص. مهما كانت الشروط الدقيقة لاتفاقهم مع ليكورغوس، وبدا من غير المرجح أنهم سيكتفون بلعب دور ثانوي لفترة طويلة. ومما لا شك فيه أنه ما أن عادوا إلى أثينا، حتى ركزت أسرة ألكمايون حساباتها على البيئة الطبيعية للإعلان عن الذات، الأكروبوليس، والاستفادة من احتياطياتهم من الذهب الليدي. يبدو من المحتمل، على أقل تقدير، أن معبدًا حجريًا ضخمًا أقيم في هذا الوقت تقريبًا، وكان الأول من هذا الحجم الذي يتم بناؤه في الأكروبوليس، كان من عمل أسرة ألكمايون[205] من غيرهم كانت لديه الموارد-أو الدافع-لرعاية مثل هذا المشروع؟ تم تزيين المعبد بشكل فاخر، بالثعابين ذات الألوان الزاهية، والثيران، والأسود، والتريتونات[206] ذات الذيل السمكي، والرجال ذوي اجساد ثلاثية بلحى زرقاء مشذبة، لابد أن المعبد

كان تعبيرا عن نوايا أكثر اسرافا. بالتأكيد، وضع ضريح أثينا بولياس القديم المتهالك، والبوتيين معه، تمامًا في الظل.

لكن الجديد، في رأي الأثينيين، لم يكن بالضرورة الأفضل. قد يكون معبد أسرة ألكمايون مذهلاً، لكنه يفتقر إلى ما أعطى الضريح القديم قدسيته الفريدة: وجود أثينا نفسها. بحلول منتصف عام 550، حيث أصبحت العلاقة بين أسرة ألكمايون والبوتيين مريرة بشكل متزايد، بدأت أسرة ألكمايون في البحث عن طريقة جديدة للتغلب على ليكورغوس، والمطالبة بأثينا لأنفسهم. وقد وجدوا ذلك، في عرض جيد للانتهازية، بالتحالف مع نفس الرجل الذي دفعوه إلى المنفى قبل أقل من خمس سنوات -وتلفيق مؤامرة رائعة. أولاً، لتدعيم التحالف الأسري، اضطر بيسستراتوس إلى الانفصال عن زوجته، وهي ارغوسية من ذوات الدم الأزرق اسمها ثيموناسا، والزواج من أسرة ألكمايون. بعد ذلك، عاد إلى أتيكا، وتوجه إلى قرية جنوب جبل بنتليكون. عاشت هناك بائعة زهور، امرأة سامقة ذات جمال استثنائي، تحمل الاسم الجدير بها: فيا – وتعني "قامة". زين بيسستراتوس، المرأة الفلاحة بخوذة ودرع أثينا ووضعها في عربة، وسار بها على الطريق المؤدي إلى أثينا، وبعث الرسل قبلهما، ليعلنوا أن الإلهة كانت تقود من فضّلته شخصيًا إلى الأكروبوليس. حيلة شائنة-لكن بيسستراتوس نجح في تنفيذها بطريقة ما. لم يفكر أحد في الضحك على الموكب. بل توافد الجميع للتحديق فيه. بالنسبة لكثير من الأثينيين، الذين أذهلهم مشهد الإلهة وهي تجوب شوارع مدينتهم، بدا الأمر وكأنه تجلٍّ ساحر ورائع. وبدا المشهد للآخرين، وهم يشاهدون العربة وهي تشق طريقها إلى الأكروبوليس، عملا مسرحيا مبهراً. في النهاية، لم يعتقد أحد حتى نجم الساحة البارز ليكورغوس أن تظهر أثينا شخصيًا لتزيين معبدها. وقامت أسرة ألكمايون بانقلاب، بكل معنى الكلمة.

بيسستراتوس، بعد أن استولى على الأكروبوليس للمرة الثانية، كان قد تجاوز بالفعل فائدته لهم. وبسلاسة بدأوا بطعن صهرهم في الظهر، بدأت أسرة ألكمايون في نشر شائعة مروعة[207]. ليس الهمس فقط، بأن بيسستراتوس كان يحرم زوجته من الملذات التي تستحقها أي عروس. بل كان أيضًا، كالوحش،

وكما اتضح أنها حقيقته، يشبع رغباته على جسدها شريف النسب بطرق كريهة وغير طبيعية. شرف العائلة، بمجرد أن اخذت أثينا تعج بالفضيحة، أجبر أسرة ألكمايون حتماً على الانقلاب على شريكها السابق؛ حتى لو كان ذلك يعني بناء الجسور مع ليكورغوس، عدوهم السابق. بيسستراتوس، الذي واجه مرة أخرى تحالفاً من أقوى عائلتين في المدينة، تراجع بسرعة إلى منفى مخزٍ ثان. وأثينا، كما كان من قبل، تركت في أيدي أسرة ألكمايون والبوتيين. هذه المرة، مع ذلك، لا يمكن أن يكون هناك شك فيمن كانت العشيرة البارزة.

ولكن في خيانتهم لبيسستراتوس، قللت أسرة ألكمايون بشكل كبير من تقدير رجلهم. في الواقع، من خلال استغلاله ثم إسقاطه بطريقة غادرة للغاية، فقد قدموا له درساً رئيسيًا لا يقدر بثمن في الفنون السياسية الخبيثة. وسيُظهر خلال العقد التالي، أن بيسستراتوس قد تعلم الدرس جيدًا. وبطريقة ما أقنع زوجته تيموناسا التي هجرها بالعودة إليه، ونجح أيضًا في إصلاح صداقته مع أقاربها في أرغوس. وبالمثل، اقنع الداعمين الأثرياء في طيبة بمنحه الرعاية. وجمع ثروة وجنّد قوة تكفي للغزو. وبحلول عام 546 قبل الميلاد، كان بيسستراتوس جاهزًا. فهبط هو ورجاله على الشواطئ الضحلة في ماراثون. وهنا كان مطمئنًا إلى الترحيب الحار-لأن عشيرة بيسيستراتوس كانت لهم دائمًا روابط عائلية وثيقة مع القرى الموجودة في السهل. يبدو أن أسرة ألكمايون لم تكلف نفسها عناء الانزعاج وأخذوا الطريق الجنوبي حول جبل بنتليكون، وقادوا على مضض جيشًا حتى قرية باليني. هناك، بطريقة تعكس بصوت عالٍ ازدرائهم لعميلهم السابق، توقفوا لتناول غداءهم، على الرغم من أن بيسستراتوس كان يقترب. وكان الاشتباك، عندما جاء اندحاراً: فوجأ الأثينيون وهم يتناولون الطعام بالجيش الذي كان يضم كلاً من سلاح الفرسان في طيبة وألفا من جنود المشاة الأرغوسيين وهربوا كحشد من الرعاع إلى أثينا. وخلفهم في غبار باليني، كان يرقد واحد على الأقل من أسرة ألكمايون، وقد قُتل "في الجبهة الأمامية للمعركة"[208]. أفراد الأسرة الناجون، بدلاً من العودة مع جيشهم المهزوم إلى أثينا، وانتظار انتقام بيسستراتوس، فروا عبر حدود أتيكا-وقد صاروا منفيين مرة أخرى.

في غضون ذلك، واصل بيسستراتوس نفسه، مستمتعًا بانتصاره، تقدمه في أثينا. لم يعد بحاجة الان الى إلهة لتعلنه المفضل لديها. مرة أخرى، تسلق المنحدر العظيم الذي يؤدي إلى الأكروبوليس واستولى على القمة. وبكرم فائق، أخبر بيسستراتوس مواطنيه "أنه لا ينبغي أن يشعروا بالذعر أو الإحباط، بل يجب أن يذهبوا ويهتموا بأعمالهم الخاصة، ويتركوا كل أعباء الدولة على عاتقه"[209]-اعترافًا من الأثينيون بخضوعهم. استداروا وفعلوا كما أمر سيدهم الجديد، واعتبروا-مرتاحين ربما-أن الطاغية كان بالتأكيد سيبقى هذه المرة.

دراما بسبب أزمة

وقد ثبت ذلك. لم يعد بيسستراتوس يقوم بالمزيد من الرحلات الأجنبية. بقسوة حريرية أظهرت أنه لم يتبق له شيء ليتعلمه الآن من أسرة ألكمايون في المنفى. قام بالتناوب بترهيب و ترغيب زملائه النبلاء في مرونة غير مسبوقة. جمع أطفال المنافسين البارزين كرهائن في جزيرة ناكسوس في بحر إيجة. ظهر العبيد من سهول سيثيا، وهي برية وحشية بعيدة إلى الشمال من اليونان، فجأة في دوريات في الشوارع، في مشهد ينذر بالخطر لأي مواطن، وهم مسلحين كقوات شرطة يمسكون بالأقواس والسهام، ويرتدون قبعات مدببة غريبة. البناء المتنافس في الأكروبوليس، بعد أن كان العرض الوحيد في المدينة، توقف ببطء. ومع ذلك، كان بيسستراتوس، رغم احتفاظه بأغنى حصائل المدينة لنفسه، حريصًا أيضًا على أن يلقي لمنافسيه في بعض الأحيان ببعض الفَضلَة المثمرة: مجلس القضاء، ربما، أو قيادة خارجية.

حتى أعظمهم كانوا راضين عن قبول رعايته. فقد حصل ملتيادس، على سبيل المثال، وهو زعيم الفيلايين، على إذن بقيادة حملة استكشافية عبر بحر إيجه إلى هيلسبونت، المضيق الضيق الذي يفصل بين آسيا وأوروبا، والمعروف اليوم باسم الدردنيل. ارتاح ميلتيادس لتمكنه من فرد جناحيه واستغل فرصته بحماس. وعند وصوله إلى هيلسبونت، هبط على كيرسونيس، شبه الجزيرة الرقيقة التي تشكل الضفة الأوروبية للمضيق، والتي يمكن من خلالها التحكم بسهولة في الوصول إلى البحر الأسود وشواطئه المليئة بالذرة والذهب. هناك ألقى بنفسه في حرب تهدئة سريعة، ليس ضد السكان الأصليين فقط، بل ضد

أي مستعمر يوناني أسس وجودا له هناك بالفعل والذي قد يعترض طريقه. بعدها، مع ترسيخ سلطته على شبه الجزيرة بأكملها، استقر، بمباركة بيسستراتوس، ليؤسس ديكتاتورية خاصة به. جعل هذا الجميع- ما عدا ضحايا حملاته التعساء بالطبع-فائزين. بالتأكيد، لا يمكن ابتداع اخبار أفضل لتسعد قلوب الاثينين. لقد تجاوزت أتيكا، بتربتها الرقيقة وسكانها المزدهرون، الاكتفاء الذاتي منذ فترة طويلة، ولم يكن الخوف من المجاعة بعيدًا، حتى مع ازدهار أثينا. نحو بيسستراتوس، الرجل الذي يمكن أن يتباهى بأنه أرسل ملتيادس إلى كيرسونيس، وبالتالي تأمينها لمصلحة الشعب الأثيني، كان من الطبيعي أن يكون الامتنان الكبير مستحقًا. الطاغية نفسه-الذي نجح في إطعام مواطنيه، وأمن طريقًا تجاريًا حيويًا للأعمال التجارية الأثينية وتخلص من منافس يحتمل أن يكون خطيرًا، كل ذلك بحركة واحدة بارعة-يمكن أن يتأمل بارتياح قيامه بعمل جيد.

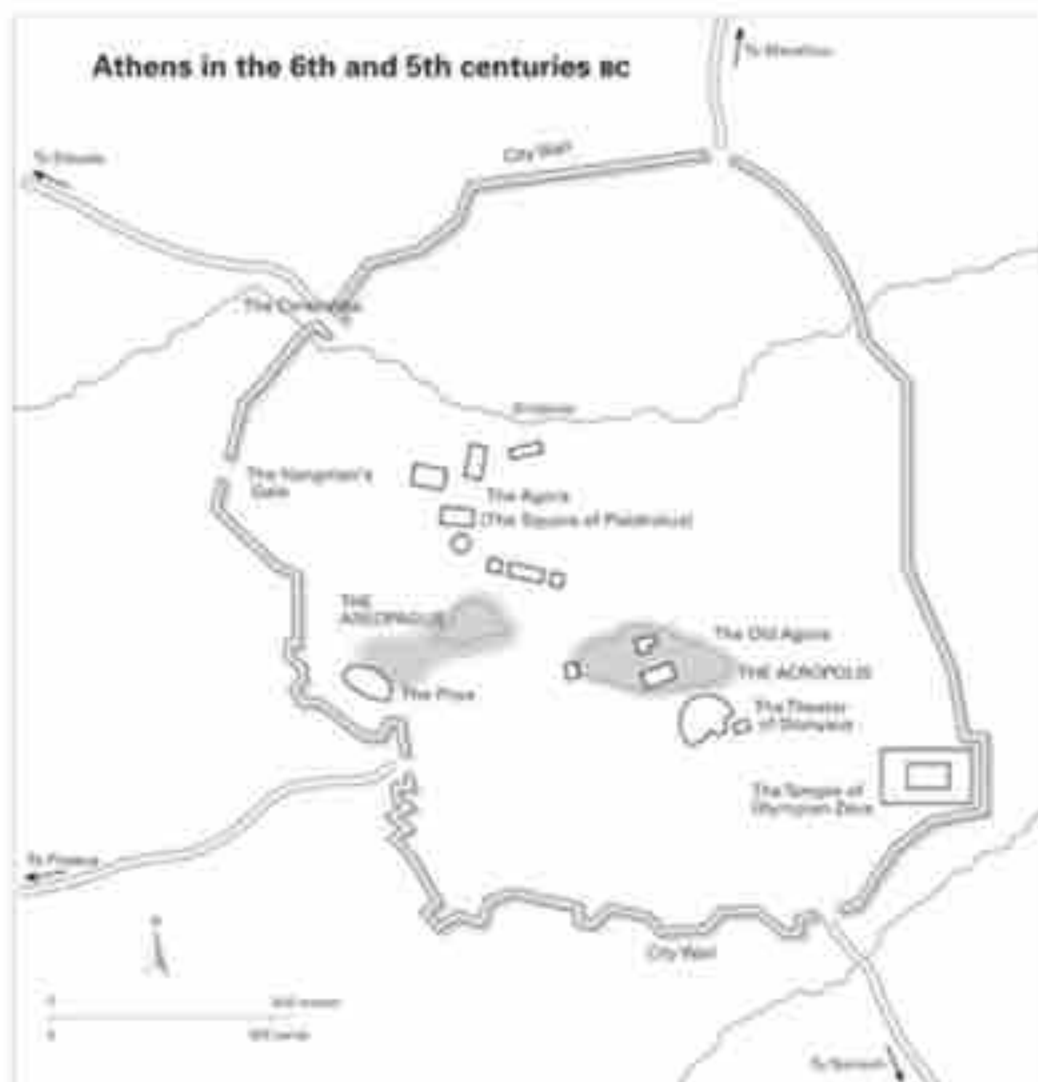
كان قتل أكثر من عصفور بحجر واحد جيد التوجيه بمثابة رمية كلاسيكية من البيستراتيين. فلماذا، في النهاية، يكتفون بتحييد النبلاء عندما كان هناك رجال أعمال وخزافون ومزارعون يمكن التودد لهم أيضًا؟ كان سولون، قبل سنوات، قد جرؤ على طرح سؤال مماثل-لكنه تراجع رعباً من الإجابة. " اعط المهماز الذي أعطيتُه "كما حذر بشكل صارم "الى شخص عديم الضمير وفي حالة تأهب، وسترى كيف يجعل الغوغاء يفقدون الانضباط[210]". كان سولون يتكلم بسلطة اخلاقية لرجل رفض إغراءات الاستبداد. لكن بيسيستراتوس، على الرغم من استسلامه لهم بكل إخلاص، كان بإمكانه أن يدعي ببعض التبرير أنه كان يتبع طريق عشيقه القديم فحسب. إذا كان تلاعبه بالخصوم الأرستقراطيين يدين بالكثير لمسار أطلقته اسرة ألكمون بالفعل، فقد كان، في اهتمامه بالعروض الترويجية، كما هو واضح يعتمد على مثال سولون نفسه. هذا هو السبب، في أن بيسستراتوس رغم كونه مستبدًا بلا شك، قد أظهر احترامه المرتاب للمجلس-"كمواطن وليس طاغية[211]" قال مراقبون- كان أكثر من مجرد غزل. لم يكن بسببه اشمئزاز اتباعه النبلاءوهم يتكرمون بالتودد مع العمال الفانحين بالعرق أو التجار . استغل بيسستراتوس بنشاط

الحماسة الشعبية لنظامه. كان يتجول بلا كلل في الريف، مصافحاً حتى أكثر عمال الحقل تواضعًا، ومحققاً العدالة حتى أبعد حقل صغير، "حتى لا يضطر أولئك الذين لديهم شكاوى إلى السفر طوال الطريق إلى أثينا، والتأخر في أعمالهم[212]." في هذه الأثناء، بالعودة إلى المدينة نفسها، كان البناؤون يعملون على بناء ميدان جديد مذهل عند سفح الأكروبوليس، ميدان سيعلو قريبًا خرير مياهه العذبة، تتدفق من تسعة نافورات، وهي تتلألأ ببريق الرخام المنقوش حديثا. فكيف يمكن لأي مواطن أثيني وهو يحدق في مثل هذه المشاهد التي لانظير لها، أن يشك في عظمة الطاغية أو احسانه. يبدو أن أثينا قد دخلت حقًا "عصرًا ذهبيًا[213]".

بالتأكيد كان هناك القليل من الحماس نحو الحديث عن الحرية. في ربيع عام 527 قبل الميلاد، عندما توفي بيسستراتوس أخيرًا بسلام في فراشه، خلفه ولديه، هيبياس وهيبارخوس، دون تحدي سلام فترة حكمه التي استمرت تسعة عشر عامًا. ولابد أن سفير الملك الفارسي الذي أرسل ليتعهد بشؤون مدينة نائية وغامضة للغاية، لم يجد صعوبة في تحديد شكل الحكومة التي يبدو أنها السائدة في أثينا-وبالتأكيد، في طبيعة حكم الأخوين كانت هناك بالفعل نفحة من الملكية. وكانت أذواقهما، إلى درجة استثنائية حتى بمعايير الدهما، تنحو نحو الضخامة. وأي مواطن يشكك في ذلك عليه أن ينظر فقط إلى جنوب شرق أثينا، هناك مشهد آخر من الطرق والحفر، حيث كان الاخوان بيسيستراتوس، الذين لم يكتفيا بالتجميل المستمر لساحة والدهما الرائعة، في عرض أكثر طموحًا: قد شرعا في بناء معبد هائل لزيوس كان حابسا للانفاس لدرجة أن الفلاسفة، الذين جابوا الموقع بعد قرون، سيقارنونه بالأهرامات.

لكن هيبياس وهيبارخوس لم يكونا فرعونين. وعلى الرغم من أن مشاريع البناء الخاصة بهما كانت مبهرجة، إلا أنهما في الواقع لم يحتلا أي رتبة رسمية داخل المدينة على الإطلاق. تمامًا كما كان الموقع الذي أقيمت عليه أعمدة المعبد العظيمة موقعًا قديمًا، ومقدسًا منذ زمن طويل لزيوس، كذلك شعر البيستراتيين في نفسيهما، في مواجهة الطبيعة المحافظة لمواطنيهم، أنه من الأفضل تجذير سلطتهما في تربة التقاليد. كان عليهما أن ينغمسا في الحماسة

للهندسة المعمارية وهو الشيء الوحيد الذي كان متوقعًا دائمًا من النبلاء، ولكن كان الأمر مختلفًا تمامًا للتباهي بالأصل والطبيعة الحقيقية لسلطتهما. إذا أثبت المنافسون عنادهم، فمن الأفضل قتلهم في هدوء. ما حدث خلف الأبواب المغلقة، في أقبية مظلمة، بالكاد يمكن التباهي به في الأماكن العامة. كان على الاخوان بيسيستراتوس اخفاء كما كان عليهما إعلان استبدادهما.



لذلك، فقد أخفيا، بلطف، عري تفوقهم وراء حجاب دستور سولون. استمر السماح للمرشحين من عائلات أخرى غير عائلة البيستراتيين بالترشح للرئاسة. كان معظمهم بطبيعة الحال من المقربين للطاغيين-معظمهم، ولكن ليس كلهم بأي حال من الأحوال. كان اثنان، على وجه الخصوص، سيبرزان لأي شخص يستعرض قائمة بأسماء كل أرخون بالمدينة. كان أحد هؤلاء، بشكل مذهل، هو ميلتيادس: ليس المغامر الذي كان معاصرًا لبيسيستراتوس، بل ابن أخيه، ظهر مؤخرًا كزعيم للفيلايين، ومن سيكون طاغية كيرسونيس نفسه. فوقه بقليل كان هناك ماهو أكثر ادهاشاً: أحد الكمايونيون، ليس سوى، كليسثينيس، عاد الى أثينا وأعلى منصب فيها لصالح الاخوين. فمن يستطيع أن يشك، عند رؤية المنفي السابق على قائمة الأرخون، في شرعية النظام الذي وضعه هناك؟ ومن

سيشك في أن الإخوين سيبقيان، عندما يظهر حتى ألد أعداء الطغيان قانعاً بتجميله.

ومع ذلك، كان من الممكن تفسير عودة كليسثينيس في ضوء مختلف تمامًا. هل يمكن أن يكون الكمايونيون، هؤلاء الطاعنون في الخلف المتأصلون، قد دفنوا الأحقاد حقًا؟ كان الاعتماد على حسن نيتهم مقامرة بالتأكيد. من المؤكد أنه بعد فترة وجيزة من انتهاء فترة حكم كليسثينيس، أنه تصرف بثقة زائدة وأجبر على العودة إلى المنفى[214]. يمكن أن يُنظر إلى هذا على أنه انتصار للبيستراتيين-لكنه كان انتصارًا مخيفا بشكل غريب. مصدر شرعيتهم، في النهاية، هو قدرتهم على حفظ السلام والنظام العام. انحدروا إلى الاقتتال بين الفصائل وستبدأ قبضتهم على السلطة في التراخي. في حين أنهم بالكاد يمكن أن يسمحوا بالاضطرابات الشعبية، كما يستطيعون، المخاطرة بالانغماس في الكثير من القمع الذي قد يوقفها. في ضوء هذا، حتى معبد زيوس قد لا يبدو وكأنه نصب تذكاري لثقتهم بأنفسهم أكثر من كونه خدعة هائلة.

وفي الحقيقة، كانت هذه الأوهام هي السمة المميزة للنظام. انظر في اتجاه، وقد تبدو أثينا في الواقع ملكية. انظر في اتجاه آخر وسترى شيئا مختلفا تمامًا. المواطن الذي يتفقد قائمة أرخون، إذا نظر نحو الشرق، سيرى، على طول المساحة المفتوحة، بريق النقود في الايدي المتغيرة، ويسمع صخب الأعمال-لأن الساحة، كممارسة شاقة في الترويج للبيستراتيين، كانت بالفعل تعج بالتجارة. كان التجار يسمنون من الاستبداد. كان وزن الفضة ثقيلًا على طاولات العد في جميع أنحاء المدينة، ويبدو أن العملات المعدنية موحدة، من قبل البيستراتيين أنفسهم، مختومة على أحد جوانبها صورة أثينا وعلى الجانب الآخر بومتها المقدسة-عملة نقية جدًا لدرجة أنها أصبحت بالفعل من بين الأقوى في أي مدينة. ولكن إذا كانت قد ساعدت في جعل الأغنياء قوة يحسب لها حساب أكثر من أي وقت مضى، فقد أدت أيضًا إلى اعلاء صورة أولئك الذين تعتمد عليهم الشركات الكبرى، سواء أكانوا خزافين من سيراميكوس أو المزارعين الذين زودوا معاصر الزيتون. كان هيبياس وهيبارخوس، مثل والدهما، يتوددان إليهم جميعًا. كان كل فصل دراسي في أثينا قد كُسب وده وأطري بطريقة ما.

تمامًا كما تم تشجيع الأرخون على التظاهر بأن الدستور كان شيئًا أكثر من مجرد خدعة عظيمة، كذلك ظل الناس يصورون أنفسهم كمواطنين يتمتعون بالسيادة، من مواليد الأرض، أحراراً. كان ذلك يقال للخزافين والمزارعون كثيراً من الأحيان حتى ينتهي بهم الأمر إلى تصديقه. خدم هذا الوهم بشكل طبيعي أغراض الطغاة الخاصة بشكل جيد. نادرًا ما يكون الممثلون أكثر صدقاً مما لو كانوا مقتنعين بواقعية أدوارهم.

من بين العديد من النصب التذكارية التي أقامها الاستبداد لنفسه، الان، ربما لم يكن معبد زيوس أو أي مشروع كبير آخر أكثر ملاءمة، بل بالأحرى إدمان الأثينيين على ارتداء الأقنعة والقاء النصوص شفوياً ولعب الأدوار. وهي تبحث عائدة الى الولادة الغامضة للتراجيديا، لن تتردد الأجيال اللاحقة، في أن تنسب اصلا إلى رعاية الطغاة مهرجانًا جديدًا مرموقًا، مدينة ديونيزيا، التي كان محورها الاساسي التسابق بين التراجيديين المتنافسين-ولا في تخيل الدافع. لمثل هذه الرعاية. في النهاية، "نسمح لأنفسنا فقط بالثناء على التخيل وتكريمه"، كما قيل إن سولون حذر، "والشيء التالي هو أن نجده يتسلل إلى أعمال الدولة ذاتها[215]". الذي كان بالطبع جذابا للبيستراتيين، بالتحديد.

ومع ذلك، بدا أنهم أيضًا، تائهون في قاعة من المرايا من صنعهم، يتوقون أحيانًا إلى يد مرشدة. إن أفضل طريقة للعثور على واحد في مدينة أصبحت فيها الحدود بين الخيال والحقيقة والدعاية والحقيقة غير واضحة إلى هذا الحد، كان بطبيعة الحال تحديًا. خوفًا من الاعتماد المفرط على أي وكالة بشرية، اختار الأخوان بدلاً من ذلك وضع ثقتهما في ما هو خارق للطبيعة. قيل إن هيبياس "كان لديه فهم أعمق للعرافة أكثر من أي إنسان آخر [216]" وقام مع أخيه برعاية أرشيف ضخم من النبوءات، والتي قاما بتخزينها بمحبة في الأكروبوليس. عندما اكتشف هيبارخوس أن أمين المحفوظات، وهو قريب له اسمه أونوماكريتوس، كان يتلاعب بهم، كان الطاغية مستاءً للغاية لدرجة أنه طرد صديقه على الفور. في النهاية، كان الذكاء دائمًا جيدًا مثل مصدره. بوضع هذا في الاعتبار، اعتمد الأخوان بشكل خاص على أحلامهما-وبهذا المعنى حكما مدينتهما دون صعوبات لمدة ثلاثة عشر عامًا.

بعد ذلك، في إحدى الليالي الحارة في صيف عام 514 قبل الميلاد، عشية مهرجان الباناثينا العظيم، كان هيبارخوس قد رأى حلماً لم يستطع فهمه. تحدث إليه شاب جميل جدا من جوار سريره، محذرا إياه بالطريقة العاجلة والمبهمة التي في الأحلام من الجرائم التي يجب دفع ثمنها دائما. من المؤكد أن هيبارخوس، الذي استيقظ في صدمة، كان قد عكف على تحديد الجريمة التي ربما يكون قد ارتكبها وإجراء الاصلاحات-ولكن كان ذلك صباح يوم الباناثينا العظيم ولم يكن لديه الوقت. بدلاً من ذلك، ترك منزله، وسارع عبر ساحة والده متجهًا إلى سيراميكوس، حيث كان شقيقه ينظم الموكب العظيم الذي سيغادر قريبًا إلى الأكروبوليس. أثناء مروره بمعبد على حافة الميدان، رأى هيبارخوس رجلين تعرف عليهما كانا يشقان طريقهما نحوه. ربما بعد فوات الأوان، أدرك فجأة حلمه. لأن الرجلين كانا قادمين لقتله. أحدهما، هو هارموديوس، كان الرجل الأكثر وسامة في أثينا، "في روعة شبابه الكاملة"[217] بينما الآخر، أربستوجيتون، كان عشيقه-و كان هيبارخوس ، الذي كان لديه عين تجيد تقدير الجمال، قد حاول أن يفصل بين الاثنين من أجل مصلحته، وبالتالي أساء إليهما بشكل قاتل. خوفًا من قوة الطاغية، ومعرفة أنه ليس لديهما ملاذ آخر، كان العاشقان ينتظران فرصتهما، حتى بدء مهرجان مثل باناثينا، حيث كان الجميع يضعون السيوف. عندها قد تحين فرصتهم. هيبارخوس الان أمامهم، والحشود تشتت حراسه، فضربوه بالسيف.

كان ذلك منتهى مؤامرتهما. قُتل هارموديوس نفسه على الفور؛ اما أربستوجيتون، فعلى الرغم من تعرضه للتعذيب لبضعة أيام، لم يكشف عن أي مؤامرة أوسع. ومع ذلك، هل يمكن أن يتحمل هيبياس تصديق أن القاتلين قد تصرفا بمفردهما؟ في النهاية، قُتل هيبارخوس لأنه أساء استخدام سلطته؛ وكان الهمس في الشوارع أنه كان ضحية، ليس لجريمة عاطفية، بل لضربة بطولية في قضية الحرية. بدأ هيبياس يصاب بجنون العظمة. ومع انحسار ثقته، بدت مسرحية خيال الظل التي دبرها هو وعائلته منذ فترة طويلة خدعة على نحو متزايد. كان التوازن الذي كانوا يقيمونه دائمًا بمثل هذه الرقة-بين الطبيعة الحقيقية لنظامهم والمجموعات التي كانت تجمله، بين التهديد

والسخاء الكريم-مزعجًا بشكل قاتل. وبأساً، بدأ هيبياس المفجوع والمذعور بالاعتماد بشكل متزايد على الرعب السافر. وسرعان ما أدت عمليات الإعدام، التي نُفذت في الغرف الخلفية، إلى غسل المدينة بالدماء. ولّد القمع التآمر. أدى التآمر إلى مزيد من القمع. بدأ التظاهر بأن أثينا ليست سوى دولة بوليسية يبدو مزحة وحشية. هيبياس، الذي كان سابقًا "رجل يسهل الوصول إليه دائمًا[218]" الآن يحتمي بين السكيثيين ومرتزقته الأجانب الآخرين، كما لو كان مستبدًا أجنبيًا، كما لو كان بالكاد أثينيًا على الإطلاق.

ولكن من كان هناك ليتخلص منه؟ كان الحديث الساخن عن الثورة في صالونات الطبقة الأرستقراطية أو في حانات سيراميكوس معقولا-ولكن كان على أحدهم أخذ زمام المبادرة. تحولت كل الأنظار إلى كليسثينيس، الذي تجسد كما يجب، وكان كابن آوى دائمًا، على الحدود الشمالية لأتيكا، بعد عام تقريبًا من وفاة هيبارخوس. حانت فرصة للتخلص من هيبياس، فشل الأثينيون بشكل واضح في استغلالها. فعلى الرغم من استيائهم من الاستبداد، إلا أنهم لم يكونوا أكثر حماسًا لاعادة أسرة ألكمايون إلى السلطة. لم يكن أمام كليسثينيس، بمجرد أن قضى مرتزقة هيبياس على قوته الغازية، إلا أن يتراجع عبر الحدود. وخلفه، في ساحة المعركة، ترك جثث اولئك الأثينيين القلائل الذين تجرأوا على دعمه. "المحاربون الطيبون، والمولودون بطريقة نبيلة-أظهروا الدم الذي يتدفق في عروقهم[219]."

بالنسبة للأثينيين، على ما يبدو، تم الكشف عن حقيقة قاتمة: البديل الوحيد للعبودية هو النفي أو الموت.

القوة للشعب

لا يعني ذلك أن كليسثينيس نفسه الذي لا يمكن كبحه قد استسلم. كان التخبط في عدم الثقة بالنفس بالكاد هو اسلوب ألكمايوني. وحتى عندما كان يلعق جراحه، ظل الرجل الذي كان أخطر خصم للطغيان يبحث عن حلفاء جدد. عرف كليسثينيس أنه بعيد كل البعد عن الرجل الوحيد الذي يرغب في سقوط هيبياس. كان لمخطط من الدرجة الثانية، ألكمايوني فعلا في انتظاره للفرصة الرئيسية، والذي يتجاوز بكثير أسرة ألكمايون في الموارد

المتاحة له، كما ان له مصلحة في زعزعة استقرار أثينا. في الواقع، كان الملك كليومينيس ملك اسبرطة، في عام 519 قبل الميلاد، أثناء رحلته الأولى شمال برزخ، قد خاض محاولته بالفعل. في تلك المناسبة، اقترب منه سكان بلاتيا، وهم مواطنون من مدينة صغيرة على بعد عشرة أميال جنوب طيبة، طالبين الدعم ضد جارتهم المتغطرسة. وكان كليومينيس، بمكر خبيث، قد نصحهم بطلب المساعدة بدلاً من ذلك ضد أثينا. وبسبب عدم قدرتهم على مقاومة هذا النداء الجذاب، سار الأخوين الطاغيين على النحو الواجب إلى دفاع ضد البلاتيين وحققوا انتصارًا ساحقًا: النتيجة التي كانت بجانب نيل الأثينيين الولاء الذي لا ينضب من بلاتيا الصغيرة، وجهت بالطبع ضربة قاتلة إلى صداقتهم مع الأقوياء الطيبيون نظرًا لأن هذا كان الدعامة الأساسية لسياسة البيسيستراتوسيين الخارجية منذ وقت نفي والدهم الثاني على الأقل، يمكن اعتبار الحلقة بأكملها خطأ فادحًا. وتركت كليومينيس يفرك يديه في ابتهاج.

لكن هل يستطيع كليسثينيس، بعد ست سنوات، إقناع الملك الاسبرطي بالتدخل علانية ضد هيبياس؟ ربما بدا الأمر وكأنه أمل خيالي بعيد المنال. كان البيسيستراتوسيين، على الرغم من تحالف الزواج مع أرغوس، حريصين على التحوط في رهاناتهم والبقاء على الجانب الجيد من اسبرطة أيضًا-لدرجة أن هيبياس تم تصنيفه رسميًا على أنه "صديق للشعب الاسبرطي ". وقبل أن يقترب من ملكهم، كان من المؤكد أن كليسثينيس قد قام ببعض البحوث على رجله. كان سيعرف أن كليومينيس، بحماسه المؤكد للتدخل في أعمال المدن خارج البيلوبونيز، لم يكن نموذجًا للملك الاسبرطي محبط. كان السياسي ذو اللسان الفضي كليسثينيس واثقًا من إقناع كليومينيس بما كان الأخير يميل بلا شك إلى تصديقه على أي حال: أن هيبياس، بمشاريعه البنائية يعاني من جنون العظمة وبتحالفه مع أرغوس، كان تهديدًا لمصالح اسبرطة. ومع ذلك، وبغض النظر عن مدى كون كليومينيس غير تقليدي في مقاربته للعلاقات الدولية، لم يكن من المتوقع أن يشن هجومًا غير مبرر ضد رجل كان، في النهاية، "صديقًا للشعب الاسبرطي "-ليس بدون بعض التبرير الملفق، على أقل تقدير. هنا أيضًا، كان كليسثينيس واسع الحيلة قادرًا على الايفاء بالإلتزام. ليس من أجل لا شيء

جعلت أسرة ألكمايون نفسها المفضلة في دلفي-إلى حد دفع تكاليف التجديدات الفخمة بعد الحريق العظيم في 548 قبل الميلاد. والآن، بعد عقود من الرعاية المكرسة، حان وقت الثأر. تلقى الاسبرطيون الذين استشاروا العرافة ردًا واحدًا ثابتًا. بغض النظر عن الأسئلة التي كانوا يطرحونها على أبولو، كانت الإجابة نفسها تعود دائمًا-"كان من واجبهم تحرير أثينا[220]." عندما بلغت هذه الأخبار المذهلة اسبرطة، قوبلت بالرعب. ربما كان كليومينيس الوحيد، الذي تلقى تلميحات من كليستينيس كما يجب أن يكون، من أخفق في المشاركة في الحيرة العامة والقلق.

لا يعني ذلك أنه يمكن أن يكون هناك أي شك، عند شعب متدين مثل الإسبرطيين، بتجاهل أوامر أبولو، مهما كانت محيرا لهم. "في النهاية، بينما كان صحيحًا تمامًا أن البيسيستراتيين كانوا أصدقاء حميمين لهم، ما قيمة الروابط الإنسانية عندما تقف ضد أوامر الإله؟[221]" كانت الرحلة الاستكشافية الأولى التي تم إرسالها ضد أثينا-والتي ربما تعكس استمرار قلق الأسبرطيين بشأن عدم شرعية ما كانوا يفعلونه-منخفضة المستوى وقليلة العدد. وكان هيبياس قادرًا على صدها بسهولة. وكانت الثانية، وقد صارت هيبتهم الآن على المحك بشكل مباشر، ساحقة. في صيف عام 510 قبل الميلاد، تقدم الجيش الاسبرطي بقيادة كليومينيس نفسه من البرزخ وعبر إلى أتيكا. هذه المرة، بازدراء تقريبا، سحق مرتزقة هيبياس. وعائدًا إلى أثينا، تحصن الطاغية مع عائلته في الأكروبوليس، حيث حاصره كليومينيس على الفور، وأغلق كل مكان يلجأ إليه مع الاهتمام بالتفاصيل لدرجة أنه عندما سعى هيبياس إلى تهريب أطفاله إلى بر الأمان، وقعوا مباشرة. في أيدي الاسبرطيين. تم إصدار إنذار صارم لوالدهم، وهو يفاوض بشدة من أجل حياتهم، عليه أن يغادر أتيكا في الحال. وذهل هيبياس من الانهيار المفاجئ لسقوطه، ولم يجد نفسه أمام خيار سوى قبول هذه الشروط المريرة. كان عزائه الوحيد عندما غادر المدينة التي حكمها لفترة طويلة هو أن التأمل في أن المنفى، بالنسبة لأي طاغية، يمكن اعتباره شيئًا من المخاطر المهنية-وأنه، كما أوضح والده بإسهاب، لم يكن هناك ما يمكن إيقافه

من التآمر في سبيل العودة. لكن على المدى القصير، انتهى الاستبداد. وصارت أثينا، بشكل مثير وغير متوقع، حرة.

لكن ماذا عنت حريتها؟ في هذا الصدد، كان الرجلان اللذان بذلت مناوراتهما أقصى ما في وسعها لإعادتها إلى طبيعتها يحملان وجهات نظر متناقضة تنذر بالسوء. لم تكن عند كليسثينيس، بغض النظر عما قد يكون وعد به كليومينيس أثناء وجوده في المنفى، أدنى نية لرؤية مدينته تصبح دولة تابعة لاسبرطة. في أثناء ذلك، كان كليومينيس نفسه، بعد أن خاطر بحياة الاسبرطيين في حرب غير شرعية تمامًا، يبحث بالضبط عن مثل هذا العائد على استثماره. حتى لو لم يكن بإمكانه أن يحصل على نظام خاضع فعليًا، فقد أراد، على الأقل، أثينا التي تعصف بها الفصائلية لدرجة توقفها عن العمل كتهديد لأسبرطة. بعد فترة وجيزة، بدأ الاتفاق بين المتآمرين في الانهيار. في لعبة تمارين الملاكمة التي أعقبت ذلك، ظهر التفوق كله لصالح كليومينيس. بالتأكيد، ظلت شكوك طبقة النبلاء في كليسثينيس قائمة كما كانت دائمًا، وكان عدد من الأرستقراطيين، الآن بعد أن أزيلت يد الاستبداد الميتة، حريصين على العودة إلى الأيام الخوالي من التحالف ضد أسرة ألكمايون. بدأت معارضة كليسثينيس في الانجذاب حول أحد النبلاء المنافسين باسم إيساغوراس، "الصديق السابق للطغاة"[222]-وبهذا المعنى انتخب في عام 508 قبل الميلاد لرئاسة الارخونية. كليومينيس، الذي أصبح الآن متحالفًا بشكل علني ضد شريكه السابق، جعل اسبرطة تعرف أنه وافق تمامًا. وقد اعتبر إيساغوراس دعم الملك الاسبرطي مهمًا للغاية، وكان يتوق له بشدة، لدرجة أن الشائعات ترددت بأنه ذهب إلى حد تقديم زوجته لكليومينيس.

كليسثينيس، على الرغم من أنه قد انحدر إلى العديد من الحيل الوضيعة في وقته، إلا أنه لم يسقط أبدًا إلى هذا الحد. رغم إتقانه للخداع والتلاعب، كان أكثر بكثير من مجرد انتهازي لجشع أعدائه. حازمًا في تصميمه على عدم رؤية أثينا تغرق في وضع الدولة العميلة لاسبرطة، ويمكنه أيضًا أن يدرك أن إيساغوراس وحلفائه كانوا يخوضون حربًا كانت قد مرت بالفعل. قلة من الأثينيين ربما أدركوا ذلك، لكن شخصية مدينتهم تغيرت إلى الأبد. أصبحت

السلطة، في ظل الطغاة، شيئًا من الوهم، ذابت من قبضة النخبة التي امسكتها ذات مرة بإحكام شديد. الآن بعد أن ذهب الطغيان نفسه، كان من الصعب تحديد مكان القوة على وجه التحديد. هل مع تلك العائلات القليلة، ربما أسرة ألكمايون أنفسهم، أو الفيلايين، الذين لا يزال لديهم نفوذهم؟ ربما، لكن تجارب كليسثينيس الخاصة منذ عودته إلى أثينا أثبتت أنه حتى أعظم النبلاء، الذي أضعفهم المنفى أو إذلالات التعاون، قد جردوا بشكل خطير من هيبتهم. وبسبب تهديد إيساغوراس، اختار أن يلجأ للحصول على الدعم، ليس كما كان شائعا لأحد من خلفيته، دعما من الفصائل الأخرى بين النخبة، وتلك التي تتمتع بالثروة والنسب، بل من مصدر أصلي بالكامل. في مخاطبته مجلس المواطنين، اقترح كليسثينيس ما كان في الواقع ثورة[223]. إن كان الناس، كما ادعى هيبياس، وبيستراتوس وسولون دائمًا، يتمتعون بالسيادة حقًا، حسنًا-فليكن لهم سلطة على المدينة تلائمهم. فليناقشوا السياسة، ويصوتوا عليها، وينفذوها، دون اعتبار لمؤهلات الطبقة أو الثروة. دع السلطة-كراتوس(kratos)-تفوض الى العامة(demos). دع أثينا، باختصار، تصبح ديمقراطية(demokratia)[224].

برنامج مذهل وجذري للغاية لدرجة أنه لم يسبق له مثيل. استجاب خصومه، الذين فقدوا توازنهم، بصيحات من الغضب وعدم التصديق. في حين أن مقترحات كليسثينيس، بشكل غير مفاجئ، "أكسبته الدعم الصادق من الشعب[225]،" لقد ظهرت لإيساغوراس وأتباعه كعملية احتيال مرعبة للغاية، متهورة وساخرة حتى بمعايير مناورات الكميونيين الماضية. ومع ذلك، فإن الحقيقة كانت أكثر إثارة للقلق بالنسبة للطبقة الأرستقراطية. لم تكن التدابير التي كان كليسثينيس يطرحها، في إطار طموحاتهم، وفي روعة تصاميمهم، وليست ذات طابع الرمية المؤقتة للمقامر المحاصر. بعيدًا عن ذلك: أظهرت كل علامة على أنه تم وضعها بعناية فائقة. لم يعدم كليسثينيس الفرص، في مرارة نفيه، ليفكر في كيف أن كل طموحات النبلاء، وكل ادعاءاته الخاصة وعشائر النبلاء الأخرى، ام تؤدي سوى إلى عقود من الخلاف الداخلي والقتال. وإهانات الطغيان. كانت أثينا مريضة-كما يتفق الجميع كثيرًا. فما هو الأمل الممكن،

إذن، بالشفاء؟ يبدو أن شخصًا واحدًا فقط، وهو كليسثينيس ورفاقه، قد قرروا. ان يكسروا القالب، وأن يلجموا جماح طموحات ليس النخبة فحسب بل كامل الشعب الأثيني؛ وان يخلقوا، من طاقتهم، مستقبلا لأثينا يتناسب أخيرًا مع القدر الكامل لإمكاناتها. مقامرة عظيمة، بالغة الأهمية، تخطف الأنفاس- وفي سبيلها بدا أن كليسثينيس على استعداد للمخاطرة بكل شيء.

إلا أنه وفجأة خانته شجاعته. في أوائل صيف عام 507 قبل الميلاد، وصل رسول من اسبرطة، وطالب، مستشهدا باللعنة القديمة، بطرد أسرة ألكمايون. من الواضح أنه في لعبة القط والفأر بين الحليفين السابقين، كان لا يزال أمام كليومينيس الكثير من الحركات ليقوم بها. كليسثينيس، كما لو كان خائفًا مما قد يحدث بعدها، استدار بسرعة وهرب. بعد ذلك بفترة وجيزة، جاء كليومينيس نفسه، برفقة حرس شخصي صغير من الجنود، متجولا في المدينة. وبسرعة، أمر بتطهير إضافي للعناصر المناهضة لإسبرطة، سبعمائة عائلة في المجموع. بعد ذلك، تهادى نحو الأكروبوليس، واستقر مع إيساغوراس لإملاء نظام دستوري جديد. بطبيعة الحال، لم يكن هناك مكان فيها لأي هراء حول الديمقراطية. وبطبيعة الحال، كان إيساغوراس، الذي كان قد أعار زوجته بالفعل الى كليومينيس، مضطرًا الآن لتقديم أثينا نفسها إلى اسبرطة.

بينما يتداول الرجلان، الملك والخائن، مع ذلك، جاء من الشوارع أسفلهما صوت مشؤوم وعنيف: صوت الشعب. نظر كليومينيس إلى أسفل من الأسوار، ورأى حشودًا غاضبة تتجمع أمام بوابات الأكروبوليس، وتحاصره هو وجنوده على القمة. بعبارة ملطفة، كان هذا غير متوقع. من الذي يمكن أن يكون المسؤول عن أعمال الشغب؟ كان كليسثينيس في المنفى. كما تم طرد شركائه. وببطء، مع مرور الساعات، ظهرت الحقيقة غير المستساغة. الشعب الأثيني نفسه، غاضبًا من افتراضات كليومينيس وخيانة إيساغوراس، قد هبّ تلقائيًا للدفاع عن حرياته الموعودة-ولم يبدو أنه من الممكن تهدأته. استمر الحصار لمدة يومين. في اليوم الثالث، كان كليومينيس، "جائعاً، قذراً، بلحية قصيرة[226]،" قد بلغ كفايته. تم ترتيب هدنة. لقد اضطر الأسبرطيون، بشكل مهين، إلى قبول السلوك الآمن إلى الحدود؛ تمكن إيساغوراس، بطريقة ما من

الهروب من المدينة أيضًا، إلى المنفى. في غضون ذلك، تم القبض على زملائه المتعاونين وإعدامهم. كانت الديموقراطية، بعد أن راهنت مستقبلها وسط دخان الثورة وإراقة دماءها، قد تحمّلت المحاولة الأولى لإخمادها.

عاد كليستينيس على الفور مسرعا بعدما وصلته اخبار الانتصار. لكن الانتصار، كما يعلم الجميع، لم يكن انتصاره وحده. حتى أكثر خصومه عناداً الآن كان عليهم أن يقبلوا أنه لا يمكن أن يكون هناك تراجع عن برنامج الإصلاح الذي وعد به الشعب الأثيني: لأنه بعد أن اقتحموا الأكروبوليس وهزموا كليومينيس، كان استحقاقهم البسيط. في الواقع، والإعدام الغوغائي لأتباع إيساغوراس دون محاكمة ما يزال حاضرا في أذهان الجميع، أصبح من الممكن حتى بالنسبة للطبقات العليا أن تشعر بشعور معين من الارتياح لعودة كليستينيس إلى المشهد. انه وحزمة الإصلاحات المخططة بعناية، أفضل من تدفق الدم في الشوارع، وجثث النبلاء المعلقة في الأكروبوليس، المتعفنة في الحر.

لذا كان ذلك في منتصف تلك السنة العظيمة سنة 507 قبل الميلاد، تمكن ألكمايوني من اقرباء كليستينيس من الاستيلاء بسلاسة على مكان ايساغورس كأرخون واستئناف تحول أثينا إلى دولة لا مثيل لها في التاريخ. في حين أن "ايونوميا "-الحكم الرشيد-كان شعار المصلحين اليونانيين السابقين، من ليكورغوس إلى سولون، كانت كلمة كليستينيس ورفاقه مختلفة بمهارة، ومع ذلك بشكل جذري: " ايزونوميا "-المساواة. المساواة أمام القانون، المساواة في المشاركة في إدارة الدولة: كان هذا، من الآن فصاعدًا، هو المثل الأثيني الأعلى. صحيح أن بعض المواطنين ظلوا أكثر مساواة من غيرهم: فقد ظل الحال، على سبيل المثال، أن الطبقات العليا فقط هي التي يمكنها الترشح للمناصب الرفيعة. ومع ذلك، وعلى الرغم من أن بعض آثار النظام القديم قد تم الحفاظ عليها من المد الديمقراطي، إلا أنه سرعان ما بقي الكثير منها مغمورًا تحته إلى الأبد: كان سولون، على سبيل المثال، بالكاد سيتعرف على مشهد الفيضان. أصبحت أثينا مدينة يتمتع فيها كل مواطن، بغض النظر عن مدى فقره أو عدم تعليمه، بحرية التعبير العام[227]: التي لم تعد تتم فيها مناقشة السياسة في

صالونات الأرستقراطية المغلقة والمذهبة، بل علانية، في المجلس، أمام "نجار أو حداد أو إسكافي، تاجر أو مالك سفينة، غني أو فقير، أرستقراطي أو متدني النسب على حد سواء[228]": ولم يعتمد أي إجراء، ولم يمرر أي قانون، إلا بأصوات جميع الشعب الأثيني. لقد كانت تجربة عظيمة ونبيلة، حالة يشعر فيها المواطن للمرة الأولى أنه منخرط ومسيطر. لا شيء في أثينا أو اليونان يمكن أن يبقى على حاله مرة أخرى.

وكان هذا، بالنسبة لكليسثينيس وكل من يدعمه، هو الهدف تمامًا. لم يكن رعاة الثورة الأثينية من أصحاب الرؤى الدائمين الذين تحركهم مفاهيم متلألئة عن الأخوة مع الفقراء، بل كانوا براغماتيين صارمين هدفهم، بكل بساطة، هو تحقيق الربح كنبلاء أثينيين من خلال جعل مدينتهم قوية. لهذا الطموح، ولكامل المشروع الهائل الذي تلاه، بذلوا طاقة مستميتة. فالوقت، كما كانوا يعرفون جيدًا، كان بالكاد في صالحهم. لم يكن كليومينيس فقط، "الذي شعر بأن الأثينيين قد أظهروا له عدم الاحترام قولا وفعلا[229]"، وقد قرر الانتقام: بل خشي كليسثينيس أيضًا، من تخطيط كل من هيبياس وإيساغوراس لعودتهما، ومن أن المدينة قد تنهار في أي لحظة إلى فصائل متنافسة. كان الخلاف بين الأسر الحاكمة، بعد أن أوصل أثينا إلى نقطة الخراب، قاتلًا للغاية بحيث لا يمكن تحمله أكثر من ذلك-وهو تحليل بدا الان أن الأسر الحاكمة نفسها قد قبلته على مضض.

ومع ذلك، كيف يتم ابطال مفعولهم؟ كان حل كليسثينيس بسيطًا ببراعة وطموحًا بشراسة: قمع تحديد هوية المواطن بالعائلة والحي وزعيم العشيرة المحلي تمامًا. نظرًا لأن هذه كانت الغرائز التي لطالما ظهرت بشكل طبيعي للجميع تقريبًا في أتيكا، فإن خطة الكشف عنها تطلبت تدابير بارعة ومفصلة بشكل غريب. بدقة، قسم كليسثينيس الريف، بنسيجه القديم من المدن والعقارات والقرى، إلى ما يقرب من 150 عشيرة منفصلة. وكان مواطنو الديمقراطية الجديدة من الآن فصاعدًا سيضطرون إلى أخذ ألقابهم من هذه، "العشائر"، وليس من عائلاتهم، وهويتهم المدنية أيضًا-والشاب، عندما يبلغ سن الرشد، لن يصبح مواطنًا في أثينا بموجب إصلاحات كليسثينيس الا من خلال

التسجيل في عشيرة "deme". كان هذا ينطبق على الثري المتعجرف والعامل الأكثر تواضعًا في الحقل على حد سواء: كلاهما، مثل زملائه، سيشترك في نفس الاسم الثاني. لم يكن كل النبلاء بالضرورة متحمسّين لهذا الابتكار، بالطبع. البعض منهم، ولا سيما اولئك الكبار جدًا لدرجة أن لديهم عقارًا أو قرية، وبالتالي تسمى عشيرة منطقة على اسمهم، أوضحوا استياءهم من النظام الجديد تمامًا. على سبيل المثال، سئم البوتيين من الاضطرار إلى مشاركة تسمياتهم المميزة مع الاوباش، وأطلقوا على أنفسهم اسمًا جديدًا: البوتيين الاصليين[230].

ومع ذلك، كان عليهم توخي الحذر. فعند تعبير المرء عن احتقاره لاتباعه من العامة(demesmen)، فانه حتى البوتي الأصيل قد يجد نفسه مستبعدًا من الحياة العامة. كان كليسثينيس، بحنكته الوقائية المعتادة، قد أمر بأن يختار العامة مندوبين من بينهم للسفر إلى أثينا، وهناك يعدون جدول أعمال المجلس. فمن هو الأرستقراطي الماجد الذي سيقدم غطرسته على هذه الفرصة اليانعة؟ تمامًا كما كان على كليسثينيس أن يشجع النبلاء على عدم الانعزال في بيوتهم، كان عليه أن يحذر من خطر مضاد: أن يستخدم رجل نبيل طموح عشيرته كنقطة انطلاق للاستبداد. في مواجهة هذا الخطر، قام مؤسسو الديمقراطية بتجميع مجموعة كاملة من الضوابط والتوازنات، مستخدمين استشرافهم المعتاد ونزعتهم الشيطانية لتعقيد أي شيء يلمسونه. قسمت اتيكا، المجزأة بالفعل إلى عشائر محلية، بالمزيد من التنميط والزخرفة. جمعت العشائر في "أثلاث"، وجُمع "الثلث"، كما يوحي الاسم، مع اثنين آخرين لتشكيل قبيلة. نظرًا لأن الثلث سيؤخذ جميعه من زوايا منفصلة من أتيكا-أحدهما من سفح الجبل، وربما الآخر من الساحل، والآخر من أثينا المجاورة نفسها-فقد عملت كل قبيلة، وكانت عشر قبائل في المجموع، حتماً على تشابك الجذور القديمة. وبدلاً من البساطة البدائية للعشيرة، أصبح بإمكان الشعب الأثيني الآن التمتع بولاءات أكثر اصطناعا ومُعايرة بدقة. القبائل والأثلاث والعشائر: هكذا كانت التعقيدات التي لم يكن من السهل التلاعب بها حتى من أعرق الأرستقراطيين محتداً.

لكن هل يمكن جعلها تعمل؟ نظرًا لأنه لم يحاول أحد تأسيس ديمقراطية من قبل، لم أحد يعرف الاجابة في الواقع. وهم يشاهدون تقدم الثورة بقلق متصاعد، لم يكن بوسع جيران أثينا تحمل فكرة أن فشلها أمر مفروغ منه-وكان لدى كليومينيس، على وجه الخصوص، سبب وجيه للخوف من الأسوأ. إذا كان كليسثينيس ورفاقه، الذين يعملون بجهد لترسيخ إصلاحاتهم، يبقون دائمًا عينًا متوترة على الاسبرطيين، فكذلك فعل الملك الاسبرطي، وهو يخطط للثورة المضادة، خائفًا من أنه قد يكون هو نفسه في سباق مع الزمن. على الرغم من التعقيد المذهل للإصلاحات الديمقراطية، بدت إمكاناتها واضحة لكليومينيس بشكل ينذر بالسوء. لم يعد مواطنو أثينا الديمقراطية منقسمين فيما بينهم، وسيكون بمقدورهم أخيرًا صفَ جبهة موحدة ضد جيرانهم. وسيمنحهم الحجم الهائل لأتيكا قدرة مخيفة حقًا. وبعد أن ظلت لقرون قزماً عسكرياً، ظهر أن أثينا على وشك أن تصبح، بين عشية وضحاها تقريبًا، من ذوات الوزن الثقيل.

وكان أكثر ما أصاب كليومينيس هو حقيقة أن عزل البيستراتيين، كان بمثابة قابلة ولّدت النظام الأثيني المارق. كان يدرك جيدًا أن العديد من مواطنيه، المستائين من سياسته الخارجية الاستباقية، بدأوا في التهامس ضده، وتمتموا عن الاعباء المرهقة وتذمروا من أن كل تدخلاته في أثينا لم تؤد إلا إلى كارثة. في الوقت الحالي، لم يكن أحد قويًا بما يكفي لتحديه علنًا. كانت الأيفور ما يزالون مترددين في جرح مشاعره، وبقي تابعه الملك، ديماراتوس، ابن الفتاة التي كانت ذات يوم قد مُنحت الجمال بعد أن ظهرت لها هيلين، راسخا تحت رعايته. ومع ذلك، فكلما طالت مدة عدم احترام الأثينيين له، كلما كان الضرر الذي يلحق بهيبته أكبر، وكلما احتاج إلى حماية ظهره عن قرب. استعدادًا لمباراته الأخيرة ضد كليسثينيس، لم يستطع كليومينيس تحمل أي فرص. لا تجول في أتيكا مع بعض الحراس الشخصيين هذه المرة. عندما، في صيف عام 506 قبل الميلاد، تقدم هو وديماراتوس أخيرًا عبر البرزخ، كان الإيساغوريين في حاشيتهم، قاد الملكان قوة هجومية لم تكن فقط من مواطنيهم ذوي الأطراف الفولاذية بل من الوحدات التي تم استدعاؤها من جميع أنحاء البيلوبونيز. كان

لديهم حلفاء آخرون أيضًا. انضم الطيبيين، الذين مازالوا يتألمون من تحالف الأثينيين مع بلاتيا، بسهولة إلى التحالف بالغزو من جهة الغرب. في هذه الأثناء، بعد عبور المضيق الذي يفصل أتيكا عن جزيرة إيوبويا الطويلة والضيقة إلى الشمال، شكل جيش من مدينة خاليس رأس حربة ثالثاً لما أصبح يتضح الآن أنه هجوم منسق ببراعة. لقد قام كليومينيس بعمله بشكل جيد. كانت أثينا محاصرة بشكل فعال. وبدا مؤكدا أن الديمقراطية الوليدة ستختنق في مهدها.

ومع ذلك، فيما كان الأثينيين، الذين اختاروا مواجهة خصومهم الأكثر دموية أولاً، مستعدين للسير جنوبًا لمقابلة الملكين الأسبرطيين، فقد وجدوا بصيص أمل معقول في الطريق أمامهم. لم يكن الطريق عادياً. ففي شهر سبتمبر من كل عام، كان يسلكه موكب عظيم من الشعب الأثيني، مزينين بالآس، وهم يرتدون ملابس بيضاء، ويرفعون صوتهم، وهم يمشون بزغاريد الفرح والانتصار"آياك". ولهذا كان الطريق يُعرف باسم "الطريق المقدس"-لأنه يؤدي، على بعد سبعة عشر ميلاً من أثينا، إلى ضريح إليوسيس المقدس، حيث يفترض معرفة سر عظيم: أنه من الموت قد تنشأ الحياة ومن أحلك يأس يبزغ نور الأمل. من غير الممكن تخيل مكان أكثر ملاءمة منه للدفاع عن حرية المدينة-وبالتأكيد، عندما وصل الأثينيون إلى إليوسيس، اكتشفوا أن معجزة قد حدثت بالفعل. وكان الأسبرطيون وكل الجيوش الكبيرة التي سارت معهم قد ذهبوا. قيل إن ديماراتوس كان يشعر بالغيرة من زميله الملك ولا يثق في مغامراته الخارجية، وكان يشجع على الانشقاق. كان العديد من الحلفاء البيلوبونيسيين، بقيادة كورنثوس، قد تخلوا كذلك على النحو الواجب؛ ووجد كليومينيس نفسه فجأة بدون جيش، واضطر، في حالة من الغضب العاجل، إلى إجهاض الغزو. أما الأثينيون، الذين أذهلهم الحجم الهائل لخلاصهم، فلم يستطيعوا الا أن يفترضوا أن الآلهة قد سارعت بإنقاذهم-رغم أن البعض منهم، الذين يتذكرون براعة كليستينيس السابقة في دفع الرشاوى، ربما تساءلوا عما إذا كانوا في الواقع مدينون بالقدر نفسه للذهب ألكمايوني.

لا يعني ذلك أن الطيبين، في كراهيتهم لأثينا، يمكن رشوتهم. ومتهادياً بسرعة نحو الشمال لمواجهتهم صار الجيش النموذجي الجديد للديمقراطية،

يواجه الآن أول اختبار حقيقي له. كان كليستينيس، وكل من جاهد معه في إصلاحاته، قد أعدوا أنفسهم للنتيجة. سؤال واحد، على وجه الخصوص، كان على وشك الإجابة. هل سيشعر الأثيني العادي المعتاد على القتال في موكب أرستقراطي عظيم، الآن بعد الرواية والابتكار المصطنع بالكامل لقبيلته، بالولاء الكافي كي يقف في جبهة المعركة، ويحمي جناح زملائه من رجال العشائر، وأن يقاتل ليس من أجل سيد القبيلة بل من أجل المثل الأعلى، من أجل الحرية، ومن أجل أثينا نفسها؟ كانت الإجابة مدوية ومنتصرة هي نعم. تم القضاء على قوات طيبة الغازية. وفي نفس اليوم، عبروا إلى إيوبويا، وأجبر الأثينيون خاليس على تقديم إلتماس من أجل سلام مهين، وقبول مستعمرة ضخمة من أربعة آلاف مستوطن أثيني على ما كان سابقًا أراضيها.

وهكذا وجد الأثينيون أنفسهم فجأة قوة عظيمة. ليس فقط في مجال واحد، ولكن في كل ما يخططون له، وقدموا دليلاً حياً على ما يمكن أن تحققه المساواة وحرية التعبير. ما الذي أنجزوه؟ عندما كانوا رعايا طاغية، لا شيء استثنائي، بالتأكيد. لكن مع رحيل الطاغية، أصبحوا فجأة أفضل المقاتلين في العالم. وهم مقموعين كالعبيد، كانوا يتهربون ويهملون عملهم؛ وبمجرد أن كسبوا حريتهم، لم يبقى مواطن الا وشعر أنه كان يعمل لحساب نفسه[231].

يبدو أن الديمقراطية يمكن أن تنجح بالفعل.

تفاخر أعلنه الأثينيون الآن بفرح لكل العالم. بالعودة إلى مدينتهم، قاموا، في نشوة خلاصهم، ببناء نصب تذكاري هائل للنصر-عربة تقودها أربعة خيول مصنوعة بالكامل من البرونز-ووضعوها مباشرة خلف بوابات الأكروبوليس. هناك، سمت على ما كان سابقًا المعرض الأسمى لجنون العظمة الأرستقراطي، تلامعت المنحوتة المخيفة، كأول ما يراه أي شخص يدخل المعقل، نُصبًا لم يرفع ليمجد أي فرد سوى "أبناء الأثينيين[232]" نسبة للشعب ككل. في أماكن أخرى أيضًا، في جميع أنحاء أثينا، كان الضجيج المتجدد للحفر بالإزميل شاهداً وافياً على حماس الديمقراطية لعملية تجميل. يمكن الآن العثور على

البنائين الذين عملوا في السابق في معبد بيسيستراتوس الضخم وهم يعملون الان على التل المنحدر غرب الأكروبوليس، البنيكس، ليحفروا من صخرته مكانًا جديدًا ضخمًا لاجتماع المجلس، قادراً على استيعاب ما يصل إلى خمسة آلاف في كل مرة: أول نصب تذكاري ملائم لحكم الشعب. في هذه الأثناء، انتشر شمالًا إلى ما وراء البنيكس والأكروبوليس، في الميدان الكبير الذي رفعه بيسستراتوس لنفسه من قبل، عمال آخرون كانوا يزيلون بشكل منهجي كل آثار الطغيان. تُرك معبد زيوس نصف المكتمل ليقف كنصب تذكاري شاهدا على حماقة الطغاة، لكن المساحة العامة الهائلة التي طهرها بيسستراتوس في قلب المدينة لم يكن من السهل التخلي عنها-لأسباب ليس أقلها أن مواطني الدولة الجديدة الديمقراطية بحاجة لمثل هذا المكان للاجتماع. "أغورا"-كما بدأوا يطلقون عليه وهي كلمة لمنطقة توجد في جميع المدن اليونانية، مساحة يمكن للناس فيها التجمع بحرية. وجدت أغورا الأثينية السابقة، الواقعة إلى الشمال الشرقي من الأكروبوليس، أن مبانيها العامة قد حلت محلها، في حين أن المكان الجديد، بحجمه وجماله، كان جديرا بكرامة الناس، وتم تكريسه على النحو الواجب باعتباره القلب الرمزي للديمقراطية[233].

صدمت المدينة بقعة نصب فيها، في وسطها مباشرة، ومن البرونز الضخم تمثالين لاثنين من الطغاة. يشهران سيفيهما، ملامح وجهيهما صارمة، وجسديهما بطوليان وان كانا عاريين على الأرجح، تم تصوير هارموديوس وأريستوجيتون على أنهما المنقذين المشتركين لأثينا ومؤسسي حريتها. بالنظر إلى عدم وجود صور عامة أخرى يمكن رؤيتها في أثينا بأكملها، كان الوضع المهيمن للتمثالين في أغورا مذهلاً بما فيه الكفاية. وما جعل الأمر أكثر إثارة للإعجاب، بالطبع، هو حقيقة أن هارموديوس وأريستوجيتون، بعيدًا عن التضحية بأنفسهما من أجل الحرية، قاما في الواقع بطعن هيبارخوس في مشاجرة قذرة بين عشاق. في الواقع، إن كان أي شخص يستحق الإشادة به كمحرر للمدينة، فمن المحتمل أن يكون ملك اسبرطة-لكن الأثينيين لم يهتموا بالتفكير في ذلك. ومن هنا جاءت قيمتهما كمبيدان للطغيان. مثل أي دولة ثورية أخرى في التاريخ، كان نظام كليسثينيس بحاجة ماسة إلى الأبطال. كان هارموديوس

وأريستوجيتون، وهما دمويان بشكل مرضٍ، وميتين بصورة أكثر إرضاءً، قد تم تصويرهما على النحو الواجب على أنهما أول شهداء الديمقراطية.

كما خدمت هذه الدعاية غرضًا أكثر عمقًا. لقد فهم كليسثينيس مواطنيه جيدًا: كان يعلم أن الشعب الأثيني، على الرغم من أنه كان ثوريًا كما أثبت، وبشكل مذهل، الا انه ظل تقليدياً في داخله. وبعيدًا عن التباهي بالطابع الجديد للديمقراطية، كان يتوق إلى الطمأنينة التي كانت متجذرة في ماضيه. لذا كان من المؤكد أن كليسثينيس، الذي كان حاذقًا دائماً، سيزين حتى تجاربه الأكثر جرأة بمبالغات التقاليد. منحت القبائل جميعها، على سبيل المثال، أسماء الأبطال القدامى، كما لو كانوا، مثل الأثينيين أنفسهم، قد نشأوا ليس من دماغ كليسثينيس الخصب ولكن مباشرة من التربة. حتى الديمقراطية نفسها، كما أشار مؤسسوها ضمنيًا، بعيدًا عن كونها شيئًا جديدًا، كانت في الواقع حقًا مبدئيًا لجميع سكان أتيكا، ورثوه في الأصل في أيام الأسطورة من البطل الشهير ثيسيوس، قاتل المينوتور. وإذا نظرنا إليهما في هذا الضوء، فماذا كانا مبيدا الطغيان نفسهما سوى كونهما من قتلة الوحوش، والوطنيين غير الأنانيين اللذين ماتا من أجل استعادة الديمقراطية الأثينية؟ مخادعان كلاهما بالطبع-وبالكاد قدما لكليسثينيس ورفاقه أي شيء يشبه استحقاقهم عن بعد. ومع ذلك، ربما يكون الدليل القاطع على عظمتهما هو أنه حتى كليسثينيس نفسه، سليل عائلة نادرًا ما عُرفت بتواضعها، كان لابد مدركاً لمدى أهمية إخفاء الحجم الكامل لإنجازه وراء مثل هذه الظلال الخيالية. في تأسيس الديمقراطية، اخترع مستقبل مدينته. لكنه أيضًا، لنفس الأهمية، اختلق ماضيها.

لا يوجد تمثال لكلايسثينيس في أغورا، إذن. ولا مكان له في عواطف مواطنيه باعتباره الأب المؤسس للديمقراطية. في الواقع، ما إن مات حتى بدأ الأثينيون، الذين انغمسوا في نوبة غير عادية من فقدان الذاكرة، و نسيان أنهم مروا بثورة على الإطلاق[234]. من الطبيعي جدًا أن يكون شكل الحكومة الجديد بدا لهم بالفعل، متجذرًا بعمق في تربة أتيكا، بحيث بدأ الفهم الحقيقي لأصوله، تمامًا كما حسبه كليسثينيس، في التلاشي. لقد كانت مفارقة حلوة ومرة: في متلازمة الذاكرة الكاذبة التي دفنت كليسثينيس في الغموض كان الدليل النهائي

على نجاحه المذهل. ليس فقط تخليص بلاده من الحرب الأهلية، ولكن وضعها على أسس ثابتة-وكان داريوس فقط، من معاصري كليسثينيس، من يمكن أن يضاهيه. من المؤكد أنه جرت بعض المراسلات بين الفارسي، ملك كل العالم، والأثيني، صديق الشعب، ومع ذلك، في الحقيقة، في حجم إنجازاتهما، وفي ما توقعوه للمستقبل، كان الرجلين متطابقين بالفعل. كلاهما وصل إلى السلطة وسط إراقة الدماء وأعطى السلام لبلده. كلاهما كان يروّض طموحات طبقة أرستقراطية مضطربة. كلاهما، من خلال القيام بذلك، صاغ مستقبلًا راديكاليا جديدًا لشعبه، ومع ذلك اختارا إخفاء أصالتهما وراء خشب الماضي. والأهم من ذلك كله، أن كلاهما، قد خلقا شيئًا مقلقًا وخطيرًا وجديدًا.

على الرغم من كل ما كانت عليه أثينا، التي تقع على أطراف العالم النائية كما كانت، تقف محاطة بغموض طبيعي، لم يكن داريوس، غافلاً عنها تمامًا كما كان في السابق. وصلت تقارير عن ثورتها إلى برسيبوليس. في عام 507 قبل الميلاد، بينما كان الأثينيون ينتظرون بقلق هجوم الاسبرطيين، ولاحظوا بقلق أن هيبياس قد لجأ إلى الجانب الجنوبي من هيليسبونت، في الأراضي التي تسيطر عليها بلاد فارس، أرسلوا سفارة إلى ساردس. هناك جلس أرتافرنيس، شقيق ملك الملوك، الداهية عديم الرحمة. عندما وصل السفراء الأثينيون إلى بلاطه وتوسلوا إليه من أجل التحالف ضد الأسبرطيين، وافق ارتفارنس على طلبهم بلطف. وبالطبع، كان قد وضع شرطًا خاصًا به: هبة الأرض والماء المعتادة. سفراء أثينا، هزوا أكتافهم، وقبلوا شروطه. عند عودتهم إلى أثينا، وعندما أبلغوا نبأ الاستسلام الذي قدموه إلى ارتفارنس، "تعرضوا لانتقادات شديدة"[235] -مما مكن الديمقراطية بلا شك من الشعور بالرضا عن نفسها. الأثينيون، مع ذلك، لم ينبذوا التحالف مع بلاد فارس-أو خضوعهم لها. الأفضل أمانًا من الأسف. فحتى بعد الانتصارات العظيمة في عام 506 قبل الميلاد، من كان يعلم متى قد يعود كليومينيس؟ لم تكن بوليصة التأمين ضد الاسبرطيون شيئًا سيئًا-حتى لو كانت كلفتها إذلالًا رمزيًا. ولكن ماذا كانت هبة الأرض والماء؟ ايماءة -لا أكثر.

أو هكذا، على أي حال، كان من دواعي سرور الأثينيين أن يفترضوا.

الفصل الخامس –احراق لحية ملك فارس[236]

اللعبة الكبرى

كان آرتافرنيس قد نال مكافأة جيدة من شقيقه الملك على الضربة التي أسقطت بارديا. لقد كانت ساردس بكل المقاييس جائزة عظيمة ومناسبة. صُنفت عاصمة الغرب، في رأي الفرس، كواحدة من الزوايا الأربع لسلطتهم، وهي مدينة غنية بشكل مذهل لدرجة أنه حتى أنهارها كانت تتدفق بالذهب. عندما لم يكن كرويسيوس يرشو عرافة دلفي أو يتعرض للذغ أسرة ألكمايون، كان يستخدم العائدات ليسك أول عملة ذهبية في العالم، وهو ابتكار ساعده على أن يصبح، في الغالب، أكثر ثراءً فاحشًا مما كان عليه من قبل. وحتى بعد مرور أربعين عامًا، بعد وفاة كرويسيوس منذ فترة طويلة، ظل بإمكان الفاتحين الفرس الاستمتاع بثمار إنفاقه الباذخ.

حتى أولئك الذين يعرفون بابل كانوا سيجدون صعوبة في التطلع نحو ساردس. كانت واجهة المدينة معبدًا رائعًا لسيبيل، وهي إلهة أم قديمة قدم التلال، وقادرة على إلهام مثل هذا التفاني الشديد في عابديها لدرجة أنه قد ينتهي بهم الأمر بالرقص على سفح الجبل، والتلوي في عربدة، وأنهم، إذا اخذت الطقوس منحىً معينا، يقطعون خصيهم. خلف المعبد، تلوح في الأفق في حلقات مثل حلقات إيكباتانا، جدران ساردس الشهيرة. كان الأعمق فيها، الذي يطوق الأكروبوليس، من الضخامة لدرجة أن كرويسيوس قد وقع في الخطأ الفادح المتمثل في افتراض أنه منيع. كانت الأكروبوليس نفسها، وهي شظية جبلية حمراء تتدلى على سهل النهر، أكثر ترويعًا، حيث يعلوها كما لو انه أحد نتوءاتها ما كان يُعرف في السابق بالقصر الملكي، وصار الآن معقلًا قويًا للسلطة الفارسية. من هناك، عند التحديق في امتداد البلدة السفلية، أو في أقصى الغرب على مساحات شاسعة من القمح والشعير، والطريق الذي يؤدي بعد

مسيرة ثلاثة أيام إلى "البحر المر"، ربما شعر ارتفارنس بنفسه مساوٍ لأي ملك آخر.

باستثناء واحد بالطبع. قد يكون سيد الغرب، لكن ارتفارنس-"ارتفارنس المخلص"-عرف أكثر من أن ينسى ولو للحظة أنه مجرد تابع لأخيه، وأنه خادمه، ومجرد "بانداكا". على الرغم من أنه ولغرس الإحساس الواجب نحو العظمة الفارسية في نفوس السكان المحليين، صاغ بلاطه على غرار بلاط داريوس، إلا أنه لم يحكم كملك بنفسه، بل بصفته "الوصي على سلطة الملك"-كمرزبان[237]. لم يكن لدى داريوس، بعد أن نال عرشه وسط جحيم من الثورات، نية في السماح للرعايا ذوي القوة المفرطة مرة أخرى بتعريض عظمته أو عظمة بلاد فارس للخطر. إذن، فإن أبسط أمر من أمانته، وسيضطر المرزبان للقفز. بالنسبة لعاصمة إقليمية، كان وصول رسالة ملكية حدثًا كبيرًا ومثيرًا للقلق في كثير من الأحيان. وقد يذهب بعض المرزبان[238]، الذين تقدم لهم رسالة الملك العظيم، إلى حد السجود أمامها وتقبيل الأرض بكل ضعة.

هل كان ذلك إفراطا في الحماسة-أم بداهة بسيطة؟ لا أحد يستطيع أن يعرف من قد يكون في الظل، ويراقب، ويدون الملاحظات. ادعى البعض أن الملك عيّن جواسيس على وجه التحديد للقيام بجولات في إمبراطوريته، كمسؤلين يرون كل شيء ويعرفون ببساطة باسم "عيونه". واشتبه آخرون في حقيقة أكثر إثارة للقلق:

> سيكون رعايا الملك، في النهاية، منتبهين لمن يعرفون أنه "عينه".
> وما يحدث بالفعل هو عكس ذلك تمامًا-لأن الملك يستمع إلى أي
> شخص يدعي أنه رأى أو سمع أي شيء غير مرغوب فيه. ومن
> هنا يقال إن له ألف عين وألف أذن[239].

هنا يكون جنون العظمة على نطاق عالمي تقريبًا. وبغض النظر عن المكان الذي قد يتواجد فيه رعاياه داخل شساعة الإمبراطورية التي لا يمكن تصورها، يمكن تخيل داريوس كما لو كان يراقبهم دائمًا، وكما لو كان يسمع كل ما يقولوه.

لم يكن كافياً لخادم، حتى لو كان مفضلاً مثل ارتفارنس، أن يقوم بواجبه نحو الملك. على الرغم من أن داريوس كان محاسبا كبيراً ولا يشبع من الجزية، الا انه كان يطلب من حاشيته شيئًا أكثر من الإيرادات وحدها. "لصالح أهورا مازدا"، كان يذكّر أولئك الذين يخدمونه، "أنا من ذلك النوع من الرجال الصديق للصالحين، والذي يعبس في وجه المخطئ، ولا يرغب في رؤية الضعيف مظلومًا من القوي[240]." تحدث داريوس، كما كان امتيازًا له، كمتبع للقانون في كل العالم، لكنه كان أيضًا يتأمل عن كثب في كيفية رؤية الفرس لأنفسهم. لم يكن لدى أي شعب إيمان أكبر بفضيلته. كانت مطالب العدالة شديدة الصرامة، كما أحب الفرس الاعتقاد، حتى أنها قد تتفوق حتى على مطالب الطبقة والسلالة. يمكن ترقية الفلاح، الذي رصدت طبيعته المستقيمة عين الملك العظيم، إلى المنصة القضائية؛ وبمجرد تثبيته هناك، قد يجد نفسه جالسًا على شرائط من الجلد الجاف، تعود الى سلفه الفاسد، وقد سُلخ حيّاً. كان هذا نوعًا من الحكاية، البشعة والمروعة على حد سواء، التي لم تخب أبدًا في إسعاد الفرس. وبطبيعة الحال-لأنها ساعدت في تأكيد كل التصورات المسبقة العزيزة لديهم. ليس هناك أناس آخرون، يمكنهم أن يعكسوا باقتناع، وإحساس بالعدالة، موقفًا تجاه الحكومة يمكن أن يضاهي موقفهم إلى حد بعيد. يا له من حظ حسن للأمم الأقل شانا، إذًا، أن ينتهي بهم الأمر جميعًا عبيدا للملك الفارسي!

تبريرًا لغزو العالم، بالطبع، أن الملك الفارسي نفسه قد صنعه بالفعل. مع ذلك، فقد فُرضت، على أطراف الإمبراطورية، بعيدًا عن الوجود الملكي، مطالب معينة على مرازبة داريوس. لم يكن الالتزام بتوفير العدالة لنفس المقاطعات التي كانوا في نفس الوقت ينهبونها أمرًا واضحًا. حيث يمكن اكتشاف المكان الذي يمكن أن يؤدي إليه بسهولة من خلال زيارة دار سك النقود الملكية في ساردس، حيث استمر سك العملات المعدنية، تمامًا كما كانت في أيام كرويسيوس، مختومة الآن بصورة داريوس كرامي سهام، وهو ينحني للخلف. القوس الملكي رمزا للسلطة، والبطل المحارب من اجل الحقيقة، والعدل، وفي

سبيل أرتا. ثم، وهو يرن، ويتلألأ باللمعان، يحفظ الذهب في صندوق وينقل إلى سوزا.

ربما كان بعض النفاق الوحشي مجرد علامة على نجاح المرزبان. كما أنه لم تجعل بالضرورة الهتاف في " السلام الفارسي " خدعة تامة. على الرغم من أنه كان متأكدًا من الاحتفاظ بإمدادات منتظمة من عربات الجزية من ساردس، إلا أن ارتفارنس لم يتطلع إلى تجفيف مقاطعته. كان من الممكن أن يؤدي ذلك إلى المخاطرة بالأوزة التي كانت تضع للملك العظيم بيضه الذهبي الرائع. كما هو الحال في عهد كرويسيوس، استمرت ليديا تحت قيادة ارتفارنس في التفاخر بفئة من الأثرياء المحليين. كان أحد هؤلاء، وهو صاحب منجم اسمه بايثيس، ناجحًا جدًا في تنمية أمواله، حيث قيل إن داريوس فقط من كان أمامه في قائمة أغنياء الإمبراطورية. لم يكن لدى الليديين مثل بايثيس، الذي فتح له الحكم الفارسي آفاقًا عالمية، أدنى اهتمام بالتحريض على الاستقلال. شجع ارتفارنس، الماكر مثل أخيه، مثل هذا التعاون أينما كان وكيفما استطاع- وليس فقط بين الأثرياء. بقي الموظفون الليديون يديرون المقاطعة بإخلاص لأسيادهم، تمامًا كما فعلوا في عهد كرويسيوس. لغتهم وعاداتهم وآلهتهم، كلها تم التسامح معها بدقة. وليس سوى في المعابد المرتبطة بشكل خاص بكرويسيوس وسلالته الحاكمة أن يمكن هدم رموز النظام القديم أو تكييفها في مذابح النار-وحتى ذلك الحين لم تُبذل أي محاولة لفرض عبادة أهورا مازدا على رقاب الليديين غير الراغبين. في الواقع، كان الغزاة هم الذين تبنوا عادات السكان الأصليين. ربما يمكن رؤية الدليل الأكثر إثارة للدهشة على ذلك على بعد ثمانية أميال إلى الشمال من ساردس، وهي أعجوبة يمكن رؤيتها من قصر ارتفارنس: أكوام مخيفة من الحجارة والعشب تلوح في الأفق فوق حقول الذرة مثل الأمواج المنبعثة من هضبة ذهبية. ثلاثة من هؤلاء كانت قبور الملوك الليديين المشهورين. ولكن من حولهم، وهي تملأ المقبرة، نشأت قبور أحدث وأصغر، وأماكن استراحة للمواطنين الأثرياء وأسيادهم الفرس[241]. حتى في غبار وصمت المقبرة، إذن، كانت ساردس ارتفارنس مكانًا متعدد الثقافات بلا خجل.

لا يعني ذلك أن تسامح الفرس مع الأجانب وعاداتهم الغريبة بأي شكل من الأشكال كان يعني ضمناً الاحترام. تمامًا كما شعر كورش، الذي غزا بابل، بالحرية في المطالبة بدعم كافة الآلهة، تحديداً لأنه لم يؤمن بأي منها، كذلك فعل ارتفارنس، من خلال تخصيص تقاليد الليديين وتحريفها لتحقيق غاياته الخاصة، تقدير حقيقة قاتمة ومُفجعة: التقاليد التي تحدد الشعب، والتي يتمسكون بها، والتي يحبونها، يمكن أيضًا، إذا ما تم استغلالها بمكر من قبل الفاتح، أن تعمل على استعبادهم. كان هذا المبدأ، الذي طبقه الفرس عبر النطاق الواسع لجميع المرزبانات العديدة، هو المبدأ الذي عزز فلسفتهم الكاملة للإمبراطورية. لقد أحبوا التفكير في عدم وجود نخبة في أي مكان، الا وقد يتم إغواؤها بطريقة ما كي تخضع.

وعندما لا توجد نخبة، يمكن دائمًا للمرء الاستيراد من مكان آخر. لم يتجاهل قورش، حتى عندما كان يغازل البابليين بالاهتمام الذي قدمه لمردوخ، أشواق المبعدين عن المدينة، المنفيين مثل اليهود، الذين تم إحضارهم إلى بابل قبل عقود-لأن الفرس عرفوا في هؤلاء الأسرى البائسين، وفي حنينهم إلى الوطن، مورد ذو إمكانات كبيرة. كانت اليهودية المحور بين بلاد ما بين النهرين ومصر. من المؤكد أن أرضًا ذات أهمية استراتيجية كهذه تستحق استثمارًا صغيرًا. لم يسمح كورش لليهود بالعودة إلى الأنقاض المغطاة بالأعشاب في وطنهم فحسب، بل دفع ثمن إعادة بناء الهيكل الذي دمر في القدس. قيل إن الرب، إله اليهود، قد أشاد بالملك الفارسي بامتنان باعتباره "مسيحه"، و "يسوعه[242]"، وأكد أنه بالنسبة لمسيح شعبه المختار فإن الأرض نفسها ستكون الحد. " أَنَا أَسِيرُ قُدَّامَكَ وَالْهِضَابَ أُمَهِّدُ. أُكَسِّرُ مِصْرَاعَيِ النُّحَاسِ، وَمَغَالِيقَ الْحَدِيدِ أَقْصِفُ. وَأُعْطِيكَ ذَخَائِرَ الظُّلْمَةِ وَكُنُوزَ الْمَخَابِئِ، لِكَيْ تَعْرِفَ أَنِّي أَنَا الرَّبُّ الَّذِي يَدْعُوكَ بِاسْمِكَ، إِلهُ إِسْرَائِيلَ[243] ".

هذه الفكرة الكوميدية، القائلة بأن كورش قد يكون مدينًا بشكل ما بكل عظمته لإله اليهود المتفاخر، كانت فكرة أن الفرس كانوا مع ذلك راضين تمامًا عن الانغماس؛ لأنهم فهموا جيدًا شوق العبد إلى تصديق أنه المفضل لدى سيده. لم يكن هناك مصدر أكبر للرضا عن الذات بالنسبة للأمة الخاضعة. في

النهاية، ولا توجد شارة أكيدة على استمرار عبودية هذه الأمة، من تخيل أنها ربما حظيت بعلاقة خاصة مع الملك. هكذا كان الحال دائمًا: كان الفرس أنفسهم، في أيام ضألتهم كبدو رحل، بالكاد غافلين عن روعة بلاد ما بين النهرين. وظل بإمكانهم الآن، وهم سادة العالم، تذكر ما كان عليه الحال عند تجربة جاذبية الثروة والقوة والسحر.

كانت الطبقات العليا اليونانية أيضًا، قبل وقت طويل من مجيء الفرس، مفتونة بالروعة الذهبية لممالك الشرق. لم تكن ألعاب القوى وحفلات العشاء هي الشغف الوحيد لجماعاتهم الذكية: بما أن الديكور في الأكروبوليس كان شاهداً على بريقه، كذلك كان أي شيء تفوح منه رائحة الشرق. وإذا كان هذا واضحًا حتى في مكان راكد مثل أثينا، فكم سيكون أكثر عبر بحر إيجه، على شواطئ آسيا نفسها، حيث كان الأيونيون على مدى قرون يطورون ذائقة لما هو غريب. "في الأغورا يمكنك رؤيتهم وهم يرتدون عباءاتهم الأرجوانية، وهم يفوحون بالعطور القوية، ويطوحون بمفاتيحهم الرائعة[244]." ومع ذلك، كان الأيونيون، بالنسبة لسادتهم، لغزًا وتحديًا. كل ما فعلوه، كما بدا للفرس، هو الشجار. هذا الصراع اللامتناهي، والذي ساعد بشكل كبير عندما تعلق الأمر بغزوهم، جعلهم أيضًا شعبًا مرهقًا بشكل فريد عند حكمه. ففي حين كان لليديين بيروقراطيون ولاتباع يهوذا كهنتهم، بدا أن للإغريق فقط فصائل غدارة ومتغيرة.

نتيجة لذلك، حتى مع استعدادهم للتحليل النفسي، كافح الفرس من أجل التعامل مع رعاياهم الأيونيين. صحيح أن بعض المستشارين في ساردس كانوا يعلقون آمالًا كبيرة على كهنة أبولو، حيث اعتبروهم أقرب شيء لدى اليونانيين لنظام كنظام المجوس، وأوصوا برعاية مزاراتهم الفخمة كوسيلة ممكنة لكسب القلوب الأيونية. ذهب الحماس لمثل هذه السياسة إلى القمة، لأنه قد يطلق حتى داريوس نفسه توبيخًا لاذعًا إذا تم إبلاغه بأن مسؤوليه كانوا ينتهكون امتيازات أبولو. ومع ذلك، كان الملك سيصاب بخيبة أمل شديدة إذا كان يأمل بذلك في تجنيد إله النور اليوناني في قضية "أرتا " المقدسة. ببساطة، لم يكن تقديم محاضرات عن الحق لعباده من طبيعة أبولو. كما هو الحال في دلفي، كذلك كان مع عرافة ديديما العظيمة على ساحل بحر إيجة الجنوبي،

فضل الاله كثيرًا التحدث بلغة الألغاز المحيرة-والتي كانت على الأقل تحسنًا في سلوك زميلته الأولمبية، أثينا، التي كانت مسرورة بشكل إيجابي برعاية الرجال ذوي موهبة الكذب.

ما الذي كان على الفرس أن يصنعوه من هذه الآلهة؟ لا شيء، حقًا، يمكن أن يكون أكثر صدمة لحساسياتهم-إلا إذا كان الاتجاه، بين النخبة الأيونية الأكثر ميلًا إلى المغامرة، نحو إنكار خطة إلهية للكون بتاتاً. ربما نشأ الفلاسفة الأوائل داخل الإمبراطورية الفارسية، لكن بالكاد يمكن اعتبارهم داعمين لادعاءات أو مُثل الملك العظيم. وحيث رأى داريوس في صعود شعبه إلى السلطة دليلاً أكيدًا على تفضيل أهورا مازدا الموحي، قد يرى أيوني جريء ذلك على انه عمل مباديء طبيعية فقط. أما فيما يتعلق بطبيعة هذه المبادئ، فقد كان ذلك أيضًا موضوع نقاش ساخن. قد يجادل أحد الحكماء بأن العالم قد تشكل بالكامل من الهواء، مما أدى إلى اختزال الإمبراطورية الفارسية وجميع أعمالها إلى مجرد التفاعل بين التكثيف والخلخلة. قد يضغط شخص آخر على الدعوى المضادة لعنصر النار المقدس عند زرادشت، ويرى فيها، مع ذلك، ليس جوهر الحقيقة، أو العدالة، أو البر، ولكن فقط التدفق المستمر. بالنسبة لمثل هذا الفيلسوف، كان الاعتقاد بأن أي نظام أعمق وراءها هو مجرد ادعاء غبي. "كل الأشياء مكونة من نار وكل الأشياء ستذوب مرة أخرى في النار"[245]. ليس هناك الكثير بالنسبة لداعية في بلاط المرزبان.

ومع ذلك، فإن اعتماد أرتافرنيس على الطغاة لإدارة إيونيا، الذي فرضه عليه عدم وجود أي بديل واضح، لم يؤدِ إلى وضع القوة الفارسية على أرضية صلبة أيضًا. في الواقع، ربما يكون قد تم تصميمه لتوضيح نظرية يفضلها كثير من الفلاسفة، تلك التي تبدو لهم مجرد حقيقة يمكن ملاحظتها في الحياة: أن كل شيء في العالم كان صراعًا وتوترًا. في النهاية، لم يكن النبلاء الأيونيون أكثر حرصًا على التعرض للاستبداد من نظرائهم عبر بحر إيجه. إن الفرس، بتفضيلهم لفصيل على آخر، انغمسوا حتمًا في العداء اللامتناهي نحو الأرستقراطية الأيونية. وفي حين كان بإمكانهم في ساردس أن يؤسسوا إدارتهم على بيروقراطية فعالة ومحترمة، كان عليهم في أيونيا، أن يؤسسوا ذلك على

المكائد والفصائل المتناحرة والتجسس. كان على العميل الفارسي هناك أن يثبت نفسه تمامًا في الطعن في الظهر مثل أي يوناني. بالنسبة إلى ارتفارنس نفسه، كان التحدي هو اختيار الفائزين، وإبقائهم في السلطة حتى يتجاوزوا فائدتهم، ثم يتخلص منهم بأقل قدر من الجلبة.

لا عجب أن رعاياه، المدركين تمامًا للدور الذي تم تخصيصه لهم في مخطط المرزبان للأشياء، شعروا بأنهم تحت ضغط أكبر بلا حدود من ذلك الذي يثقل على نظرائهم في اليونان. وعلى الرغم من أنه كان واضحاً أنه لا غنى عنه، فإن الدعم الفارسي جاء بتكلفة محفوفة بالمخاطر-حيث كان على الطاغية الأيوني أن يتصرف ليس فقط مع غيرة أقرانه بل ومع شكوك الطبقة الدنيا المضطربة والكاراهة للأجانب. بينما أثبتت الطبقة الأرستقراطية، المتعطشة للأناقة الشرقية، أنها متعاونة بشكل طبيعي مع نظيرها من الشرق، احتفظ أبناء البلد باحتقار لا ينتهي للأجانب من أي نوع. فقد كان طاليس، على سبيل المثال، الرجل الذي صنفه الأيونيون على أنه أكثر حكماءهم ذكاءً-كأول فيلسوف بالفعل-يُحسب أنه أعطى مثالًا رائعًا لحكمته من خلال ملاحظة مدى امتنانه للقدر بسبب ثلاثة أشياء: " اولا أنى لست وحشا بل انسان. ثانياً، أني لست أنثى بل ذكراً؛ وثالثًا، لست أجنبيًا بل يونانيًا[246] ". أحب الأيونيون تسمية جيرانهم بـ "البرابرة": الناس الذين كانت لغاتهم رطانة. مثل، "باه، باه، باه." هذا الإخفاق في التحدث باليونانية، الذي من الواضح أنه جدير بالازدراء، كان يُعتقد على نطاق واسع أنه يخفي المزيد من النقائص الشريرة. لقد سبق الشك الأيوني في العادات الأجنبية ولفترة طويلة إذلال غزو الملك الفارسي. نفس الليديين الذين أعجبهم الأرستقراطيون الصاعدون لأعلى في أيام كرويسيوس، على سبيل المثال، كانوا مكروهين على نطاق واسع من قبل الغالبية العظمى من الأيونيين الذين لم يتمكنوا من شراء العباءات الأرجوانية أو العطور أو أدوات العشاء الذهبية. وقد سردت بحماس قصص فاضحة حكاها أسلاف كرويسيوس، على وجه الخصوص. احداها كما قيل، انه سجل براءة اختراع ختان الإناث في محاولة للاقتصاد في الخصيان: كانت الأخرى انه كان معتادًا على اظهار ملكته العارية لمختلسي النظر: وزُعم أيضًا، بشكل مقزز، أنه ولّد

ذائقة في أكل لحوم البشر، وأنه استيقظ في صباح أحد الأيام بعد ليلة من الإفراط في الشرب ليجد يد زوجته تبرز من فمه.

أي نوع من الإغريق يمكن أن يختار قرودا متوحشة مثل هذه؟ كما كان واضحاً أن منتقدي النبالة أحبوا أن يوضحوا، فقط أولئك الذين كانوا منحرفين ومنحطون أنفسهم. كانت ليديا، مثل عاهراتها الخبيرات، مريضة ومفترسة؛ وأولئك الذين استسلموا لعناقها يستحقون كل الازدراء الذي حصلوا عليه. تعرى من حجاب الأطباق البربرية الشهية التي تقدرها الأرستقراطية بشدة-الإثارة الجنسية الحريرية، والتحسينات، وعروض الثروة-والواقع سيكون قذرًا بلا حدود: يمكن تصوير البلاط في ساردس على أنها عاهرة "تتحدث الليدية، "جاثية في زقاق خلفي، تضرب خصيتي زبونها بينما يدفع بمؤخرته المتقاطرة. "كانت تفوح من الممر رائحة كريهة. جاءت سحب من خنافس الروث باحثة عن النتانة[247] ". مشهد خسيس وصادم: استعارة مناسبة لحقيقة دنيئة ومروعة. كانت الطبقة الأرستقراطية تنغمس في القذارة-وكان الطغاة، أسوأ الجناة، بداخلها حتى أعناقهم.

الأمر الذي ترك الطغاة أنفسهم أمام خيار شنيع: إما أن يحكموا كخونة أو أن يُعدموا على يد الحشود الغاضبة. وإذا أتيحت لهم الفرصة لتوجيه ضربة مدمرة ضد أسيادهم-حتى، ربما، القضاء على ملك الملوك نفسه-فماذا بعد؟ افتراض خيالي-باستثناء أنه في عام 513 قبل الميلاد، أصبح السؤال واقعيًا بشكل ملح[248]. دخل داريوس، بعد انتصاراته في الهند، إلى ساردس في جيش ضخم، وعبر من آسيا إلى أوروبا، ثم اختفى شمالًا إلى ما يعرف الآن بأوكرانيا في غارة كبيرة على السكيثيين. ارسل الطغاة اليونانيين المختلفين، الذين أُمروا بأداء دورهم في المجهود الحربي الفارسي، مع أسرابهم إلى البحر الأسود لبناء جسر عائم عبر مصب نهر الدانوب وانتظار عودة سيدهم الملكي. ومن بين هؤلاء، الذين جُلبوا مؤخرًا تحت النير الفارسي ولم يكونوا سعداء جدًا بذلك، الأرستقراطي الأثيني ميلتيادس الفيلي، طاغية كيرسونيس. وهو يعد الأسابيع ويشاهد السماء وهي تتحول تدريجيا لتصبح أكثر برودة وجليداً، وضع خطة جريئة. ماذا لو قطع اليونانيون الجسر عن داريوس وجيشه على الضفة

الشمالية المتجمدة لنهر الدانوب؟ لم تكن سيثيا بالتأكيد مكانًا مناسباً لقضاء فصل الشتاء. كانت العواصف الثلجية مروعة، وكان السكان الأصليون مولعين بشرب دم الإنسان. من المتصور، ومن المعقول وحسب، أن يكون في نطاق سلطة الأيونيين القضاء على رحلة الملك العظيم بأكملها. فكرة خطيرة ومثيرة للإعجاب-وبحلول أواخر الخريف، مع وجود المرافقين الفرسان الفارسيين على بعد أيام فقط، أصبحت الفكرة ملحة بشكل متزايد أيضًا. وعقد اجتماع للطغاة حسب الأصول. ضغط ملتيادس من اجل قضيته. وللحظة وجيزة ومثيرة، سمح اليونانيون الآخرون لأنفسهم بالرضوخ له. حتى ساد في النهاية منطق، شائن ولكنه براغماتي.كما كان يدرك كل طاغية أيوني تمامًا، "لم يكن فيهم من لا يدين لداريوس بمنصبه كرئيس للدولة[249]". وهكذا صوتوا للبقاء مخلصين له ولإبقاء الجسر قائما. قام الطغاة المجتمعون-بمن فيهم ميلتيادس-بقمع أي ذكر للخيانة التي كانوا يفكرون بها، وقد رحبوا على النحو الواجب بسيدهم. ربما كان احتمال الحرية حلوًا، لكنه لم يكن حلوًا، كما يبدو، عند موازنته، مع واقع السلطة.

وبالنسبة إلى أحد اليونانيين على وجه الخصوص، وهو رجل حساس للفرص التي أتيحت له من الحكم الفارسي مثل أي ليدي أو ميدي، كانت تلك السلطة ثمينة بشكل خاص. تحدث هيستياوس، الخصم الرئيسي لمباهاة ميلتيادس عن نهر الدانوب، على أنه طاغية المدينة العالمية الوحيدة في بحر إيجة، المعروفة بـ"فخر إيونيا[250]"، مدينة ميليتوس. كانت المدينة، مسقط رأس طاليس، والفلسفة نفسها، قوة اقتصادية وثقافية. كانت الموانئ الأربعة الرائعة للميناء، المليئة بغابة كبيرة من الصواري-سفن الحبوب من شبه جزيرة القرم، والسفن التجارية من سوريا، ومن مصر، ومن إيطاليا، والسفن الحربية، الأنيقة والمهيبة، من أسطول المعركة الخاص بالملك العظيم-لا مثيل لها في أي مكان آخر في العالم اليوناني كمشاهد من البذخ والصخب. حظيت ميليتوس بتقدير كبير من قبل الفرس، كقاعدة تجارية وقاعدة بحرية على حد سواء، حيث تمتعت، مقارنة بالمدن الأيونية الأخرى، بشكل فريد من أشكال التبعية، مما مكنها من التظاهر تقريبًا برتبة الحليف. وبينما كان على يقين من عدم ترك

هذه المكانة تلعب بعقله، فقد استمتع هيستياوس بالمزايا التي منحتها له على زملائه الطغاة-والفرصة، قبل كل شيء، في إقامة علاقة شخصية مع أقوى رجل في العالم.

عند عودته من سيثيا، كان الملك العظيم قد كافأ هيستياوس على النحو الواجب لدعمه القوي للحملة الفارسية من خلال استدعائه إلى ساردس، والاستفسار بلطف من البانداكا الميليسي إن كانت هناك أي هدية كان يسلط نظره نحوها. فمنذ أن كان الجيش الذي تركه داريوس في أوروبا في تلك اللحظة بالذات يتقدم غربًا من كيرسونيس إلى تراقيا، قاهرًا بشق الأنفس الساحل الشمالي لبحر إيجة وداخله، تساءل هيستياوس، الذي كان جريئًا للغاية، عما إذا كان من الممكن أن ينال كهدية، جزءً من هذه المرزبانية الجديدة الرائعة؟ أمال الملك العظيم رأسه. ومنحه طلبه: ووجد هيستياوس نفسه مالكًا لمنطقة من تراقيا تسمى ميرسينوس. لم تكن المكافأة بسيطة بأي حال: وهي تقع على نهر واسع ليس بعيدًا عن الحدود الجديدة للإمبراطورية مع مملكة مقدونيا، جاءت هدية داريوس كاملة بمناجم الفضة والغابات، وهي مادة خام ممتازة لإعداد أسطول. ليس من المستغرب أن هيستياوس كان سعيدًا. لم يعد محصوراً في إيونيا، لقد تجرأ على الحلم بأشياء أعظم.

ولكنه بالفعل، حتى بينما كان يسارع إلى تراقيا لتأسيس مدينة على ممتلكاته الجديدة، بدأت الدهشة تعتري الجيش الفارسي. بعد الكثير من القطع العصبي للاعناق، وصلت الكلمات باحترام شديد الى الأذن الملكية. لقد قيل لداريوس أن الإغريق، وخاصة الإغريق البارعين والطموحين مثل هيستياوس، لا ينبغي ببساطة الوثوق بهم بقوة كبيرة. كان من غير الوارد بالطبع للملك العظيم، بعد أن قدم لهستياوس المكافأة، أن ينتزعها مرة أخرى؛ كان وضيعا بالنسبة له أن يعترف أنه ربما يكون قد ارتكب خطأ. بدلاً من ذلك، دعا داريوس الميليسيين إلى ساردس، وأعلن أن هيستياوس سيُمنح المزيد من درجات التقدير العالي: اللقب الرائع "رفيق المائدة الملكية"، ومنصب رسمي كمستشار الملك للشؤون اليونانية. بطبيعة الحال، بما أن داريوس سيغادر ساردس قريبًا، فإن هيستياوس سيحظى الآن بالشرف الكبير في مرافقة سيده في رحلاته.

والابتسامة ثابتة على وجهه بلا شك، كان هيستياوس ملزمًا، في 511 قبل الميلاد، بحزم حقائبه، وإدارة ظهره لوطنه، والمغادرة إلى سوزا.

حتى وهو قابع في قفص البلاط الملكي المذهّب، إلا أنه لم يتخلَّ عن كل آماله في استغلال الهيمنة الفارسية لتأسيس قاعدة للقوة في بحر إيجة تكون لسلالته. بالعودة إلى ميليتوس، سرعان ما كان بديل هيستياوس كطاغية، وهو ابن أخيه أريستاغوراس، يثبت نفسه على أنه قطعة من الكتلة القديمة، وتلميذ متحمّس لأساليب عمه. في عام 500 قبل الميلاد، اقترب من ارتفارنس بمخطط يثق أنه سيكون لمنفعتهما المشتركة. لما لا، اقترح أريستاغوراس بسلاسة على المرزبان إرسال رحلة استكشافية ضد جزيرة ناكسوس؟ كانت جائزة نادرة تقع في منتصف أي طريق غزو محتمل عبر بحر إيجة إلى اليونان، وهي جاهزة للقطف. كانت الجزيرة ممزقة بين الفصائل المتناحرة. وكانت الحرب الطبقية وشيكة. وكانت الطبقة الأرستقراطية تتوسل حتماً التدخل الفارسي. يمكن لساردس توفير السفن: أريستاغوراس نفسه سيوفر الاتصالات داخل الأرستقراطية الناكسية الساخطة. وسيكون الجميع فائزين.

أرتافرنيس، بعد التشاور مع شقيقه الملكي، أعطى الخطة كما ينبغي إيماءة الموافقة –وكانت سعادة أريستاغوراس هائلة، وإن لم يعلنها. على الرغم من أنه كان بالكاد يستطيع أن يترك الكثير إلى المرزبان، إلا أنه كان يجد التوازن الدقيق بين المطالب التنافسية لأسياده الفرس وشعبه غير المستقر بشكل متزايد أمرًا يجب الحفاظ عليه. لطالما اشتهرت ميليتوس، حتى بمعايير المدن الأيونية الأخرى، بوحشية الكراهية الطبقية: لكن الامر هدد مؤخرًا بأن يتحول إلى مرض مميت بشكل غريب. الثورة في أثينا، المدينة التي ادعت، في ضباب الماضي الرائع، أنها أرسلت المستعمرين الأوائل إلى إيونيا، جرت بحماس في ميليتوس كما في جزر بحر إيجه. كانت الدعوات إلى إقامة ديمقراطية مماثلة، من أجل الإطاحة بالاستبداد وإنهاء الحكم البربري، تتزايد عنفًا في شوارع المدينة. كان أريستاغوراس، الذي انطلق مع الحملة الفارسية نحو ناكسوس، يعرف أنه كان يلعب مقابل رهانات عالية بالفعل: وعواقب الفشل ببساطة لا تحتمل التفكير فيها.

وسرعان ما وجد نفسه يواجههم. كل ما يمكن أن يحدث بشكل خاطئ في الرحلة حدث خطأ. أثبتت محاولة غزو ناكسوس أنها كارثة، وكان أريستاغوراس، الذي فض مغلاق الكارثة، قد خاض خلافًا رهيبًا مع قائد الحملة الفارسية-الذي تصادف أن كان ابن عم ارتفارنس. عندما وصلت أخبار ذلك إلى ساردس، قرر المرزبان، بالحسم الذي يطبقه عادة في إدارته للشؤون الأيونية، أنه يجب استبدال أريستاغوراس، ووقع أمرًا بهذا المعنى. لكن أريستاغوراس نفسه، الذي لم يتبق له شيء ليخسره الآن، وبدعم قوي من عمه في منطقة سوزا البعيدة، رد على إقالته بطريقة مذهلة، ناهيك عن كونها نكوصاً بهلوانياً. فبعد أن تخلى عن استبداده قبل أن يسلب منه، أعلن فجأة أنه متحمس للديمقراطية-وأضاف بصوت عالٍ أنه حريص جدًا على أن يراها قائمة في جميع الدول الأيونية. كان هذا، بالطبع، لإلقاء شعلة في صندوق ثقاب: اندلعت الثورة على النحو الواجب في جميع أنحاء أيونيا، وأسقطت أنظمة الاستبداد في كل مكان، وأعلنت الديمقراطيات مكانها. واولئك الطغاة الذين تمكنوا من تجنب الرجم حتى الموت فروا جميعًا إلى ارتفارنس.

كان غضبهم فظيعًا بشكل طبيعي. لقد اتخذ الأيونيون، برفع راية الديمقراطية، خطوة مصيرية وخطيرة. فبعد أن تحدوا أوامر المرزبان الذي عينه داريوس، وأطاحوا بالأنظمة التي فرضها، كانوا قد اختاروا فعليًا إعلان الحرب على ملك الملوك. في أول تدفق طائش لحريتهم، بدا أن هذا بالكاد يثير قلق معظمهم. وكان أريستاغوراس، مع ذلك، يعرف بشكل أفضل. لم يكن لديه، على أي حال، أوهام بشأن حجم التحدي الذي يواجهه مواطنوه الآن. ان قوة عظمى مثل بلاد فارس لايمكن تحديها بسهولة؛ كان من المؤكد أن رغبة ارتفارنس في الانتقام كانت سريعة ومدمرة. إذا كان مراده عدم سحق المدن المتمردة-وأحلامها-تمامًا، فسيحتاج، على أقل تقدير، ليس فقط إلى جبهة موحدة ولكن إلى أسطول فعال وحلفاء أيضًا.

لكن كيف يتم تأمين ذلك؟ كان عقل أريستاغوراس الخصب يطبخ بالفعل عدداً من المؤامرات المفعمة بالأمل. الأولى كانت جريئة بشكل خاص. فقد أبحر أحد عملائه، متظاهرًا بأنه ضابط مخلص لأرتافرنيس، أبحر بهدوء

إلى الميناء على بعد أميال شمال ميليتوس حيث رست البحرية الفارسية، واعتقل جميع الأيونيين العاملين هناك كأميرالات، وشرع في الإبحار إلى ميليتوس مع الأسطول[251]. لقد كان انتصارًا جريئًا ورائعًا-شجع أريستاغوراس على الشروع في مهمة سرية خاصة به. في شتاء عام 499 قبل الميلاد، استقل سفينة حربية وانطلق من الموانئ العظيمة لمدينته. عبر الخليج إلى الشمال من ميليتوس، كان بإمكانه رؤية عمود كبير من الصخور، هي حيد جبل ميكالي، يرتفع فوق البحر. كان هذا هو المكان الذي اعتاد فيه اليونانيون في آسيا، في أوقات أكثر سعادة، على الاجتماع للاحتفال بروابطهم المشتركة، في حرم "بانيونيوم"-"ضريح جميع الأيونيين". قد تكون هناك فرصة كافية، ربما، لمجالس الحرب هناك، لجمعيات الجنرالات، والتخطيط الاستراتيجي-لكن ليس الآن. كان لأريستاغوراس أعمال أخرى أكثر إلحاحًا. وصاعدا أبحر. جبل ميكالي ثم بعد طرفه الغربي مباشرة، بدأت جزيرة ساموس تتلاشى في



الأفق. كان أمامه البحر المفتوح-والتيارات التي تؤدي إلى اليونان.

عشرية وضيعة وغير شريفة

499 ق. الشتاء في لاكاديمون. قبالة الساحل من جيثيون، الميناء الصغير الذي خدم الاسبرطيون كقاعدة بحرية لهم، كانت جزيرة كراني المهجورة التي تجتاحها الرياح، ومع ذلك فقد حملت، لكل من حدق بها، ارتباطات لا تمحى بحرارة الصيف والنجوم المتوهجة. هناك، تحت السماء المفتوحة، قضى هيلين وباريس ليلتهما الأولى معًا، هذيانًا متشابكًا من العاطفة أدى، في وقت قصير، إلى حريق إلتهم كلا من الشرق والغرب، وسفنا حربية اسبرطية تحرث المياه قبالة طروادة. فأل واعد؟ كان أريستاغوراس يأمل في ذلك بالتأكيد، وهو يحدق في الجزيرة سيئة السمعة بينما تنطلق سفينته إلى جيثيون. لم تكن مهمته أقل من تجنيد الأسبرطيين في حرب آسيوية ثانية كبيرة.

أخذ أريستاغوراس الطريق الذي يبلغ طوله ثلاثين ميلاً والذي يؤدي إلى مدينتهم، وهو يتدرب على الحوافز التي سيلوح بها أمام مضيفيه. كان الفرس أغنياء بما يفوق أحلام الجشع. كانوا معطرين ومخنثين. لماذا، "حتى أنهم قاتلوا وهم يلبسون سراويل"[252]. هل يمكن لأي عدو أخر أن يكون أكثر إغراء؟ خاصة وأن الإسبرطيين كان لديهم، في أحد ملوكهم، قائد كانت له متعة مؤكدة في شن ضربات استباقية. كان كليومينيس، حتى بعد الهزيمة في إليوسيس، لا يزال يقف دون منازع باعتباره الرجل القوي في اسبرطة. أما ديماراتوس، الزميل الذي أدى تحريضه إلى إفشال الحملة الأثينية، فقد اعيد بشكل حاسم إلى مكانه. بعد عودته من أتيكا، اتهم كليومينيس علنًا زميله الملك بتخريب المجهود الحربي، وضغط على مجلس الاسبرطيين لتمرير قانون يمنع كلا الملكين مرة أخرى من الاستمرار في نفس الحملة. كان خصمه محصوراً فعلياً في الثكنات. في الواقع، ترك ديماراتوس البائس في الظل تمامًا لدرجة أنه انحدر إلى المحنة البائسة المتمثلة في محاولة صعود عربة في الألعاب الأولمبية؛ والأسوأ من ذلك، أنه عندما فاز أخذ يتباهى صراحة بفوزه. وإن كان هذا السلوك فظًا عند أي اسبرطي، فإنه لم يُسمع به من أي ملك.

لكن كليومينيس، أيضًا، ظل يحمل ندوبًا من المغامرة الأثينية. عندما التقى أريستاغوراس لمناقشة الأزمة في إيونيا، أذهل القائد العام الاسبرطي

ضيفه برفضه القاطع لطلب المساعدة. بافتراض أنه تعرض للسع من أجل رشوة، اتبع أرستاغوراس كليومينيس في المنزل، وقدم أرقامًا أعلى من أي وقت مضى فعل فيه ذلك. ولم يحمله حتى وجود ابنة الملك جورجو البالغة من العمر ثماني سنوات، على تغيير رأيه -وهذا إغفال كبير، ففي ضوء الطبيعة مفرطة الاحتشام منذ الصغر عند الفتيات الاسبرطيات قالت غورغو ذات العينين الساطعتين فجأة. "أبي، هذا الأجنبي يريد إفسادك. دعه وشأنه[253]!" في عرض لبصيرة النضوج المبكر كي تحرك قلب ابيها. لكن كليومينيس، حتى لو لم تكن ابنته موجودة لتبقيه مستقيما ومدققا، كان من المؤكد أنه ظل يستقبل رزم أرستاغوراس. كان طعم كارثة أثينا لا يزال مرًا جدًا في فمه. والأسوأ من ذلك، كانت هناك تقارير من الشمال تفيد بأن الارغوسيين، العدو القديم كان يعيد تجميع صفوفه ويخطط لمواجهة أخرى. سيحتاج الأسبرطيون إلى كل احتياطياتهم من القوى البشرية للتعامل مع الأزمة التي تلوح في الأفق. ولم يكن لدى كليومينيس أدنى نية لتحويل مسار جندي واحد من الجنود الهوبليت إلى الخارج.

وهذا لا يعني أنه كان هازئاً بالتهديد الفارسي. أصبح كليومينيس الآن خبيرًا استراتيجيًا متمرسًا، ويمكنه بالتأكيد التعرف على وجود تهديد لأسبرطة في النطاق المتزايد لطموحات الملك العظيم. لكن ليس لاسبرطة وحدها-ولا حتى بشكل بارز. عند مشاهدة أرستاغوراس البائس يغادر لاكاديمون، كان لدى كليومينيس فكرة ذكية فيما يتعلق بمنفذ الاتصال التالي. لم يكن الأيونيين، في ذلك الشتاء، هم المتمردين الوحيدين ضد الملك العظيم. كانت مدينة تابعة لهم في اليونان أيضًا. بعد أن طلب الأثينيون المساعدة الفارسية ضد كليومينيس في عام 507 قبل الميلاد، صاروا نادمين بمرارة على هبة الأرض والمياه. فيما يمكن أن يعتبره كليومينيس نفسه أكثر حالات العدالة الشعرية روعة، أمر ارتفارنس، راعي الطغاة بشكل غريزي، الأثينيين باستعادة هيبياس، والمنفيين البيستراتيين. وكان من الطبيعي أن يرفض الأثينيين ذلك. ونتيجة لرفضهم، صاروا منذ تلك اللحظة، في حالة حرب مع بلاد فارس في جميع النوايا والأغراض. من يكون كليومينيس من بين جميع الناس لينتشل الأثينيين من ورطتهم؟ فوضاهم: هي

مشكلتهم. وعندما، كما كان متأكدًا من أنهم سيفعلون، استجابوا لنداء أريستاغوراس بإرسال قوة عسكرية إلى إيونيا، كانوا سيتعرضون للمخاطر، ويعانون من الإصابات، ويتحققون من قوة الفرس كوكلاء عن المخابرات الاسبرطية.

حقيقة مزعجة كان أكثر الأثينيين يقظة واعين بها. كان الرؤساء الحكماء من الطبقة الأرستقراطية، المنتبهين إلى اتساع القوة الفارسية وممارستها في السياسة الواقعية، قد استمعوا إلى أريستاغوراس وترويجه للحرب برعب؛ لكن لم تكن الأرستقراطية هي التي تحكم المجلس الآن. صوّت الشعب الأثيني، الذي كان حريصًا على الانتقام من ارستيفانوس على طلبه استسلامهم يوما، مدعومًا بفكرة الاشتراك في قضية مع أقاربه عبر البحر، وثملًا باحتمالية النهب السهل، صوّت متحمسًا لإرسال أسطول من عشرين سفينة للانضمام الى الهجوم على بلاد فارس. حمى الحرب، كما أشار أريستاغوراس بمرح، كانت تسممًا بدت الديمقراطيات عرضة له بشكل غريب. في النهاية، "حيث فشل مع كليومينيس، وهو شخص واحد، نجح الآن مع الأثينيين، وهم مجموعة من ثلاثين ألفًا[254]".

ومن المؤسف له، إذن، وللأيونيين، أنه لم تكن هناك ديمقراطيات أخرى في متناول اليد. في الواقع، وبصرف النظر عن إرتريا، وهو ميناء تجاري في جزيرة إيبويا التي طالما شعرت أن مصالحها مهددة من بلاد فارس، كانت أثينا المدينة الوحيدة في كل اليونان التي سمعت لثرثرة أريستاغوراس. لكن هذه الإحصائية الواقعية، بعيدًا عن إعطاء مواطنيها وقفة للتفكير، لم تؤد إلا إلى تغذية شعورهم اللامع بالفعل بالاستثنائية والرسالة. في ربيع عام 498 قبل الميلاد، انحدرت أول قوة ضاربة ديمقراطية على الإطلاق من ميناء فاليروم، متجهّة شرقًا على طول ساحل أتيكا. سرعان ما انضمت إليها من الشمال خمس سفن من إرتريا، ثم أشارت مقدماتها بجرأة نحو إيونيا، وأبحرت إلى الأمام بعيدًا عن مرأى الأثينيين. وليس بعيدا عن بالهم مع ذلك. أينما اجتمع الشعب الأثيني معًا في أوائل ذلك الصيف، سواء في حانات سيراميكوس أو في أغورا أو للأسفل في فاليروم، كانوا ينتظرون الأخبار بحرارة. مرت أسابيع. ثم، أخيرًا، بدأت الأخبار

تتسرب. ورد أن جنود الديموقراطية حققوا نجاحاً باهراً. مزدرين للانكماش خوفاً والتواري على الساحل الأيوني، تجرأوا بدلاً من ذلك على الضرب مباشرة في قلب قوة ارتفارنس. ساروا مع حلفائهم الأيونيين والإريتريين فوق الجبال التي كانت تحرس ساردس، واتبعوا طرقًا سرية متعرجة، ثم أخذوا الفرس على حين غرة، ونزلوا فجأة إلى السهل. إرسل ارتفارنس هرعًا إلى قصره. وأحرقت المدينة. إجبرت الحملة الفارسية ضد ميليتوس على الأنعطاف. لقد قامت أثينا بواجبها. وبفضل جهودها البطولية، إطلق سراح الأيونيين الآن وإلى الأبد.

هل انجزت المهمة؟ ربما بدا الأمر كذلك. ومع هذا، لم يستغرق الأمر وقتًا طويلاً حتى تعتمت أخبار إيونيا المشمسة. نعم، تحصن ارتفارنس في قصره. لكن اليونانيين، القليلون في العدد والمفتقرين إلى آلات الحصار، فشلوا فشلاً ذريعًا في اختراق جدرانه الهائلة. ولم يتمكنوا، مع اشتعال النيران في البلدة السفلى، من الحفاظ على معبد سيبيل بعيدا عن الجحيم. كان تدنيس المقدسات هذا مخيفًا جدًا لدرجة أن الإغريق، الذين يشعرون بالإحباط بالفعل بسبب فشلهم في القبض على ارتفارنس، قد انسحبوا على الفور إلى الجبال. بعد أن عادوا متعبين إلى البحر، وجدوا أنفسهم بعدها مجتاحين بفرق من الفرسان الفارسيين. وهم بالكاد على بعد ميل واحد من سفنهم، أُجبروا على الاستدارة والوقوف. "من السهل ضربهم"[255]: كانت هذه هي الطريقة التي وصف بها أريستاغوراس الفرس مرارًا وتكرارًا خلال مسار دبلوماسيته المكوكية. الآن، وهم يتهاوون تحت وابل من سهامهم، ويختنقون على سحب الغبار التي أثارها سلاح الفرسان الذين لا يكلون، اكتشف الأثينيون الحقيقة المروعة. بدأ الخط اليوناني، المكسو بالبرونز، في الانهيار. وقتل القائد الإريتري الذي كان يكافح من أجل تماسكه. كان الناجون الأثينيون، الذين انفصلوا عن الجسد الرئيسي للجيش اليوناني، قد ارتدوا إلى سفنهم، ورفعوا أشرعتهم وفروا.

عند الترحيب بعودة الأسطول المكسور بحيرة مقلقة، استطاع مواطنيهم أخيرًا تقدير أن أريستاغوراس قد احتال عليهم. إن ادعاء الأيونيين بأن الفرس كانوا مخنثين وضعفاء قد انكشف على أنه نتاج للتفكير المتمني. رفض المجلس الأثيني، الذي انحرف بشدة من الشوفينية إلى الذعر، رفض جميع

النداءات الأخرى من منطقة الحرب، رغم أنها كانت محمومة، ومريرة مع اللوم. في الواقع، وبعد أن باع أثينا في الأصل نشرة دعائية كاذبة، يمكن أن يشير أريستاغوراس الآن إلى بعض النجاحات الحقيقية. رغم أن حرق ساردس، وقع على الأثينيين وقع الكارثة، فقد أشعل أخبار الإذلال الفارسي على نطاق واسع. من قبرص إلى كيرسونيس، فاشتعلت شرارات التمرد، وكان ارتفارنس، الذي تضررت هيبته بشدة، يجد مهمة القضاء عليها مهمة يائسة.

ومع ذلك، ظل الأثينيون، بتعنت الانعزاليين الذين ولدوا مرة أخرى، غير متأثرين. بدا واضحًا لهم الآن، من لمحة موجزة عن القوة الفارسية التي أتاحتها حملتهم الاستكشافية، أن جميع مخططات وطموحات أريستاغوراس كانت مجرد عدد كبير من القلاع المبنية من الهواء. والأكثر شؤمًا، كما اكتشفوا بأنفسهم، أن الهوبليت الأيونيين لم تكن لديهم استجابة لمدى وسرعة سلاح الفرسان الفارسي-لدرجة أنه بحلول صيف عام 497 قبل الميلاد، أي بعد عامين تقريبًا من الثورة، كان جميع المتمردين تقريبا قد قذفوا في البحر. وحدها ميليتوس، مهد التمرد، ظلت صامدة؛ وعلى الرغم من أن الأسطول الأيوني ظل غير مقيد، لم تكن هناك إمدادات أو مجندين جدد يمكن الحصول عليهم من الأمواج. بدا الموقف قاتما للغاية لدرجة أن أريستاغوراس، اليائس من الأثينيين، قرر أن يحتذي بعمه ويسافر إلى ميرسينوس، إقطاعية هيستياوس الخاصة في تراقيا، لتأمين الأخشاب الطازجة للأسطول والفضة للمرتزقة. ومع ذلك، أثبت السكان الأصليون أنهم أقل دعمًا للجهود الحربية مما كان عليه الأثينيون: وبعيدًا عن الترحيب بمالك الارض، اختاروا بدلاً من ذلك تقديم عرضهم الخاص للحرية، وطعنوه بالسكاكين. لذلك، بشكل قذر وغامض، هلك أريستاغوراس، المحرض على الثورة الكبيرة ضد ملك الملوك-والرجل الوحيد الذي أمدها بالقيادة والهدف الحقيقيين.

بدأ أمل الأيونيين في الانتصار، الذي كان يتلاشى بالفعل، يتضاءل الآن إلى درجة قريبة من الانقراض. سيستغرق الأمر من الفرس، الذين يعملون بجد لإعادة بناء الأسطول الذي سرق منهم في بداية الثورة، ثلاث سنوات أخرى قبل أن يشعروا بأنهم مستعدون لتحدي المتمردين من أجل السيطرة على البحر.

ومع ذلك، خلال ذلك الوقت، ومع وفاة أريستاغوراس، ولم يتقدم أحد ليحل محله، بدا أن المجهود الحربي للأيونيين اصيب بالشلل، كما كان الرعب من الكارثة التي كانوا يعلمون أنها تقترب منهم بالتأكيد. زعيم فصيل انقلب على زعيم فصيل. طبقة ضد طبقة مدينة مقابل مدينة. أكثر فتكًا في آثاره من أي عدد من أسراب سلاح الفرسان، بدأ الذهب الفارسي في القيام بعمله. تلاشى الانهزاميون والمهدئون. ظل الأسطول الأيوني، رابضا على طول الجزر قبالة ميليتوس المحاصرة، متمسكًا بموقعه، أكثر من 350 سفينة حربية، وهو رقم مخيف، باستثناء أنه عندما تعفن في عواصف الشتاء وسخن في حرارة الصيف بدأت تفوح منه رائحة الرعب واليأس، الرائحة النتنة التي تعلق في الهواء بشكل مخيف، حتى وصلت إلى أثينا المضطربة.

هناك، مع الإدراك المزدوج بأن أي حصن قد يمنحه الأيونيون لهم كان محكوم عليه بالفشل بالتأكيد، وأن عين ملك الملوك التي لا تخاف ولا ترحم ستثبّت قريبًا دون أن تطرف على مدينتهم، كان الأثينيون مذعورين أيضًا. كانت الثقة بالنفس القوية التي اجتاحت الديمقراطية في أول انتصاراتها المسكرة تتلاشى بسرعة. لم تكن الهزيمة في إيونيا هي الضربة الدامية الوحيدة التي نالها الأثينيون مؤخرًا. على مدى عقد كامل من الزمن، وجدوا أنفسهم متورطين في حرب مزعجة مع جزيرة إيجينا الصغيرة و المفعمة بالحيوية، وهي عش، كما رآها الأثينيون، من القراصنة والزبالين، تقع بشكل يثير الغضب على بعد خمسة عشر ميلاً فقط جنوب سالاميس. في قلب خليج سارونيك-مباشرة فوق ممرات الشحن الخاصة بهم. مسترشدة في سياستها كما كانت من قبل ملاك الأراضي، وعديمي الخبرة العفويون مع جذورهم في التربة، لم تفكر أثينا أبدًا في بناء أسطولها البحري. ولا تفكر في القيام بذلك الآن، على الرغم من ضجيج القراصنة الايجيين. من، في النهاية، كان سيجمع النقود؟ ليس الفقراء، بديهيا؛ وبالتأكيد ليس الأغنياء، الذين اعتبروا أنه ينبغي عليهم الوقوف والقتال بالدرع والحراب على اليابسة، كما كان الرجال في شعبهم يفعلون دائمًا، الرجال القادرين على شراء دروع لائقة. ومع هذا، فإن هذا الازدراء للقوة البحرية، على الرغم من أنه ساعد بالتأكيد في الحفاظ على طبقة الهوبلايتين من الإهانة

الناجمة عن الاضطرار إلى النخير والتعرق عند المجداف، لم يساهم بشكل كبير في المجهود الحربي ضد إيجينا. في الواقع، كان هذا من عجز الأثينيين ضد غارات العدو لدرجة أنهم أجبروا، في إحدى المرات، على مشاهدة ميناءهم بأكمله وهو يحترق بلا حول ولا قوة. صحيح أنه لم يكن من السهل الدفاع عن خليج فاليروم الواسع؛ ولم يكن القراصنة الأيجيون في أي وضع يسمح لهم بتحدي أثينا براً: لكن حقيقة أن الحرب كانت مصدر إزعاج وليس تهديدًا نهائيًا لم تقلل بأي حال من إحساس الديمقراطية المفاجئ بالانحراف. سؤال واحد، على وجه الخصوص، بالكاد يمكن أن يفشل في إثارة قلق الناخبين. إذا وجدوا أنه من المستحيل هزيمة ازعاج صغير من جزيرة قبالة سواحلهم، فما هو الأمل الذي أمامهم ضد الغضب المحق لقوة عظمى؟

فيما بدت غيوم العاصفة الفارسية التي لا تقهر تلوح في الأفق وهي أكثر قتامة على أيونيا، عادت ظلال غريبة من الماضي لتطارد أثينا أيضًا. في صيف عام 496 قبل الميلاد، انتخب الشعب الأثيني كرئيس للدولة رجلاً بدا اسمه وكأنه يشير إلى تراجع وشيك عن الحرية. لم يكن هيبارخوس مجرد ابن لوزير بارز من البيستراتيين، بل تزوج أخته من هيبياس، الطاغية المنفي. ربما يكون المرشح المثالي لفتح قنوات أمام صهره، والتفاوض على شروط مواتية مع ارتفارنس، وتأمين العفو عن حرق ساردس من الملك العظيم. في هذا الحدث، صمدت الديمقراطية: على الرغم من كل الأخبار السيئة المستمرة من الجبهة الأيونية، قضى هيبارخوس عامه في المنصب دون الانخراط في تعاون نشط. ومع ذلك، استمرت إغراءات الاستسلام، التي فضل حزب السلام بطبيعة الحال تسميتها بالواقعية، في التلاشي تدريجيا. انتشرت شائعات عن الغدر-عن "التميّد"-في أنحاء المدينة. وحتمًا، كما فعلوا طيلة قرن من الزمان، ارتبطت أحلك الشكوك على الإطلاق بأولئك الأبطال الانتهازيين، ألكمايونيين. ربما كان كليستينيس راعيًا للديمقراطية، لكن القليل منهم شكك في أن عشيرته، إذا أعطيت الحافز الكافي، ستختار بيعها. إن عدم إثبات أي شيء ضدهم لم يؤد إلا إلى تأجيج جنون الارتياب في الديمقراطية. كان ذهب الملك العظيم يتدفق بالتأكيد في مكان ما، بطريقة ما، إلى أثينا. إن لم يكن الى ألكميونيين، فعندئذ

الى شخص آخر. أبقى السياسي عينًا مريبة على السياسي، وتتبع الأخبار من إيونيا بتوجس متزايد، وناور من أجل تحقيق مكاسب.

بالنسبة إلى النبلاء، بالطبع، كانت هذه لعبة قديمة. كان الاسترضاء طبيعي بالنسبة لهم. وكما هو الحال في إيونيا، فقد أثرت الطبقة الأرستقراطية في أثينا لفترة طويلة على الاستشراق السائد. كانت الفكرة القائلة بأن عليهم المخاطرة بمحو مدينتهم بدلاً من الوصول إلى تسوية مع ملك الملوك الأقوياء أمرًا ليس متوقعا أن يوافقوه. كان المتحمسون للنظام السياسي الجديد، مدركين لذلك وهم يتأملون سحابة الدخان الأسود الذي غطى سماء إيونيا، قد أصبحوا على نحو متزايد لا يثقون بالنخبة القديمة ويشككون في ولاءاتهم. من المسلم به أنه لا يمكن بالضرورة اعتبار جميع النبلاء متعاونين في الانتظار: فعلى سبيل المثال، كان ملتيادس، رغم كونه أعظم العظماء، مناضلاً نشطًا من أجل الحرية في كيرسونيس منذ بداية ثورة الايونيين الكبرى. لكنه حكم إقطاعيته باعتباره طاغية: وليس مناسباً لأولئك الذين في أثينا الخائفين على ديمقراطيتهم.

أين، إذن، يمكن أن يبحثوا عن القيادة؟ ربما في جيل جديد من السياسيين، وسلالة جديدة. لم يتزعج أحد من الحديث عن سلطة الناس، كما كان سليلوا العائلات العظيمة، بل انها ألهمته بدل ذلك. الثورة، التي كانت مزعجة للغاية بالنسبة لنخبة النبلاء، بدت وكأنها تعد بفرص نادرة للمواطنين الموهوبين قيد الصنع. بالكاد بعد عقد من حياة الديمقراطية، على سبيل المثال، استطاع شاب اسمه ثيميستوكليس أن يضع عينيه على المنصب الأعلى في أثينا، منصب الأرخون، على الرغم من أنه ينحدر من عائلة ليس لها أصل سياسي واضح على الإطلاق. وعلى الرغم من كونه أرستقراطيًا، إلا أن والده لم يُظهر أبدًا أدنى اهتمام بتولي منصب عام؛ والدته-يالرعب الرعب-لم تكن حتى من مواليد أثينا. في عصر سابق وأكثر شوفينية، كان من الممكن أن يكون سوء الحظ هذا كفيلا بحرمان ثيمستوكليس من جنسيته تمامًا؛ لكن إصلاحات كليستينيس والحاجة لتزويد القبائل العشر بمجموعة كاملة من الهيئات القادرة كفلت تغيير القانون. ونتيجة لذلك، كان إحساس ثيمستوكليس بالولاء

للنظام الجديد ذا طبيعة شخصية خاصة-وجعله يتوق إلى منصب عام كما يتوق رجل يهذي من الحمى إلى العلاج. أدرك ثيمستوكليس، بالسخرية الغريزية التي تميز دائمًا علاقاته مع المشاهير، أنه في الدولة التي يديرها الناس لا يمكن أن يكون هناك سوى مقياس واحد معين للشهرة. كان يسأل أصدقاءه: "كيف تقيمني، وأنا لم أجعل أي شخص يشعر بالغيرة بعد؟[256]" تلامعت الآفاق التي فُتحت أمامه بسبب النظام الجديد كنوع من العذاب.

في عام 494 قبل الميلاد، احتفل هذا الشاب اللامع والطموح بعيد ميلاده الثلاثين-وأصبح كبيرًا في السن بما يكفي، بعد سنوات من الانتظار، للترشح للانتخابات لمنصب الأرخون. في العام التالي، قرر أن يحاول القيام بذلك-وفعله، علاوة على ذلك، بفرصة جيدة للنجاح. ربما كان عديم الخبرة في الحياة العامة ومن خلفية مغمورة، لكنه مع ذلك كان يتمتع بكل مقومات النجم. كان لثيمستوكليس عنق ثور، وشعر قصير، صلب الجسم والوجه، لذا فإن الأجيال القادمة ستحكم بأن له مظهر " بطل حقيقي[257]": ذلك الذي لا يقهر، وغير القابل للتدمير، المعبأ بالقوة. ومع ذلك، فقد كان في نفس الوقت، في ذكائه، نقيضًا تمامًا للمقيد بالعضلات: منجزات عقله، تتحرك بلا حدود وأفعوانية، وستصبح في النهاية مثاراً لدهشة مواطنيها-ومبعثا على القلق. لم يكن التفنن في الشر مطلوبًا من السياسي في ظل الشكل الجديد للحكومة الأثينية، لكن ثيمستوكليس أظهر نفسه سيداً: يمكنه أن يلاكم، يمكنه التواصل، يمكنه اللف والدوران. وقبل كل شيء، والأهم من ذلك كله، كان يعرف كيف يجعل نفسه مرئيًا. وبدلاً من العيش على عقارات العائلة، على سبيل المثال، اختار الاستقرار بدلاً من ذلك في اتجاه الريح القادمة من سيراميكوس، بالقرب من "بوابة الجلاد"، حيث يتم إلقاء جثث المجرمين الذين تم إعدامهم والمنتحرين: عنوان غير سار، بالتأكيد، ولكنه أيضًا-وهنا كانت جاذبية ثيمستوكليس -على مسافة قريبة من الأغورا. وحرصًا منه على عدم تأجيل زيارة هذه البقعة المنحوسة من العظماء والصالحين، بدأ في دعوة الموسيقيين المشهورين للتمرن داخل منزله؛ حريصًا على تكوين صداقات والتأثير في الناس، قام بتعيين محامٍ، ليكون أول مرشح على الإطلاق في

الديمقراطية يتدرب على الحياة العامة من خلال ممارسة القانون. قبل كل شيء، كان لطيفًا وطبيعيًا كما كان، فقد استمال الفقراء؛ وهم، الذين لم يعتادوا على التودد، أحبوه كما ينبغي. قام ثيمستوكليس بجولة في الحانات والأسواق والأرصفة، مناقشاً حيث لم يفكر أي سياسي في التجوال من قبل، والتأكد من عدم نسيان اسم ناخب واحد، وضع ثيمستوكليس عينيه على دائرة انتخابية جديدة جذريًا.

لم يكن هذا الطموح هو دافعه الوحيد. وبينما لم يكن أي شيء قام به ثيمستوكليس منفصلاً تمامًا عن المصلحة الذاتية، إلا أنه لم ير في الفقراء مجرد ناخبين بل إنقاذ مدينته في المستقبل. الفكرة المذهلة لأقرانه؛ "ومع ذلك، فقد كانت عبقرية ثيمستوكليس أنه استطاع أن يحدق بعيدًا في المستقبل، ويخترق هناك كل الاحتمالات، الشريرة والخيرة[258]." وبوضوح أكثر من أي من شيوخه، أدرك السياسي المبتدئ أن أفضل فرصة لبقاء مدينته لا تكمن في اليابسة بل على البحر-وأن أي سفينة حربية ستعتمد في قوتها على الكتلة العضلية لمجدفيها. لم يكن هذا تكهنًا مقنعًا، ربما كان ممكناً، عندما كانت أثينا بالكاد تملك ميناء، ناهيك عن أسطول قتالي. ثيمستوكليس، مع ذلك، ونظراته ثابتة على المدى الطويل، كان مقداماً. عند إعداد بيانه، بدأ بالدفاع عن الازالة العاجلة للأرصفة الحالية واستبدالها بميناء جديد في بيرايوس، الرأس الصخري الذي يقع خلف شاطئ فاليروم مباشرةً. لم يوفر الخط الساحلي هناك سوى ثلاث موانئ طبيعية، وهو ما يكفي لأي أسطول وقابل للتحصين بسهولة. صحيح أنه يقع على بعد ميلين من المدينة أكثر من فاليروم، لكن ثيميستوكليس جادل بحماس أن هذا كان ثمنًا زهيدًا دفعه مقابل المزايا الهائلة التي سيوفرها الميناء الجديد في بيرايوس: ميناء آمن للأسطول التجاري الأثيني المتزايد باستمرار؛ ومركز تجاري لمنافسة كورينث وإيجينا؛ والمناعة من القراصنة الايجيين. وربما، في الوقت المناسب، إذا أمكن العثور على الأموال وبدا أن الظروف تتطلب ذلك، فربما، ربما، يكون قاعدة بحرية أيضًا...

اختار ثيمستوكليس، الذي لم يكن لديه رغبة في إخافة طبقة النبلاء العقاريين بالحديث الجامح عن القوة البحرية، عدم التطرق إلى هذه النقطة

الأخيرة. ومع ذلك، كان ظلها، في ربيع عام 494 قبل الميلاد، واضحًا في جميع أنحاء أثينا. كانت الأخبار القادمة من الشرق تزداد قتامة كل يوم. كان الأسطول الحربي الفارسي يتحرك أخيرًا. وبحسب ما ورد، فإن القادة الأيونيين كانوا يهربون أنفسهم عبر الشاطئ إلى جبل ميكالي، ثم يتسللون إلى جانبه كلاجئين في أرضهم، وقد تجمعوا في بانيونيوم، ضريحهم الجماعي المهجور منذ فترة طويلة. هناك، بعد إزالة الأعشاب الضارة، قرروا اتخاذ موقفهم ضد الفرس، ورهن مستقبلهم في رمية يائسة واحدة. كانت الثورة، كما أدرك قادتها بقلق شديد، على حافة الهاوية: "من ناحية، والحرية-من ناحية أخرى، العبودية، وعبودية الهاربين، في ذات الوقت[259]." لم يترك الأيونيون أي خيار سوى أن يحصنوا كل سفينة حربية يستطيعون تحصينها، ورميها في آخر احتياطي لهم. حول رأس ميكالي أبحروا جنوبًا باتجاه ميليتوس وجزيرة لاد الصغيرة. هناك، على بعد ميلين خارج موانئ المدينة العظيمة، أقاموا قاعدتهم. وخلفهم كانت هناك ستمائة سفينة حربية معادية-واحتمال خوض معركة حاسمة. ومع ذلك، ولأيام، كما لو أنه طغى على الحجم الوحشي للاشتباك الذي يلوح في الأفق، لم يجرؤ أي من الطرفين على التحرك. وأخذت الأعصاب، عبر إيونيا، عبر أثينا، عبر العالم اليوناني بأسره، تبدأ في التوتر. بقي الجمود مستمرا. وظل الرجال ينتظرون الأخبار بقلق على جبهات الموانئ في كل مكان.

ثم، بقرب الصيف، جاءت الأخبار أخيرًا، كئيبة ومضطرمة كما كان يُخشى دائمًا. أثبت الأيونيون، الذين كانوا يتضورون جوعاً في قاعدتهم الجزرية الصغيرة، أنهم فريسة سهلة لعملاء العدو. عندما تقدم أسطولهم لمواجهة هجوم فارسي مفاجئ، وأبحر إلى خليج ميليتوس، انهار خط المعركة على الفور. أبرم بعض القباطنة من ساموس، الجزيرة التي تواجه رأس ميكالي، صفقة خاصة مع الفرس، ليس فقط للنفاذ بجلودهم بل لإهلاك المدينة التي عاشوا في ظلها التجاري لفترة طويلة. فيما قامت أسراب بأكملها بنسخ مثال المتمردين وبدأت في الالتفاف، أصبحت هزيمة بقية الأسطول الأيوني أمرًا لا مفر منه- وصار موقف ميليتوس لا يمكن الدفاع عنه. مع الجثث التي تجتاح موانئهم، والأمراض في شوارعهم، وفقدان كل آمال النصر الآن في المياه قبالة ليد،

استسلم الميليسيون سريعا لهجوم آليات الحصار الفارسي؛ واستولى أرتافرنيس على المدينة وأجرى عليها انتقامًا رهيبًا يكاد يكون أشوريًا. جوهرة بحر إيجة، الحليف المفضل للملك الفارسي، أُسلمت بالكامل للنار. ذُبح رجالها، واغتُصبت نسائها، وخصي أبناؤها، واستُعبِدت بناتها. عندما بدأ الناجون البائسون، المقيدين في طابور العربات المكدسة عالياً بكنوز أقدس مزاراتهم، بالتجول في رحلتهم الطويلة إلى معسكرات العمل والحريم في بلاد فارس، مروا بالمستوطنين متجهين في الاتجاه الآخر، فقد مُنح الموالون حيازة أرضهم من عند ارتفارنس. كان هذا هو المصير الذي أقسم الملك العظيم أن يلحقه بجميع المتمردين على سلطته؛ وكما أقسم الملك العظيم، فقد تحقق ذلك بالتأكيد.

إلى أين الان سيسلط نظرته؟ وهل لغضبه حدود؟ إذا استقبلت أخبار محو ميليتوس في أثينا وإرتريا بالرعب الصريح، فقد مرت بجيرانهم أيضًا، وهذا ما يثير القلق بشكل ملموس. منشغلة بمشاجراتها الخاصة كما كانت دائمًا، اضطرت أكثر المدن اليونانية ضيقة الأفق الآن إلى الانتباه والاعتراف بالقوة الفارسية كعامل جديد وضخم في حساباتها. لكن إلى أي مدى يكون تأثيره؟ كانت هناك عدة خيارات متاحة-وليست جميعها رائعة. فالارغوسيين، على سبيل المثال، الذين كان حماسهم للحرية يأتي في المرتبة الثانية بعد كرههم للاسبرطيين، كانوا قد اتخذوا قراراتهم حتى قبل سقوط ميليتوس[260]. العيش كسلالة بأنساب زائفة كان لفترة طويلة سمة من سمات سياستهم الخارجية، عبر سفراء أرغوس إلى ساردس وأخبروا الفرس المذهولين أنهم في الواقع ينحدرون من ملك قديم لأرغوس. نظرية بعيدة المنال إلى حد ما، ربما كان يعتقد؛ باستثناء أن الجد المفترض الذي نبشه الارغوسيين، كان بطلا يقتل الغورغونات وينقذ الأميرات، اسمه بيرسيوس، بدا بالتأكيد كما لو أنه من أسلاف الفرس. تبع ذلك اتفاق غامض على النحو الواجب. كان لدى الفرس والأرغوسيين على حدٍ سواء أسباب ممتازة للانغماس في الخيال المتمثل في كونهم اقرباء: فالفرس كانوا يأملون في قاعدة ترحيب بهم في البيلوبونيز؛ ويمكن للأرغوسيين أن يفركوا أيديهم ويحلموا بإسبرطة وقد تحولت إلى أنقاض على يد ابن عمهم البعيد، ملك الملوك.

كان الأسبرطيون أنفسهم. رغم عداءهم لبلاد فارس الذي يعود تاريخه إلى اهانة كورش لهم، راضين منذ فترة طويلة عن اعتبار ادعاءات القرابة مع البرابرة مثيرة للشفقة وليست مهددة. لكن سرعان ما تغير ذلك عندما بدأت الأخبار القاتمة من إيونيا تصل اليهم. بلاد فارس المنتصرة، وأرغوس الباحثة عن الانتقام: كان ذلك احتمال نشأ من أحلك كوابيس الاسبرطيين. بعد أن رفض كليومينيس في الأصل فرصة محاربة البرابرة في إيونيا، بدأ الآن في ضربهم بطريقة محسوبة أكثر لإضفاء الوهج على قلوب مواطنيه: من خلال الاعتداء على أرغوس. في صيف عام 494 قبل الميلاد، بينما كان الفرس يسحقون قوات المتمردين في إيونيا، قاد كليومينيس مواطنيه شمالًا في مهمتهم الابادة خاصتهم. لم يُسمح لأي شيء بالوقوف في طريقهم. بعد أن أخبره العرافون أن إله نهر أرغوسي سيهلك الاسبرطيين إذا عبروا مياهه، شخر كليومينيس، "كم هو وطني للغاية[261]." وبازدراء أخذ طريقاً آخر. بعدها، وبعد أن حطم الجيش الأرغوسي في معركة كبيرة بجانب قرية سيبيا وطارد الناجين إلى بستان مقدس، صرخ على الارغوسيين الأفراد أن أموالهم قد دفعت فدية. وعندما خرجوا من الحرم، أمر كليومينيس بإعدامهم واحدًا تلو الآخر. وعندما فهم الهاربون المتبقون أخيرًا هذه الحيلة القاتلة، أمر كليومينيس ببرود بحرق البستان المقدس.

جريمة مروعة، بالطبع، مروعة، في طريقتها، لأنه أمر بها يوناني، مثلما كانت ميليتوس. على الرغم من أن كليومينيس، ليجنب نفسه وصمة تدنيس المقدسات، قد أمر الهيلوتيين بإحراق البستان، إلا أن الدخان الأسود الذي تصاعد من المحرقة، دهني وملوث باللحم البشري، قدم بيانًا مروّعًا لمدن أخرى عن النوايا الاسبرطية. لن يتم التسامح مع أي تهديد الى لاكاديمون. أرغوس، التي أعدم فيها جيل كامل، مقطوعة أوصالها عن أراضيها، تركت ضعيفة لدرجة أنه حتى ميسينا الصغيرة كانت قادرة على التملص من قبضتها. وقفت كمثال مشوه لما قد ينتج عن أي تحد لقوة اسبرطة. يمكن للفرس أيضًا أن يحسبوا أنفسهم مشمولين في التحذير. أي غزو سيقابل بمقاومة عنيدة. وتعهدت اسبرطة بالتمسك بموقفها والقتال، مهما حدث.

يبدو، إذن، كما لو أن أثينا قد لا تضطر إلى الوقوف بمفردها ضد ملك الملوك المنتقم في النهاية. ومع ذلك، ظهر الأثينيون أنفسهم، بحلول شتاء عام 494 قبل الميلاد، مشلولين بسبب نفس التردد الذي أصاب أبناء عمومتهم الأيونيين بشكل قاتل. ربما كانوا مخدرين بسبب الكآبة المستمرة للأخبار من جميع أنحاء بحر إيجه. إيونيا، التي كانت ذات يوم مزدهرة للغاية، ورائعة جدًا، وعادلة جدًا، تم الإبلاغ عن أنها أصبحت أرضًا قاحلة. ارتفعت الأعشاب على خطى فرق الانتقام الفارسية؛ الهاربون الذين اقتيدوا إلى التلال تم نقلهم بواسطة الكلاب وشباك الجر البشرية؛ هؤلاء الميليسيون القلائل الذين لم يتم ترحيلهم جلسوا يرتجفون وسط الأنقاض السوداء لمكان ولادة الفلسفة. كان احتمال أن يتشاركوا في نفس المصير أكثر من أن يتحمله الأثينيون. في ربيع عام 493 قبل الميلاد، عندما نُظمت مأساة في مدينة ديونيزيا لم ترسم مشهدًا من الأساطير، كما كان الجمهور يتوقعها، ولكن كانت مباشرة عن سقوط ميليتوس، "كان كل فرد في المسرح يبكي[262]." تم حظر المأساة على الفور وتغريم الكاتب المسرحي، كعقوبة لقيامه بالدعاية التحريضية وإزعاج المواطنين، بغرامة كبيرة. بدا أن استجابة الأثينيين للتهديد الفارسي كانت دفن رؤوسهم في أعماق الرمال.

ومع ذلك، وكما عرفوا في قلوبهم أن جيش الملك العظيم قادم، فقد عرفوا أن وصوله سيتركهم أمام خيارين فعالين فقط: الاسترضاء، التعاون، الاستسلام-أو القتال. لا يمكن تأجيل الاختيار لفترة أطول. كان الدليل على ذلك في كل مكان. لم يكد رواد المسرح يمسحون دموعهم حتى وصل تذكير حي آخر بغيوم العاصفة التي تتجمع في الشرق إلى ميناء فاليروم. جاء ملتيادس وهو يجر سحائب المجد: بعد أن قاتل البرابرة بشكل أكثر بطولية من أي شخص آخر في أثينا، ونجا من ثأر الأسطول الفارسي بشق الانفس، متهربًا من سرب أرسل خصيصًا لاعتراضه وملاحقته على طول الطريق إلى أثينا. لكن كان لديه أيضًا العديد من الأعداء الأقرب إلى الوطن: كرهه أقرانه وخشاه من الناس، بدا بريقه غير مناسب للديمقراطية المحاصرة. ما إن نزل حتى وجد نفسه يُحاكم

"بسبب طغيانه في كيرسونيس"[263]. و تم تحديد موعد المحاكمة في وقت لاحق من العام.

ستتعلق الكثير من الأمور على الحكم أكثر من مصير ميلتيادس وحده. هل سيكون لدى الأثينيين الشجاعة لتبرئة رجل طالما كانوا يخشون أنه طاغية محتمل، ومع ذلك فإن سجله كمقاتل للميديين لا يُعلى عليه؛ أم أنهم سيستسلمون بدلاً من ذلك إلى الملذات الأكثر إلحاحًا-والتقليدية-الفصائلية؟ كان على كل مواطن أن يكون له رأي؛ لكن صاحب التأثير الأكبر وعد بأن يكون الأرخون، الرئيس السنوي للدولة. كان هذا كافياً لإعطاء ميزة خاصة لانتخابات عام 493 قبل الميلاد. وعندما فاز مرشح مرتبط بشدة بقضية مكافحة الاسترضاء، كان من المؤكد أن ميلتيادس قد تنفس الصعداء. صحيح أن ثيمستوكليس كان يحسده كثيرًا، ولاريب أن إغراء العمل من أجل تدمير منافس يتمتع بشخصية جذابة كان كبيرا؛ لكنه قاومه. تمت تبرئة ملتيادس، الذي قدم للمحاكمة. بعد ذلك بوقت قصير، تم انتخابه زعيما عسكريًا لقبيلته-أحد الجنرالات العشرة المكلفين بتقديم المشورة والدعم للقائد الأثيني الأعلى، زعيم الحرب. ولابد أن هذا، تمامًا مثل حرق البستان في سيبيا، بدا للجواسيس الفرس اعلان نوايا يتسم بالتحدي. ومن المؤكد أنه عمل على إعطاء ميلتيادس تأثيرًا حاسمًا في صياغة سياسة الدفاع عن مدينته. يبدو أن الديمقراطية قد حسمت قرارها أخيرًا. التزم الأثينيون، مثل الإسبرطيين، بالقتال.

الطريق إلى ماراثون

لم يكن لدى أي شخص في أثينا أدنى شك في أن الملك العظيم كان مصمماً بنفسه على تدمير الديمقراطية. عندما بلغت الأخبار داريوس بأن ساردس كانت تحترق، قيل إنه طلب أن يحضروا له قوسه، طوطم السلطة الملكية الفظيع ذاك، وأطلق سهمًا عالياً في الهواء، داعياً إلى أهورا مازدا أثناء ذلك، أن يمكنه من معاقبة الأثينيين كما يستحقون. كان غضبه شديداً لدرجة أنه لم يكن من المفترض أن تتعافى الشهية الملكية تمامًا من الصدمة. فيومًا بعد يوم، كما رددت الشائعات، وعامًا بعد عام، في كل مرة يجلس فيها داريوس الى

مائدته ليتناول الطعام، كان الخادم يهمس بهدوء في أذنه، "يا سيدي، تذكّر الأثينيين[264]."

ليس عملا بطولياً، بالطبع، بالنسبة لأناس كانوا مغمورين في السابق على حافة العالم، أن يتم ذكرهم يوميًا داخل الحرم الداخلي لبرسيبوليس. يمكن أن يشعر الأثينيون، حتى وهم يجعلون أجسادهم ترتجف من تخيل أنفسهم ينفردون بانتقام الملك العظيم، الشعور بقشعريرة ما من الفخر اليائس لهذه الفكرة. في الواقع، حقيقة أن داريوس قد فشل بشكل مؤكد في التوجه مجتاحا اسيا نحوهم تشير إلى أنهم ربما كانوا يمدحون أنفسهم. من المؤكد أن الحجم الحقيقي لإمبراطورية الملك العظيم والمطالب التي يوليها انتباهه كانت أبعد من أن يفهمها معظم الإغريق. أبلغ كليومينيس أثناء مقابلته الفاشلة مع أريستاغوراس أن سوزا التي لا تبعد أكثر من مسيرة ثلاثة أشهر وراء البحر، قد هبت في حالة من الجحود المفزع؛ ومع ذلك، شرق سوزا ، استغرق رعاة نفوذ الملك العظيم ثلاثة أشهر أخرى للعبور بدورهم. كان يمكن أن يكون في هذا القليل من العزاء للأثينيين، وهم ينتظرون ساعة الهلاك، لكن تلقينهم درسًا لم يكن من اهتمامات داريوس الوحيدة، ولا حتى الأكثر إلحاحًا.

لكن هذا لا يعني أنه لم يكن مصدر قلق على الإطلاق. كانت ذاكرة الملك العظيم رحبة ومتناول يده شاملاً. ليس من أزمة على الحدود البعيدة الا ويتم إطلاعه عن كثب عليها. كانت مهولة كما كانت المسافات داخل سلطته، تلك البراعة التي عمل بها عبيده لتقليصها. لا يمكن لأحد ألا ينبهر بسرعة اتصالات الفرس. منارات النار، المشتعلة من مرصد إلى مرصد، قد تُبقي الملك العظيم على اطلاع بحادث ما تقريبًا وهو يختمر. في المناطق الجبلية للإمبراطورية، وخاصة في بلاد فارس نفسها، حيث توفر الوديان ظروفا صوتية ممتازة، يمكن الحصول على معلومات أكثر تفصيلاً عن طريق التناوب السمعي. الفرس، الذين درسوا "فنون التحكم في التنفس والاستخدام الفعال لرئاتهم[265]،" كانوا معروفين أن لهم أعلى الاصوات في العالم. العديد من الرسائل، التي يتردد صداها عبر المنحدرات والوديان، كانت تصل خلال يوم عبر تضاريس تستغرق من الرجل الذي يمشي على الأقدام المعاناة لمدة شهر من أجل تغطيتها. كما فهم

الفرس لدرجة لم يسبق لها مثيل، أن المعلومات هي الهيمنة. والسيطرة على المعلومات، تعني السيطرة على كل العالم.

إذن، لم يكن الأساس النهائي للعظمة الفارسية بيروقراطيتها، ولا حتى جيوشها، بل طرقها. خيوط ثمينة من الغبار والأوساخ المكدسة، زودت ضخامة جسد الإمبراطورية بجهازها العصبي، حيث كانت الأخبار تتدفق باستمرار، من المشابك إلى المشابك، ومن وإلى الدماغ. لقد اباد السعاة الملكيين المسافات التي كانت قد أفزعت كليومينيس بشكل روتيني من قبل. كل مساء، بعد رحلة يوم شاق، كان الرسول يجد محطة بريد في انتظاره، مجهزة بسرير، ومؤن وحصان جديد للصباح. الرسالة العاجلة حقًا، تلك التي تأتي على فرس تعدو عبر العواصف في جنح الظلام، قد تصل إلى برسيبوليس من بحر إيجه في أقل من أسبوعين. كانت هذه سرعة لا تصدق وشبه سحرية. لا يضاهيها شيء كان معروفا من قبل. لا عجب أن سيطرة الملك العظيم على مثل هذه الخدمة-طريق المعلومات السريع الأصلي-قد أذهلت رعاياه، وأدهشتهم بأنها أضمن مقياس واظهار للقوة الفارسية.

وتم تقييد الوصول إليها بشدة. فلا يمكن لأحد أن تطأ قدمه طرق الملك بدون تصريح، "فياتاكا". ونظرًا لأن كل وثيقة سفر يتم إصدارها إما مباشرة من برسيبوليس أو عن طريق مكتب المرزبان، محض حيازة لمكانة المرء مكتوبة. في الواقع، كان في تلك "الفياتاكا" يلتقي وينصهر بشكل مثالي ذلك الهوس التوأم للإمبريالية الفارسية، بخلط الأشكال والتقسيم الطبقي الاجتماعي الصارم. لم تكن هناك طريقة أفضل أمام أى مسؤول لاكتشاف مكانه الدقيق في نظام السلطة الإمبراطوري، من الوصول إلى محطة البريد في الليل، وتسليم فياتاكا الخاص به إلى المدير، وإحصاء الحصص الغذائية التي جلبها له في المقابل. إذا كان أحد أعظم رجال المملكة-أحد شركاء داريوس المتآمرين الستة، على سبيل المثال-فقد يتلقى هو وحاشيته ما يصل إلى مائة لتر من النبيذ. وإذا كان في أسفل السلسلة الغذائية، فقد يجد نفسه، بشكل مهين، يحصل على حصة نبيذ أقل من حصة الحصان المفضل بشكل خاص. لقد وجد الفرس أن فياتاكا مرضية للغاية كأساس لترتيب العالم، ليس فقط المسؤولين والجنود ولكن

النساء والأطفال، وحتى الطيور، تجد نفسها مرتبة بشكل نهائي ضمن المخطط الإمبراطوري للأشياء عن طريق الحصص التموينية. يمكن للبطة، على سبيل المثال، إذا تم تسمينها للمائدة الملكية، أن تتطلع إلى تناول ربع جالون من النبيذ كل يوم. وبالمقارنة، قد تضطر الفتاة الصغيرة إلى تدبر امرها بلتر واحد في الأسبوع.

الرجال والنساء والأطفال والخيول والطيور المائية: لا أحد يستطيع أن يفلت من الوصفات شديدة الدقة لبيروقراطيي داريوس. لم يكن للملك العظيم "عيونه" داخل بلاط المرزبان فقط، فهو يراقب إلى الأبد ويفحص ويتتبع. تتطلب كل معاملة تتم داخل محطة البريد نموذجًا يتم ختمه من قبل كل من المدير والمستلم، ثم إعادة توجيهه إلى أرشيف مركزي في برسيبوليس. تم التحكم بشدة في مسارات المسافرين على الطرق الملكية لدرجة أن الذين يتباطأون في الطريق ولا ينجحون في الوصول إلى الوجهة المعينة في الموعد المحدد يمكن أن يتوقعوا مصادرة حصصهم الغذائية طوال الليل. أما أولئك الذين سافروا على الطرق بدون فياتاكا على الإطلاق فلن يجوعوا فحسب، بل سرعان ما يتم تعقبهم وقتلهم. حتى البريد، إذا تم إرساله دون موافقة ملكية أو مرزبانية، فسيتم تدميره. فقط الأكثر دهاء يمكن أن يأمل في التهرب من يقظة دوريات الطرق السريعة. هيستياوس، على سبيل المثال، في عام 499 قبل الميلاد، كان يائسًا من التواصل مع ابن أخيه في ميليتوس البعيدة وابلاغه بخططه للثورة، حلق رأس أكثر عبيده جدارة بالثقة، ووشم رسالة على فروة الرأس اللامعة، وانتظر بصبر الشعر لينمو مرة أخرى." بعدها، بمجرد أن أصبح شعر رأس العبد طويلا مرة أخرى، أرسله هيستياوس إلى ميليتوس وأمره بعدم القيام بأي شيء سوى إخبار أريستاغوراس بحلق رأسه وتفقد ما يكشف عنه[266]." كان هذا هو الإبداع المطلوب من أولئك الذين ليس معهم فياتاكا.

كيف، إذن، كان أعداء الملك العظيم يتنافسون مع كل موارد ذكاء داريوس الهائلة؟ ليس جيدًا، كان الجواب. فالمتمردون الأيونيون، على سبيل المثال، الذين انتشروا على الحافة الخارجية لآسيا، لم يكن لديهم سوى أكثر الأفكار ضبابية عن تحركات القوات الفارسية ونواياها-وهو فشل تم توضيحه

بشكل صارخ من خلال القدرة المذهلة لداريوس، على بعد 1500 ميل من مسرح الحرب، لتتبع الأحداث كما لو كان موجودا في المكان. كان هو، على سبيل المثال، في الأسابيع الأولى من عام 494 قبل الميلاد، من وضع بنفسه خططًا للهجوم الأخير الذي سيؤدي بعد بضعة أشهر إلى النصر الفارسي العظيم في لاد ونهب ميليتوس. كانت معلومات داريوس في تلك المناسبة دقيقة ومفصلة بشكل خاص، لأن اختصاصيه العسكري الرائد في الشؤون اليونانية، وهو جنرال اسمه داتيس، قد سافر مباشرة بالخدمة السريعة من إيونيا لإبقائه على اطلاع بآخر الأخبار من الجبهة. لا شيء يمكن أن يشير بشكل أفضل إلى الأهمية القصوى التي يوليها الملك العظيم للتجسس أكثر من أن يقوم رجل في مكانة داتيس برحلة طويلة إلى برسيبوليس شخصيًا. كان داتيس-مثل هارباجوس، الفاتح الأصلي لإيونيا-ميديًا؛ لكنه كان أيضًا، في العالم التنافسي المتمثل في الحصص التموينية والتمريرات الأمنية، لاعبًا ثقيلًا تمامًا مثل أي لاعب فارسي كبير. كانت حصته اليومية من النبيذ سبعين ليترًا: حصة من الشراب لن تهزأ بها أخت الملك. المكافأة المستحقة لمقدرة وسجل عسكري استثنائي.

صحيح أن أجهزة المخابرات الفارسية لم يكن لها دائمًا الأشياء بطريقتها الخاصة؛ ولم تكن مراقبة داريوس للقدرات ناجعة بالضرورة. فقد حدثت إحدى أسوأ الكوارث قبل عامين من وصول داتيس إلى برسيبوليس، عندما أرسل الملك العظيم، في عرض مذهل لسوء التقدير، هيستياوس إلى ساردس كوكيل شخصي له. فزع أرتفارنس من الاضطرار إلى الترحيب بالميليسي المخادع في مقره ولكنه كان متردداً في الإساءة إلى أخيه، وقد كشف لهستيايوس النطاق الكامل لشكوكه، أملاً بذلك تخويف ضيفه غير المرحب به ليتحدث صراحة عن العدو. هدد المرزبان قائلاً: "دعنا من اللف والدوران". ربما لبس أريستاغوراس الحذاء، لكنك أنت من صنعه".[267] شحب هيستياوس، واستوعب الرسالة، لكن الهروب من ساردس في تلك الليلة بالذات لم ينهي قدرته على الأذى. وهو يصيد في المياه العكرة لدوائر التجسس بمهارة بارعة، ويكشف عن نفسه أولاً إلى جانب ثم إلى الجانب الآخر كعميل مزدوج، سعى إلى قلب أساليب ارتفارنس الأكثر مخادعة ضد مرتكبيها، حتى تجرأ على إثارة التمرد داخل بلاط المرزبان

نفسه. يبدو أن اليونانيين لم يكونوا وحدهم الذين يمكن تحريضهم ضد بعضهم البعض: بدت الأزمة لفترة وجيزة مهددة للغاية لدرجة أن ارتفارنس، الذي كان يكافح بشكل محموم للحفاظ على سلطته، قد أُجبر على تطهير شامل لأبناء بلده. كانت مثل هذه القسوة، لحسن حظ المرزبان، كافية فقط لمنع تفكك القيادة الإقليمية الفارسية-وبالطبع منذ تلك اللحظة فصاعدًا، صار هيستايوس رجلاً مميزًا. لا توجد حلقة في سحق ثورة الأيونيين بالكامل يمكن أن تمنح ارتفارنس متعة أكبر من القبض، بعد عام من الانتصار في لاد، على الغادر المفضل السابق لأخيه. تم نقله إلى ساردس بالسلاسل، أصر هيستياوس الذي لا يمكن كبته بهدوء على إعادته إلى الملك العظيم-وهو مطلب استوفاه ارتفارنس على النحو الواجب بخوزقته، ثم إرسال رأسه المقطوع، مخللًا ومعبأ بالملح، بالبريد السريع إلى سوزا .

كان إعدام هيستياوس وهروب ملتيادس الموازي إلى أثينا بمثابة النهاية الفعالة للمقاومة الأيونية. بعد الانتصار في الحرب، كان من الصعب على ارستوفانس الآن أن يفوز بالسلام. كانت إيونيا قد دهستها ستة فصول من الحرب الشرسة. كانت الحقول جرداء، والسفن تتعفن ساكنة في الموانئ الراكدة، واختفت الطرق تحت الأعشاب، وهجرت قرى وبلدات بأكملها بعد أن صارت أنقاضاً سوداء. وفيما كان الأيونيون يتضورون جوعا، بدأوا حتما في التشاجر على الحقول القليلة التي لم يكسوها نبات القراص والعليق. واستنزفوا كل طاقاتهم وقواهم البشرية تقريبا، ومدوا ايديهم الى أسلحتهم مرة أخرى. ارتفارنس، مع عدم وجود أي منها، تدخّل في الحال. تم استدعاء ممثلي مختلف الولايات الأيونية إلى ساردس وأمروا بسرعة بأداء قسم الصداقة الدائمة. من الآن فصاعدًا، سيتم تسوية جميع النزاعات الحدودية ليس عن طريق الخلاف المسلح كما كان الشائع بين اليونانيين ولكن عن طريق التحكيم، مدعومًا بشكل مباشر بموافقة القوة الفارسية. كما اعترف الأيونيون أنفسهم، كان هذا تطورًا "ليس في صالحهم تمامًا"[268]. لحماية رعاياه من أسوأ غرائزهم، وتعزيز الاستقرار، وتسهيل التدفق المنتظم للجزية: ظل هذا، كما كان دائمًا، السياسة الافتراضية للمرزبان. بعد أن حقق الرعب هدفه، يمكن أن يعود

ارتفارنس الآن متنفساً الصعداء لكسب قلوب وعقول رعاياه. ومدركًا تمامًا لنفور الأيونيين من الاستبداد، كان مستعدًا للتساهل تحت ظروف معينة في تفضيلهم للديمقراطيات. في النهاية، طالما تم الحفاظ على سلام الملك، بالكاد يكون مهماً كيف يختار اليونانيون أن يحكموا أنفسهم.

هذا التساهل لم يمتد بالطبع إلى أولئك الذين بقوا يحملون السلاح. حتى عندما طبق ارتفارنس على نزيف ايونيا بلسم مستوطنة ظل يذكر بعدها لفترة طويلة كنموذج للعدالة والانصاف، كذلك ظل التحدي المستمر للأثينيين جرحًا مفتوحًا. خطراً داهماً أيضا. كلما تأخرت مدة عقاب أثينا، زاد خطر انتشار الدول الإرهابية في جميع أنحاء براري اليونان الجبلية والتي يتعذر الوصول إليها: وهو احتمال مرعب لأي استراتيجي فارسي. ومع ذلك، لم تكن الجغرافيا السياسية الدافع الوحيد في ذهن الملك العظيم. فليس من أجل لا شيء أن سلّم أهورا مازدا العالم بين يديه. لم يكن قد تم فرض واجب مقدس عليه أكثر من واجب اقتحام معاقل الباطل، حيثما تنامت. كانت أثينا عشًا للمتمردين، لكن المدينة أيضًا وقفت، بشكل أكثر خطورة، على أنها موطن الشياطين، " دايفا "، الآلهة الزائفة الذين اختاروا طريق التمرد ضد الرب مازدا، "باتباع مسار من الغضب، وتسميم حياة الناس"[269]. النار فقط، من النوع التي سبق أن نقّت وطهرت أضرحة الأيونيين، من يمكن أن تحرر أثينا ومعابدها من الباطل. من أجل الصالح الروحي للكون، وكذلك الاستقرار المستقبلي لإيونيا، يجب تحويل بحر إيجه بأكمله إلى بحيرة فارسية-وبدون تأخير. نقطة انطلاق في مرحلة جديدة مثيرة من التوسع الإمبراطوري وحرباً مقدسة: هكذا كان حرق أثينا يعد بأن يكون كلا الأمرين.

لكن ما هي أفضل طريقة لتحقيق ذلك؟ اقترحت سياستان نفسيهما: استكمال غزو الأرض على طول ساحل شمال بحر إيجة: وفي نفس الوقت تهديد مدن اليونان للاستسلام. لتحقيق الهدف الأول، تم إرسال أسطول وجيش جديد إلى تراقيا في ربيع عام 492 قبل الميلاد، مع أوامر بتوسيع الهيمنة الفارسية غربًا، إلى مقدونيا وربما أبعد من ذلك. وصل قائدهم، وهو نبيل شاب مبهر اسمه ماردونيوس، إلى الجبهة الغربية مغمورًا بالفعل في الوهج الذهبي

للكاريزما الطبيعية. ابن جوبرياس، أقرب أصدقاء داريوس من بين السبعة، تأكدت علاقته الحميمة مع العائلة المالكة من خلال زواجه من ابنة الملك العظيم. لكن ماردونيوس لم يكن مجرد صاحب علاقات جيدة للغاية. لقد كان أيضًا جنرالًا يتمتع بالروح والذوق الأصيل. سرعان ما انحنى الإسكندر، ملك مقدونيا، للأمر المحتوم: تم استيعاب مقدونيا رسميًا في نفوذ الملك العظيم، الذي امتدت سلطته الآن إلى سفوح جبل الأولمب. صحيح أن الانتصار تشوه بعض الشيء عندما تحطم أسطول ماردونيوس بأكمله في عاصفة قبالة جبل آثوس، وأصيب ماردونيوس نفسه، الذي شن هجومًا مفرطًا على قبيلة جبلية مزعجة، بجروح بالغة-لكن هذه الانتكاسات لم تكن شديدة بما يكفي لتقويض الهيبة الفارسية. مقدونيا، بالتأكيد، ظلت صلبة بالنسبة للملك العظيم. وكان الاسكندر، الخبير في معرفة اتجاه الريح، يستطيع تحديد الاتجاه الذي كانت تهب منه الرياح على وجه الدقة.

لكن السؤال الرئيسي بالنسبة للاستراتيجيين الفرس كان ما إذا كان اليونانيون في الجنوب سيكونون حساسين بشكل مماثل للطقس السياسي. في عام 491 قبل الميلاد، بعد عام من غزو مقدونيا، تم إرسال السفراء في جولة استكشافية لليونان، مطالبين بالأرض والمياه. سارعت معظم المدن، ممتنة، إلى التفضّل. لكن البعض لم يفعل ذلك. اثنان، على وجه الخصوص، لم يتركوا تشبثهم بظلام الباطل، وشياطين دايفا، تلك التي "تفرّخ الغاية الشرير[270]،" بأي صورة واضحة. في أثينا، لم يتم فقط رفض مطالب الملك العظيم، بل أن سفراءه، في تحد صارخ للقانون الدولي، قدموا للمحاكمة أمام المجلس، وأدينوا وأعدموا. ربما-بالنظر إلى أن أثينا كانت دولة إرهابية مثبتة، وأن الرجل الذي بدأ بإعدام الدبلوماسيين هو ميلتيادس، الهارب سيئ السمعة من عدالة الملك العظيم-لم يكن هذا الغضب مفاجئًا. كان الأمر الأكثر إثارة للصدمة والأكثر إزعاجًا في تداعياته هو أن الأسبرطيين اختاروا تشويه أنفسهم بعمل أسوأ من تدنيس المقدسات. لم تكن هناك محاكمة لسفراء الملك العظيم في اسبرطة: وبدلاً من ذلك، أُلقي بهم في بئر، وقيل لهم قبل أن يغرقوا أنهم "إذا أرادوا التراب والماء، يمكنهم العثور عليه هناك[271]".

كان هذا، في تحديه العاري، وذكائه الوحشي وتجاهله المتعجرف للأعراف الدينية، أمرًا مذهلاً كانت له بصمات كليومينيس في كل مكان. يبدو أن الديمقراطية الأثينية قد وصلت بالفعل إلى تسوية مع الملك الأسبرطي الذي حاول تدميرها مرتين. عندما اكتشف الأثينيون أن إيجينا قد سلمت الأرض والماء إلى الملك العظيم، أبلغوا الخبر إلى اسبرطة، فسافر كليومينيس شخصيًا لتوبيخ الوسطاء. ومع ذلك، فإن الأمراء التجار في إيجينا، باعتمادهم على التجارة الدولية، كانوا مترددين في الإساءة إلى القوة الدولية العظمى في الشرق- حتى بالقول-وكذلك الملك الأسبرطي. بحثًا عن طريقة للتغلب على كليومينيس، ناشدوا ديماراتوس، ملكه التابع. وكان ديماراتوس، ممتنًا لأية فرصة لطعن منافسه المكروه في الظهر مرة أخرى، تعهد بالدعم بفارغ الصبر. تشجع الايجينيون على الوقوف بحزم. وقوبل كليومينيس بالرفض.

على الرغم من أن دور ديماراتوس في هذا العمل كان مستترا، إلا أنه لم يكن خفيًا لدرجة لا تمكن زميله من اكتشافه. كان موقف كليومينيس المضاد، الذي أبداه فور عودته إلى اسبرطة، قاسيًا وذا هدف ماكر. قرر الآن القضاء على زميله الذي لا يطاق مرة واحدة وإلى الأبد. اقترب كليومينيس من ابن عم ديماراتوس، وهو شخص حاقد اسمه ليوتيخيدس، ووعده بالعرش إذا ساعده في إسقاط قريبه. ليس من المستغرب أن ينتهز ليوتيخيدس الفرصة. كما كان أعداؤه يدركون جيدًا، كان لدى ديماراتوس هيكل عظمي قديم ينتظر فقط أن يتم سحبه من الخزانة. على الرغم من أن ظروف ولادة كليومينيس كانت متشابكة، إلا أن ظروف رفيقه الملك كانت بالكاد أقل من ذلك. أصبحت والدة ديماراتوس، الفتاة البسيطة التي منحت هدية الجمال من خلال ظهور هيلين، جميلة لدرجة أن ملك اسبرطة، الذي طغى عليه سحرها، استخدم عضلاته الملكية لاختطافها من زوجها. بعد سبعة أشهر، أنجبت الملكة الجديدة ولداً. ولكن هل كان أبوه هو الملك أم من عامة الشعب؟ لقد اجيب على هذا السؤال منذ فترة طويلة، ربما كان يعتقد أن ابن الملكة-ديماراتوس نفسه-قد تولى العرش بحلول عام 491 قبل الميلاد لمدة أربعة وعشرين عامًا. كانت هذه مجرد تفاصيل لكليومينيس؛ وعندما اقترح ليوتيخيدس، الذي أثار قضية شرعية

ديماراتوس، رفع القضية إلى دلفي للتحكيم، وكانت الرشاوى الجزيلة للكهنوت قد ضمنت بالفعل تواطؤ أبولو.

نطق الوحي على النحو الواجب ضد ديماراتوس. فبالعودة إلى اسبرطة، تم عزله رسميًا من الايفور، وحل محله ليوتيخيدس، الخانع والمرتشي. برفقة زميله الجديد، عاد كليومينيس على الفور لمواجهة الايجينيون، الذين استسلموا على الفور هذه المرة، بدلاً من أن يجرؤوا على تحدي اثنان من ملوك أسبرطة. حتى أنهم وافقوا، عندما طالب كليومينيس بذلك، على تسليم الرهائن كتعبير عن حسن سلوكهم مع ألد أعدائهم، الأثينيين. لم يعد بإمكان الحملات الفارسية القادمة من أتيكا استخدام إيجينا كقاعدة. ووجد كليومينيس، الذي كان يشتمه جيرانه منذ فترة طويلة، نفسه فجأة يحظى بالثناء على نطاق واسع لعمله غير الأناني "من أجل القضية المشتركة لليونان"[272]. تأكد العملاء الفرس من حكمهم على الملك الأسبرطي بأنه أخطر أعدائهم وأكثرهم قدرة، والعائق الرئيسي لما يخططه الملك العظيم للغرب.

ومع ذلك، كان كل شيء بعيدًا عن الضياع. نظرًا لأنه غالبا ما كان للفرس سبب وجيه يمتنون له، لم تكن هناك جبهة يونانية موحدة لدرجة أنها قد لا تتفكك في أي لحظة. فبمجرد أن بدا أن كليومينيس قد عزز موقفه للأبد، تسربت أخبار الرشاوى التي قدمها لدلفي فجأة. انفجرت الفضيحة فوق اسبرطة. كان الغضب عارمًا. وأجبر كليومينيس، الذي قبض عليه متلبسًا مرة، على الفرار من المدينة مخزيًا. لم يكن ذلك المنفى، بالطبع، مصيرًا كان على استعداد لتحمله في وضعية الاستلقاء. بازدراءه استجداء مواطنيه للسماح له بالعودة، سعى إلى ترهيبهم بدل من ذلك. لطالما كانت لدى كليومينيس موهبة في ترك الذئب يرعى الغنم، لكنها الآن قادته إلى غدر صارخ. عكس سياسة فرق تسد التي روج لها لهذا الغرض طوال فترة حكمه، سعى إلى حشد بيلوبونيز الشمالية دعما لقضيته الشخصية-وبهذا فقد مواطنيه المذعورين أعصابهم ودعوه على عجل للعودة. ولكن ليس في مزاج متسامح. وكليومينيس، بالعودة إلى اسبرطة، كان ناجحا في إنهاء مصيره المحتوم. بدأ الهمس بأنه مجنون. ألقى الاسبرطيون أنفسهم باللوم على الكحول. فضل الارغوسيين أن يروا في انحدار

كليومينيس دليلاً أكيدًا على غضب الآلهة. ومهما كان السبب، اتفق الجميع تقريبًا على أن الملك الذي تم الترحيب به قبل عام واحد فقط باعتباره حصن اليونان أصبح مجنونًا الآن. كانت هناك شكاوى قليلة عندما قام أخويه غير الشقيقين، ليونايدس وكليومبروتوس، في أواخر عام 491 قبل الميلاد، بشد وثاقه وحبسه في المخزن. ولم يتعجب أحد عندما وُجدت جثته في صباح اليوم التالي، وشرائح من اللحم مقطوعة من ساقيه ووركيه وبطنه، وسكين ملطخ بالدماء ملقىً في التراب بجانبه. وكان الحكم أبعد ما يكون عن المعقولية ولكنه مع ذلك كان مقبولا عموماً: لقد انتحر.

هكذا قضى ألد أعداء الملك العظيم في اليونان. معه أيضًا مضى أسلوب في القيادة-لا ضمير له، بالتأكيد، لكنه حاسم واستباقي-لم يتوقف الاسبرطيون الحذرين بطبيعتهم عن إثارة القلق أبدًا. في الواقع، أدت ظروف نهاية كليومينيس المزرية إلى تأكدهم كثيرًا من شكوكهم في وجود قادة أقوياء تمامًا. صحيح أن ليونايدس، الملك الجديد، كان خليفة أخيه بأكثر من طريقة، لأنه تزوج، بمباركة والدها، من غورجو، الطفلة الوحيدة لكليومينيس-وريثة ثرية مثلما كانت طفلة صغيرة مبكرة النضوج. على الرغم من ذلك، بقي ليونايدس، كرجل جديد على العرش ربما ملوث بقتل الأشقاء، بقدرٍ غير معروف: كان لا بد أن يستغرق بعض الوقت ليجد طريقه. من كان موجوداً مع ذلك، مع تهديد ضربة المطرقة الفارسية، ليأخذ زمام المبادرة؟ ليوتيخيدس؟ كان مشغولا جدا بالصياح على ديماراتوس البائس. الجيروسيا؟ أم الايفور؟ كلاهما كانا جسدان محافظان بشكل غريزي، وأقل احتمالا بكثير في اقرار سياسة الدفاع الأمامي مما كان عليه كليومينيس. كان الجواسيس الفارسيون، الذين قدموا المعلومات الاستخبارية إلى ساردس في ذلك الشتاء، يملكون الكثير من الأخبار السارة يبلغونها عن اسبرطة. الاضطراب في المدينة، القتال بين الفصائل الذي كان من شأنه أن يعتبره الاستراتيجين من جانب داريوس شيئاً يونانيًا إلى حد بعيد، بدا وكأنه يوفر لهم الافتتاح المثالي: الفرصة لضرب أثينا واخذها بينما كانت تقف بمفردها.

فرصة لا ينبغي تفويتها. في الأسابيع الأولى من عام 490 قبل الميلاد، صدر أمر الغزو الذي طال انتظاره أخيرًا. خرج جيش كبير، "قوي ومجهز تجهيزًا جيدًا"، يبلغ قوامه الإجمالي حوالي 25000 رجل، من سوزا [273]. مع استمرار تعافي ماردونيوس من إصاباته، عُهد بقيادة البعثة إلى جنرالين آخرين يملكان معرفة تفصيلية بالجبهة الغربية: ارتفارنس، ابن المرزبان الذي يحمل نفس الاسم في ساردس. وكرائد فعال، داتيس الميدي، المحارب المخضرم في الثورة الأيونية الذي تبلغ حصته 66 لترًا في اليوم، والرجل الذي، بشكل غير عادي بالنسبة لأحد أفراد النخبة الإمبراطورية، كان لديه مثل هذا الفهم المتخصص للعدو بحيث يمكنه في الواقع التحدث ببعض اليونانية المتعثرة. كانت الإستراتيجية التي من المقرر أن يتبعها هذان القائدان قد رسمها لهما الملك العظيم شخصياً: عبور بحر إيجه بأسطول هائل، وجلب فوائد الحكم الفارسي والسلام إلى جميع الجزر، وبعدها، اكمال الهدف، و "اخضاع أثينا وإريتريا للعبودية، وإحضار العبيد أمام الملك [274] ". كان على غزو بقية اليونان، بما في ذلك اسبرطة والبيلوبونيز، أن ينتظر. ومع ذلك، حتى مع استمرار تعليمات داريوس، كانت الرحلة الاستكشافية المخطط لها طموحة. بالتأكيد، كعملية برمائية، وعدت بأن تكون على نطاق لم نشهده منذ غزو مصر قبل خمسة وثلاثين عامًا. علاوة على ذلك، كانت خطة عدم معانقة الساحل، بل الانتقال من الجزيرة مباشرة إلى اليونان، استراتيجية جريئة ومبتكرة أكثر من أي استراتيجية تصورها داريوس.

ومع ذلك، لم يكن لدى داتيس وارتفارنس أدنى شك في نجاحهما النهائي. جلبت لهما رحلة كل يوم باتجاه الغرب دليلًا جديدًا على الحجم الذي بالكاد يمكن تصديقه لموارد الملك العظيم: الجماعات العمالية تكدح لصيانة الطرق، في بعض الأحيان، يتم زرع مجموعات سكانية بأكملها من أبعد مناطق الأرض؛ الحراس المتمركزون بجانب كل جسر، كل اسطول صغير من الطوافات، كل ممر جبلي. القوات الموجودة في مؤخرتها، ليس الفرس والميديين فقط، بل مجندون تم سحبهم من الشرق، من الباكتريين، والسوقديانيين، والساكا حملة الفؤوس. ماذا كانت أثينا عند شعوب مثل هؤلاء؟ لم تكن حتى معروفة الاسم.

ومع ذلك ساروا في طريقهم حسب إرادة ملكهم البعيد البصير. وكل مساء، بغض النظر عن المكان الذي يتوقف فيه هؤلاء الرجال القادمين من السهوب، ومن الجبال، ومن قرى إيران، سيزودون من المستودعات الهائلة، ويمدون بدقة بأباريق النبيذ وأرغفة الخبز والشعير لخيولهم. وعندما يمرون أخيرًا عبر البوابات السورية وينزلون إلى سهل سليشيا، على الساحل الجنوبي الشرقي لتركيا الحديثة، ويجدون هناك في انتظارهم أسطولًا ضخمًا من السفن، بعضها بُني كأسلحة حرب، والبعض الآخر لنقل الخيول. فيصعدون فوق الألواح الخشبية، رجالا وخيولا على حد سواء؛ ويعطى داتيس الأمر؛ ويندفع الأسطول إلى البحر.

سرعان ما انتقلت شائعات عن اقترابه من اليونان. لم ينزعج أحد هناك على نحو غير ملائم. على الرغم من أن الأسطول الوحشي كان يقصد بشكل واضح بحر إيجه، إلا أنه لم يكن يبدو كأنه يمثل تهديدًا وشيكًا حتى بالنسبة للأثينيين المتعثرين. لقد شوهدت الكثير من الأساطيل الفارسية قبالة إيونيا من قبل، وكانت دائمًا ما تبحر شمالًا، وهي تتبع الساحل، إلى هيليسبونت. ما سبب الاعتقاد بأن هذا الأسطول سيأخذ مسارًا مختلفًا؟ إلى الأمام، زحف الأسطول، متجاوزًا موانئ ميليتوس المدمرة، باتجاه المضيق بين جبل ميكالي وجزيرة ساموس-أو هكذا بدا الأمر. ولكن بعدها، وعند الاقتراب من ساموس، حدث شيء غير متوقع تمامًا: غيّر الأسطول مساره فجأة. سرت قشعريرة من عدم التصديق في كل أولئك الذين كانوا يراقبون من الشاطئ. لم يكن الفرس اتجهوا شمالاً بل يتجهون غرباً! ولا يمكن أن يكون هناك سوى تفسير واحد محتمل: انطلق داتيس وقواته وكانوا يبحرون نحو البحر المفتوح، نحو اليونان-قاصدين أتيكا.

ومع انتشار الأسطول الفارسي عبر بحر إيجه، أعطى قائده درسًا رئيسيًا في فنون بناء الإمبراطورية. أولاً: الصدمة والرعب. كان يدلف إلى ميناء ناكسوس المذهول، حيث انتقم متأخراً من كارثة الرحلة الاستكشافية هناك قبل عقد من الزمن بإشعال النيران في المدينة واعتقال السكان الأصليين كعبيد، وسحبهم إلى سفنه مقيدين بالسلاسل بعد أن احترقت منازلهم ومعابدهم. ثانياً: كسب

القلوب والعقول. عند وصوله إلى ميناء الاتصال التالي، جزيرة ديلوس، المقدسة في جميع أنحاء العالم اليوناني باعتبارها مسقط رأس أرتميس وأبولو، رد داتيس على الأخبار التي تفيد بأن العائلة الديلية قد فرت مكلومة قبل اقترابه. "أيها الرجال الذين أنارهم المقدس،" قال، "يا لها من فكرة غريبة عني لديكم، أن تهربوا بهذه الطريقة[275]!" ربما كان يُعتقد أن هذه شكوى مخادعة-لأن الفرس، بعد سقوط ميليتوس، لم يترددوا في نهب عرافة ديديما المقدسة ونقل تمثال أبولو البرونزي العظيم إلى إكباتانا. لكن الديليين كانوا مخطئين إلى حد بعيد إذا تخيلوا أن هذه المعاملة الصارمة لضريح المتمردين كانت تعني بأي شكل من الأشكال اظهار عدم الاحترام لأبولو العظيم! في النهاية، كان المتمردون أنفسهم هم من أظهروا لإله النور عدم الاحترام بشكل فادح، باللجوء إلى الباطل وبالتالي تسليم عرافته المقدسة للتنجس المظلم من شياطين دايفا. قرر داتيس أن هذه الدقة اللاهوتية لا ينبغي أن تضيع على اليونانيين، وقام على النحو الواجب بإثبات مذهل على إخلاصه للأله أبولو، وقف أمام مذبح الإله وأحرق على شرفه حمولات من اللبان. بعد ذلك، وبغض النظر عن وجهة نظره، عاد إلى الأسطول لمواصلة جولته في الجزر، متلقيًا استسلام سكانها، وأخذ الرهائن، ومطاردة العصابات. لم يفكر أحد في مقاومته. فقد قامت سحابتان من الدخان -أحدهما سوداء من لهيب ناكسوس المحترقة، والأخرى بيضاء عطرة، ترتفع من فتحات أنف أبولو نفسه-بعملهما. كان الأمر كما لو أن الأسطول، المتجه إلى إريتريا وأثينا، ظل يبحر تحت ظلهما-وكأن ذلك الظل نفسه كان ينجرف نحو الغرب، بلا هوادة، ليغرق اليونان بأكملها في الظلام.

من المؤكد أنه بحلول أواخر يوليو، وصل داتيس إلى أقصى الطرف الشرقي من إيبوبا[276]. هو الآن على مرمى البصر من أتيكا. أما أثينا، مع ذلك، فسوف تضطر إلى الانتظار؛ وبدلاً من العبور مباشرة إلى البر الرئيسي، قرر داتيس أنه سيهدف أولاً إلى الهدف الأصغر والأقل خطورة من بين الهدفين الموجودين في قائمة أهداف داريوس. وعلى مسافة خمسة وأربعين ميلاً فوق المضيق المتضيق بشكل متزايد الذي يفصل أتيكا عن إيبوبا، أبحر الأسطول الفارسي، حتى أخيرًا، و في الداخل البعيد ومؤطرة بخلفية من قمم الجبال،

برزت مدينة إريتريا المتمردة، وأكروبوليسها كرابية وعرة وسط سهل ضيق من الحقول وبساتين الزيتون. فاحصاً الشاطئ بعصبية، سرعان ما تنفس داتيس الصعداء. لأن الإريتريين، بدلاً من محاربة قواته على شواطئ الإنزال، حيث كان من الممكن أن تكون أكثر عرضة للخطر، اختاروا بدلاً من ذلك التراجع وراء جدرانهم. بدأ الفرس هجومهم حسب الأصول. لمدة خمسة أيام طويلة، كان القتال داميًا وبائسًا. وفي اليوم السادس سلّم الخونة المدينة للمحاصرين. قام اثنان من الطابور الخامس بفتح البوابات. جاء كلاهما، كما كان داتيس يعرف بالتأكيد، من الطبقة الأرستقراطية-في الواقع، كانا "أكثر الرجال احترامًا في إريتريا بأكملها"[277]. قم بترويع الجماهير، وتملق النخبة: مرة أخرى، أثبتت السياسة المفضلة لدى الفرس جدواها. كما هو الحال في إيونيا، صار الآن في إيبويا، وشهدت الأطلال المدمرة على أهلية الإغريق للخيانة والكراهية الطبقية.

وكان رجل واحد متأكداً، بعيدًا عن مشهد إريتريا الملتهب وقوافل العبيد التي كانت جاهزة للترحيل، من أنه يرى نذيرًا بمصير مدينته وشعبه، ما لم يكن من الممكن إقناعهم فقط برؤية السبب. وفتح أبوابهم والترحيب به مرة أخرى. كان هيبياس، طاغية أثينا المنفي، قد تجاوز الثمانين عامًا الآن. ولم ير وطنه منذ عقدين. ومع ذلك، كان مؤمناً بكل إخلاص باعتبار نفسه الأمل الأخير والأفضل للأثينيين. هو وحده القادر على صرف الغضب المبرر للملك العظيم عنهم؛ وهو فقط من يستطيع أن يأمل في إعادة مدينته البائسة إلى المرتفعات المضاءة بنور الشمس لصالح داريوس.

لم يكن هناك شعور بالذنب، ولكن من خلال الوطنية والإيمان بمصيره، صعد البيسستراتي المسن على متن سفينة فارسية وأرشد أسطول داتيس بالطريقة التي أبحر بها. عبر المضيق، على الجانب الآخر من خليج الإيبويي ، ارتفع ساحل أتيكا وعرا ومنحدرا من الماء. لا يمكن أن يحدث انزال على الساحل الشمالي. ولكن حول الرأس وحسب، كانت البقعة المثالية تنتظر: خليج على شكل سيف واسع ومحمي من الرياح، مع شواطئ حيث يمكن قطر أسطول كامل من السفن. والسهل الذي خلفه، مثالي لفرسان داتيس، و طريقين يؤديان الى الامام حول جبل بنتليكون إلى أثينا. كان لهيبياس سبب وجيه

لتذكر المكان. فقبل أكثر من خمسين عامًا، كان هو وشقيقه قد نزلا هناك مع والدهما، بيسستراتوس، عندما نجح الطاغية المحتمل، بعد المحاولة الثالثة، أخيرًا في بسط حكمه على أثينا إلى الأبد. الآن، مع تحرك الأسطول الفارسي نحو نفس نقطة الإنزال، أدرك هيبياس أن التاريخ، بالتأكيد، كان على وشك أن يعيد نفسه. تمامًا كما فعلت رؤى أخيه ذات مرة، قدمت رؤيته الآن لمحة محيرة عما سيأتي. في الليلة السابقة كان يحلم أنه ينام مع والدته. وهكذا، عندما قابلت مقدمة سفينته الرمال الموحلة، استعد الرجل العجوز للنزول، واحتضان موطنه، لإثبات صحة الفأل. كان في الوطن في النهاية.

في هذه الأثناء، كان الخليج من حوله أسود بالسفن، وكان الرجال يتسلقون الحبال في المياه، ويخوضون في الشاطئ المليء بالأعشاب البحرية، الآلاف والآلاف منهم، وعدد كبير من الحشود المسلحة التي لم يسبق له مثيل في اليونان؛ وبالفعل، من كل حدب وصوب كان الجنود الفارسيون يثيرون الغبار عبر سهل ماراثون.

فلتبقى اليونان حرة

كان الذعر العدو الأكثر دموية الذي يواجهه الهوبلايتيين في المعركة. كل ما يتطلبه الأمر هو أن ييأس رجل واحد من النصر، ويتخلى عن مكانه في الصف، ويسقط درعه ويبدأ في دفع رفاقه جانبًا في محاولة يائسة إلى المؤخرة، ويسري الفزع عبر الكتيبة بأكملها، ويصبح فرار ذلك الجندي وحده في غضون ثوان هزيمة عامة. ظاهرة مقلقة-تلك التي فضل الإغريق إلقاء اللوم فيها ليس على القابلية الفتاكة للخطأ، بل على حدث خارق للطبيعة غريب، أو أنفاس إله ربما، ترسل قشعريرة عبر الصفوف، أو الظهور المفاجئ لبطل غاضب استيقظ من قبره. وهو يخطر عبر ساحة المعركة. ومع ذلك، حتى هذه النظرية، على الرغم من أنها قد توفر بلسمًا للكبرياء المجروح لجيش مهزوم، إلا أنها بقيت تحمل في طياتها تأثيرًا مزعجًا: أن القتال في كتيبة كان دائمًا عرضة لضعف قلوب القلة. "يرتدي الرجال الخوذات ودروع الصدر لحمايتهم هم شخصيا- لكنهم يحملون الدروع لصالح كل من يشكل الجبهة[278]." عندما يسير إلى الحرب

دون ثقة تامة في جرأة زملائه في المعركة القادمة. سيعتقد الهوبلايتي أنه يسير نحو هلاكه.

لذا عندما كان الرجال في أثينا، وهم ينظرون من جدرانهم إلى جبل بينتيليكون ويرون شعلة منارة عظيمة هناك، منذرة بنزول الفرس، يعلمون أن اللحظة المخيفة لسنوات عديدة قد حانت أخيرًا، رأيهم حول أفضل السبل لمواجهة الخطر لم يكن بالإجماع بأي حال من الأحوال. كانت التقارير الرائعة عن حجم الجحافل الآسيوية تحوم فعلاً في أنحاء المدينة، وكان واضحًا حتى للاستراتيجي الأثيني الأكثر رصانة أن أي جيش يمكن أن تضعه الديمقراطية في الميدان كان من المحتم أن يتفوقوا عليها عديدًا بشكل رهيب. أضف إلى ذلك التفوق الساحق للغزاة في سلاح الفرسان والحقيقة المخدرة في أنه لم ينجح أي جيش يوناني أبدًا، خلال خمسين عامًا، في هزيمة الفرس في قتال مفتوح، والحجج الداعية إلى البقاء في أماكنهم، وتزويد أسوار المدينة بالجنود والتحصن من أجل الحصار ربما بدت لا تقاوم.

ومع ذلك، فقد تم بالفعل اتخاذ قرار الخروج من المدينة ومواجهة الغزاة. ما أن تأكد أن الفرس قد نزلوا في ماراثون حتى نزل الهوبليت الديمقراطيين، كل اولئك المواطنين الذين يستطيعون تسليح أنفسهم، ربما حوالي عشرة آلاف في المجموع، كانوا على استعداد "لتناول الطعام معهم والسير"[279]. غادروا تحت قيادة زعيم الحرب، كاليماخوس-لكن الاستراتيجية كانت استراتيجية ميلتيادس، وقد تم تبنيها، بعد أيام من النقاش المرير في المجلس، كقرار رسمي للشعب الأثيني. لم يكن حكم أعظم مقاتل ميدي في المدينة حكمًا يمكن تنحيته جانبًا؛ وملتيادس، ضد مزاعم كل من ضغط من أجل سياسة دفاعية، قدم قضية مقنعة خاصة به. نعم، لقد هبط الغزاة بقوة ساحقة. ونعم قد جلبوا معهم فرسانهم المخيفين. ولكن هذا هو بالضبط سبب وجوب لقائهم. يقود الطريقان من ماراثون حول جبل بينتيليكون إلى أثينا: دع الفرس فقط يسيطرون على أحدهما، وسيمنح فرسانهم فرصة لاكتساح أتيكا بالكامل. ومع هذا، إذا سار الأثينيون بسرعة، وأمنوا المخرجين من السهل، فقد يستطيعون مع ذلك احتواء رأس جسر الانزال الفارسي. صحيح، انه من شبه

المؤكد أنهم سيلزمون أنفسهم بالقتال-ولكن لم يكن بداخل الكتائب فقط أن قد تولد الأعصاب المتوترة كارثة. لقد احتاجت إلى خائنين فقط لفتح أبواب إريتريا، في النهاية. هل يمكن لمدينة مثل أثينا، التي كانت تحفل على مدى عقد من الزمان بالشائعات عن الغدر، و الطابور الخامس والمستفيدون من ذهب الملك العظيم، أن تأمل حقًا في الصمود أثناء الحصار؟ انه شيء لايصدق. من الأفضل بالتأكيد، إذا وصل الأسوأ إلى الأسوأ، الموت ممسكا بلجام الفرس بدلا من أن تطعن بشكل مخزي في الظهر.

ومع ذلك، فإن الشعب الأثيني، على الرغم من تصويتهم لصالح سياسة ميلتيادس المتقدمة، ظلوا يتجنبون الاعتقاد بأنه قد يتعين عليهم الوقوف ومواجهة الغزاة المرعبين بمفردهم. حتى مع اختفاء جيش الديمقراطية، المتجه إلى ماراثون، عن أنظار أولئك الذين تركوهم وراءهم في أثينا، كان أحد المواطنين يغادر في الاتجاه المعاكس، جنوبًا، إلى البيلوبونيز. كان اسمه فيليبيدس، وهو رياضي يُحتفل به باعتباره أعظم عداء في مدينته، ورجل يتمتع بقدرة هائلة على التحمل والسرعة. وبقطعه المسافة المذهلة البالغة 140 ميلاً في أقل من يومين، وجد نفسه، في المساء الثاني من مسيرته الملحمية، ينزل من تلال لاكاديمون الشمالية الوعرة إلى وادي ايورتاس. عندما غربت الشمس خلف قمم جبل تايجيتوس، وصل فيليبيدس إلى التجمع غير المسوّر من الثكنات والمعابد الذي يشكل اسبرطة.

لا يمكن أن تكون المشاهد التي وجدها هناك في تناقض حاد مع تلك التي تركها وراءه في أثينا. كانت لاكاديمون كله في حالة احتفال. كان فيليبيدس قد وصل بينما كان أحد أقدس مهرجانات الاسبرطيين، الكارنيا، يجري على قدم وساق، وكان الشباب في جميع أنحاء المدينة يستريحون بعد يوم قضوه في ألعاب المطاردة القاسية، بينما كان شيوخهم يتغذون في خيام ميدانية أقيمت بشكل متعمد كتقليد للمعسكر في ساحة المعركة. بعيدًا عن الإشارة إلى استعداد الاسبرطيون للقفز والسير إلى الحرب، فإن هذه المحاكاة الساخرة لأسلوب حملتهم التقليدية أظهرت في الواقع العكس تمامًا: الكارنيا كانت فترة سلام. أبلغ الأسبرطيون فيليبيدس، بأسف، أنه لا يمكن أن يكون هناك شك، في خرق مثل

هذه الفترة المقدسة من الهدنة. لكن بمجرد أن يكسو القمر الكامل سماء أغسطس المضاءة بالفضة، سيتمكنون من السير إلى ماراثون. وفي مساء يوم وصول فيليبيدس إلى اسبرطة، كان ذلك لا يزال على مبعدة أسبوع. وبإضافة وقت المسيرة، لن يتوقع الأثينيون رؤية الجيش الأسبرطي قبل عشرة أيام أخرى على الأقل. وبالتأكيد، لو كان لا يزال على قيد الحياة، فإن كليومينيس، الذي يستهزئ بالمحرمات والعدو اللدود لبلاد فارس، كان سيصر على الرحيل الفوري-لكنه كان ميتًا، وكانت اسبرطة، في أعقاب نهايته العنيفة، لا تزال في حالة من صدمة. من قتال الفصائل أيضًا. استمرت المرارة بين ليوتيخيدس وديماراتوس، على وجه الخصوص، في تسميم الحياة العامة، حيث كان الملك الجديد يسخر من سلفه لكونه شخصا من العامة في كل منعطف. مع تورط الإسبرطيين في مثل هذه الاضطرابات، من الصعب أن تغضب الآلهة أكثر-على الرغم من أن الأثينيين، كما قال فيليبيدس، "يطلبون مساعدتكم، و يتوسلون إليكم ألا تقفوا مكتوفي الأيدي بينما المدينة الأكثر احترامًا في اليونان بأكملها تُسحق . وهم يتوسلون إليكم ألا تسمحوا بأن يستعبدها غزاة يتحدثون بلغة كالرطانة[280] ".

ومع ذلك، حتى لو كانت العشرة أيام قد صدمت العداء البائس كوقت طويل محفوف بالمخاطر يتعين على الأثينيين الصمود فيه، لم يكن مقدرا له العودة من مهمته خالي الوفاض تماما[281]. وبينما كان في طريق عودته إلى أثينا، استقبله اسمه على المرتفعات وراء تيجيا من قبل شخصية ذات أرجل ماعز وقرنين بارزين وقضيب ضخم. ربما كانت هلوسة ناتجة عن اليأس أو الإرهاق أو ضربة الشمس-لكن فيليبديس نفسه لم يكن لديه شك في أن إله يتحدث إليه. من المحتمل أن يكون مؤذيا أيضًا-لأن بان لديه حس دعابة مشوه، وكان قادرًا تمامًا، إذا كان يحمل ضغينة ضد مدينة، على منح كل مواطن داخل أسوارها انتصابًا هائجًا. لكن في هذه المناسبة، ظهر الإله لفيليبيدس، ولم يكن لديه سوى كلمات التشجيع، وطمأن العداء بحبه للأثينيين ووعد بأن يكون مفيدًا لهم قريبًا جدًا. لم يدخل بان في التفاصيل. ولكن نظرًا لأنه كان، كما يوحي اسمه، إله الذعر، الذي يمكن أن يؤدي ظهوره في ساحة المعركة إلى إثارة البرد

في جيش ما وإطلاق النار على جيش آخر بشجاعة قوية، فلا بد أن كلماته قد صدمت فيليبديس باعتبارها كانت غنيّة بالأمل والوعد.

والأكثر من ذلك، عندما وصل أخيرًا إلى المنزل ووجد ليس كومة الأنقاض المشتعلة التي ربما كان يخشى منها، بل بالأحرى مدينة كانت تحافظ على أعصابها. في الواقع، بدت الأخبار الواردة من الجبهة واعدة تقريبًا: سار الهوبليت الأثينيون بهذه السرعة إلى ماراثون بحيث تمكنوا من تأمين الطريقين المؤديين إلى أثينا، ثم قاموا على الفور بزرع أنفسهم قبل أن يتمكن الغزاة من الخروج من السهل. علاوة على ذلك، انضم إليهم في معسكرهم ما يقرب من ثمانمائة رجل من بلاتيا: كل هوبليتي تمكنت المدينة الصغيرة من إرساله. لم يكن هذا تعزيزًا كبيرًا، لكنه كان بادرة امتنان جريئة للغاية و عرضًا مؤثرا للصداقة وجده الأثينيون انفسهم معززين بقوة منه. ربما بدأوا الآن يأملون، وهم يستمعون إلى أخبار فيليبيدس، أن المواجهة في ماراثون قد تستمر حتى تصل قوة الإغاثة الاسبرطية. وربما تحفظ مدينتهم من العاصفة الفارسية، في النهاية.

لا يعني ذلك أن مزاج التفاؤل، بين الناس الذين جردوا من رجالهم المقاتلين، يمكن أن يُحسب بلا شكوك على الإطلاق، بالطبع. التخيلات المخيفة والأسئلة المخيفة ظلت تجتاح الشوارع المتوترة. ماذا لو كان الأسطول الفارسي يشق طريقه حول ساحل أتيكا بينما كان جنود الهوبليت الأثينيون محتجزين في ماراثون، وهبطوا فجأة في فاليروم؟ ماذا لو كان الخونة على اتصال بهيبياس؟ ماذا لو كانت لديهم خطط لفتح البوابات؟ أحلك الهمسات على الإطلاق كان تركيزهم حتمًا على أسرة ألكمايون. لكن لا شيء يمكن إثباته ضدهم. ولا، على الرغم من كل الشائعات، كان هناك دليل على الخيانة العلنية أو الانهزامية من أي شخص آخر. ظلت بوابات المدينة مغلقة. كان فيليبيدس متوجهاً إلى ماراثون، يمكنه إبلاغ الجنرالات هناك ليس فقط بالأخبار الواردة من اسبرطة ولقائه مع بان، بل بان الروح المعنوية في أثينا كانت صامدة.

ومع ذلك، لا بد أن العدّاء، عندما وصل إلى المعسكر الأثيني ورأى لأول مرة ما يواجهه مواطنوه هناك، قد شعر بالتأكيد أن عزمه بدأ يتبدد. كان مشهد سهل ماراثون كافيا لتجمد الدماء. مرعبا، ربما، مثل المشهد الذي

استقبل المدافعين على جدران طروادة، لأنه منذ تلك العصور القديمة ما كانت هناك أي قوة غزو يمكن مقارنتها مع داتيس، في الطرف البعيد من الخليج، المحمي بواسطة نتوء طويل معروف للسكان المحليين باسم "ذيل الكلب"، تم سحب السفن الفارسية على الرمال، وامتدت الآن على طول منحنى الشاطئ لأميال. الآسيويون أنفسهم، أعداد هائلة منهم، يرتدون أزياءهم الغريبة ذات الألوان الزاهية ويحتشدون فوق السهل، ويدوسون تحت أقدامهم الغريبة المحاصيل التي انبثقت من عرق المزارعين الأثينيين وتربة أتيكا المقدسة. كان فرسانهم، وهم يركضون حتى الخطوط الأثينية، يلفون ويدورون، يلفون ويدورون، مستهزئين بنقص الرماة لدى خصومهم ومثيرين أعمدة من الغبار تتبدد بسرعة.

لم يجرؤوا بعد على المغامرة خارج الخطوط، لكن بالنسبة للأثينيين، خيموا كما كانوا على أرض مرتفعة، مع أرض أكثر انحدارًا ترتفع خلفهم، وبستان مقدس لهراكليس يبدو لهم من اقتراب سلاح الفرسان الفارسي. واخذوا موقف دفاعي كبير. الآن، مع وصول فيليبيدس إلى قاعدتهم، يمكنهم أن يقيسوا بدقة المدة التي سيتعين عليهم الصمود فيها حتى وصول الاسبرطيون: أسبوع واحد. ممكن تمامًا، من وجهة نظر غالبية الجنرالات الأثينيون. عندما سمع الآخرون أخبار فيليبيدس، عرفوا أنها جلبت لحظة مخفية من التأمل كانت قريبة إلى حد كبير. كان للفرس، كما كان لدى ميلتيادس على وجه الخصوص سببًا وجيهًا لتقديره، إتقانًا شريرًا لفنون التجسس: لم يكن هناك شك في أن داتيس كان بالفعل يأخذ تقلبات الجدول الزمني الاسبرطي في حساباته الخاصة؛ لا شك أنه كان سيدرك أن الوقت ينفد. نظرًا لأن القوة القابضة الأثينية-حتى الآن-لم تتفكك بشكل ملموس وسط الخيانة والخلاف، كما كان من الواضح أن داتيس كان يتوقع أن تفعل، سيجد القادة الفرس أنفسهم قريبًا مضطرين إلى تبني استراتيجية جديدة-ويبدو أن ميلتيادس، على سبيل المثال، كان لديه بعض الشك في ما سيكون عليه الأمر. بقيام الأثينيين بإغلاق الطريقين الجنوبيين، لم يكن أمام داتيس سوى طريق واحد ليهاجم أثينا قبل وصول الأسبرطيين: عن طريق البحر. إذا بدأ الغزاة في الانزال، فان الجيش الأثيني سيواجه خيارًا

شنيعًا: اما البقاء في مكانه والمخاطرة بأن يرحب الطابور الخامس بفرسان العدو المنقولين بحراً في أثينا. أو يتقدم إلى السهل المفتوح ويعرض المعركة مع الفرس. كلاهما كانا خيارين مخيفين. جادل ميلتيادس بأن حتى الأخير، لايقدم سوى أضعف أمل في النصر.

مر يوم، ثم آخر، ثم آخر. أربعة أيام حتى الآن كان من المقرر وصول الاسبرطيين، ولا يزال المأزق قائمًا. ظلت السفن الفارسية حيث كانت، مهددة ولكنها بلا حراك، على الشاطئ على الرمال. غرقت الشمس خلف الجبال المطلة على سهل ماراثون. أخيرًا، أشرق القمر كاملاً في سماء أغسطس. بعيدًا في لاكاديمون، كان رجال اسبرطة يستعدون للسير إلى الحرب. وفي المعسكر الفارسي؟ قد يكون السطح مضاءً بفضة شبحية، لكن كان من الصعب، على بعد أميال من سفن الغزاة، تتبع ما يمكن أن يحدث بالضبط في ظل ذيل الكلب. شيء ما، بالتأكيد: الاضطراب الشديد، يمكن سماع صوت الآلاف والآلاف من الأقدام المتعثرة، باهتًا، ثم أعلى، بالقرب من الخطوط الأثينية. بدا أن الغزاة كانوا يتقدمون بقوة أخيرًا. لكن هل كان هذا هجومًا كاملاً أم تسريبًا؟ الجواب سيأتي قريبا بما فيه الكفاية. لم يكن داتيس القائد الوحيد الذي أدرك الأهمية الحيوية للاستخبارات. شخص ما-ويمكن للمرء أن يفترض فقط أنه كان ملتيادس، كما كان في جميع فنون الحرب الفارسية-قام بتجنيد جواسيس من بين الغزاة. في تلك الليلة من اكتمال القمر، تسلل بعض المجندين الأيونيين عبر السهل إلى البستان الذي كان يحجب المعسكر الأثيني. لا يمكن أن تكون الأخبار التي جلبوها أكثر إلحاحًا. على عجل، تم نقلها إلى كاليماخوس والجنرالات القبليين العشرة الذين شكلوا معًا القيادة الأثينية العليا. "الفرسان في الطريق[282]!"

كانت هذه هي اللحظة التي كان ميلتيادس ينتظرها. من الواضح أنه إذا كانت استخبارات جواسيسه دقيقة، فقد تم تقسيم الحملة الفارسية، حيث تقدم قوة لتشتيت انتباه الأثينيين بينما ينطلق سلاح الفرسان بعيدًا عن المؤخرة سرا[283]. اجتمع مجلس الحرب على وجه السرعة. ناشد ميلتيادس زملائه الجنرالات للتصويت لمعركة فورية. وحث على ألا قد لا تكون هناك فرصة

أفضل للنصر أبدًا: فقد تم تقسيم جيش الغزاة وذهب الجميع باستثناء قوة أساسية من سلاح الفرسان. وافق أربعة من جنرالات ميلتيادس التسعة على ذلك. الخامس، المروع من احتمال مهاجمة الفرس في أرض مفتوحة، بدون رماة، بدون سلاح فرسان، وهم يفوقونهم عدداً، لم يفعل. أصبح التصويت الآن على عاتق زعيم الحرب، كاليماخوس، الذي أظهر باستمرار أنه لا يشعر بالخجل من الرضوخ للخبرة الفائقة للمقاتل الميدي الأكثر شهرة في أثينا. لقد فعل ذلك مرة أخرى الآن، وانحاز إلى ملتيادس. تم إعطاء الأمر. ستنشب المعركة عند الفجر.

في جميع أنحاء المعسكر الأثيني، استيقظ الرجال على الأخبار التي تفيد بأنهم في غضون ساعة سيتقدمون ضد عدو لم يسبق له أن تعرض للضرب من جيش الهوبلايت في معركة مفتوحة، "وكان اسمه، عند ذكره، كافياً لإرسال قشعريرة عبر ظهر أي يوناني[284] ". ومع ذلك، إن كانت، من خلال استدعاء كل احتياطي أخير من القوة البدنية والمعنوية، وعن طريق شد شجاعتهم إلى مستويات مؤلمة حقًا، هناك أي فرصة لتفادي محوهم، ومحو عائلاتهم ومدينتهم، فعلى الهوبليت الأثينيون أن ينتهزوها. ويستعدوا الآن للاستيلاء عليها. العبيد، المكلفين برعاية دروعهم الثمينة، قاموا بإخراج الألواح المصقولة حسب الأصول. تحول الأثينيون العراة إلى آلات مخيفة من البرونز. ثم، مغمدون داخل دروعهم وأكسيتهم، ودروعهم ورماحهم في أيديهم، وخوذاتهم مثبتة على رؤوسهم، أخذ المحاربون أماكنهم في صفوف المعركة، واقفين إلى جانب زملائهم من عشائرهم، وثلثهم، وقبائلهم. كان من المعتاد بين الأثينيين أن يصفوا كتيبتهم في ثمانية صفوف عميقة؛ لكن ميلتيادس، خوفًا من أن يحاصره المشاة الفرس الخفيفون الأكثر قدرة على الحركة، وما تبقى من سلاح الفرسان، أمر بتخفيف المركز بحيث يتطابق خط الأثينيين تمامًا مع خط الغزاة، الذي أصبح الآن مرئيًا بشكل متزايد على بعد ميل واحد عبر وميض الفجر المبكر. مع ظهور أشعة الشمس الأولى على تلال إيبويا الرمادية عن بعد، تم تقديم القرابين للآلهة؛ أثبتت البشائر أنها مواتية، ثم اتخذ الجنرالات مواقعهم مباشرة في الصف الأول. كاليماخوس، كما كان معتادًا بالنسبة

لأرخون الحرب، تولى قيادة الجناح الأيمن؛ تمركز البلاتيين على اليسار؛ قاد ثيمستوكليس وزميله الصاعد في الديمقراطية، أريستيدس، قبائلهم في وسط الكتائب، في قلبها الضعيف بشكل خطير[285].-ميلتيادس نفسه، الذي كان له الأمر العام في ذلك اليوم، وقف حيث كان الجميع يسمعونه، ورفع ذراعه مطولاً وأشار إلى الفرس وصرخ: "عليهم[286]!"



كان المعدن يتلألأ على طول الخط بينما يخفض الجنود الهوبليت خوذهم، ويثبتون دروعهم، ويحملون رماحهم. هنا، أخيرًا، كانت لحظة اللاعودة. ورأسه مغطى بالكامل تقريبًا بالمعدن، وجد كل عضو في الكتيبة نفسه مقطوعًا بشكل مخيف عن مشاهد وأصوات ساحة المعركة، بالكاد يستطيع رؤية العدو أمامه، بالكاد يقدر على سماع زعيق الأبواق التي وجهت الأثينيين لبدء انقضاضهم. فقط الهزة المفاجئة من زملائه على كلا الجانبين وزيادة وزن الرجال خلفه بدا حقيقياً. نزولًا، في الامتداد المفتوح للسهل، بدأت الكتائب تتأرجح، محتفظة بتكوينها، ولم تهدد بالتفكك مرة واحدة. لقد تحمل الجميع خوفًا وتسممًا في آن-لأنه بينما كان صحيحًا أن جبن القلة داخل جدار الدرع قد تكون قاتلة للكثيرين، فكذلك كان العكس أيضًا، حيث أن أحد الجنود

الهوبلاتيين مرتجفا من الرعب وهو يتقدم، ويبلل نفسه بلا حسيب، ملوثاً عباءته بالقذارة، يمكن أن يعد نفسه قويًا لكونه واحدًا مع أصدقائه وأقاربه، شخصًا له جسد قوي من الرجال المسلحين و المولودين أحراراً. فكيف، في الواقع، بدون الوعي الذاتي بهذا، قد يتجرأ أي شخص من الأثينين على فعل ما فعله كل أفراد الكتائب في فجر أغسطس ذاك: التحرك ضد عدو يُفترض على نطاق واسع أنه لا يقهر، وتجاوز ما كان يخافه الكثيرون من إثبات أنه قد يكون السهل ساحة للموت.

سردت قصص غير عادية في وقت لاحق عن هذا التقدم. قيل إن الأثينيين ركضوا الميل بأكمله، كما لو أن الرجال الجريئين بما يكفي لمهاجمة الفرس لأول مرة كانوا أكثر من بشر. في الحقيقة، لا يمكن لأي رجل يرتدي الدرع الكامل للجندي الهوبلايتي، حوالي سبعين رطلاً من البرونز والخشب والجلد، أن يركض مثل هذه المسافة وتبقى لديه طاقة للقتال بفعالية. حتى في الجو البارد نسبيًا في الصباح الباكر، بدأ العرق سريعًا في الاختلاط بالغبار المتطاير مما مقداره عشرة آلاف زوج من الأقدام، الذي جعل جنود المشاة المتقدمين نصف عميان، لاسعاً أعينهم الرامشة، بحيث تكون رؤيتهم للعدو أمامهم-رؤية النبالون الذين يرتدون الملابس الغريبة وهم يتلمسون سهامهم، و الرماة قذائفهم، وتعبيرات الغبطة وعدم التصديق في صفوف الفرس-أكثر غموضًا. بعد فترة وجيزة، عندما عبر الأثينيون إلى عمق أكبر في المنطقة المفتوحة، بدأت السهام الأولى تنهمر عليهم؛ بعدها، رفعوا الوزن الهائل لدروعهم لحماية صدورهم، بدأ المحاربون أخيرًا في الركض. في نفس الوقت، كما لو أن الكتائب كانت "مخلوقًا شرسًا محاصرًا، ينفش شعره وهو يلتفت لمواجهة خصمه[287]،" وجه الموجودين في الصفوف الثلاثة الأمامية حرابهم استعدادًا للتصادم القادم. والآن، بوجود ما يقرب من 150 ياردة عليهم قطعها، كانت سحابة عاصفة من السهام و قذائف المقلاع تتكسر فوقهم، وترتطم بدروعهم، وترتد عن خوذاتهم، وتضرب الهوبلايتي غير المألوف في الفخذ أو في الحلق، ولكن ظل الأثينيون، يتحدون المطر الأسود، وسارعوا من وتيرتهم فقط. الذين كانوا من العدو مباشرة في طريقهم بدأوا بالفعل يناوشون لإقامة دفاعات واهية، كما أدركوا، يا لرعبهم،

أن جدار الدروع والرماح ذات الرؤوس الحديدية، كان بعيداً عن أن يكون هدفاً سهلا لرماة السهام، كما تخيلوا في البداية، أنه لن يصمد. مائة ياردة، خمسون، عشرين، عشرة. بعدها، فيما تعالت صيحات الحرب الأثينية، الزغردة المرعبة اعلى من وقع أقدامهم الراعد على اليابسة، ونشاز صليل المعادن وصراخ العدو المصاب بالذعر، سحقت الكتائب الخطوط الفارسية.

كان التأثير مدمرا. كان الأثينيون قد شحذوا من أسلوبهم في الحرب من القتال مع الكتائب الأخرى، والدروع الخشبية تتحطم على الدروع الخشبية، ونصال الرماح الحديدية تتكسر على الدروع البرونزية. الآن، على الرغم من ذلك، في تلك الثواني الرهيبة الأولى من الاصطدام، لم يكن هناك شيء سوى تحطيم المعدن الساحق للحم والعظم. ثم طغى المد الأثيني على رجال يرتدون، على الأكثر، سترات مبطنة للحماية، ومسلحين، ربما، ليس بأكثر من الأقواس أو المقاليع. كانت رماح الهوبليت المصنوعة من خشب الدردار، بدلاً من أن تهتز وتنثني، كما يحدث دائمًا عندما تصطدم إحدى الكتائب بالأخرى، تستطيع الطعن وأن تعيد الطعن مرة أخرى، وسحق بسهولة أولئك الأعداء الذين تجنبوا الطعنات المخيفة حتى الموت، تحت الوزن الهائل لتقدم الرجال المكسوين بالبرونز. بعد فترة وجيزة، على أجنحة الجيش الفارسي، كان الرجال ينقصمون في حالة من الرعب، ويتدفقون عائدين عبر السهل، بينما يواصل الأثينيون أفعالهم المميتة. ما عدا المركز فقط، حيث كانت قوة تأثير الكتائب أضعف بكثير، وكان الغزاة أفضل في القتال، وتحملوا الاصطدام ثم دفعوا الجنود ببطء إلى الخلف. هناك كان المكان الذي تمركزت فيه أفضل قوات الغزاة: الفرس أنفسهم، المدرعون بشكل اكبر من معظم الجيوش الأخرى، والساكا، اولئك المقاتلون الوحشيون من السهوب الشرقية البعيدة، بفؤوسهم القادرة تمامًا على شق خوذة الهبلايتي أو تحطيم صدره. ومع هذا، كانت الأجنحة الأثينية تتحرك بالفعل نحو الداخل، وتهاجمهم من جوانبهم، ما عزز رجال قبائل أرستيدس وثيمستوكليس الذين كانوا يضغطون بشدة، لذا سرعان ما بدأ المركز الفارسي أيضًا في الانهيار وتوسعت المذبحة بشكل أكثر تجسدًا. في ذلك الوقت، انضم العدد القليل من الفرس والساكا الذين تبقوا إلى

الاندحار التام، وهربوا إلى سفنهم، على بعد أميال عبر السهل، متعثرين في الرمال. وطاردهم الأثينيون، وهم مبتهجون بانتصارهم، لكن غير مصدقين له أيضًا، وكانوا مذهولين تمامًا من الطريقة التي وفى بها بان بوعده.

ومع هذا، وان كسبوا المعركة، فإن النصر ظل بعيدًا عن أن يكون حاسمًا. لقد أعطت حاجة الجناحين الأثينيين لإنهاء المعركة في المركز الكثير من الوقت للبحارة الذين يديرون الأسطول الفارسي كي يعدوا سفنهم للمغادرة، والبدء في سحب الجنود المصابين بالذعر على متنها وهم يندفعون بين المياه الضحلة. صحيح أن العديد من رفاقهم قد سُحقوا في التدافع العام، أو تعثروا في المستنقع العظيم الذي امتد شمالًا من حيث كانت السفن الفارسية على الشاطئ، وغرقوا هناك بأعداد كبيرة لدرجة أنه قدر لاحقًا "بأنه كان موقع أكثر المذابح دموية على الإطلاق[288] ". ومع ذلك، بينما احتفظ داتيس وأرتافرنيس بالسيطرة على أسطولهما، بقيا يشكلان تهديدًا. وكان ملتيادس ورجاله عاجزين عن التعامل مع تلك السفن التي تجهزت بالفعل، وكانوا متحرقين بطبيعة الحال لامساك أو حرق ما تبقى على الرمال. إذن، كان القتال على الشاطئ شرسًا كما هو الحال في أي مرحلة من المعركة، وبالنسبة للأثينيين، كان القتال قاتلًا أيضًا: أحد الهوبليتيين، الذي وصل للاستيلاء على مؤخرة السفينة، قطعت يده بفأس. وسقط عائدًا يرش الدم من جرحه المميت؛ كما قُتل كاليماخوس، أرخون الحرب. كذلك أحد الجنرالات القبليين. تم تأمين سبع سفن في نهاية المطاف؛ لكن البقية نجحت في الابتعاد. ربما تم إغلاق الطريق المؤدية إلى أثينا أمام الفرس-ولكن ليس البحر.

وماذا عن السفن المحتوية على سلاح الفرسان التي صعدت قبل المعركة؟ كان السؤال يطارد القيادة العليا الأثينية. حتى عندما كانوا يخوضون في طريقهم خلف الجثث المتمايلة في المياه الضحلة ويحدقون عبر السهل في اتجاه مدينتهم، كان بإمكان المحاربين المنهكين أن يروا، متلألئًا من منحدر جبل بينتيليكون، وميض سطح مصقول لامع، مائلًا بزاوية متعمدة التقاط أشعة شمس الصباح[289]. من الواضح أنها كانت إشارة مرتبة مسبقًا، وكان من الممكن أن تكون مخصصة فقط للأسطول الفارسي، في مكان ما خارج البحر. كان من

المستحيل معرفة معناه الدقيق-لكن كل أثيني خمن على الفور أنها تتحدث عن الخيانة.

اجتاح الذعر الصفوف. على بعد ستة وعشرين ميلاً، بقيت عائلاتهم ومنازلهم غير محمية بالكامل. مرهقون ومبللون بالعرق وملطخين بالدماء، لم يكن لديهم خيار سوى العودة في الحال إلى أثينا "بأسرع ما يمكن أن تأخذهم أرجلهم"[290]. لم تكن العاشرة صباحًا حين غادروا ساحة المعركة. بحلول وقت متأخر من بعد الظهر، في عرض مذهل للصلابة والقدرة على التحمل، وصلوا إلى مدينتهم.* في الوقت المناسب أيضًا-بعد فترة وجيزة بدأت السفن الأولى من الأسطول الفارسي بالجنوح نحو فاليروم. ولبضع ساعات بقيت ثابتة وراء مدخل المرفأ. ثم، عندما غربت الشمس أخيرًا في ذلك اليوم الطويل والمصيري، رفعت المرساة، وتمايلت، وأبحرت شرقا في الليل. وانتهى خطر الغزو.

وهكذا نجت أثينا من المصير الرهيب لميليتوس وإريتريا، وأثبتت نفسها، على حد تعبير ميلتيادس الرنان، "مدينة صالحة لأن تصبح أعظم مدينة في اليونان"[291]. في ماراثون، حدق مواطنوها في أسوأ كوابيسهم مباشرة في وجوهها: ليس فقط أنه قد يُزرع الشعب الأثيني بعيدًا عن التربة القديمة البدائية التي أنجبته، وعن منازلهم وحقولهم ومناطقهم، بل، حتى الأسوأ من ذلك، أن سلالاتهم، وسط مشاهد التشويه البشعة، قد يتم استئصالها. يعرف كل جندي قاتل في ذلك اليوم أن الملك العظيم، غاضبًا من نكث الأثينيين للعهد، قد أمرهم بارتكاب "أفظع أعمال الانتقام المعروفة"[292]: إخصاء ابنائهم. هل كان الأثينيون، ربما، في أحلك تخيلاتهم، خائفين من أن الآلهة نفسها قد تؤيد هذه العقوبة المروعة؟ لقد خانت أثينا بالفعل وعودها بالولاء لداريوس. وكان من المعتاد عند الإغريق عندما يقسمون سحق الخصيتين المقطوعتين للحيوان المقدّم كقربان، والصلاة كي يتم سحق ذريتهم بالمثل إذا رجعوا في كلمتهم. من خلال مواجهتهم للعدو في ماراثون، كان الأثينيون، في الواقع، قد أعدوا أنفسهم لوضع هذا الأمر الأكثر فظاعة من بين جميع مخاوفهم -وقد تمت تسويته بشكل مذهل.

وأكثر من ذلك بكثير. كل من أرسل الإشارة إلى الفرس من جبل بنتليكون ظل صامتًا الآن. عندما وصلت الأخبار بأن هيبياس، وقد خابت كل آماله، قد أنهى خيبته بشق طريق عودته إلى المنفى، كان قد أكد فقط ما يعرفه الجميع بالفعل: أنه لا ينبغي لأحد بعد ماراثون أن يراهن بمستقبله على وجود طغيان في أثينا مرة أخرى. كان الجميع يؤيدون حكم الشعب الآن. أو على الأقل لصالح حكم الناس الذين فازوا بالنصر الشهير: الفلاحون ونبلاء الأرض وسلالة حملة الدروع. اكتشف أن 192 منهم ماتوا في المعركة-وحاز أبطال الحرية الأثينية هؤلاء شرفًا فريدًا. فلا قبور لهم في سيراميكوس. وبدلاً من ذلك، للمرة الأولى والوحيدة في تاريخ مدينتهم، تم دفن الموتى، "كإشادة بشجاعتهم[293]،" في نفس الحقل الذي سقطوا فيه. تم رفع قبر كبير فوق جثثهم إلى ارتفاع أكثر من خمسين قدمًا، ووضعت على طول جوانبه ألواح رخامية تذكر أسماء الذين سقطوا. لا يمكن حتى لأكبر السلالات النبيلة التباهي بأي شيء يمكن مقارنته. اختلطوا بالتراب الذي قاتلوا بشجاعة للدفاع عنه، وكان الموتى مدفونين معًا، دون تمييز طبقي أو عائلي من أي نوع. كانوا مواطنين-لا أقل ولا أكثر. ما هو اللقب الأكثر فخامة من اللقب الأثيني والذي يمكن ادعاءه؟ أثينا نفسها كانت كل شيء.

حتى الأسبرطيون، عندما وصلوا إلى هناك بعد مسيرتهم الشاقة التي استمرت ثلاثة أيام، نظروا إلى الرجال الذين قهروا الميدي دون مساعدة باحترام جديد وكامل. زحفوا إلى الأمام لتفقد ساحة المعركة، ووجدوا في ماراثون، متعفنًا وسط غبار السهل أو نصف غارق في طين الأهوار، دليل كافٍ على حجم الخطر الذي تم صده بشكل بطولي. كانت هناك ستة آلاف وأربعمائة جثة من جثث من الغزاة يسمن عليها الذباب-وكان ذلك مجرد جزء بسيط من القوة التي قادها داتيس. كم عدد الملايين الأخرى التي قد تكون للملك العظيم وتحت إمرته، تتكاثر وتحتشد داخل المناطق النائية في آسيا، لم يهتم الأثينيون ولا الأسبرطيون كثيرًا بالتفكير في ذلك. كان كل يوناني، ينظر إلى القتلى الفرس ويحتفل بالنصر العظيم، لا بد أن يشعر مع ذلك بهزة من الخوف. ومع هذا، فإن الإسبرطيين، الذين قاموا بتفتيش ساحة المعركة بشكل منهجي، ونقلوا

الجثث، ودونوا الملاحظات، وجدوا الكثير مما يطمأنهم أيضًا. كانت هذه هي الفرصة الأولى التي أتيحت لهم على الإطلاق لدراسة دروع وأسلحة أسياد الشرق الأسطوريين؛ وما رأوه لم يثر إعجابهم كثيرًا. ربما قاد داتيس جيشًا ضخمًا إلى ماراثون-لكن لا شيء فيه كان سيعدّه الأسبرطيون مساوياً لهم.

في هذه الأثناء، وبينما كانوا يواصلون جولتهم الاستقصائية، كان يتم حفر خندق كبير على الأطراف الجنوبية للأهوار. في مكب القمامة المؤقت هذا، تم إلقاء جثث الغزاة بشكل غير رسمي. لا يوجد نصب تذكاري لجحافل الفرس المذبوحين[294]. خرساً ومغمورين، مثل ما يستحقه الرجال الذين لم يعرفوا شيئًا في الحياة عن رفقة مدينة، أو الحرية من الإملاءات الملكية، أو الانضباط في كتيبة، ولكن وبدلاً من ذلك تم طحنهم مثل الأشرار. قطيع من الوحوش، أصواتهم صراخ الحيوانات، ممتلئة بالضجيج والغضب، لا تعني شيئًا؟ كان الأيونيون قد أطلقوا على الفرس لقب "البرابرة". الآن، في أعقاب انتصارهم العظيم، بدأ الأثينيون يفعلون الشيء نفسه. لقد كانت كلمة تثير خوفهم تمامًا مما رأوه في ذلك الصباح الباكر على سهل ماراثون: جيش غريب لا حصر له، يثرثر من أجل تدميرهم، "المتحدثون بالرطانة" بالفعل. ومع ذلك، فإن "البربري"، خاصة على لسان أحد قدامى المحاربين في المعركة الشهيرة، يمكن أن يشير أيضًا إلى شيء آخر: السخرية، أو لهجة التفوق، أو حتى الاحتقار-شيئاً، بالتأكيد، كان قليل من اليونانيين يجرؤون على تبنيه قبل ذلك الفجر المشؤوم في أغسطس.

لم يعلّم سهل ماراثون أثينا فحسب، بل علّم اليونان بأكملها درسًا نبيلًا: الإذلال على يد القوة العظمى لم يكن أمراً حتميًا. أظهر الأثينيون، لأنهم لم يتعبوا أبدًا من تذكير الجميع، أن جحافل الملك العظيم يمكن هزيمتها. كان للعملاق أقدام من الطين.

قد يتم الدفاع عن الحرية، في النهاية.

الفصل السادس-العاصفة الوشيكة

حشائش ضارة في البستان

اعتبر ملك الملوك أن نصر ماراثون، الذي وصفه الأثينيون بأنه أعظم انتصار في كل العصور، كان مختلفًا بشكل مفهوم. صحيح أن مروجو الدعاية الفرس كانوا بالكاد معتادين على لفت الانتباه إلى نكسات أسيادهم-ومع ذلك، لم يكن من المبالغة تمامًا اعتبار المعركة مجرد مناوشة حدودية صغيرة. في حين أنه كان من المؤسف بالتأكيد أن الأثينيون المزعجون قد تمكنوا من التملص من عقابهم، فإن الفشل في الاستيلاء على مدينتهم لم ينتقص إلا قليلاً من رحلة استكشافية كانت لولا ذلك نجاحًا كبيرًا. كان على أي شخص يشك في ذلك أن يشاهد الإريتريين وهم يقادون ويجرجرون في شوارع سوزا. استجاب داريوس، الذي كان كريما للغاية، لمشهد بؤس أسراه وخضوعهم من خلال الأمر بقطع قيودهم وتوطينهم في مايعرف الان بشمال مدينة البصرة الحديثة. تم بالفعل الاحتفال بهذه المنطقة على نطاق واسع بسبب السائل الأسود الغامض الذي ينبعث من تحت رمالها، ورائحة ما أطلق عليه الفرس " rhadinake " كانت ثقيلة في الهواء-بعيداً كل البعد عن ملوحة بحر إيجه. ومثلما بكى اليهود ذات مرة بجانب أنهار بابل، هكذا حزن الأرتريون الآن على وطنهم وسط آبار النفط في جنوب العراق. "الوداع، إريتريا الشهيرة، لم يعد بلدنا. وداعا، أثينا، جارتنا عبر المضيق. وداعا أيها البحر الحبيب"[295]. وكان نفيهم، باعتراف داريوس، عقابًا كافيًا.

مثل هذه الشهامة، بالطبع، لا يمكن أن تكون إلا كأشعة الشمس بعد عاصفة غضب الملك العظيم الصالح. في أثينا، ذلك المعقل العنيد لشياطين ديفا والباطل، ظل حكم الإعدام قائما كما كان من قبل. لكن ليس في أثينا وحدها. فالخطيئة التي ارتكبها الأسبرطيون في قتل سفراء الملك العظيم لم تُنسى أو تُغفر. وداريوس، الذي أعاد صياغة استراتيجيته الغربية في أعقاب ماراثون،

حسم أمره الآن بأنه يجب تدمير أسبرطة وأثينا. لحسن الحظ، قام رؤساء مخابراته، الذين كانوا دائمًا في طليعة التخطيط العسكري للملك العظيم، مؤخرًا بتنفيذ انقلاب مذهل بشكل خاص: التجنيد كعميل لمن ليس سوى الملك السابق لتلك المدينة المغلقة والغامضة. ديماراتوس، الذي أهانه ليوتيخيدس علنًا أمام مرأى ومسمع من شعب اسبرطة، تحرك أخيرًا: شق طريقه خفية أولاً ثم في رحلة مفتوحة إلى البلاط في سوزا، تم الترحيب به هناك بسخاء –وتزويده بشراهة لنيل معلومات[296]. المنشق، الذي يشعر بالحنين إلى مدينته، أجاب المستجوبين على النحو الواجب بشعور لا يحد بالمرارة.

ومع ذلك، على الرغم من كل ما وجد ديماراتوس نفسه يدفع نحوه كفرصة ذهبية عندما شجع رعاته على التفكير في غزو بيلوبونيز، لم يكن من السهل التعجيل بخطط داريوس للغزو. في حين أن رحلة داتيس كانت أكثر قليلاً من مجرد غزوة مجيدة، كانت التهدئة الشاملة لأرض بعيدة وجبلية مثل اليونان تحديًا لنظام مختلف تمامًا من حيث التعقيد. إن عجلات البيروقراطية الفارسية تتحرك ببطء و هي صغيرة جداً. في يونيو 486 قبل الميلاد، بعد ثلاث سنوات من إصدار داريوس الأوامر لأول مرة بتعبئة إمبراطوريته، قام المصريون، الذين تعرضوا للقمع بسبب مطالب سيدهم المستمرة بالحبوب والرسوم، بثورة مفاجئة. من أثينا، تأرجحت نظرة الملك العظيم فجأة جنوبًا. كانت مصر، التي كانت غنية جدًا، وخصبة جدًا، وذهبية جدًا، ثمينة جدًا لدرجة لا يمكن المخاطرة بها مع براري اليونان القاحلة. فأُمرت الحملة العسكرية التي تخيلت أثينا هدفها على النحو الواجب بإعداد نفسها بدلاً من ذلك لشن هجوم على أرض النيل. مع حلول فصل الصيف وفي برودة الخريف المباركة، تم الاستعداد لمغادرتها بلاد فارس. واستعد ملك الملوك لتولي قيادتها بنفسه.

في البلاط، استطاع الجميع إدراك أن هذه لحظة مصيرية محتملة. كان داريوس قد شرع في العديد من الرحلات الاستكشافية من قبل، لكنه لم يعد شابًا وهو في الخامسة والستين من عمره، وانتشرت الشائعات حول ضعفه. رجال البلاط الذين لديهم ذكريات مؤلمة لما حدث في المرات السابقة التي انطلق

فيها الملك الفارسي إلى مصر تجرأوا على التفكير في نهاية حقبة-وكانوا خائفين من ذلك. في النهاية، قام قمبيز بحملته على ضفاف النيل، ولم يترك وراءه في بلاد فارس سوى أخ واحد. داريوس، وهو متزوج متسلسل وغزير الإنتاج بصورة تدعو للفخر، أنجب عدداً من الأبناء الطموحين. والحرب في الأقاليم، تلوح في الأفق: هنا، كانت وصفة لكارثة. إذا حدد الماضي الاتجاه، كان قتل الاخوة، بأثاره الخبيثة التي تهدد أسس الحكم الفارسي، قد أدى بالفعل إلى انقراض أحد سلالات الملوك-فمن سيقول إنه قد لا يفعل ذلك مرة أخرى؟

ومع ذلك، فإن داريوس المسن نفسه، بعد أن جاهد كل فترة حكمه ليمنح العالم ثمار الحقيقة والنظام، لم يكن الرجل ينظر إلى احتمال خرابها بعد وفاته برباطة جأش. لقد فضل أن يعتقد أن خزانًا هائلاً من الأبناء القادرين، بعيدًا عن تهديد إمبراطوريته، قد يعمل على دعمها. يمكن أن يطمئن الشعب الفارسي، لا أن ينزعج، من خصوبته. ليس من أجل لا شيء كان دائمًا مبدأ أساسيًا لهم أن "أضمن مقياس للرجولة، بعد الشجاعة في المعركة، هو أن تكون أبًا لعدد كبير من الأطفال[297]." داريوس، الدقيق في كل شيء، لم يهمل بالتأكيد تعليم أبنائه. كان التدليل بالكاد من الاساليب الفارسية. حتى الإغريق، الذين أحبوا طمأنة أنفسهم بأن من يرتدون السراويل كزي وطني لا يمكن أن يكونوا الا مخنثين، اضطروا إلى الاعتراف بذلك. قد تكون ساقاه مغمدتين في أنماط زاهية الألوان، لكن الأمير الفارسي كان قد تربي ليكون قوياً للغاية في الواقع.

من المؤكد أنه قد يقضي السنوات الأولى من حياته وسط وسائل الراحة الحريرية في غرف النساء-ولكن فقط حتى يتمكن الخصيان هناك من تشكيله بشكل أفضل، "تشكيل جماله الطفولي، وتشكيل أطرافه الغضة، وتقويم العمود الفقري[298]." في سن الخامسة، سيجد نفسه خاضعًا لمنهج دراسي صارمًا تمامًا مثل الاسبرطي: يستيقظ قبل الفجر على صوت بوق نحاسي، يبدأ الأمير الشاب يومه بجري سريع لمسافة خمسة أميال، قبل الشروع في جولة شاقة من الدروس، والتدريب الصوتي، والتدريب على الأسلحة، والغطس في الشلالات الجليدية. لتعليمه فنون القيادة، سيُمنح قيادة جماعة مكونة من خمسين فتى

آخر. لتعليمه البراعة الملكية بشكل صحيح بالرمح والقوس، سيذهب للصيد مع والده. ولتعليمه مبادئ العدالة، وأمجاد التاريخ الفارسي، والإخلاص لأهورا مازدا، كان يتلقى تعليمات من المجوس. ربما يكون قد ولد في حضن الرفاهية- لكن الرفاهية موجودة لإبهار أنظار من هم دون المستوى، وليس لتنعيم صلابة النخبة. حتى الأميرة، على الرغم من أنها قد تمتلك مدنًا بأكملها بدون أي وظيفة باستثناء الحفاظ على رشاقتها في نعال رائعة، كان من المتوقع ألا تتسكع في كسل مضجر بل بدلاً من ذلك أن تدرس بجد تحت اشراف مربياتها، و ممارسة الركوب، وربما مثلها الإخوة، لتثبت نفسها "ماهرة في القوس والرماح[299]." وكان الكثير منتظرا من ابناء ملك الملوك. رهيبة ورائعة لا تقارن كانت امتيازات الملوك، وكذلك، وبنفس القدر من الرهبة، كانت المسؤوليات التي جلبتها. لم يكن ميراث ذرية داريوس، في النهاية ، أقل من السيطرة على العالم. لم يولد أي أطفال في التاريخ بمثل هذه الملاعق الذهبية في أفواههم. أصبحت الإمبراطورية، في ظل إدارة داريوس الماهرة والحسابية، مصدر قلق عائلي -ولم يكن من مصلحة أي من أبنائه التخلص من الغنائم المبهرة. عليهم ان يثبتوا أنهم يستحقون خدمة والدهم، وقد يتطلعون جميعًا إلى حكم الممالك القديمة، والمرزبانات القوية، والجيوش الرائعة. فكلما كانوا مستحقين أكثر، بالطبع، كان بإمكانهم أن يأملوا في الربح بشكل أكثر إسرافًا-مع انتقال الجائزة الكبرى لملكية داريوس العالمية، كما كان مناسبًا فقط، إلى الأمير الأكثر استحقاقًا على الإطلاق.

قرر داريوس من يجب أن يكون قبل سنوات[300]. أحد ابنائه على وجه الخصوص لمع من بين الجميع: لم يكن زركسيس الأكبر بين الأمراء الملكيين، لكنه كان منذ فترة طويلة وريث الملك العظيم. اجتمعت العديد من الظروف لكسب هذا اللقب. الأهم من ذلك كله، ربما، لأن زركسيس، على عكس العديد من إخوته غير الأشقاء، كان لديه المزيج الصحيح من الدم المتدفق في عروقه- لأن والدته كانت أتوسا المستبدة، المرأة الأكثر ارتباطًا في المملكة، أرملة كل من قمبيز و بارديا، وابنة كورش الكبير. ومع ذلك، فإن مثل هذا النسب، على الرغم من أنه ميزة بالتأكيد، لم يكن كافيا ليكسب زركسيس مباركة والده لو لم يكن

يمتلك صفات أخرى متنوعة أيضًا. بصفته متخرجا من التعليم الأكثر حصرية في العالم، كان سيظهر أكثر من كفاءته في ركوب الخيل والتعامل مع الأسلحة وحكمة المجوس-"لأنه لا يمكن لأي شخص أن يكون ملك بلاد فارس ولا يكون قد أرشد في ذلك بشكل صحيح[301]." وبالمثل، في المطاردة وفي الحملة التي يقودها من الأمام، كان سيقدم دليلاً وافرًا على شجاعته الشخصية. ربما كانت النقطة الفاصلة هي أن زركسيس، الطويل والوسيم، بدا ملكًا. كان هذا اعتبارًا حاسمًا: كان الفرس شعبًا مهووسًا بالمظهر الجسدي لدرجة أن كل نبيل احتفظ بفنان ماكياج في حاشيته؛ كان عنصر الموضة الذي يجب اقتناؤه عبارة عن زوج من الاحذية عالية الكعب؛ ولحى وشوارب كاذبة كانت ذات قيمة عالية لدرجة أن الخزانة صنفتها كأشياء خاضعة للضريبة. ولا يمكن مقارنة حتى والد زركسيس بالأمير من حيث المظهر الجميل: فداريوس، الذي كان يُحسب كرجل وسيم لافت للنظر، كانت له ذراعي جيبون[302] "تصلان إلى ركبتيه[303]". لم يعاني زركسيس من مثل هذه الخصائص الجسدية: "في كل من قامته ونبل تحمله، لم يكن هناك رجل يبدو أكثر ملاءمة منه لممارسة القوة العظيمة[304]".

لذلك، عندما كان ملك الملوك المريض، في أواخر خريف عام 486 قبل الميلاد، وقبل أن يتمكن من السفر إلى مصر، "يرحل أخيرًا عن العرش[305]" كما وصفه الفرس بتعبير ملطف، كان زركسيس قادرًا على النجاح في ملكية العالم دون معارضة. ربما لا شيء أصبح في حكم داريوس مثلما تركه: في التناقض بين المزاعم العنيفة لاعتلائه هو والنعومة الفخمة لإبنه كشهادة مدهشة على النظام الذي قدمه إلى نفوذه الواسعة. وُضعت جثة الملك الميت من برسيبوليس وسط مشاهد حداد مروعة، مغطاة بالشمع، موضوعة على عربة مزينة بشكل رائع، تجرها الخيول التي تم قص أعرافها بالكامل. بقيادة زركسيس نفسه، مشى جميع سكان المدينة وراء النعش، وهم ينتحبون وينتفون شعورهم، ويتعثرون في تظاهر بحزنهم تجاه مكان بعيد من منحدرات الحجر الجيري الوعرة، والتي يبرز منها عالياً على وجه الصخرة نحت القبر الملكي. هناك دفن الملك العظيم. وفي جميع أنحاء برسيبوليس وبلاد فارس، وكل مزربان في الإمبراطورية، أينما حلت بركات آرتا، اطفئت النيران المقدسة التي ظلت مشتعلة

طوال ستة وثلاثين عامًا من عهد داريوس، وتركت النيران المتوهجة لتتلاشى في الغبار.

لن تتأجج المذابح بالحياة مرة أخرى، ويبدأ عهد الملك الجديد رسميًا، حتى يتقدم زركسيس شمالًا إلى باسارجادي، ويمر في بعض الأسرار التي لا يُسمح إلا لأحكم المجوس والملك نفسه بمعرفتها. وكجزء من هذه المبادرة، سيضطر زركسيس أولاً إلى "تجريد نفسه من ملابسه، ولبس رداء كان يرتديه كورش قبل أن يصبح ملكًا"[306]، ثم يتجرع العديد من المستحضرات الكريهة التي أعدها له المجوس، المشروبات المحضرة من اللبن الرائب والأعشاب المقدسة. ويضع الصولجان في يده اليمنى. وتاج كادرس، تاج الملوك المخدد، على رأسه. ثم يقاد زركسيس وهو يتلألأ إلى اليوم الفارسي الاسطع. حيث المرازبة، وكبار المسؤولين، المنتظرين، الحشود المدومة، الذين اجتمعوا جميعًا في باسارجادي لهذه اللحظة، وقد خروا الآن على الأرض، وسجدوا، حيث كان من واجبهم ومما يشرفهم القيام بذلك، كلما حظوا بحضور ملكهم. كوريث لكورش والمختار من أهورا مازدا، وقف زركسيس متألقًا كلاهما أمام الشعب الفارسي.

لا يعني ذلك أنه تباطأ طويلا للاستمتاع بالإشادة. فقد كان ينتظره عمل عاجل. تولى زركسيس مقاليد قيادة داريوس، وسرعان ما غادر عاصمته التي لا تزال تحتفل ماضياً بعيدًا إلى مصر. وانحدر نحو المتمردين، أظهر بخفة أنه كان بالفعل، تمامًا كما كان والده يأمل أن يكون، شريحة من الكتلة القديمة: لم يتم سحق الثورة بإيجاز فحسب، بل أظهر زركسيس نفس عين المحسوبية البناءة التي كان والده يمارسها دائمًا لمثل هذه الميزة، حيث نصب هناك كمرزبان أحد إخوته الكثيرين. اعتبر الملك العظيم نفسه، بشكل أكثر قتالية من داريوس، أن هذا ليس انتصاراً فقط على الأعداء الفانين بل على قوى الشر الكوني الأكثر شراً. يجب مهاجمة البلدان التي كان يعبد فيها الدايفا وإخضاعها؛ ينبغي القضاء على معابدهم؛ يجب إعادة تكريس الأراضي التي تم تسليمها إلى الباطل مرة واحدة لقضية الحقيقة: كان هذا، طوال فترة حكم زركسيس، هو البيان الإرشادي للشعب الفارسي. وفي حالة وجود أي شك، تعلن النقوش التي أُنشئت في برسيبوليس ذلك للعالم بشدة، مذكّرةً حاشية زركسيس بأنه ليس هناك

طريق للخير باستثناء ما حدده ملكهم: "الرجل الذي يحترم القانون الذي اعطاه أهورا مازدا، الذي يعبد أهورا مازدا وأرتا بالاحترام الذي يستحقه كلاهما، سيجد السعادة في الحياة، ويصبح واحداً مع المباركين بعد الموت[307]". على الرغم من أنه ملك الملوك، "ملك بلاد فارس، ملك الأراضي"، إلا أن زركسيس لم ينس أبدًا أن كل قوته التي لا مثيل لها قد أوكلت إليه لغرض مقدس وهائل. كانت الالتزامات المفروضة على أكتافه العريضة من النوع الذي لايمكن تجاهله بشكل عرضي. وأولئك الذين اختاروه لتحمل ثقلهم الثقيل لا يمكن أن يخيب أملهم. اعترف زركسيس بحرية: "كان لداريوس أبناء آخرون، لكن داريوس والذي جعلني أعظم أبناءه بعده." وهذا، بدوره، تم إجراؤه كتعبير عن هدف أسمى: "لقد تم كل شيء وفقًا لرغبات أهورا مازدا[308]."

بالتأكيد، بمجرد أن هدأت مصر بنجاح، لا يبقى شك في إهمال الأعمال الكبرى الأخرى التي لم تنته بعد بوفاة داريوس. ما إن عاد زركسيس إلى بلاد فارس حتى بدأت مجموعات المصالح المختلفة، التي طالبت باهتمام الملك العظيم، تحثه على بدء رحلة استكشافية جديدة، للتعمق أكثر في أوروبا، ومعاقبة أثينا، وقهر اليونان. الأكثر إلحاحًا في الأذن الملكية كان ابن عم زركسيس، ماردونيوس، الذي تعافى منذ فترة طويلة من الجرح الذي أصيب به في تراقيا، وكان يتحين الفرص من أجل العودة إلى بحر إيجة، التي اعتبرها إلى حد كبير مجال خبرته الشخصية. كما أنه لم يكن صائد المجد الوحيد: ربما تم تنصيب أخ في قصر الفرعون، ولكن كان هناك عدد من أقارب الملك العظيم الآخرين الحريصون على إثبات قوتهم، والاستمتاع ببريق القيادة العليا. في النهاية، كان غزو "anairya[309]" البعيدة هو كل ما يعنيه كون المرء فارسيًا.

بالانتقال إلى رؤساء مخابراته للحصول على معلومات حول الجبهة الغربية، كان زركسيس سعيدًا بإبلاغه بأن الجميع موافقين. نعم، ظلت أثينا واسبرطة تعارضان طموحاته بشدة، لكن الطبقة الأرستقراطية في مناطق أخرى من اليونان-بما في ذلك، على الأقل، منطقة ثيساليا الحيوية، إلى الشمال مباشرة من بيوتيا وطيبة-سترحب، كما أفاد رؤساء المخابرات، بأي غزو فارسي بأذرع مفتوحة. وبمجرد سقوط ثيساليا، لا بد أن تتعاون طيبة نفسها

ومجموعة من المدن الأخرى في الجنوب. في الواقع، حتى اسبرطة وأثينا قد لا يكونا هدفين خاسرين تمامًا-وبالنسبة إلى ديماراتوس، المختبئ بشكل مريح في سوزا، والبيسيستراتيين، الآن في العقد الثالث من حياتهم على كشوف المرتبات الفارسية، يمكنهم أن يضمنوا دعم عدد قليل من العملاء. في الواقع، غامر أبناء هيبياس الاستباقيون بشكل مثير للإعجاب بتقديم دعم السماوات للملك العظيم-"وصفوا لزركسيس كيف كان من المقرر مسبقًا أن مواطنًا من بلاد فارس سيعبر هيلسبونت، ويبين الانتصارات التي ستتبع[310]". لم يكن مصدر هذه التأكيدات الواثقة سوى أونوماكريتس، ذلك الدجال نفسه الذي كان في يوم من الأيام قريبًا من الطغاة في أثينا، حتى تشاجر معهم بشأن اتهامات له بأنه كان يلفق النبوءات. ربما لم يكن المصدر الأكثر موثوقية للمعلومات-ولكن كان لدى البيسيستراتين شوق في المنفى لرؤية وطنهم مرة أخرى وعادوا تائقين، بشكل مثير للشفقة، إلى الثقة في كل كلمة له.

من المشكوك فيه أن يكون للقيادة الفارسية المستوى نفسه من الثقة في أونوماكريتوس، لكن ذلك لم يكن مهمًا. بالفعل، في غضون أشهر من عودة زركسيس من مصر، أصبح من غير الممكن وقف الدافع إلى الحرب. اولئك الحمائم القلائل المعارضون للغزو وجدوا أنفسهم عاجزين عن إيقافه. فإن تحدثوا، قد يوصفون بالجبناء. ومع هذا، فإن تحذيراتهم، على الرغم من نفاد الصبر من جانب حزب الحرب، لم يكن من السهل تجاهلها جانبًا. بأن الأثينيين، كما أثبتوا في ماراثون، لم يكونوا صيدًا سهلًا؛ وأن تجهيز أي حملة عسكرية كان لا بد أن يكون مرهقًا حتى بالنسبة للبيروقراطيين الفُرس المتمرسين؛ من المعروف أن التضاريس الجبلية في اليونان كانت غير مضيافة: فبالكاد يمكن رفض مخاوف مثل هذه على أنها تثير الذعر الانهزامي. ومع ذلك، فحتى مخاطر المشروع، برغم أنها قد تلهم نوبات التردد العارض في زركسيس، عملت في النهاية فقط على تقوية العزيمة الملكية. في أن يقلص المخاطرة، وأن يعترف بأن القوة الفارسية قد تكون عرضة لأن تُحمل فوق طاقتها، وأن يتخلى عن أثينا والقارة التي تتجاوزها ويتركها إلى الباطل إلى الأبد، كان من الممكن أن تكون هذه خيانة فظيعة لداريوس، وحتى بشكل لا يغتفر للعظيم. الرب مازدا. نعم، كان الغزو

مليئًا بالمخاطر-ولكن مرة أخرى، إذا لم يكن كذلك، فلن يكون تحديًا جديرًا باهتمام ملك الملوك.

ما هي أفضل طريقة لمواجهة ذلك؟ في أعماق الحرم الأعمق لمدينة برسيبوليس-ما وراء قاعات المدخل التي تلوح في الأفق، المنحوتة على شكل ثيران ضخمة برؤوس بشرية وأجنحة النسور، وراء الساحات ذات الألوان الزاهية التي يديرها خصيان مسئولون، بالإضافة إلى آلاف الحراس الشخصيين المتمركزين في مهام دائمة خارج باب سيدهم الملك، وأثوابهم الطويلة المرصعة بالأحجار الكريمة، وأعقاب حرابهم مزينة بتفاح انيق من الذهب-اجتمع اكثر مستشاري زركسيس الموثوق بهم أمام العرش الملكي لتقديم آرائهم. على الرغم من عزلهم داخل المركز العصبي للقوة الفارسية، فإن ما قيل هناك سيتبين في الوقت المناسب انه تم تخمينه بذكاء، وذلك بفضل الشائعات وتطور الأحداث[311]. وبطبيعة الحال، كان السؤال المطروح هو سؤال واحد بمجرد أن تقرر أن الحرب يجب أن تستمر، ما هو نوع الحملة العسكرية التي ينبغي تنظيمها لغزو وفتح اليونان؟

يبدو أن ماردونيوس حث على تجنيد مقاتلي النخبة فقط-الفرس أنفسهم، والميديون، والساكا، والإيرانيون الشرقيون. وقال إن مثل هذه القوة الضاربة ستكون قادرة على التحرك مثل البرق، وستتفوق على أي عدو، وتنزل على مشاة العدو المتثاقلين بنفس السرعة القاتلة التي أثبتت دائمًا أنها قاتلة جدًا لليونانيين في إيونيا[312]. ومع ذلك، فإن هذه الاستراتيجية، على الرغم من صياغتها على غرار سابقة مجيدة، كان لها عيب كبير، في الواقع، لا يمكن التغلب عليه. لقد تغير الزمن: كيف يمكن أن يُعتبر جيش مؤلف من عدد قليل من المرزبانيات كافياً لكرامة الرجل الذي سيقوده؟ ما كان يمكن أن يخدم كورش في أيام قطع الطرق في الجبال لم يكن مناسبًا لحفيده، الذي حكم العالم. عندما غزا زركسيس الغرب، لم يفعل ذلك كملك لبلاد فارس فحسب، بل كملك لكل السيادة التي تقع وراءه أيضًا. كان على سكان الحدود الأكثر ظلمة واجبًا مقدسًا أن يدفعوا له الجزية على أبنائهم. وفي طاعتهم سينعكس المجد الفريد لسيدهم ملك الملوك.

لذلك تم تسوية الامر. وربما، بصوت ضعيف للغاية، فوق إصدار الأوامر الملكية، كان من الممكن سماعه من الفناء الكبير خارج قاعة جمهور زركسيس، نقش النحاتين وهم يزينون جدار الدرج القريب[313]. تمامًا مثل الدرجات نفسها، التي مُسحت برشاقة إلى أعلى على ارتفاع سطحي بدرجة كافية للسماح لأحد النبلاء في ثيابه الضخمة بالصعود إليها دون أي مساس بكرامته، كان العمل دقيقًا إلى أقصى الحدود-للعمال قد أمروا بانجازه، على التوالي بعد صف مفصل بدقة، سطورًا من شعوب خاضعة تقدم الكنز للملك. كان هذا، حتى الآن، أكثر ما عرفه زركسيس عن العديد من رعاياه، بعيدةًعن بلاد فارس ووحشية مثلما كان معظمهم؛ ومع ذلك، الآن، بينما كان رسله يستعدون للركض في كل ركن من أركان الإمبراطورية، لإيقاظ المرزبانيات واستدعاءهم للقتال، يمكنه أن يتطلع إلى رؤية كل التنوع الرائع لروافده المتجمعة أمامه والمسلحين للحرب. الهنود يرتدون لحافهم القطني، بأقواسهم الطويلة المصنوعة من قصب السكر؛ الإثيوبيون يرتدون جلود النمر ومسلحين بسهام بالحجر في طرفها؛ الموشيون[314] يرتدون خوذات خشبية. التراقيون بجلود الثعالب ملفوفة حول رؤوسهم؛ والسوسيين[315] بعمائمهم. الآشوريون يرتدون صدريات الكتان ويمسكون بالهراوات المرصعة. كلهم، كما لو كانوا قد انبثقوا من صخرة برسيبوليس إلى لحم ودم غريبين، سيتجمعون أمام سيدهم، ويسيرون معه ضد الغرب.

من المسلم به أن هذا التورم في قوته الضاربة مع وجود عدد كبير من الجنود المسلحين بشكل سيء من شأنه أن يولد درجة من الصداع لمفوضية الملك العظيم للتموين العسكري المرهقة. كان من الواضح أن نقل جيش بالحجم الذي تصوره زركسيس عبر بحر إيجة غير وارد: فالطريقة الوحيدة الممكنة نحو أثينا كانت عن طريق البر. وهذا بدوره سيتطلب عجائب في التحضير: يجب سد هيلسبونت بطريقة ما؛ الطرق التي تسير عبر براري تراقيا ومقدونيا؛ المحاصيل المزروعة، تحصد، وتخزن. إن المطالب المرهقة على الفرق اللوجستية المعينة للتعامل معها، بالطبع-ومع ذلك، بالنسبة للملك العظيم نفسه، تعد تجسيدًا رائعًا لقوته مثل أي عدد من الانتصارات في المعركة. ان

تروض البرية، وتستحضر من الأرض الحية مشاهد النظام والوفرة الناضجة: أي صورة أكثر كمالًا يمكن بها تصور رسالته العالمية؟ كان الفرس، المحاصرون في كل مكان بالجبال والاراضي القاحلة، يعتبرون دائمًا المقدرة على جعل الصحراء تتفتح، أضمن علامة على أي رجل دولة. والمرزبان الذي استطاع أن يرضي الملك العظيم هو من "شجع زراعة مقاطعته، وغرس الأشجار، وزرعها بالمحاصيل[316]" كانت دائماً علامة عالية القيمة. عندما يقدم للملك العظيم خضار جيدة، حتى البستاني الأكثر تواضعًا قد يتم تعقبه بسرعة وعلى الفور. وكما قال أحد ورثة زركسيس، عند إعطائه ثمرة رمان ضخمة، "لا ينبغي أن يكون هناك مشكلة بالنسبة لشخص يستطيع أن يزرع فاكهة بهذا الحجم، على ما يبدو لي، في أن يصنع مدينة صغيرة بنفس القدر من العظمة[317]".

حتى الملك العظيم نفسه تباهى بالأصابع الخضراء. ومن المبرر أيضًا- بالنسبة إلى زركسيس الشاب، عندما لا يكون يتدرب على قوسه أو يعبر الجداول الجليدية، أن يقضي فترات بعد الظهر السعيدة في الحديقة، "يزرع الأشجار ويقطع ويجمع الجذور ذات الخواص الطبية[318]". في الواقع، ربما كان الصيد وحده هو من يمكن أن ينافس البستنة كشغف للبلاط. كان الجمع بين الاثنين، بالنسبة للفارسي، إنجازًا حقيقيًا. نادرة كانت عاصمة المرزبان التي لم يكن لديها متنزه خاص بها، ومجهز جيدًا بالطرائد، ولكن أيضًا، مزروعة بجانب البحيرات والجداول الرقراقة، والسرادقات والمعاشب المشذبة بمحبة، والنباتات من كل الأنواع، وحدائق الأعشاب وأحواض الزهور، وأشجار الكمثرى والتفاح، أشجار الصنوبر والسرو، الغارقة في التربة والمعطرة برائحة الأزهار الغريبة. الإمبراطورية، ليس للمرة الأخيرة، قد عززت هوس علم النبات. وداريوس، حتى وسط العمل المطلوب من أي ملك عالمي واعٍ، كان دائمًا على اطلاع على أحدث الابتكارات في مجال البستنة، وشجع بلا كلل مرزبانته على تجريب الفسائل وجمع الشتلات النادرة. قيل إن ماردونيوس، الذي كان حريصًا على إذكاء حمى حرب ابن عمه، قد أكد لزركسيس أن أوروبا كانت مركزًا حدائقيا واسعًا، "حاضنة كل نوع من الأشجار[319]". عندما بدأت الأخبار تنتشر عبر برسيبوليس بأن غزو اليونان سيمضي قدمًا، لابد أن البستانيون الملكيون

قد بدؤا في فرك أيديهم ببهجة مثل أي شخص آخر من احتمالية الحصول على حصائل غنية.

" بارادايدا "، هكذا أطلق الفرس على حدائقهم الجميلة الرائعة، وهي كلمة نسخها اليونانيون عنهم " paradeisos "-"الجنة[320]". عند دخولك واحدة، والمشي بجانب برودة جدول مائي كريستالي، متفرجا على العجائب الطبيعية المزروعة من كل ركن من أركان الإمبراطورية-البهائم النادرة، والأشجار النادرة، والزهور النادرة-قد يتخيل الملك العظيم نفسه بالفعل في الجنة. ومع ذلك، قدمت له الجنة أكثر من مجرد ملاذ، ملجأ من كل بؤس وتفاهات الحياة البشرية. كل ما يمكن أن يسعد به، "جمال الأشجار، والدقة التامة التي زُرعت بها، واستقامة الخطوط التي تشكلت، وانتظام زواياها، والعديد من الروائح الرائعة التي تمتزج معًا وتملأ الهواء[321]"، " كان قد جرى حسب رغبته. وبالمثل، لأنه كان ملك الملوك والعالم كله في متناول يده، ويأمر الطبيعة في أي مكان.

لأنه مثلما يمكن أن يوضح باشارة من يده إلى البستانيين كيف ينبغي غرس خط من أشجار السرو، كذلك، بوضع إصبعه على الخريطة، قد يعيد رسم البحر والأرض. حيث تدفقت مياه هيلسبونت، كان من المفترض أن توحد أشجار الغابات والتربة المعبأة بإحكام، المنتشرة على عائم هائل، أرض آسيا وأوروبا: في نفس الوقت، وإلى الغرب على طول ساحل بحر إيجة، كانت قناة كبيرة، تم قطعها من البرزخ أسفل جبل آثوس، لتحرير الأسطول الفارسي من الاضطرار إلى الدوران حول شبه الجزيرة الغادرة التي ارتفع منها الجبل. هناك، قبل عامين من ماراثون، فقد ماردونيوس أسطوله، وقيل أن الكارثة قد جعلتها أكثر رعبًا، فمن معجزات الطبيعة الغريبة: ظهرت وحوش البحر، التي ضربت وسط الأمواج الغليظة، وقيل إنها التهمت بنفسها البحارة الغارقون، في حين نهض الحمام الأبيض، المولود من الرذاذ، ورفرف فوق المذبحة، "تلك كانت المرة الأولى التي تظهر فيها هذه الطيور في اليونان، ولم يسبق رؤيتها هناك من قبل[322]". لم يُسمح بمزيد من اطلاق مثل هذه الغرابة: بمثل التأكد من أن النمر المحبوس في الحديقة لن يكن يشكل خطرًا على أولئك الذين ينظرون إليه من خلال القضبان الذهبية لقفصه، كذلك كانت وحوش البحر قبالة جبل آثوس،

ومهما كان عدد السفن الفارسية التي كانت ستمر بها في طريقها نحو أثينا، فهي ستترك لعاب الوحوش يسيل عبثًا.

ستهتز اليونان كلها. فبناء قناة واسعة بما يكفي للسماح لسفينتين حربيتين بالمرور، بعمق كافٍ بحيث لا يعلق بدنهما من القاع، وبطول ميل ونصف، كانت هذه مهمة تتجاوز نطاق أي انسان بشري-لإنفاذ واحدة فقط. وبينما كانت جماعات العمال تكدح، ترددت أصداء ضربات المطارق إلى ما هو أبعد من جبل آثوس، مرسلةً رسالة إرهاب مُلِح وصاخب. كانت كل آسيا تتحرك. وكان الملك العظيم يقترب.

التجهز للعمل

إن الفكرة القائلة بأن على أي رجل أن يصفق يديه فقط ليحفر قناة أو جسرًا أو يستدعى قارة بأكملها لتقع في احضانه كانت، بالنسبة للأثينيين، غريبة للغاية ومثيرة للقلق. كانت الأعمدة التي اكتسحها الغبار في المعبد العظيم لزيوس، والتي تركها البيسيستراتيون مهجورة عندما أجبروا على المنفى، تلوح في الأفق كنصب تذكاري واقعي لنفور المدينة من البحث عن أي زعيم. كان رد الفعل التلقائي للطبقة الأرستقراطية الأثينية، كلما واجهوا خشخاشًا طويلًا، دائمًا هو البحث عن منجل. "لأن الناس لا يجدون أنه من اللطيف تكريم شخص آخر: ويفترضون أنهم بعدها يُحرمون أنفسهم من شيء ما[323]". كان هذا شعورًا شائعًا بين اليونانيين في كل مكان وفي أي وقت. لم تتغير الديمقراطية، بهذا المعنى، إلا قليلاً. قيل إن والد ثيمستوكليس، على أمل ثني ابنه عن العمل في السياسة، قد أشار إلى الهياكل المتعفنة للسفن الحربية التي تم نقلها على الرمال في فاليروم، وحذر من أن هذا هو مصير كل سياسي يحلق عالياً. "لأنه في أثينا، هذه هي الطريقة التي يُعامل بها القادة دائمًا، عندما يكونون قد تجاوزوا فائدتهم[324]".

من المؤكد أن الخصومات بين النخبة ظلت مفترسة لا ترحم كما كانت قبل إقامة الديمقراطية. حتى شخصية ملتيادس الشاهقة تم جرها بسرعة إلى الخراب. في عام 489 قبل الميلاد، بعد عام تقريبا من إنقاذ مدينته من الفناء، أصيب بجرح في فخذه أثناء قيادته حملة استكشافية ضد مدينة من المتعاونين

في بحر إيجه واضطر للعودة إلى أثينا. وسمعته في حالة يرثى لها بشكل مفاجئ. كانت أنوف أسرة ألكمايون، تتشمم كما كانت دائمًا، وقد اشتمت الدم. فأطلقوا العنان لمواهب السياسي الشاب الطموح زانثيبوس، الذي تزوج بالفعل من ابنة أخت كليسثينيس، ورفعوا دعوى ضد ميلتيادس، واتهموه، بوقاحة نموذجية، بـ"خداع الشعب الأثيني". أدين ميلتيادس قبل أن يُحكم عليه، وكان سيُخرج على نقالة، ويُجر عبر "بوابة الجلاد" ويقذف في حفرة لم يكن المحلفون، المترددون في التعامل مع المنتصر في ماراثون كما سبق أن عاملوا سفراء الملك العظيم، وصوتوا بدلاً من ذلك لغرامة معيقة. لكنها مع ذلك، لم تكن معيقة تماما فالغرغرينا التي بدأت تعفن ساق البطل الساقط، من شأنها، في غضون أسابيع قليلة من الحكم، أن تقضي عليه إلى الأبد. و كان ابنه الصغير كيمون، سيجمع بطريقة ما نقودًا كافية لسداد الغرامة، وقد ورث على النحو الواجب قيادة عشيرة الفيليين، جنبًا إلى جنب مع ثروة استنفدت كثيرًا، -غني عن القول-عداء مستمراً مع أسرة ألكمايون.

ومع ذلك، وان كان الشعب الأثيني خائفًا من أي موقف "يكون فيه رجل واحد قادرًا على ممارسة سلطة غير متناسبة تمامًا على رفاقه[325]،" فقد كان قانعًا برؤية ميلتيادس العظيم يُذلّ، وهو ما لم يعبّر عن الحماس لمنافسيه. فمن كانوا، على وجه التحديد، العملاء في المحاكمة التي رفعها زانثيبوس: الناخبون في المجلس أو أسرة ألكمايون؟ لن يطول الوقت حتى يأتي الجواب. بعد عامين من وفاة ملتيادس، بدأ المواطنون يتدفقون على أغورا، حيث نصب موقع تصويت كبير خصيصًا لهذا اليوم، وقيام المسؤولين بفحص دقيق لجميع الذين مروا به للتأكد من عدم تصويت أي شخص مرتين. عند المداخل العشرة، واحد لكل قبيلة، كانت توجد أكوام من الفخار المكسور. كان كل أثيني، وهو عازم على التقاط شظية، يعلم أنه كان يطالب بحق مخيف ورهيب. ذات مرة، في الفترة التي سبقت الديمقراطية، كان المنفى مصيرًا تلحقه تهديدات مسلحة بأهواء قادة الفصائل، مدمرا ووحشيا في آثاره؛ الآن، ولأول مرة، كان من المقرر أن يتم فرضه كعقوبة محسوبة على الشعب ذي السيادة. فكل مواطن يسجل صوته على ظهر قطعة فخارية ملزم باختيار اسم سياسي بارز. في نهاية المطاف،

كانت كل القطع او"ostraka "، كما دعاها اليونانيين، لا بد أن تفرز الى أكوام ويحدد عددها. سيكون لدى المواطن الحاصل على أكبر عدد من الترشيحات عشرة أيام لمغادرة أتيكا. لن يعاني، كما فعل المنفيون من قبل، من خسارة ممتلكاته أو حقوقه المدنية-ولكن لن يُسمح له بالعودة إلى وطنه لمدة عشر سنوات. كان عليه أن يبقى، كما قال الأثينيون، "منبوذاً".

هذا، وهو سلاح فتاك ضد طموحات أي عائلة ذات جدارة، ظل غير مُختبر في ترسانة الديمقراطية منذ أن قدمها كليسثينيس لأول مرة، قبل عشرين عامًا[326]. وأن الأثينيين قد صوتوا لإطلاق العنان له في أعقاب سقوط ميلتيادس يشير إلى مدى عزمهم على ألا يصبحوا مستهدفين من العشائر المتناحرة. من المؤكد أن الشعب الذي كان في وداع الملك العظيم لم يعد يشعر بأنه مضطر للعيش في ظل الأرستقراطيين المضطربين. أول من تم تطهيره من سطح السفينة كان هيبارخوس، المؤيد السيئ السمعة للبيستراتيين، والذي كان يشتبه على نطاق واسع في تعاونه مع هيبياس وارتفارنس، بصفته أرخوناً في العقد الماضي. في العام التالي، 486 قبل الميلاد، وليس من المستغرب، جاء دور أسرة ألكمايون لتحصل على دفعة. بعد ذلك بعامين، تم أيضًا إرسال زانثيبوس نفسه، وهو يحصد المكافأة المستحقة من صعوده إلى الصدارة. الفيلايين، والبيستراتيين ، أسرة ألكمايون: جميعهم، في السنوات التي تلت ماراثون، قطع رأسهم عملياً. إذا كانت إقامة الديمقراطية ثورة مخملية، فإن النبذ كان مقصلة تقطع الرؤوس لكنها لا تسفك دماً.

وبطبيعة الحال، كما هو الحال في جميع الثورات، ترك القضاء على نخبة من سماسرة السلطة المجال مفتوحًا أمام منافسين أكثر مرونة وأكثر قدرة على التكيف وأكثر انتهازية ليحلوا محلهم. لم يكن اعضاء أسرة ألكمايون هم المواطنون الوحيدون الذين شعروا بأنهم قد تضاءلوا بسبب تألق المنتصر في ماراثون؛ ولم يكونوا العظماء فقط هم من اشتاقوا إلى مكان تحت الشمس يفضله المجلس. كان أحد الرجال على وجه الخصوص، الذي وجد المجد الذي فاز به ميلتيادس عذابًا فارقاً، حيث عانى ليالٍ من الأرق نتيجة ذلك، إلى حد انسدت نفسه عن الشراب، كان يتحرك بالفعل ببراعة للاستفادة من الفرز.كان

ثيمستوكليس، الذي لم يكن يفتقر بالتأكيد إلى الأعداء، مدركًا أنه من خلال الاستمرار في متابعة طموحاته السياسية، انما يخاطر بتدمير نفسه. ولكن على الرغم من أنه، منذ النبذ الأول، كان مرشحًا شعبيًا للنفي، مع إلقاء أكوام من الأوستراكا ضده كل عام، إلا أنه كان يتمتع بميزة حاسمة. فالإساءة التي قد تكون مكتوبة بغضب ضد أسماء المرشحين الآخرين للمنفى-ربما "خائن"، أو "عاشق داتيس"، أو حتى، رسم تقريبي على شظية عرضية، لشخصية رامي السهام بخوذة ميدية - بالكاد يمكن أن تكون موجهة ضد ثيمستوكليس. وعلى عكس معظم أولئك الذين حُكم عليهم بالفعل بالنبذ، فقد كان دائمًا ثابتًا في معارضته لملك الملوك. فمجمع ميناء بيرايوس الكبير، الذي بدأ خلال فترة توليه منصب الارخون، والآن، بعد ما يقرب من عقد من الزمان، أصبح أكبر ميناء في اليونان والأفضل تحصينًا ، وكان دليلاً قويًا على ذلك. في الواقع، عندما بدأ ثيمستوكليس الآن في الجدال علنًا، كان كل ما هو مطلوب لإكمال تحول أثينا إلى قوة بحرية من الدرجة الأولى هو الأسطول.

ربما يكون هذا الاحتمال مغريًا بالنسبة للطبقات الفقيرة-ولكن ليس لملاك الأراضي والمزارعين الذين انتصروا مؤخرًا في ماراثون. كان ثيمستوكليس يضغط من أجل بناء حوالي مائتي سفينة: القوة البشرية المطلوبة لدفع مثل هذه البحرية الهائلة ستترك عددًا قليلاً من المواطنين للقتال على الأرض، كما كان تقليديًا، بدرع ورمح. هل كان من المتوقع حقًا أن تدفع طبقة الهوبليت بنفسها الى التصفية؟ ومن كان، ربما بشكل أكثر إلحاحًا، يمول برنامج ثيمستوكليس البحري الباهظ ؟ لم تكن السفن الحربية رخيصة الثمن: ربما كان أسطولها هو أغلى رمز يمكن أن تطمح إليه أي مدينة. عند الاستماع إلى مقترحات ثيمستوكليس، يمكن أن يكون لدى الأغنياء فكرة ذكية حول من هم الأكثر احتمالية بأن يتحملوا مشاق الفاتورة. لا عجب إذن، مع استبعاد هؤلاء المتحدثين التقليديين عن رد الفعل، رؤساء العائلات العظيمة، أن اضطرت الطبقات العليا إلى البحث عن بطل بديل. لم يكن لديهم الكثير للبحث. بدأ أريستيدس، الجنرال الذي وقف بجانب ثيميستوكليس في المركز الضعيف في ماراثون، في الظهور بحلول منتصف 480 قبل الميلاد باعتباره ألد خصومه

وأكثرهم فعالية. حتى في شخصيتهما، ظهر الرجلان وكأنهما على تنافس. ففي حين وصف ثيمستوكليس بأنه مغامر، ذو دهاء فائق ومكر، كان أتباع أريستيدس مبتهجين باعتباره النموذج النهائي للفضيلة المستقيمة غير المتكلفة. وفي حين اشتهر ثيميستوكليس بتلقي الرشاوى عند أي فرصة، اشتهر منافسه بالفقر الصارم والصادق لدرجة أنه بعد ماراثون، وانطلاق الجيش الأثيني في طريقه اليائس إلى فاليروم، كان أريستيدس هو من تُرك في الخلف في ساحة المعركة، وعهد إليه بالنهب. أحب المعجبون أن يطلقوا عليه "العادل": لقب صنعه الرجل العظيم، لنفسه دون أدنى تردد[327].

لأن هذا المثال الظاهر للفضيلة ينتمي إلى اكتشاف قوي وخطير: تلك الصورة، في الديمقراطية، قد تأخذ رجل دولة بقدر ما هو جوهره. بغض النظر عن لقبه، لم يكن أريستيدس، في الحقيقة، أقل كفاءة في المكائد السياسية من ثيميستوكليس. بعيدًا عن "تجنب تشابك الفصيل والانشقاق نحو طريقه[328]"، وكما تظاهر، كان في الحقيقة متصلاً شبكيًا بقدرة بارعة. في حين اضطر ثيمستوكليس إلى الاعتماد على حديث النعمة الغامض في تعليمه السياسي، على سبيل المثال، كان أريستيدس يستهدف الحق في القمة، وجعل نفسه قريبًا من كليسثينيس. كما أن بؤسه لم يكن عملا مذهلا: ربما لم يكن حريصًا على دهن كفه كما كان ثيميستوكليس، ولكنه مرة أخرى، بصفته مالك عقار كبير في فاليروم وعلى علاقة وثيقة ببعض أغنى الرجال في أثينا، لم يكن بحاجة إلى أن يكون كذلك.

كيف، إذن، يمكن شرح سيطرة أريستيدس الغريبة على الناخبين؟ قام خصومه، مشيرين إلى أنه كان رجل من عشيرة في قرية ألوبيكي الواقعة جنوب أثينا، بالتلاعب بكيفية ترديد كلمة " ألوبيكس "-الكلمة اليونانية التي تعني الثعلب. ولكن ربما كان هذا لدفع تهمة الخداع ضد أريستيدس إلى أبعد مما ينبغي. قد يُقال إن النفاق هو شريان الحياة للديمقراطية. من المؤكد أن المساواة الراديكالية المتزايدة في المدينة لم تفعل شيئًا يذكر لتقويض تقاليدها في التكبر. أريستيدس، الذي مزج الثروة بالادخار، والطموح بالخدمة العامة، وامتيازات التكاثر مع العزم على الثقة في إرادة الشعب، قدم للأثينيين طمأنة

مريحة للغاية: أن مُثُل ماضيهم يمكن أن تتماشى مع نظامهم الجديد. يبدو أنه وعد بأن اليقينيات القديمة التي نشأت من تربة أتيكا، المتجذرة بعمق مثل شجرة الزيتون المقدسة التي نشأت من الأكروبوليس، قد لا تزال تعمل على إرشاد الشعب الأثيني خلال جميع المخاطر وانعدام الأمن التي تنتظرهم. في مواجهة فضائل الهوبلايتين المطمئنة، لم يكن من المستغرب أن يبدو وميض وانهيار دعوة ثيمستوكليس لبناء البحرية بالنسبة للكثيرين غير الأثينيين مثل اندفاع البحر نفسه.

لكن ربما كان هذا بمثابة ارتكاب خطأً في مصير المدينة. في أعالي الأكروبوليس، بجوار شجرة الزيتون البدائية في أثينا، يمكن العثور على صهريج مملوء بالمياه المالحة. عندما يركع بجانبه يسمع المواطن من أعماقه "تنهدًا كصوت الأمواج عندما تهب الريح الجنوبية". وعندما ينظر إلى الصخرة، قد يرى "علامة على شكل رمح ثلاثي الشعب[329]"،-نقشه هناك في الماضي البعيد إله البحر بوسيدون. فقد قيل ذات مرة، أنه تنافس هو وأثينا ليكونوا مبجلين في المدينة؛ وعلى الرغم من أن الإلهة تفوقت على بوسيدون، فقد ترك وراءه بئرًا كدليل على رعايته المستمرة، مدفوعًا في صخرة أقدس ضريح في أثينا[330]. ولم يكن الأكروبوليس هو الموقع الوحيد الذي قد يطلب فيه الأثينيون نعمة الاله. في "الصونيوم[331] المقدس، رأس أثينا[332]،" التي كان على كل سفينة أن تدور حوله عند مغادرة أتيكا إلى البحر المفتوح، بني حديثا معبد لبوسيدون على حافة الجرف المتأرجح. كان داتيس، الذي كان يقود عربات نقل خيوله في اندفاعهم اليائس نحو فاليروم، قد رأى أعمدته ترتفع فوقه بينما كان يبحر بأسطوله الثقيل عبر اللسان. ربما كان بوسيدون، الذي حرك التيارات بطرف رمح ثلاثي الشعب في ذلك اليوم المشؤوم، قد أبطأ من تقدم السفن الفارسية أثناء اندفاعها نحو أثينا؟ بالتأكيد، لم يكن هناك إله أكثر ترجيحًا ليؤيد خطط ثيميستوكليس من أجل إنقاذ مدينته من هجوم بربري ثانٍ أكثر من الاله سيد البحر. ثيميستوكليس نفسه، نظرًا لأن صونيوم كان يقع على بعد ثمانية أميال فقط جنوبًا من عشيرته، فقد وجد أنه من السهل السفر إلى اللسان، وربما كان

يفعل ذلك في كثير من الأحيان. وظلُّ ضريح إله البحر على ظهره وهو يوشوش في الامواج تحته، لم يكن هناك بالتأكيد مكان أفضل للصلاة من أجل معجزة.

وإذا كان سيتجسد، فإن المكان الأكثر احتمالا لذلك، كما يعرف ثيميستوكليس، كان يقع على مسافة قريبة من معبد بوسيدون. لم تمتد المنحدرات التي شكلت طرف النتوء بعيدًا. امتدت شمال صونيوم أراضي لوريوم المنبسطة الجرداء والمدمرة ، ولم يهدأها النسيم الذي يبقي الهواء على اللسان منعشا. كان الهواء على طول هذا الامتداد من الساحل محروقا ولاذعًا، وقذرًا بأبخرة سامة، ومع ذلك عاش الآلاف من الناس، من النساء والأطفال وكذلك الرجال، هنا، وتجمعت أكواخهم حول مجمعات الورش. هؤلاء لم يكونوا مواطنين بل عبيداً، تعساء الحظ المحكوم عليهم بالعمل وسط الغبار والتلوث حتى تكون الديموقراطية غنية. وكما يتضح من المنحدرات المليئة بالحفر التي ارتفعت إلى ما وراء البحر و الضوضاء المستمرة للمعاول، كانت منطقة لوريوم غنية جدًا بالفضة بحيث بقيت الطبقات الجديدة موجودة في الصخر ، على الرغم من أنها كانت مستغلة منذ ما قبل حرب طروادة. على مدى العقدين الماضيين، استفادت المحاجر من ترقية كبيرة: تم تجويف الخزانات الحجرية من سطح الصخور، لغسل الخام المستخرج، بحيث يمكن سحق جميع العناصر الدخيلة، التي يوجد منها دائمًا قدر وفير. وابعادها قبل الصهر. هذا الابتكار البسيط قد مكّن من صقل الفضة إلى درجة غير مسبوقة من النقاء. وفتح أيضًا احتمالًا محيرًا: إذا تم العثور على قناة إنتاجية جديدة، فستكون أكثر قابلية للاستغلال من أي شيء في تاريخ لوريوم. لقد احتاجت فقط إلى ضربة حظ واحدة. وكان ذلك في عام 483 قبل الميلاد، بالضبط ما تم عمله.

"ينبوع من الفضة، وكنز مدفون في الأرض[333]." كذلك بدا عرق المعدن للأثينيين المبهورين. ماذا سفعل مع هذا المربح المفاجئ؟ ما إن تلقى ثيمستوكليس أخبارًا عنه حتى وقف على قدميه في المجلس مطالبًا بأسطول. قوبل اقتراحه بصرخات من الغضب. أما أريستيدس، ومزجه المميز بين المحافظة والغوغائية كما كان دائمًا، ظهر في معارضة فورية. وأشار بسلاسة إلى أن العادة كانت تقسيم المكافآت من المناجم بالتساوي بين الشعب الأثيني: وفي مناشدة لمصالح

الناخبين الشخصية التي نجحت في أن تكون صارخة ومحوّطة باحترام التقاليد. اختار ثيمستوكليس، عند مواجهته وجهاً لوجه، عدم إثارة الذعر، ولا حتى ذكر التهديد الفارسي على الإطلاق. وبدلاً من ذلك، بدأ يعزف على وتر عدو أسرع بكثير من الملك العظيم، يجلس القرفصاء كما فعل مباشرة على عتبة باب أثينا، "اثارة كراهية الناخبين وغيرة إيجينا[334]". المجلس، الذي اجتذب بطرق معاكسة من خلال إغراءات الجشع والنزعة الشوفانية المتنافسة، استقر في النهاية على حل وسط. سيتم إنفاق أرباح لوريوم على السفن الحربية، ولكن مائة منها فقط. ورفض ثيمستوكليس، الذي كان يناضل من أجل ضعف هذا العدد، التراجع. وكذلك فعل أريستيدس. لم يكن أي من الرجلين قادرًا على فرض رأيه. تحول الخريف إلى شتاء، ووجدت الديمقراطية التي مزقها الخلاف نفسها مشلولة. بحلول كانون الثاني (يناير)، عندما اجتمع المجلس للتصويت على ما إذا كان ينبغي إجراء نبذ في ذلك العام، كانت النتيجة حتمية. كان لا بد من كسر المأزق: إما ثيميستوكليس أو أريستيدس. تمت تسوية شظايا الفخار وسنعرف من عندما يتحول الشتاء إلى ربيع.

ربما لم يتم تأطيره على هذا النحو، إذن، لكن نبذ عام 482 قبل الميلاد كان، في الواقع، أول استفتاء في التاريخ. ربما يكون الأكثر مصيرية أيضًا: لأن نتيجته ستعلق مستقبل ليس فقط أثينا بل اليونان المستقلة، وأكثر من ذلك بكثير. مع اقتراب الموعد المحدد للنبذ، يبدو أن الأثينيين أنفسهم قد استيقظوا على هذا الأمر. كانت الشائعات حول مشروع البناء الضخم في شبه جزيرة آثوس تتقوى الآن لتصبح حقيقة خطيرة؛ والحديث عن استعدادات الملك العظيم للحرب، التي يتهامس بها بنبرة الرعب، لا بد أنها بدأت تحوم في الشوارع المليئة بالقلق. كان أعداء ثيمستوكليس، حتى عندما كانوا يعارضون إعطاء المدينة أسطولًا، لا يزال من المفترض أنهم كانوا يروّجوا لأريستيدس على أنه "العادل" ويبدو بشكل متزايد أنهم أزعجوا أعصاب الناس-كما سيكتشف أريستيدس بنفسه قريبًا. واقفًا إلى جانب مكان التصويت في يوم النبذ، اقترب منه فلاح أمي، لم يتعرف على الرجل العظيم، وأعطاه قطعة فخارية وطلب منه أن يكتب عليها "أريستيدس". سأل أريستيدس الفلاح بقلق، لماذا. "لأنني،" جاءه الجواب،

"لقد سئمت من سماعه يسمى" العادل "طوال الوقت". وعندما سمع أريستيدس بذلك، لم يرد، بل أخذ القشرة وكتب اسمه عليها، ثم أعادها[335] ". قصة ملهمة-وقصة كان من الممكن أن تنبثق فقط من الشخص العادل نفسه بالطبع. على هذا النحو، كان لديه نفحة واضحة من الحد من الضرر. حتى عندما شاهد قطع الاوستراكا تتكدس ضده، كان أريستيدس يتطلع لإنقاذ شيء من الخراب. ربما رأى حتى ما كُتب على بعض القطع: "شقيق داتيس". بالتأكيد، بمجرد تأكيد النتيجة وإعلان أنه سيتجه إلى المنفى، كان أريستيدس يعلم أنه، أيًا كان ما عليه أن يتركه وراءه، يجب أن يحافظ على سمعته من أجل الصدق. قد يأتي الوقت عندما يحتاج إليها مرة أخرى. قد يكون أريستيدس هو المنبوذ؛ ولكن حتى قبل أن يغادر، كان يمهد الطريق لعودته.

في غضون ذلك، كان التصويت قد خدم الغرض منه. تم تنقية الهواء وانتصر ثيمستوكليس. وسيكون لأثينا مائتي سفينة. وأكثر من مائتين. في الواقع-بالنسبة للأثينيين، بعد كل مراوغاتهم، ظهروا فجأة ممسوسين بروح طاقة عصبية معاكسة تمامًا. كما لو أنهم، بعد أن أدركوا الموقف أخيرًا، كانوا يخشون أنهم لم يفعلوا سوى القليل، بعد فوات الأوان. انتشر العملاء المسلحين بفضة لوريوم على وجه السرعة عبر بحر إيجه، لشراء الأخشاب من أي مكان يمكنهم الحصول عليه. ليلا ونهارا، كانت أحواض بناء السفن في بيرايوس تدوي على ضجيج المناشير والمطارق. كانت السفن الحربية تنزلق على الممرات منذ التصويت في الصيف الماضي، لكنها بدأت الآن في القيام بذلك بمعدل مذهل وهو اثنان في الأسبوع. لا شيء سوى الأفضل، والنموذج الأكثر دموية والأكثر حداثة، آلة قتل، سفينة نحيلة ذات رأس كبش ومجهزة بثلاثة جهات منفصلة من المجاديف، تتطلب صنعة بأعلى درجات الدقة. في الواقع، أصر ثيمستوكليس، كما كان دائمًا، شخصيًا على تجربة تصميم جديد، يهدف إلى تعزيز "سرعة وسهولة الدوران[336]"؛ لأنه بينما كانت الإنتاجية العالية ضرورية، كانت الجودة كذلك. "رعبا لعدوها، سبب فرح لأصدقائها": يجب أن يكون هذا هو المعيار لكل سفينة ثلاثية تطلقها الديمقراطية[337].

ومع ذلك، فمن المثير للقلق أن جميع تحديات بناء الأسطول كانت لا شيء مقارنة بتلك المتعلقة بتعلم كيفية تشغيله والمناورة به. كان السحب الفعال لمجداف ثلاثي مهارة معروفة بصعوبة إتقانها. "مهارة الملاحة، في النهاية، مثلها مثل أي شيء آخر، هي فن. لا يمكن الانشغال بها في أوقات فراغ المرء فحسب. في الواقع، لا يسمح بوقت فراغ على الإطلاق[338] ". على وجه الخصوص عندما يكون الوقت نفسه، كما يبدو مرجحًا بشكل متزايد، قد يعاني من نقص في المعروض. كان كل سكان أتيكا بحاجة إلى التوزع بشكل عاجل على مقاعد التجديف-وحتى في ذلك الحين، كان ثيمستوكليس قلقًا، فقد لا يكون هناك عدد كافٍ من المواطنين لإدارة الأسطول المتضخم. يومًا بعد يوم، بينما كان صيف 482 قبل الميلاد يتسلل الشتاء يتجهم الطقس، كان المزارعون من أبعد بساتين الزيتون، الخزافون الذين ربما لم يتركوا سيراميكوس من قبل، "رجال صامدون من طبقة الهوبلايت[339]" ودرعهم الذي تركوه وراءهم لتتجمع عليه خيوط العنكبوت في المخازن، كانوا كلهم يتمرنون، ويمارسون، ويتدربون، ويتحملون البثور، والتعب الدائم وأوجاع العضلات الغريبة التي لم يعرفوها من قبل، فقط بمجرد أخذهم وسائد التجديف، ووضعها على مقاعدهم، وبدء التدرب مرة أخرى. دورة مكثفة وحشية-لكن يجب أن تكون كذلك. كان هناك القليل ممن لا يزالون يعتقدون، مع حلول الربيع في أثينا عام 481 قبل الميلاد، أن العدو الذي كانوا يتدربون لمواجهته هو أسطول إيجينا. كانت الشائعات حول ما كان يخطط له الملك العظيم لمدينتهم تتدفق الآن من جميع الاتجاهات. حتى أنه قيل، بشكل مقلق، أن زركسيس وجيشه كانوا يستعدون لمغادرة سوزا في ذلك الربيع. استحوذ التوجس على الأثينيين-وتحرقوا، وسط كل عدم اليقين والارتباك، لمعرفة الأسوأ. ثم أخيرًا، من جهة غير متوقعة، جاءت بعض الأخبار المحددة.

لقد كان الأسبرطيون هم الذين استلموها: زوج من ألواح الكتابة الفارغة. كان هناك الكثير من الحيرة في مواجهة هذا التسلم المبهم حتى اقترحت غورجو ذات العينان الساطعتان، زوجة الملك ليونايدس، إزالة الشمع عنها- وعثر على رسالة منقوشة على الخشب الموجود تحتها. لقد كتبها ديماراتوس:

محذراً من خطط ملك الملوك. اعترف الأسبرطيون بأنهم لا يعرفون ما إذا كانت هذه المعلومة تكشف عن "عناية حميدة بشعبه أم شعورا خبيثاً بالفرح[340]"؛ ومع ذلك، كم كان غريبًا، وكم كان مقلقًا، أن كان هناك أي شك على الإطلاق فيما يتعلق بدوافع المنشق. رسالة تجاوزت بشكل غامض كل نقطة تفتيش على الطرق الملكية، والتي تم حسابها لتجمد الدماء في عروق متلقيها، والتي عززت صورة الملك الدمية في الانتظار: كان هذا يحمل بصمات إدارة الحيل الفارسية القذرة فوقه كله. على الرغم من افتقارهم إلى حماس الأثينيين لبث خلافاتهم في الأماكن العامة، لم يكن الأسبرطيون يفتقرون إلى الانقسامات الداخلية الخاصة بهم. لم يكن من الممكن كتابة رسالة ديماراتوس إلا بقصد توسيعها، بين الصقور، الواثقين من الانتصار على أي خصم قد يجرؤ على تحديهم، حتى ملك الملوك نفسه، والأكثر تشاؤمًا، أولئك الذين يخافوا بهدوء من أن تكون الآلهة قد حكمت عليهم بالخراب، وأن ساعة هلاكهم تقترب.

كان كل من ديماراتوس ومراقبيه في المخابرات الفارسية يدركون بالتأكيد أن المجموعة الأخيرة لم تكن أقلية صغيرة في اسبرطة. كان يُخشى على نطاق واسع أن رسل داريوس، الذين قتلهم كليومينيس قبل عقد من الزمن، كانت تطارد لاكاديمون، وتدعو السماوات الى الانتقام-كما كان حقهم بالطبع. لقد انزعج ضمير بعض الأسبرطيين، في الواقع، من أن اثنان من الهراقلة البارزين، كانا مسعورين في التكفير عن تدنيس مقدسات مدينتهم، وتبنوا الوسيلة اليائسة للسفر إلى سوزا وتقديم نفسيهما لملك الملوك كقربان. وزركسيس، الذي كان حاذقًا للغاية في قبول هذا العرض المذهل، قد أنقذهما بلطف-فلماذا يتنازل ليريح الأسبرطيين من العبء المنهك لشعورهم بالذنب؟ أخبار ديماراتوس، كما صُممت لاجله، لم تؤد إلا إلى مضاعفة مخاوفهم. شتم معظمهم الخائن: نبشوا فضيحة قديمة، وشوهوه على أنه لقيط عبد، ثمرة لتقلب أمه كريهة الرائحة، يصلح لأن يكون عبدًا آسيويًا. ومع ذلك، أدرك الآخرون أن ديماراتوس قد يكون الرجل الوحيد الذي وقف بينهم وبين الخراب التام، وأقروا أنه عارض كليومينيس وتجاوزاته الشريرة في كل منعطف، بدأوا في الهمس بشكل مختلف. وكرروا أيضا شائعات أبوة ديماراتوس. لكنهم أطلقوا

عليه اسم الابن، ليس ابن العبد، بل ابن شبح البطل الأسطوري، الذي يكاد يكون إلهاً[341].

بطبيعة الحال، لا يزال من نافلة القول إن الإسبرطيين، إذا غزا الملك العظيم البيلوبونيز، سوف يقفون ويغلقون طريقه. ولكن كيف، وهم أشجع المحاربين في العالم، ويعانون من الشك في قدرتهم، كان من المفترض أن يقوم رجال الدول الصغرى بتقوية أعصابهم؟ مع تحول الربيع إلى الصيف، أصبح الخيار في كل مدينة في اليونان أمرًا لا مفر منه: المقاومة أو الاسترضاء. لم يعد من الممكن رفض احتمال الغزو الفارسي باعتباره خيالًا مثيرًا لقلق السياسيين الطموحين مثل ثيمستوكليس. أصبح من الواضح الآن حتى لأكثر المشككين عنادًا أن كل شائعات رحيل زركسيس عن سوزا كانت صحيحة: لقد كان بالفعل يتجه غربًا. بحلول أوائل الخريف، تم الإبلاغ عن ذلك من إيونيا، أنه وصل إلى ساردس-ومع ذلك، متدفقة للانضواء تحت رايته، استمرت حشود من مناطق سيطرته الشاسعة في التحشّد بأمر منه. كان الملك العظيم بكل جحافله قادماً. بحلول ربيع العام التالي، كان من الممكن أن يبدأ: تقدم أكبر جيش تم تجميعه على الإطلاق، فوق هيلسبونت، إلى أوروبا، ثم نزولًا، مثل الذئب في الحظيرة، إلى اليونان. أولئك الذين عاشوا هناك، في ما قد يثبت بسهولة أنه آخر شتاء لهم في الحرية، أصبح بإمكانهم الآن أن يرتجفوا من اليقين المرعب بشأن من سيكون هدف الملك العظيم.

و لم تتجاهل القيادة الفارسية العليا، كما هي الحال دائمًا في الحرب النفسية، أي فرصة للف البراغي. بدأ المبعوثون، كما فعلوا قبل عقد من الزمن، قبل حملة ماراثون، في اجتياز اليونان، مطالبين بالأرض والمياه. تمت زيارة كل مدينة، مع استثناءين: أثينا واسبرطة. كان من الصعب أن تكون رسالة التخويف الموجهة إلى بقية اليونان أوضح. وبسبب الخوف من عدم تخصيصها بطريقة مماثلة للتدمير، سارعت العديد من المدن للإلتزام مع المبعوثين الإمبراطوريين. حتى أولئك الذين رفضوا علنًا مطلب الأرض والمياه كانت لديهم فصائل مؤيدة للفرس، أو كانوا مراوغين بشكل واضح. لم يكن يبدو خارج حدود

الاحتمال، خلال ذلك الخريف القاتم والمخيف، أن اليونان بأكملها قد تسقط ببساطة مثل الفاكهة الناضجة في حضن زركسيس.

كان ذلك، بالطبع، الكابوس المطلق بالنسبة للإسبرطيين والأثينيين، الذين لم يكن لديهم خيار سوى القتال. على أمل تقوية أوتار الحرب وحشد الدماء، أرسلوا على عجل أيضًا سفراء، داعين زملائهم اليونانيين إلى حمل السلاح وإلى مؤتمر الحرب الذي سيعقد في اسبرطة. ربما كان هذا موقفا منطقيًا، حيث كانت رابطة البيلوبونيز هي التي من شأنها أن تزود أي جيش متحالف بقوته؛ ومع ذلك، حرص الإسبرطيون، الذين كانوا قلقين من عزل المدن التي لا تنتمي إلى العصبة، والذين أبدوا حرصا غير مرغوب بدواخل مجتمعاتهم، على تسمية مركز المؤتمرات باسم "هيلينيون"-"مبنى الأمم المتحدة اليونانية"[342]. ولم يكن هذا مجرد تباهٍ أجوف. العديد من المدن التي اختارت إرسال مندوبين إلى اسبرطة كانت لا تزال في حالة حرب مع بعضها البعض؛ ومع ذلك، وبشكل مذهل، عندما تم اقتراح حل كل هذه الخلافات، اتفق الجميع في ذلك الوقت وهناك. إيجينا، على سبيل المثال، بعد أن قررت هذه المرة أن تقذف بثقلها ضد الغزاة منذ البداية، وجدت نفسها تدفن الأحقاد مع أثينا؛ ومع الاحتمال الحقيقي للغاية، علاوة على ذلك، أن يتم دمج سفنها في أسطول واحد مع سفن عدوها اللدود السابق.

لا يعني ذلك أن روح الانسجام الجديدة هذه كانت بلا حدود تمامًا. عندما أشار ثيمستوكليس إلى المساهمة غير المتناسبة التي ستقدمها مدينته إلى أي أسطول متحالف، وطالب بقيادته، انضم الايجينيون إلى مندوبي المدن الأخرى ذات التقاليد البحرية العريقة، مثل كورنث و إيبوبا، في عواء مغرور. من الناحية البطولية، والبراغماتية على الدوام، تمكن الأدميرال الأثيني من ابتلاع كبريائه. قد يكون غروره هائلاً، لكن تصميمه على أن يكون منقذ أثينا كان أكبر. لم يكن ثيمستوكليس أبدًا الرجل الذي يترك غروره يخيم على ذكائه أو قدرته الخارقة على الدخول إلى عقول الآخرين. كان بإمكانه أن يرى، من خلال النفاذ الذي يحدث بشكل طبيعي لمن ولد مقاتلا، أن لدى اليونانيين أمل واحد فقط في البقاء: "بوضع حد لنزاعهم، والتوفيق بين مختلف المدن مع بعضها البعض،

وإقناعهم بذلك. ولنتحد من أجل هزيمة بلاد فارس[343] ". وإدراكًا لخطر عدم تحمل أسطول أي مدينة قبول أوامر من أميرال آخر، فقد قدم اقتراحًا بارعًا بأن تمنح قيادة أسطول الحلفاء لشعب بدون قطرة من دم البحر في عروقه. لذلك كان الاسبرطيين، الذين كانوا قد طالبوا بالفعل بالقيادة البرية كحق لهم، قد فازوا بقيادة البحر أيضًا. ذريعة مريرة لأثينا-ولكن، كما كان ثيميستوكليس يعرف جيدًا، كانت هناك ضربات أسوأ بكثير يمكن أن تصاب مدينة بكدمات في تقديرها للذات.

بوجود هيكل قيادة، مهما كان غامضًا، تم إنشاؤه بنجاح الآن، أمكن للحلفاء البدء في وضع خططهم. التحديان الرئيسيان اللذان يواجههما. أحدهما، كان بديهياً لجميع المندوبين في هلنيونين، وكان الحاجة إلى زيادة أعدادهم. من بين سبعمائة مدينة غريبة في البر الرئيسي لليونان، بالكاد أرسلت ثلاثون مدينة مندوبين إلى اسبرطة. يجب إقناع الغائبين البارزين، مثل الارغوسيين، بطريقة ما للانضمام إلى القضية المشتركة؛ يجب تعزيز الفصائل الموالية للحلفاء في المدن التي تقف على الأسوار، مثل طيبة. الحل الذي تم اعتماده أخيرًا كان نهج العصا والجزرة. من ناحية، تمت تسوية الأمر، يجب إرسال السفراء إلى أرغوس وإلى جميع المدن الأخرى التي ظلت بعيدة عن التحالف حتى الآن؛ ومن ناحية أخرى، حذر إعلان أي وسطاء محتملين من أنهم قد يضطرون إلى دفع عُشر دخلهم كعقوبة على خيانتهم. علاوة على ذلك، بما أن الحلفاء سيحتاجون بلا شك إلى مساعدة إلهية ومميتة فقط من أجل تحقيق ذلك، فقد تم الاتفاق على أن جميع عائدات ضريبة العشر، كما تم الاتفاق بورع، ستُعطى "للإله في دلفي[344]".

في هذا الأمل اليائس بأن تتم رشوة أبولو، وعرافته معه، لم يكن هناك شيء ساذج على الاطلاق. وبدلاً من ذلك، فقد عكس أحد أقوى مخاوف الحلفاء. كانوا جميعًا رجالًا أقوياء. كانوا يعلمون أن الجواسيس الفرس كانوا في كل مكان، يخفون هدايا من الذهب هنا، وهمساً بوعود لصالح الملك العظيم هناك، يعملون خلسة لتتعفن عزيمة اليونانيين من الداخل. بطريقة ما، في

مواجهة حملة التجسس هذه، كان على الحلفاء إيجاد طريقة للرد. هنا، إذن، كان التحدي الثاني الذي يواجه الحلفاء: التسلل إلى معسكر ملك الملوك.

كان اليونانيين ، حتى الآن، على الرغم من كل الكلام الجامح، بلا فكرة مبسطة عن الحجم الحقيقي لما يواجهونه. و بالذكاء الشديد فقط يمكنهم البدء في صياغة استراتيجيتهم-ولهذا، ستكون هناك حاجة إلى عملاء سريين. تم اختيار ثلاثة جواسيس على النحو الواجب وتم تكليفهم بمهمتهم: السفر إلى ساردس وتدوين الملاحظات على كل ما يرونه. وفعل ذلك دون أن يتم أسرهم، وبهذا سيمكنون الحلفاء من الحصول على إحساس أفضل دون حدود بالصعاب التي تواجههم، والتخطيط وفقًا لذلك ويعودوا في الربيع، عندما يوافقوا على الاجتماع مرة أخرى.

انتهى مؤتمرهم الآن، وبدأ المندوبين في تبادل تحايا الوداع والعودة إلى الوطن. في هذه الأثناء كان العملاء الثلاثة يتوجهون إلى أقرب ميناء، وسفينة إلى إيونيا. الربيع، وموسم الحملات، كانت لا تزال على بعد أشهر؛ لكن على الأقل شعر الحلفاء اليونانيون الآن أن الضربة الأولى ضد ملك الملوك وغزوه كانت قد اتخذت.

اغتصاب أوروبا

كان بحر إيجة، قبل مجيء الفرس، بحيرة يونانية. ومع ذلك، في شتاء عام 481 قبل الميلاد، وأيونيا المعطلة لا تزال تحسب التكلفة المدمرة للتمرد، وميليتوس التي صارت قشرة سوداء لعظمتها السابقة، وكانت ناكسوس والجزر الأخرى قد استسلمت قبل عقد من الزمن إلى أسطول داتيس، رحلة ثلاثة جواسيس يونانيين من البيلوبونيز كانت رحلة إلى مياه العدو. وكلما اقتربوا من آسيا، أصبح الأمر أكثر إثارة للقلق. كان الدليل على الحجم المرعب لتحضيرات زركسيس في كل مكان. كان الشتاء يقترب، لكن الممرات البحرية في بحر إيجه كانت مزدحمة بشكل غير عادي. على طول الساحل الأيوني، اكتظت الموانئ بالسفن التي كانت تتدفق هناك من كل ركن من أركان شرق البحر الأبيض المتوسط. وغُمر الإغريق، حتى في ساحاتهم الخلفية. قبل ثلاثة عشر عامًا، في لاد، مُسح آخر أسطول من أيونيا الحرة عن الوجود في البحر. الآن، مع غزو

اليونان نفسها بعد أشهر فقط، عادت الوحدات التي ساهمت بشكل ملحوظ في ذلك النصر الساحق لملك الملوك إلى المياه الأيونية. كان أي يوناني يستطيع التعرف عليهم بقلب يملؤه الهلع. تتمتع السفن النحيفة ثلاثية المجداف، متدلية الدروع، التي يمكن المناورة بها ببراعة، والتي من شأنها أن تشكل صدمة لأسطول زركسيس ذو السمعة المميتة. فقد تم الاعتراف عالميًا بأن البحارة الذين كانوا يديرونه هم الأكثر كفاءة في العالم. "تخومكم"، كما قال نبي يهوذا حزقيال، "في قلب البحر[345]." وكان يخاطب مدينة صور، لكنه ربما كان يتحدث أيضًا إلى جارتها الأكثر ثراءً، مدينة صيدا، أو إلى جبيل (بيبلوس)، أو إلى أي من معاقل التجار العظيمة التي كانت قائمة على الجزر أو بالقرب من الموانئ المزدوجة على طول ساحل البحر الأبيض المتوسط في ما يعرف اليوم بلبنان. ربما كانت كل مدينة مستقلة بفخر عن الاخرى، لكن هذا، بالنسبة للعديد من الغرباء، كان فطنة ضائعة. من المؤكد أن الإغريق جمعوا جميع مواطنيهم معًا كفريق واحد خَؤُون: Phoinikes-الفينيقيون.

هذا الاسم، الذي اشتُقَّ من كلمة " phoinix " اليونانية، التي تعني "أرجواني"، يعكس نفس المزيج من الإعجاب والازدراء الذي يميلون به إلى اعتبار أي شخص يرون أنه يمثل تهديدًا. الإعجاب-لأن الصبغة البنفسجية التي صنعها الفينيقيون من المحار كانت بالتأكيد لون الصفاء والحُظوَة، وهو منتج فاخر مرغوب فيه دوليًا ساعد في ملء خزائن صور وصيدا حتى فاضت. والازدراء-لأنه كم كان مبتذلاً، في النهاية، كم هو مبتذل بشكل لا يمكن إصلاحه، أن يتم تعريفه بواسطة سلعة من البضائع! "يمكن للمرء أن يقول إن حب الربح من الصفات الفينيقية المميزة[346]." هكذا أحب الأرستقراطيون الأثينيون التعبير عن الأمر. ومع ذلك، فإن هذا التوصيف للفينيقيين بصفتهم صاندي نقود مداهنين، و رغم أن التحيز اليوناني التام كما كان ، قد يثير الاستياء كما يثير الازدراء. لم يكن تجار صور وصيدا هم الوحيدون الذين ذاقوا جني الأرباح. كان هناك العديد من اليونانيين الذين شاركوهم في ذلك، والذين استاءوا بشدة من المنافسة التي قدمها لهم الفينيقيون. بغض النظر عن المسافة التي قطعوها، فبغض النظر عن المكان الذي بحثوا فيه عن أسواق جديدة، أو مواد

خام، أو أرضًا لمركز تجاري، كان يبدو دائمًا ان "هؤلاء المتجولون البحريون المشهورون، هؤلاء التجار الأذكياء، الممتلئة عنابر سفنهم السوداء بمخزون من المجوهرات اللامعة[347]" هم من وصل إلى هناك أولاً.

امتد هذا التنافس، الذي امتد إلى قرون، إلى الحدود الخارجية للعالم المعروف. الفينيقيون، ومدنهم محاطة بالجبال تمامًا مثل تلك الموجودة في اليونان، كانوا دائمًا يسلطون أنظارهم على آفاق البحر المفتوحة. منذ 814 قبل الميلاد، قيل إن الأميرة الصورية إليسا، تركت وطنها، قادت مجموعة كبيرة من المستعمرين على طول ساحل شمال إفريقيا حتى وصلت إلى صقلية. أسست هناك "مدينة جديدة"-" كارت-حدشت "، أو قرطاج المقدر لها أن تصبح أكبر مدينة في الغرب. بحلول الوقت الذي بدأ فيه المستعمرون الإوبويون، بعد بضعة عقود، شق طريقهم غربًا، كانت مجسات التجارة الفينيقية قد وصلت بالفعل إلى إسبانيا. وسرعان ما امتدوا إلى أبعد من ذلك، في المحيط الأطلسي ونحو خط الاستواء، إلى الشواطئ التي تحدها الأدغال، حيث كان القرطاجيون يتاجرون مع السكان الأصليين الهادئين: الحلي الرخيصة والمصاغ الزائف مقابل الذهب.

لقد وجد الإغريق، الذين كانوا يستمعون إلى حكايا هؤلاء المسافرين وبريق الحسد في أعينهم، أنفسهم، إلى حد كبير، متأخرين جدًا على الساحة حتى يتمكنوا من اقتحام السوق الأفريقية؛ ومع ذلك، وعلى الرغم من خروجهم من إفريقيا وإسبانيا بسبب تطور الشبكات التجارية لمنافسيهم، فقد اكتشفوا



أيضًا في الغرب حدودًا مليئة بالفرص. على الرغم من أن مستعمرتهم الأولى، في جزيرة إيشيا في خليج نابولي، كانت في البداية تتودد إلى المستثمرين الفينيقيين، إلا أن الشراكة مع العدو القديم لم تأت بشكل طبيعي. بعد فترة وجيزة، وفي جميع أنحاء إيطاليا وصقلية، تحولت إلى مواجهة مفتوحة. مع وصول المزيد من المستوطنين اليونانيين بحثًا عن بداية جديدة، بدأ الوزن الهائل لأعدادهم يخبرنا. لقد جاءوا مرارًا وتكرارًا، من إيبويا ، من كورنث، من ميغارا، من ايونيا. فيضان من الاستعمار البحري، لم يسبق له مثيل في الحجم حتى اكتشاف أمريكا بعد أكثر من ألفي عام. بحلول مطلع القرن الثامن قبل الميلاد، كانت تقام مدينة جديدة في إيطاليا أو صقلية كل عامين تقريبًا. حتى السكان الأصليون بدأوا يتحدثون عن "اليونان العظمى".

بالتأكيد، بحلول الوقت الذي توقف فيه الاستعمار الجماعي أخيرًا في منتصف القرن السادس قبل الميلاد، كان الغرب المتوحش شبه مروض. عاقدين العزم على التغلب على السكان الأصليين حتى لا يستطيعون استعبادهم، تبنى المستعمرون أسلوب التباهي بوعي ذاتي. كل ما فعلوه كان على نطاق هائل: كانت الجدران تلوح في الأفق في عالم الإغريق الجديد أكثر من

العالم القديم: المعابد مترامية الأطراف بشكل أكبر؛ الألوان البراقة اللامعة وأكثر تعددا في الألوان. حتى الملذات التي أخذها الرجال في الغرب اشارات الى الترهيب. في سيباريس، وهي بلدة تقع على مشط القدم[348] في جنوب إيطاليا ومصدر إعجاب مروّع حتى لجيرانها، كان المتأنقون يتمددون بهدوء على أسرة تغطيها بتلات الورد ثم يشكون وسط معاناة من البثور. في الحرب، يكون على خيولهم فقط أن تسمع عازفي الفلوت وهم يزعقون على كتيبة العدو في المعركة حتى تبدأ في التحرك معًا في تزامن مثالي، وممارسة خطوات الرقص. حتى خراب سيباريس، عندما جاء في النهاية، كان مذهلاً. استولى على المدينة تحالف من أعدائها في عام 510 قبل الميلاد، وتم تدميرها ومسحها من على وجه الأرض، ولم يبق منها أي أثر. كان النجاح والفشل في الغرب يضيئهما وهج شنيع وفاحش.

لا عجب أن الحلفاء المجتمعين في هلينيون قد قرروا، حتى عندما أرسلوا جواسيسهم الثلاثة شرقًا، إرسال مهمة في الاتجاه المعاكس أيضًا. قد يكون اليونانيين الغربيين المتحمسون لبتلات الورد والرقص في وقت متأخر من الليل كذلك، لكنهم يمكن أن يكونوا جنودًا مخيفين عندما يسيطر عليهم المزاج. كان طاغية اسمه جيلون، مغامرًا لا يرحم ومفعمًا بالحيوية قد استولى على السلطة في ميناء صقلية الكبير في سيراكيوز قبل أربع سنوات، بدا مؤهلًا بشكل خاص للعب دور منقذ اليونان. كانت أوراق اعتماده كرجل مهام مثيرة للإعجاب لدرجة أنها كانت مقلقة. فهو بالفعل، وبدلاً من أن يفعل كالآشوريون، قد أباد ثلاث مدن مجاورة، وزرع سكانها في سيراكيوز بدل بيعهم كعبيد، وجهز الأساطيل والجيوش على نطاق شرقي تقريبًا. باختصار، قد يبدو أن هذا النوع من النزعة العسكرية يعد بالكثير ضد ملك الملوك.

باستثناء أنه كانت هناك، في نفس الشتاء من عام 481 قبل الميلاد، ظلت أزمة تلوح في الأفق على سيراكيوز أيضًا. وجد جيلون نفسه، وهو يقتحم ويتبجح أكثر باتجاه الغرب في محاولة لتوسيع هيمنته على صقلية بأكملها، في صدام مع كتلة قوة منافسة على الجانب الآخر من الجزيرة، واحدة تتألف إلى حد كبير من المستوطنات الفينيقية. هؤلاء، الذين كانوا يبحثون عن حليف محموم، طلبوا المساعدة، كما كان طبيعيًا، من أقوى مستوطنة فينيقية على

الإطلاق: مدينة قرطاج. هناك، كان الأمراء التجار المهرة والمحاسبين الذين اداروا شؤونها يراقبون تقدم جيلون بقلق متزايد. تم الترحيب بأقاربهم من صقلية بأذرع مفتوحة: فرصة الإطاحة بطاغية سيراكيوز المزعج مع الانغماس في نفس الوقت في بعض التوسعية الخاصة بهم كانت جيدة جدًا بحيث لا يمكن تركها. خلال خريف 481 قبل الميلاد، حتى عندما كانت السفن ثلاثية المجاديف في صور وصيدا تنزلق شمالًا إلى بحر إيجه، بدأ القرطاجيون بتجهيز أسطول وتجنيد جيش مخيف من المرتزقة، استعدادًا لمواجهة مع جيلون في الربيع. بدا أن الفينيقيين كانوا يحتشدون في الغرب والشرق. وفي الغرب والشرق، كان اليونانيون هم من يتحملون وطأة اندفاعهم للحرب.

صدفة؟ لا أحد في اليونان يمكن أن يكون متأكدا تماما. لم يكن لدى الجواسيس الذين أرسلوا إلى ساردس، على الرغم من كل ما قد يكونون قادرين عليه من التجول في بعض الموانئ في طريقهم، أدنى أمل في تعقب الاتصالات-حتى لو كانت موجودة-بين القرطاجيين وملك الملوك. ومع ذلك، فإن الشك في المدى الطويل للمكر الفينيقي جاء بشكل طبيعي إلى معظم اليونانيين. في النهاية، إذا كانت القيادة العليا القرطاجية بالفعل على اتصال مع زركسيس، في محاولة لمزامنة غزواتهما المزدوجة، فإن المشتبه بهم الأكثر احتمالية كوسطاء كانوا عملاء من مدينة صور الأم. ومع ذلك، أعرب بعض منظري المؤامرة عن قلقهم من أنه حتى هذا قد لا يكون حداً للخبث الفينيقي. ماذا لو كانت الرحلة الاستكشافية الكاملة لملك الملوك، وحشد جحافل آسيا، وإبادة الحرية اليونانية التي هددتها، مجرد ذروة لعداء أبدي أكثر قدمًا وترسخاً؟ "الفرس يعرفون"، سيتم التأكيد عليها بثقة جريئة بعد الحرب، "إلقاء اللوم في الخلاف على الفينيقيين بشكل مباشر".[349] -الكراهية بين الشرق والغرب، آسيا وأوروبا، البربرية واليونانية: كلها، حسب هذه النظرية، مشتقة من مصدر واحد غادر.

لقد كان جنون العظمة ممتداً إلى أقصى الحدود. بالطبع، تخيل زركسيس مجرد أداة لمؤامرة عالمية شيطانية تم تدبيرها من مدينة صور. فلم يخض ملك الملوك حربًا نيابةً عن أحد باستثناء نفسه. والفينيقيون، مثلهم مثل أي شعب آخر، كانوا عبيدًا له. واضطروا إلى دفع الجزية له، واستضافة المرزبان

وحتى، عندما أبحروا للحرب، خضعوا لسلطة حاكم فارسي أخرق. لكن هذا لا يعني أن الفينيقيين كانوا يفتقرون إلى أي نفوذ مع القيادة الإمبراطورية العليا. وبصرف النظر عن الميديين، ربما لم تكن هناك مجموعة من الناس في كامل مدى سيطرة الفرس تتمتع مثلهم بسهولة الوصول إلى الأذن الملكية. كان ملوك صور وصيدا يدركون تمامًا أن رحلة الملك العظيم ستغرق في الماء دون المشاركة الحماسية من أساطيلهم. لذا كان الحال دائما كذلك. عندما أسس قمبيز البحرية الإمبراطورية، سرعان ما اكتشف حدود ما يمكن أن يحققه من خلال لعبته الجديدة. عندما طلب قوة ضاربة مجهزة لغزو قرطاج، اندهش عندما رفض الفينيقيون خططه، "على أساس أنه سيكون عملًا غير طبيعي بالنسبة لهم الدخول في حرب مع أبنائهم[350]." كان الدرس المستفاد من هذا العرض المذهل لإهانة الذات الملكية أحد الدروس التي سارع الاستراتيجيون الفارسيون إلى استيعابها. ففي حين أنه يمكن جر جيوش الدول الأخرى الخاضعة إلى الحرب، كان من الحكمة التعامل مع الفينيقيين بطريقة أكثر دبلوماسية. وعلى الرغم من أنهم كانوا عبيدًا، فقد يكون من غير المفيد أحيانًا ارغامهم بوحشية في الحقيقة. ومن الأفضل جعلهم يبحرون ليس فقط كمجندين بل كمؤيدين متحمسين لقضية ملك الملوك. ومن الأفضل، باختصار، جعلهم يعتقدون أن مصالحهم الخاصة كانت أيضًا على المحك.

وبالطبع في مشروع الهجوم على اليونان، كانوا كذلك بالتأكيد. الفينيقيون، الذين قدموا للفرس الجزء الأكبر من أسطولهم في ليد، قد استفادوا بالفعل بشكل كبير من تدمير ميليتوس-وهي مدينة كانت ذات يوم مركزًا تجاريًا مثل صيدا أو صور. ولو تمت تسوية أثينا بطريقة مماثلة، وتأمين تحييد كورينث وإيجينا، فإن آفاق الأعمال الفينيقية ستتألق بشكل واعد بالفعل. ونتيجة لذلك، كان الحماس لحرب الملك العظيم عند محاصري صور وصيدا حماساً غير محدود. أحضر الفينيقيون ثلاثمائة سفينة معهم إلى بحر إيجة: أكثر من أسطول أثينا بأكمله. ولم يتم توزيعها معًا في عجلة: صيدا، التي تنافست مع كورينث على لقب مسقط رأس السفينة ثلاثية المجاديف، كانت في طليعة الابتكار البحري لعدة قرون. سيجد المجدفون الأثينيون، في كثير من

الأحيان مع التدريب لبضعة أشهر فقط، أنفسهم، في أول تذوق حقيقي للمعركة، يتنافسون مع الأفضل.

اقل عددًا بشكل رهيب أيضًا. لم يكن الفينيقيون هم الوحيدون الذين أرسلوا أسطولًا استجابة لاستدعاء الملك العظيم. كان البعض، ولا سيما المصريون والأيونيون، مساوين تقريبًا للصيدونيين بمجداف. صحيح أن كلاهما جاء من مرزبات لها سجل حافل بالتمرد. وربما، أثناء تجسسهم على طول واجهة المرفأ، وجد العملاء اليونانيون الثلاثة بعض الأمل في هذه الحقيقة. إذا كان الأمر كذلك، فقد كانوا كمن يتعلق بقشة. الأميرالية الفارسية، بعد أن كانت قد غفت في الأيام الأولى للثورة الأيونية، عرفت الآن ان الأفضل عدم إهمال ظهرها. تم وضع قيادة المصريين والأيونيين مباشرة في يدي اثنان من إخوة زركسيس، وكانت كل سفينة في الأسطول مأهولة بمشاة البحرية الذين ثبت ولاءهم. لماذا، إذن، قد يخاطر أي شخص في أسطول الملك العظيم بالتمرد والقضاء على نفسه من أجل الأثينيين، الذين من الواضح أنهم محكوم عليهم على أي حال؟ لم يكن لدى أي شخص منهمك في موانئ إيونيا في ذلك الشتاء الكثير من الشك حول هذه النتيجة. سيبدأ أسطول الماموث قريبًا في تمشيط ساحل بحر إيجة بطوله، وكان من المحتم تدمير كل من يقف في طريقه. ركب الجواسيس اليونانيون في 1207 زوارق ثلاثية المجاديف: رقم له دقة موحية[351]. ما إذا كان كل هذا العدد الهائل سيشرع في اليونان، وإذا فعل ذلك، ما إذا كانت جميعًا ستنجو من عواصف الصيف سالمة، كانت الأسئلة التي لن تجيب عليها سوى الحملة القادمة. لكن الاحتمالات، حتى لو خسر الملك العظيم ربع أسطوله، حتى لو فقد نصفه، ستظل بعيدة عن التوازن. كانت إحدى الحقائق البسيطة والقاسية، بالنسبة للجواسيس اليونانيين، واضحة بشكل خطير. سيواجه الحلفاء، في الصيف، قوة أكبر من أي قوة شوهدت في البحر.

وعن طريق البر؟ فقط زيارة ساردس يمكن أن تجيب على هذا السؤال. سارع العملاء اليونانيون. بحلول اليوم الثالث من سفرهم من الساحل، استطاعوا أن يروا أمامهم، حاجبا الجبال الفضية التي لاحت في الأفق إلى الشرق، سحب الدخان المشؤوم. وسرعان ما اقتربوا من وجهتهم، وشرعوا

يتبينون هضبة كبيرة من الأرض، هي مقبرة ملوك الليديين القدامى؛ ثم، من خلال الضباب، لاحت ساردس نفسها، المنحدرات الحمراء للأكروبوليس المحاطة بجدران شديدة الانحدار ويعلوها قصر كرويسيوس الضخم. أما الرايات التي رفعت فوق أسوار المدينة، فقد زينت إحداها بـ "صورة للشمس محاطة بالكريستال"، والأخرى، سنجق المعركة الملكي، مطرزاً بصورة نسر ذهبي[352]، كانت لملك أقوى بكثير مما كان عليه كرويسيوس في أي وقت مضى؛ والدليل على عظمته، هناك أمام نظرة العملاء المذهولة، الممتدة لأميال بعيدة عبر السهل. كان الدخان الذي رأوه من مسافة بعيدة يتصاعد من نيران المخيمات: الآلاف والآلاف منهم. سواء كانوا محتشدين في الخيام، أو يتدربون بأسلحتهم الغريبة أو يتدربون بألسنتهم التي لا يمكن اختراقها، بدا أن جموع جيش الملك العظيم مستوحاة من عالم غريب وأكثر همجية مما كان معظم اليونانيين يهتمون بتخيله. بدت جميع نذور الشؤم المرعبة للجواسيس قد تحققت. وقد أفرغت أقصى مناطق آسيا وأفريقيا نفسها. الملايين والملايين سوف يتدفقون، في غضون أشهر قليلة، نحو اليونان.

أو هكذا بدا الأمر. في الحقيقة، لم يكن إحصاء-أو حتى تقدير-مثل هذه الجحافل الوحشية أمرًا سهلاً. والجواسيس، قبل أن يتمكنوا حتى من بدء حساباتهم، تم الكشف عنهم واعتقالهم. الرجال الذين اعتقلوهم كانوا جنودًا وليسوا ضباط مخابرات، لذا لم يخطر ببالهم أبدًا الا تعذيب أسراهم ثم إعدامهم. عندما كان حكم الإعدام على وشك التنفيذ، جاء قباطنة من الحارس الشخصي للملك العظيم مسرعين، وأمروا بشكل محموم بضرورة إنقاذ السجناء. وجد الجواسيس الثلاثة أنفسهم، عند اقتحام الأكروبوليس في الأعماق الداخلية للقصر، لدهشتهم، حيث استجوبهم شخصيًا الملك العظيم نفسه، ثم اصطحبهم في جولة كاملة في المعسكر الإمبراطوري. وحالما تم تحميلهم بملاحظات وفيرة، إرسلوا أخيرًا إلى اليونان.

التقارير التي أخذوها معهم، تمامًا كما قصد الملك العظيم، لم يتم التعامل معها إلا في صيغ التفضيل المرعبة. ما عرضه الجواسيس لم يكن سوى صورة بانورامية لسيطرته التي تغطي العالم. الملك العظيم نفسه وفرقه من

الحراس الشخصيين في قلبه: الألف الذين حضروا إليه شخصيًا وحملوا تفاحًا ذهبيًا على أعقاب رمحهم، ثم تسعة آلاف آخرين، تم قطفهم يدويًا، وتفاح فضي على رماحهم. قوة صادمة من المحاربين المعروفين جميعا باسم "الخالدون"-"لأنه إذا قُتل أحدهم أو مرض، فإن البديل سيتقدم على الفور لملء الفراغ في الصفوف[353]". ثم فرق النخبة من سلاح الفرسان، من بلاد فارس ودول خاضعة مختلفة: ميديا، باكتريا، الهند، سهول الساكا. أخيرًا- لان الملك العظيم كان يفتقر إلى سلاح المشاة الثقيل المناسب ضد جنود الهوبليت المكسوين بالبرونز في اسبرطة أو أثينا-ألوية تعج بحملة الرماح: حشود مسلحة بشكل غريب قد لا تظهر، في ظل الظروف العادية، لمراقب يوناني مثل أي شيء آخر غير أعداء محتقرون. لكنهم، وهم يتقدمون في سيل كبير من البشر، قد يُتوقع منهم أن يزيلوا أي جدار درع يقف في طريقهم. كان هذا، على أي حال، هو ما تم الإبلاغ عنه في اليونان-بالنسبة للجواسيس الثلاثة، الذين اعتمدوا على تقديراتهم المبهرة لأعداد قوات الملك العظيم، ولا شك في السجلات التي قدمها مساعدوهم الفارسيون بشكل مفيد، وجدوا أنفسهم بالفعل يتحدثون من حيث الملايين. مليون وسبعمائة ألف على وجه الدقة-وحتى هذا المجموع لم يأخذ في الاعتبار الجنود التي كان الملك العظيم يخطط لتجنيدهم أثناء تقدمه عبر تراقيا وإلى اليونان.

مثل هذه الأرقام، التي كانت هائلة لدرجة أنها لا معنى لها تقريبًا، كانت بالتأكيد مبالغة بشعة. معظم المؤرخين، الذين أجبروا على إجراء تقدير، سيقدرون الجيش الذي تحت قيادة زركسيس بما يقارب25000 [354]. ومع ذلك، تُرجم هذا إلى قوة غزو أكبر من أي قوة تم تجميعها سابقًا؛ ولم يكن مفاجئًا أن تكون آلة الدعاية الفارسية، التي تتطلع إلى إثارة اليأس لدى اليونانيين وربما حتى استسلامهم التام، تضخ عملاءهم حتى الملء بالمعلومات المضللة. ربما كانت القوائم الأكثر حيلة إحصائية، من النوع الذي يمكن للبيروقراطية الموهوبة أن تنطلق منه في نومها؛ لكنهم لم يكونوا-حسب طريقة تفكير الملك العظيم-بأي حال من الأحوال-احتيالًا تامًا. وبدلاً من ذلك، في الرسالة التي أعلنوا عنها-أن العالم بأسره وقف متحداً تحت رايته، وأن الدول الإرهابية

الأكثر عنايةً هي وحدها التي يمكن أن تفترض أنها تتحدى ذلك-قد عبروا عن الحقيقة البسيطة.

والحقيقة هي ما جلس زركسيس على عرشه للدفاع عنه. على الرغم من أن اعتبارات الجغرافيا السياسية قد أثرت عليه بشدة، والشعور بالواجب تجاه والده، والطموح الشخصي، إلا أنه كان من المقرر حرق أثينا، وغزو اليونان، لسبب أعمق من أي من هؤلاء. "كل ما أفعله، أفعله لصالح أهورا مازدا." لذلك سر زركسيس أن ينادي كما سر داريوس قبله. "عندما تكون هناك مهمة يجب القيام بها، فإن أهورا مازدا هو الذي يقدم لي المساعدة، حتى يتم الانتهاء من هذه المهمة[355]." اما الجيش الإمبراطوري، فحينما شرع في التحدي الأعظم لحكم سيده، تشبث بهالة من الإلهية. كان من المقرر أن يُنظر إلى اله النور على أنه حاضر دائما في الحملة. بالطبع، لا يمكن تمثيل أهورا مازدا كما اختار الآخرون تصوير آلهتهم، في شكل معبود مبتذل أو صورة مرسومة؛ ومع ذلك، كان الغياب، والتحوط من الغموض والمخيف، نافعا بدل ذلك. لذا كان على عربة حربية مزينة بشكل رائع، يقودها سائق عربة يتبعها سيرًا على الأقدام، مرافقة الجيش إلى اليونان، فارغة تمامًا-"لأنه لا وجود للرجل الذي قد يأخذ مكانه على عرش تلك العربة[356]". ولجرها، جُلبت ثمانية خيول بيضاء، ذات حجم رائع وجمال، خصيصًا إلى ساردس. وكان على آخرون، عندما غادر الجيش إلى اليونان، يقودوا عبر الطريق؛ كان لا يزال على الآخرين سحب عربة زركسيس بنفسه. هذه المخلوقات، كما كان مناسباً فقط، باركها المقدس -لأنها أتت من سهل نيسيا. هناك، في ذلك اليوم الأول المشؤوم من حكم داريوس، عندما خرج قاتل المجوس الكاذب من حصن سيكيافوتيش حاملاً خنجره النازف عالياً ليبلغ بلاد فارس وجميع سيادتها بتطهيرها من الباطل، كانت الخيول البيضاء تصهل لتحيته. الآن، بعيدًا عن نيسيا، كانت الخيول من نفس السلالة، التي تجر عربة ابن داريوس، تشهد على اصرار أثينا المليئة بالشياطين، وكل اليونان معها، على الحقيقة.

لأن زركسيس كان قد نشأ على الاعتقاد، بإن العالم امامه كي يغزوه، كما كان عليه أيضًا إصلاحه. كان بستانيا حريصًا، ويعرف أن البستان، قبل أن

يمكن اعتبارها مكتملا، يجب أولاً إزالة الأعشاب الضارة وترتيبه وتجميله. بشكل ملحوظ، حتى الشروع في حملة دمار وحشية، لم يتركه حب زركسيس للعالم الطبيعي وعينه لأمجادها. بالقرب من ساردس، على سبيل المثال، صادف شجرة دلب ذات جمال فائق لدرجة أنه أوقف مسيرة جيشه بأكملها بإعجاب. حتى أن أحد الخالدين تم فصله عن المجموعة وأمر بالعمل كحارس لها. تم تزيين فروعها الممتدة بالمجوهرات الذهبية التي تم إحضارها من الكنز المتنقل للبعثة. من المؤكد أن الملك العظيم أخذ-لكنه اعطى أيضًا.

وليس فقط للأشجار. فزركسيس، الذي كان يرعى الحديقة التي كانت عالم إمبراطوريته الهائلة، كان مسرورًا بالخدام الذين خدموه بإخلاص، وغمرهم تمامًا كما غمر شجرة الدلب، بمكافآت سخية. "أي أردية يمكن أن تقارن في الجمال بتلك التي يوزعها الملك على أصدقائه؟ وهداياه-سواء أكانت أساورًا أم عقودًا أم خيولًا بألجمة مرصعة بالذهب؟ المميزة إلى أقصى حد[357]" وفي حين أن بعثة زركسيس المتجهة إلى أوروبا كانت تهدف بالتأكيد إلى إظهار حماقة الاستهزاء بخدمة الملك العظيم، إلا أنها كانت لها أيضًا نية اكثر سلمية. قد تتمتع المرزبانيات البعيدة، التي كانت حتى ذلك الحين تنكر بقسوة الوجود الملكي، بالامتياز الأسمى المتمثل في تكريم ملك الملوك شخصيًا. فرعاياه، بينما كان يتجول في مدنهم، كانوا يصطفون على الطرقات، ويرمون الزهور أمام حوافر الخيول النيسية، ويسجدون على الارض؛ الحاشية، في أعقاب سيدهم، يجمعون الهدايا والالتماسات؛ والحراس، الذين يجلدون الحشود الصارخة الباكية بالسياط، سيضمنون أنهم يحتفظون، حتى في نشوتهم، بالشعور بمكانهم الصحيح. بطبيعة الحال، لم يكن هناك أي شيء يمكن لأي من رعايا الملك العظيم، سواء كانوا فلاحين أو أثرياء، أن يقدموه لسيدهم والذي لم يكن ملكه بالفعل؛ لكن زركسيس، الذي يضيء ضوء فضله الملكي على أولئك الذين يقدمون أنفسهم بتواضع، قد يكون جواداً وكريماً. "بسخاء"، قال متفاخراً، "أنا أكافئ كل الذين يحسنون لي[358]." حتى الاغريق، إذا خضعوا فقط لجلالة الملك العظيم، فقد يأملون في الفوز، كما كان لدى ديماراتوس بالفعل، تكريمات

وهدايا باهظة. كان هذا، في جوهره، هو تكافل الملكية العالمية. فحتى زركسيس كان عليه أن يزرع ويحصد.

وهو ما لا ينفي أن الأزهار، من أجل مصلحة الحديقة، قد تحتاج في بعض الأحيان إلى التقليم. لكن يمكن للخدم، على عكس النباتات، أن يمارسوا الوقاحة في بعض الأحيان. زركسيس، قبل فترة وجيزة من عبوره لشجرة الدلب التي أذهله بجمالها، قد استمتع مع بايثيس، الليدي المشهور بأنه أغنى الناس في العالم. قبل حوالي ثلاثين عامًا، كان هذا الثري نفسه، الذي يتأثر بأذواق أسياده الفرس، قد قدم لداريوس شجرة دلب مصنوعة من الذهب. الآن، في تحية لزركسيس، لم يقم فقط بإطعام جيش الملك العظيم بأكمله، بل تعهد بتمويله. ومع ذلك، كان زركسيس يرفض هذا العرض بمرح. طوال ذلك الشتاء، وقف بايثيس وأبناؤه الخمسة عالياً في صالح الملك. بايثيس نفسه كان قد أغدق عليه بالهدايا؛ ضمن كل أبنائه مناصب عسكرية بارزة ثم، مع قدوم الربيع إلى ساردس، حان الوقت أخيراً لزركسيس وقوته الضاربة للانطلاق في مشروعهم العظيم، كان هناك ذعر مفاجئ. كان الكسوف، الذي طمس الشمس، قد ألقى بالعالم في الظل. على الرغم من أن المجوس سارعوا إلى طمأنة سيدهم القلق أن هذا لم يكن ينذر بخراب بعثته الاستكشافية بل بخراب الإغريق المتمردين، إلا أن ساردس ظلت تعاني من الشعور بالخطر. كان بايثيس المسن، "منزعج من العلامة الآتية من السماء[359]" مثل أي شخص آخر، حتى أنه ذهب إلى حد التوسل إلى الملك العظيم كي يُعفى ابنه الأكبر من الذهاب إلى اليونان. وهذا خطأ فادح قاتل. في الوقت الذي كان فيه زركسيس نفسه يستعد لركوب الخطر مع جميع "أبنائه وإخوته وأقاربه وأصدقائه[360]". لم يكن من الممكن تخيل طلب مشين أكثر من هذا. في حين أن الملك العظيم، الذي يخلط الرحمة بالإملاءات الصارمة للعدالة، قام بطريقة ما بجعل نفسه يتجنب انهاء حياة اثيره السابق، كان من الواضح أنه من غير الوارد العفو عن وقاحة هذا الليدي تمامًا. فقُبض على ابن بايثيس البكر الغالي وقتل ونُشر الى نصفين. بعد ذلك، مع حشد الجيش للسير شمالًا باتجاه هيلسبونت، تم عرض نصفي الجثة على جانبي

طريق ساردس السريع. "وأخذ الجيش، بكل من فيه يتنقل بين نصفي جسد الشاب، ويشرع في تقدمه"[361].

ربما لم يكن هذا وداعا مبتهجا. في الواقع، وفي حين كان قربان الدم هذا مروّعًا بالتأكيد، ومبالغا فيه في ذات الوقت، إلا أنه نقل إلى الحشود الجامحة التي مرت بينه رسالة طمأنة قوية. كانت مطالب الطقوس وكذلك العدالة قد أدانت ابن بايثيس . كانت التضحية بحياة الإنسان فعلًا يحمل سحرًا مخيفًا، وهو السحر الذي تجرأ زركسيس على تسخيره، آملاً في تطهير جيشه. الملك العظيم نفسه، الواثق من حكم المجوس بأن الكسوف كان نذيرًا إيجابيًا، كان لديه شكوكه الخاصة فيما إذا كان هناك في الواقع أي شر يحتاج إلى إبعاده؛ لكنه كان يعلم أيضًا، مع ساردس التي يسكنها الظل، أنه من الأفضل فعل الأشياء بأمان. وبالتأكيد، بينما كانت قواته تستعد للمغامرة في براري قارة جديدة، كان بإمكانهم فعل ذلك واثقين من أنه لا يوجد شيء لن يقبله سيدهم الملكي في سعيه لتحقيق النصر.

كما أنه، مع اقتراب الملك العظيم من أوروبا، لم يتجاهل اللعب بخرافات أعدائه. ربما كان مخلصًا في عبادة أهورا مازدا-ومع ذلك كان لدى زركسيس العبقرية الفارسية التقليدية في تحويل المشاعر الدينية للشعوب الغربية لصالحه. لهذا السبب، بعد أن اقترب من هيلسبونت، انتهز الفرصة لفرملة رحلته واستكشاف موقع كان سيبدو بالنسبة له مجرد سلسلة من النتوءات المغطاة بالعشب، ولكنه بالنسبة لليونانيين كان يعني أكثر من ذلك بلا حدود: طروادة. من خلال أمر المجوس بصب الإراقة على الموقع، كان زركسيس يطالب بوعي ذاتي بالدور الذي منحه إياه الإغريق بالفعل في رعبهم: دور العدو في المذبحة التي ارتكبها أغاممنون. كان الانتقام، نيابة عن كل رجال آسيا الذين ذُبحوا في تراب طروادة، كان ملك الملك. تمامًا كما فعلت طروادة ذات مرة، كانت أثينا واسبرطة ستحترقان قريبًا.

بعد ذلك، مع همس البيسيستراتيين بتشجيعات مفيدة من الجانب بلا شك، تم دفع ألف ثور إلى أعلى التل، وتم التضحية بالمجموعة بأكملها على القمة كقربان لأثينا. هذا، نظرًا لأن الإلهة كانت دائمًا مشهورة باحتقارها

للطروادين، فقد يُعتقد أنها لفتة شريرة-باستثناء أن زركسيس، من خلال إظهار احترامه لحامية أثينا بإسراف، كان يرسل للأثينيين رسالة عامة جدًا. لم تكن أثينا التي كانت تعبد في مدينتهم أولمبية، بل كانت شيطانًا اتخذ شكلها، واحدة من الدايفا، خادمة للباطل. لم يكن ملك الملوك، على الرغم من أنه سيحرق الأكروبوليس، عدوًا للإلهة الحقيقية، التي سيعاد عبادتها برفقة البيسيستراتيين قريبًا. فقط وأثينا تحت الحكم الفارسي يمكن أن تعود أثينا إلى منزلها القديم-وكانت تلك اللحظة، في ربيع 480 قبل الميلاد، تصبح أكثر اقترابا من أي وقت مضى.

بالنسبة للملك العظيم، من قمة طروادة، تمكن أخيرًا من رؤية ما وراء السهل الذي حارب فيه الكثير من اليونانيين والطرواديين وماتوا، التألق المشؤوم لجبل هيلسبونت. علاوة على ذلك على طول المضيق، حيث كانت آسيا وأوروبا مفصولة عن بعضها البعض بالكاد على بعد ميلين من البحر، كان هناك جسرين عائمين في انتظاره، وكابلات ضخمة تربط القارتين معًا، وهي دليل ضد التيارات وهيجان الرياح. في ذلك الشتاء، كان صحيحًا، أن عاصفة شرسة بشكل خاص قد اجتاحت النموذجين الأوليين للبونتون العائمة، لكن القيادة الفارسية العليا، بعد أن قطعت رأس بعض المهندسين لتحذير الآخرين، ومع وجود الكثير من السفن والقوى العاملة لتجنيها، سرعان ما نجحت.

الإصلاحات. حتى هيلسبونت بدا وكأنه تعلم كيف يتصرف بنفسه: بعض اللمسات الرمزية للسوط، مجموعة من الأغلال اسقطت في مياهه، وصار البحر مسالمًا منذ ذلك الحين. الآن، عندما نزل زركسيس من تل طروادة المغطى بالعشب، كان كل شيء جاهزًا له: احتشد جيشه على طول شواطئ وسهول أبيدوس، المدينة الأقرب إلى الجسر؛ أسطوله، ينزلق في المضيق، يشق الأسماك بمجاديف نابضة. قام السكان المحليون، بعد أن قاموا بقياس نوع الهدية الترحيبية التي قد تكون مقبولة لعاهل العالم بشكل صحيح، بنصب عرش من الرخام الأبيض على نتوء يطل على المشهد المذهل. عندما وصل، جلس الملك العظيم على النحو الواجب ليعجب بالمنظر.

"ومن حيث جلس، وهو يحدق عبر الخليج، كان بإمكانه الاستمتاع بمشهد جيشه وقواته البحرية في عملية اكتساح واحدة... وعندما رأى كل هيلسبونت مغطاة بالسفن، وكل شواطئ وسهول أبيدوس مليئة بالرجال، اعتبر زركسيس نفسه مباركًا حقًا[362] ". كان العالم كله أمامه: مشهد للسيطرة العالمية الصريحة التي لم يسبق أن قام بمثلها ملك من قبل. ومن التخويف أيضًا. ربما كانت الروعة متوهجة ومسرحية بوعي في حشدها للجنود من جميع أنحاء العالم، لكن المسيرة، تحت هرجها، كشفت عن أسنان مخيفة. الملك العظيم، الذي كان يشعر بالقلق حتى وسط نشوة اللحظة من إظهار حماسه للجودة والكمية على حد سواء، أرسل رسلًا إلى مختلف الفرق البحرية، وأصدر تعليماتهم لإثبات كفاءتهم في مباراة التجديف. مرة واحدة فقط تم تنظيم سباق القوارب-وفاز الصيدونيون به حتماً-فأصدر قرارًا ببدء الاستعدادات للعبور.

طوال فترة بعد الظهر، أخذوا، طوال المساء، طوال الليل. أخيرًا، مع برق الأفق على يمينهم، أخذ الخالدون، وهم يرتدون أكاليل الزهور في شعرهم ويمسكون رماحهم رأسًا على عقب، يتجمعون في تشكيل متسلسل بجانب الجسر الشرقي، بينما بعيدًا، عن الآخر، ينجرف صوت حيوانات الجر، نهيق الحمير ورغاء الإبل. وفوقهم جميعاً من المجامر المتوهجة تصاعدت عطور البخور لتلاقي الفجر. سار ملك الملوك نفسه، متجاوزًا الخالدين، وداس على أغصان الآس، إلى حافة الجسر. الآن، وراء المضائق، كانت الصورة الظلية لأوروبا تزداد وضوحًا كل دقيقة-حتى، من الشرق، لمس أول شعاع من ضوء الشمس في هيلسبونت، وزركسيس، سكب النبيذ من كأس ذهبي في البحر، ورفع صلاة الدعاء للسماء من أجل نجاح مشروعه العظيم. عندما انتهى، أسقط الكأس في التيارات السوداء، ثم وعاء ذهبي، وأخيراً سيفاً. انتهى الحفل. يمكن أن يبدأ المعبر. ولامست الشمس صفوف الخالدين وهم يتقدمون على الجسر الصرير، أمسكت بالتفاح الذهبي والفضي على رماحهم، بحيث بدوا، وهم يتقدمون، على أنهم نقاط ضوء متحركة[363].

سبعة أيام فقط استغرق الأمر القوة الضاربة للعبور من آسيا إلى أوروبا. عبر الجيش العائم الشرقي. الأمتعة القطارات الغربية. لا أحد يعرف على وجه اليقين متى ركب زركسيس نفسه على الجسر: قال البعض إنه كان في اليوم الثاني: آخرون أنه كان آخر رجل يعبر. ومع ذلك، ما هو مؤكد هو أن الرحلة الاستكشافية وصلت إلى هيلسبونت دون وقوع أي حادث-وأن الإنجاز، بالنسبة لأولئك الذين شهدوه، بدا وكأنه عمل رجل أكثر منه عمل إله. "لماذا، يا زيوس"، قيل إن أحد السكان المحليين صرخ، وهو يشاهد ملك الملوك وهو يتجول، "هل تكبدت عناء التنكر في صورة انسان من بلاد فارس، ومنحت نفسك اسم زركسيس، ودعوت العالم ليتبعك، كل ذلك لغرض إبادة اليونان؟ بالتأكيد هذا شيئ كان من الممكن أن تفعله بمفردك[364]!"

رسم خط

في نفس الوقت تقريبًا الذي كان فيه زركسيس يغادر ساردس، كان وفد من اسبرطة يتجه شمالًا لحضور مؤتمر الحلفاء في البرزخ. كان يمكن أن يكون مزاجها أقل بهجة من مزاج الملك العظيم. يميل الاسبرطيون إلى أن يكونوا مسافرين سيئين في أفضل الأوقات، ولم يكن ربيع 480 قبل الميلاد بالتأكيد أفضل الأوقات. ربما كان يُعتقد أن الأخبار التي قدمها ما يقرب من مليوني بربري لمدينتهم كانت واقعية بدرجة كافية. ومع ذلك، لا يمكن حتى للمخاوف النهائية من الغزو أن تطغى تمامًا على مصدر الاسبرطيون الأكثر تقليدية للارتياب. مشاكسون وقرويون في مخاوفهم كما كل شيء اخر ظل خوفهم الأعظم، كما كان دائمًا، هو التمرد في فناءهم الخلفي. كان من الممكن الاعتماد على الهيلوتيين، الذين ظلوا جاهلين بأي شيء يتجاوز الحقائق الغاشمة لعبوديتهم، على أنهم سمعوا القليل، حتى بحلول ذلك الربيع، عن مقدم الملك العظيم؛ لكن قلة من الآخرين كانوا غافلين بالمثل. في المدن التي كانت تابعة لإسبرطة لفترة طويلة، والتي كانت مستاءة منها، كان احتمال مبادلة قوة عظمى محلية بأخرى عالمية يدفع إلى إجراء حسابات فسيحة الأفق. حتى في طريقه إلى كورنثوس، كان الوفد الأسبرطي إلى المؤتمر في البرزخ قد اجتاز المدن التي ترددت شائعات قاتمة بأنها مليئة بالوسطاء. واحدة من هذه، داخل الحدود مع تيجيا، كانت كاريا -وهي

بلدة مرتبطة ارتباطًا وثيقًا ببقية لاكاديمون لدرجة أن الفتيات من اسبرطة يسافرن بانتظام إلى هناك للرقص. أظهرت تيجيا نفسها، في السنوات الأخيرة، أيضًا بنزعة مقلقة نحو العصيان-حتى أنها ذهبت إلى حد الانغماس في بعض الأحيان في "الخلافات المفتوحة مع اسبرطة[365]". ومع ذلك، كانت هذه مجرد نقاط قلق مقارنة بالمدينة التي ظلت ألد أعداء اسبرطة وأكثرهم تسميمًا، ربما، منذ المذبحة في سيبيا، لكنها ما زالت متعطشة للانتقام وما رأت أنه حقها المكتسب القديم: الهيمنة على البيلوبونيز. لم يكن من الممكن أن يمتنع المندوبون الاسبرطيون، وهم يتجهون شمالًا إلى كورينث، عن إلقاء نظرة جانبية مضطربة في اتجاه أرغوس.

من المسلم به أن الارغوسيين، الذين كانوا يلعبون بصعوبة، لم يلتزموا علانية بعد بقضية الملك العظيم. كما لم يكن الأسبرطيون مدركين بشكل مؤلم للغاية، لم تعهدوا بأنفسهم للحلفاء. عندما دعاهم ممثلو اسبرطة، الذين وصلوا إلى أرغوس في ذلك الشتاء، للقيام بذلك، استجاب الارغوسيين بما يعرفون أنه مطالب مستحيلة: هدنة لمدة ثلاثين عامًا وحصة من القيادة. وانهارت المفاوضات على الفور. تم تحذير السفراء الاسبرطيين، الذين ساروا بقوة إلى الحدود، من أن أي تكرار لمهمتهم سيتم تفسيره على أنه عمل عدائي. "بدلاً من التنازل عن شبر واحد لهم، فضل الارغوسيين دون تحفظ ان يحكمهم البرابرة[366]."

بدا بيان الحياد للأسبرطيين، متوعدا تمامًا مثلما كان مهدداً. حتى قبل المؤتمر الأول للحلفاء في هلينيون، كانوا يشتبهون في أسوأ ما في ارغوس-ولسبب وجيه. ففي حين أن الارغوسيين، في تبرير لوقوفهم السيئ على الحد الفاصل، يمكن أن يلوحوا بتحذير من دلفي العرافة كان ينصحهم "بالاعتناء بأنفسكم وإبقاء حرابكم غير مشرعة[367]،" كان الأسبرطيون، "في أولى عمليات اندلاع الحرب"، قد تقدموا أيضًا بطلب للحصول على تنبؤ بعيد المدى من أبولو. جلب البيثيون، العائدون من العرافة، الى أسيادهم الملكيين، ليونايدس وليوتشيديس، رسالة مثيرة للقلق.

مصيركم يا سكان حقول اسبرطة الواسعة،

هو رؤية مدينتك العظيمة والشهيرة يدمرها أبناء بيرسيوس.
إما ذلك، أو أن كل شخص داخل حدود لاكاديمون،
سيحزن على موت ملك نبع من سلالة هرقل[368].

غذاء للفكر حقا. لم يكن الأمر يتعلق فقط بحكم الإعدام على ليونايدس أو ليوتيكيدس؛ كان هناك أيضًا، في وصفة نهاية العالم التي من شأنها أن تطغى على اسبرطة، غموض شرير، وغموض دلفي عادةً. من هم بالتحديد "أبناء بيرسيوس"؟ الفرس؟ الجند؟ كلاهما؟ إن عقد مؤتمر الحلفاء في الربيع في البرزخ، في منتصف الطريق بين بيليبونيز وشمال اليونان، كان من شأنه أن يجعل المسألة أكثر إلحاحًا وإثارة للقلق حتى الآن. كان أمام السفراء، بعيدون جدًا على حدود آسيا ولكنهم يقتربون يومًا بعد يوم، الفرس؛ وخلفهم، من المفترض أن العيون مثبتة بشكل مشرق على ظهورهم، يأتي الارغوسيين: أبناء بيرسيوس على حد سواء. ولم يكن مفاجئًا أن يكون المندوبون الاسبرطيون متوثبين.

لا نعرف ما إذا كان ليونايدس وليوتيكيدس من بينهم. لم تكن عادة الملوك الاسبرطيين التصرف كسفراء لهم، لكن ليونايدس، على وجه الخصوص، كممثل للخط الملكي الأعلى وبالتالي القائد الأعلى للحلفاء، كان بالتأكيد يرغب في تتبع المعلومات الاستخباراتية الجديدة شخصيًا. إذا كان قد حضر جلسات الإحاطة في البرزخ، لكان قد وجدها تجربة غير مشجعة بشكل فريد. فعلى الرغم من الآمال الكبيرة في الخريف الماضي، لم يلتزم أي حلفاء جدد. تمامًا كما فعلت ارغوس، أوضحت العديد من الولايات التي تم الاتصال بها أن أبولو كان ينصحهم بإبقاء رؤوسهم منخفضة. كانت أكبر خيبة أمل على الإطلاق هي الرجل الذي جذب أكبر الآمال: طاغية سيراكيوز. جيلون، الذي كان في أمس الحاجة إلى كل سفينة وجندي أخير في مواجهته الوشيكة مع قرطاج، لكنه لم يرغب في أن يفقد ماء وجهه بالاعتراف بنفس القدر، قد خلص نفسه من التزاماته تجاه العالم القديم من خلال تفوقه حتى على الارغوسيين بدافع الوقاحة. فطالب أولاً بالقيادة الحصرية لجميع القوات اليونانية؛ ثم تقديم عرض كبير للتسوية، سواء على الجيش أو الأسطول. وعندما رفض سفراء

الحلفاء، كما كان من المفترض أن يفعلوا، هذه الشروط بسخط. شخر جيلون بازدراء: "لا يبدو أنكم تفتقرون إلى القادة، يا أصدقائي-كل ما تحتاجونه الآن هو أن تجدوا بعض الرجال ليقودوهم[369]."

إخماد هائل-وواحداً بدا أنه وجه ضربة قاتلة لأي فكرة قد تكون لدى الإغريق حول إجراء عملية إمساك برمائية. في حين أن جيش المحاربين القدامى، إذا تمكنوا من العثور على ممر جبلي مناسب للحصار، قد لا يزال يأمل في إبقاء جحافل البرابرة في مأزق، شعر معظم المندوبين أن أسطول الحلفاء، المحروم من مائتي سفينة ثلاثية من جيلون، ليس لديه أمل الآن في الاصطدام بالفرس على قدم المساواة في القوة. كان ثيمستوكليس، بالطبع، يختلف بشدة. لكنه كان يواجه مشكلة، في ذلك الربيع، في إبقاء مواطنيه على متن السفينة. لم يكن الأسبرطيون هم الوحيدون الذين مروا بشتاء متقلب. الأثينيون، بعد أن أنفقوا ثروة على أسطولهم الجديد، والكثير من الوقت والجهد، كان لديهم أفكار أخرى حول استراتيجيتهم بأكملها. كان الكثيرون يقوون أعصابهم من المحنة القادمة مع الحنين المتجدد لماراثون. كلما زاد اقتراب الملك العظيم ، ازداد عدد المحاربين القدامى الذين انتصروا في ذلك الانتصار المشهور-طبقة الهوبلايت المتشددة، المتعنتة، والمحافظة-تحرقاً لتحطيم مجاديفهم فوق رأس ثيميستوكليس وإحداث صدع آخر في البرابرة على الأرض. ثيمستوكليس نفسه، الذي كان يأمل أن يكون هذا الوهم بالذات قد قُتل بنبذ أرستيدس، كاد أن يُطرد من قيادته. فقط من خلال رشوة منافسه على المنصب للتخلي عن منصبه، نجح في الترشح في الانتخابات السنوية لمجلس الجنرالات. كانت سلطته تنحسر-وكان أعداؤه في أثينا يعرفون ذلك. وكذلك فعل زملاؤه المندوبون في البرزخ. لم يكن ثيمستوكليس، في الوقت الحالي، في وضع يسمح له بإلقاء ثقله.

بدلاً من ذلك، وسط كل الانجراف واليأس، تُرك الأمر لمجموعة من أباطرة الماشية، ومصارعي الثيران من ثيساليا يلبسون قبعة الشمس، للاستيلاء على زمام المبادرة. عند وصولهم بشكل غير متوقع إلى المؤتمر، حثوا الحلفاء المنكوبين على النظر إلى الشمال. على الرغم من أن ثيساليا كانت مسطحة وواسعة بشكل مثير للقلق، وبالتالي فهي مثالية لسلاح الفرسان الفرس، كانت

حقولها المنحدرة محاطة من كل جانب بسلاسل جبلية، وحواجز طبيعية فائقة تلوح في الأفق من السهل الترابي. من بين هؤلاء، تقع أكثرها أهمية إلى حد بعيد في الشمال، على طول الحدود مع المقدونية التي يسيطر عليها الفارسيون. هنا، حث بارونات ثيساليا الحلفاء اتخاذ موقفهم. كان المندوبون مفتونين. بالنسبة للكثيرين منهم، كانت ثيساليا ضيقة الأفق بشكل غريزي مثل معظم الإغريق، كانت أرضًا مجهولة، ليست فقط بعيدة ولكن شريرة بشكل أكيد. كما اشتهرت بالسحرة كما كانت مشهورة بماشيتها أو الذرة-ومع ذلك فقد سمع الجميع عن جبل أوليمبوس، بطبيعة الحال، وما هو قريب منه. الجار، جبل أوسا، وهما من الجبال التي رسمت حدودها الشمالية. كان العديد من المندوبين قد سمعوا أيضًا عن تيمبي، الممر الضيق الذي يبلغ طوله خمسة أميال والذي يفصل أوليمبوس عن أوسا، وجدرانه شديدة للغاية لدرجة أن رمح بوسيدون فقط، كما كان يُفترض عمومًا، كان من يمكنه أن يتسبب في اهتزاز المنحدرات. أكد الثيساليون للحلفاء أن أي جيش يتجه جنوبًا يجب أن يمر عبر هذا الوادي: كل ما يحتاجه الإغريق لإيقاف الملك العظيم في طريقه هو إرسال قوة إلى ثيساليا وإغلاق تمبي. بدت حجة مقنعة. حتى الأسبرطيون كانوا مقتنعين. وهذا على الرغم من حقيقة أن الخطة ستلزمهم بإرسال القوات بشكل خطير بعيدًا عن منطقة الراحة في بيلوبونيز. تم حشد عشرة آلاف من جنود الهوبليت، من مختلف المدن، للرحلة: نفس العدد، ربما بشكل كبير، كما حدث مع البرابرة في ماراثون. وبطبيعة الحال، تم وضع أحد الاسبرطيين، وأحد الايونيين، في القيادة العامة. وقاد ثيميستوكليس الكتيبة الأثينية.

بعد بضعة أسابيع، تم إحباط الحملة بأكملها بشكل مهين. لقد ثبت أن أهل ثيساليا الذين تحدثوا بسلاسة وأقنعوا الحلفاء بالشروع في الأمر، ارتعدوا عند ذكر عدد من التفاصيل غير الملائمة. أولاً: كان فصيل منافس في ثيساليا قد انضم بالفعل الى الفرس. ثانيًا: لم تكن تمبي في الواقع الممر الوحيد عبر الجبال الشمالية. ثالثًا: كانت المنطقة بأكملها مليئة فعلا بعملاء العدو، وكانت كذلك منذ سنوات، منذ أن كان الفصيل المهيمن في ثيساليا، الذي يتطلع إلى القضاء على منافسيه إلى الأبد، قد اتصل أولاً بكبار جواسيس زركسيس واقترح

قيام سيدهم بغزو. القوة الضاربة المتحالفة كانت بعيدة عن تأمين موقع منيع لنفسها، وعلقت في فخ. مع اندلاع حرب أهلية في المؤخرة، وعدم وجود فرصة لتأمين جميع الممرات الجبلية إلى ثيساليا، لم يكن ليونيدس وثيميستوكليس قد وطدا نفسيهما في تيمبي بعد أن قرروا تقليص خسائرهم والاندفاع في طريق العودة إلى الوطن. لقد كان بلا شك القرار الصحيح، وهو القرار الذي أنقذ حياة عشرة آلاف رجل-لكن عار الانسحاب ما كان يمنع من ارسال القشعريرة في بقية أنحاء اليونان. بدأت جميع الفصائل المتنافسة في ثيساليا، بعد أن تم التخلي عنها للبرابرة، في التوسط بشكل محموم. شعر المتعاونون في المدن الواقعة في الجنوب أنه تم تأكيدهم في نظرتهم إلى أنفسهم باعتبارهم واقعيين؛ أولئك الذين ما زالوا ملتزمين بالقتال غرقوا في شلل يأس. قبل موجة الخطر المتصاعدة، التي تزداد قتامة يومًا بعد يوم، بدا أن امام الحلفاء سياسة واحدة فقط: التراجع. علا صوت الهمسات القائلة بأن الفرس لا يقهرون. كان هذا هو الحديث حتى في تلك المدن الملتزمة بالمقاومة عندما اندلعت الأخبار التي تفيد بأن الملك العظيم وجيشه عبروا بأمان نهر هيلسبونت مثل قصف الرعد فوق اليونان[370].

كان الشعور بالصدمة أشد ما يكون في أثينا-وهناك بدا المأزق بشأن الإستراتيجية مشؤومًا ومصيريًا. في مواجهة احتمال ليس فقط الهزيمة، مثل مواطني المدن الأخرى، بل الإبادة، لجأ الشعب الأثيني، المحتاج بشدة، إلى أبولو للتوجيه[371]. بعد مغادرة أتيكا، مجتازين طيبة بحذر، وبعد تسلق سفوح جبل بارناسوس، سرعان ما كان المبعوثون الأثينيون على الطريق المتعرج والوحيد الذي يقود بين القمم الخشنة وعبر جدران من الصخور المتصدعة نحو دلفي. بمجرد وصولهم إلى هناك، تم اقتيادهم أولاً من خلال بهجة الضريح الفوضوية إلى النبع الكستالي. وبعد ذلك، بعد أن تطهروا في مياهه المتجمدة وقدموا ذبيحة أمام لهيب النار الأبدية، وعادوا إلى المعبد نفسه. في الطرف البعيد من الحرم الداخلي، محجوبًا بمزيج من الكنوز القديمة، كانت بيثيا تنتظرهم، غارقة في أعماق الظل. بالمقارنة مع حجرالسرة المغطى بالشبكة، أو شجرة الغار المقدسة، أو قيثارة الإله، وكلها كانت محشوة في الغرفة الصغيرة بجانبها،

ظهرت بيثيا، وهي امرأة عجوز في ثوب فتاة صغيرة، وظهرت كشيء غريب تقريبًا، غير مناسب، بالتأكيد، ليكون وعاء أبولو الذهبي. ومع ذلك، فيما الأبخرة المتصاعدة من المرجل، كانت تطفو على فخذيها المفترقتين وتلف تحت تنورة رداء عذريتها، كانت ترتجف من النشوة الهائلة: وقد اعترتها الغشية. جلس الأثينيون، بإرشاد من الكهنة، بجانب المدخل؛ وفي الحال، بدأت بيثيا، دون انتظار حتى سماع سؤالهم، في التشنج بشدة من تلبس الإله لها. "لماذا تجلسون أيها التعساء؟" صرخت، لكنها كانت مشوهة ومخيفة. "اخرجوا من هنا، اهربوا، اهربوا، اهربوا إلى أقاصي العالم!" كانت تنفثت الكلمات في حالة من الرعب، وهي ترتفع وتتعثر بإيقاع وحشي، تستحضر صور المذابح والنار والإبادة. كان إله الحرب قادمًا، وكانت عجلات عربته السورية تجلجل، وتنهار الأبراج في أعقابه. ستحترق معابد أثينا. سيُغرق الدم الأسود المدينة. "اذهبوا، اذهبوا، غادروا الحرم، استسلموا لحزنكم[372]!"

ووجد المبعوثون الأثينيون، الذين كانوا يترنحون تحت ضوء الشمس، أمامهم القليل من الخيارات سوى أن يفعلوا ما أوعزت به بيثيا، وغرقوا في اليأس. فحل كل شيء حينئذٍ: كانت ساعة هلاك مدينتهم قريبة. اما كانت كذلك؟ الكاهن، وهو على ما يبدو قد صُدم من رؤية بيثيا مثل الأثينيين أنفسهم، سارع وراء المبعوثين، وحثهم على الاقتراب من العرافة مرة أخرى. بالنسبة للمتشككين، ربما بدا هذا بشكل مثير للريبة وكأنه تحوط للرهان. وربما كان كذلك بالفعل. ففي النهاية، كان على الكهنوت أن يفكر في مستقبله. في حين أنه حريص بشكل مفهوم على عدم استعداء الملك العظيم، إلا أنه لم تستطع تحمل أن يجازف بكل نقوده في جولة فارسية. كان لابد من تغطية كل الاحتمالات-حتى ولو كانت بعيدة الاحتمال مثل انتصار اليونان. كان من الممكن سياسيًا فقط أن يسمح الكهنة لضيوفهم الأثينيين ببصيص أمل على الأقل.

ومع ذلك، فإن السخرية، كما أظهر المثال القاتل لكليومينيس، قد يتم دفعها بعيدًا. لا يمكن رفض كل غموض تنطق به العرافة على أنه مجرد حسابات. كانت السخرية من دلفي هي السخرية من الإلهي. لم يكن الافتراض الكامن وراء نصيحة الكاهن للأثينيين-بأن أبولو، بعد أن ألقى عليهم تنبؤًا

بالتشاؤم التام. قد يقتنع بطريقة ما بتلطيفه بنصيحة أكثر اشراقاً-لم يكن بالضرورة بعيد المنال. حكمة الاله، بطبيعتها، كانت شيئًا غامضًا وغير محدود. نادرًا ما كانت الأمور، مع أبولو، تمامًا كما بدت. إذا كانت دلفي، كما اعتبر معظم الإغريق انه أمر مسلم به، قد فتحت بالفعل بوابة إلى ما هو خارق للطبيعة، فإن لمحات المستقبل التي أتاحها ذلك قد تبدو وكأنها تومض وتتغير مثل النار.

بعد ذلك، لم يكن الأثينيون، باتباع نصيحة الكاهن، منزعجين تمامًا عندما وقعت بيثيا، عندما رأتهم مرة ثانية، في حالة جنون متجدد وبدأت في ترديد نبوءات جديدة. وحذرت: "لا يمكن لأثينا أن تهدئ من قوة الأولمبي زيوس، على الرغم من أنها تتوسل إليه بكل بلاغتها وبراعتها." حتى الآن، كان الأمر محبطًا للغاية-ولكن بعدها، وفجأة، ظهر بصيص من الأمل: " ومع ذلك ". اشتكت بيثيا :

ومع ذلك- هذه الكلمة التي قلتها لكم، بعناد، وعدًا:
سيسقط كل شيء داخل حدود أتيكا،
نعم، والوديان المقدسة لسلاسل الجبال القريبة،

لكن الجدار الخشبي وحده،
الجدار الخشبي سيقف،

هذا ما ضمنه زيوس لأثينا،
كمساعدة لكم ولأطفالكم.

رجال على ظهور الخيل ورجال يمشون على اقدامهم يزحفون
قادمين من اسيا

تراجعوا، لأنكم قريبا جدا
ستلتقون بهم وجهًا لوجه.

سلاميس الالهية-سوف تكونين خرابا
والعديد من أبناء الأمهات،

عندما تنثر البذور، أو يجمع الحصاد[373].

وبهذه العبارات النهائية المبهمة، استيقظت بيثيا فجأة من نشوتها؛ وسكت الجميع في ضريح أبولو مرة أخرى.

ما الذي كانت تتحدث عنه بحق السماء؟ شعر المبعوثون الأثينيون، دون أن يكون لديهم في الحقيقة أي فكرة، بالارتياح لأن الدفعة الثانية من الأبيات بدت أكثر بهجة من الأولى، وعادوا بالنص إلى أثينا بامتنان. هناك تم تشريحه بشكل شامل. كان الجدل والحيرة عامة. ساعدت عبارة واحدة، على وجه الخصوص، في استقطاب الرأي: "الجدار الخشبي". اقترح خصوم ثيمستوكليس، الذين أظهروا قدرة هائلة على التفكير الجانبي، أن هذا كان إشارة إلى سور المعركة الذي كان في زمن اراكثيوس يحيط بقمة الأكروبوليس. جادل ثيمستوكليس نفسه، بمزيد من المعقولية، بأنه يشير إلى السفن. وإلا فلماذا ذكرت بيثيا جزيرة سالاميس؟ نعم، رد خصومه، لكنها لم تذكر أي الأمهات-اليونانيات أم البربريات-سيحزن على أبنائهن. صحيح بما فيه الكفاية، ردت ثيمستوكليس: لكن ألم تشد بسالاميس على أنها "إلهية"؟ وهكذا احتدم الجدل.

أصوات الجمعية فقط من يمكن أن تعمل في نهاية المطاف على حسمه. كانت هذه هي حكمة أبولو: إعطاء أثينا وحيًا لم يكتفِ فقط برفع مرآة إلى أعماق شكوكها، بل أجبرها على حلها بمفردها. كان الشعب الأثيني يواجه اختباره الأسمى كمواطنين ديمقراطية. وكانوا كمواطنين في ديمقراطية هم من يقررون أفضل السبل لتحقيقها. تم تحديد موعد في أوائل شهر يونيو للمناقشة الرسمية حول عرافة، والتي من شأنها أيضًا، بالطبع، أن تحدد بشكل نهائي كيف سيخوضون الحرب التي تلوح في الأفق. والملك العظيم الآن على بعد أسابيع فقط من مدينتهم، لم يعد بإمكان الشعب الأثيني تحمل المراوغة. أخيرًا، سيضطرون إما إلى دعم ثيمستوكليس واستراتيجيته، أو رفضهما كليهما وإلى الأبد.

كان مكان النقاش المهم هو أول وأهم المعالم الأثرية التي أقامتها الديمقراطية لنفسها: مكان الاجتماع العظيم الذي كان مجوفًا قبل عقدين

ونصف في تل بنيكس. عندما أخذوا مقاعدهم هناك وسط الغبار ورائحة الزعتر، يمكن للناخبين أن يروا أمامهم بانوراما لا مثيل لها لمدينتهم، وتلك المناظر الطبيعية المباركة التي نشأ منها الأثينيون الأوائل في البداية. في المسافة، ابيض اللون تقريبًا كان نقاء ضوء أتيكا، ومخطط جبل بنتليكون والطرق التي أدت إلى ماراثون. في المقدمة، كانت الاغورا، وتمثالها العظيمين للتوأم العاريين قاتلي الطغاة ومعالمها المدنية المتلألئة الجديدة. ترتفع فقط إلى يمينها، والأهم من ذلك كله، صخرة الأكروبوليس المقدسة. فوضويا حيث كانت قمته لا تزال تحتفظ بحطام الأرستقراطية-الأضرحة العائلية والتماثيل والدروع النذرية والبرونزيات-كان هناك، حتى في هذه المواقع المقدسة، علامات النظام الجديد. على سبيل المثال، المعبد الجليل لكن المتهالك لأثينا بولياس، الذي كان في يوم من الأيام عرضًا لتفرد البوتيين، واختفى منذ فترة طويلة، وتم استبداله، خلال العقد الأول من الديمقراطية، بهيكل مهيب يناسب بشكل أفضل كرامة الإلهة، وشعب أثينا نفسه. كما تم هدم الحرم المزخرف بشكل متوهج الذي أقامه أسرة ألكمايون في منتصف القرن الماضي، وتم هدمه حتى عندما كان النبذ يدمر القاعدة السياسية للعائلة. وفي مكانه، بدأ العمل في معبد جديد رائع، تم تصويره على أنه احتفال بماراثون وتعبير عن الامتنان لأثينا لحمايتها. عند النظر عبر بنيكس، يمكن للناخبين رؤية السقالات التي تغطي قبته نصف المكتملة. مثل هذا العمل من الحب، في مثل هذا الموقع، في مثل هذه المدينة: لا يمكن التخلي عن هذا، بالتأكيد؟ ليس للبرابرة. ولا لنارهم الآثمة.

مع ذلك، كان التخلي عن المدينة، في ذلك اليوم المشؤوم من أكثر الجدالات حسمًا في التاريخ اليوناني-وربما الأوروبي كله-هو بالضبط ما كان يقترحه ثيمستوكليس بالفعل. لم يعد من الممكن، إذا كانوا قد فعلوا ذلك من قبل، أن يتم تبييض الآثار المترتبة على سياسته البحرية. حتى لو أخذ كل مواطن سليم البدن مكانه على مقعد التجديف، فإن الأسطول الأثيني سيظل يعاني من نقص شديد في عدد الأفراد. لا يمكن لأي رجل في سن القتال أن ينجو بإقامة "جدار خشبي" في الأكروبوليس، أو في أي مكان آخر في أثينا. يجب إجلاء النساء والأطفال وكبار السن، والمدينة نفسها أوكلت إلى "أثينا، السيدة أثينا،

وإلى الآلهة الأخرى"[374]. كان من الممكن، بالطبع-كما جادل ثيميستوكليس بلا شك-أن يدفع البرابرة إلى التوقف شمال أتيكا. هذا، مع ذلك، مع التزام كل أثيني بالأسطول، سيتطلب من الأسبرطيين وحلفائهم الحفاظ على خط المعركة عن طريق البر. هل كان من الممكن إقناع البيلوبونزيين بالمغامرة خارج البرزخ مرة ثانية، بعيدًا عن مدنهم، الوقت وحده هو الذي سيخبرنا بذلك. ومع هذا، فإن الأثينيين، إن كان لديهم أي أمل في إقناع الاسبرطيون بعدم التخلي عن أتيكا، لم يكن لديهم خيار سوى إظهار أنفسهم على استعداد للقيام بذلك. يمكن أن يقدم ثيمستوكليس الدم والكد والدموع والعرق لمواطنيه. ما لم يعطهم هو أي وعد بمحاربة الغزاة على الشواطئ. استسلم الأثينين لكن تعهدوا بعدم الاستسلام: كانت هذه هي السياسة الجريئة والمتناقضة التي حث عليها ثيميستوكليس الأثينيين.

ما هي بدقة اعالي الخطابة التي بلغها، وما هي العبارات التي لا تُنسى والمثيرة التي نطق بها، لا سبيل لدينا لمعرفة ذلك: فلم يتم حفظ أي سرد لخطابه. فقط من خلال التأثير الذي أحدثه على المجلس، يمكننا قياس ما يجب أن يكون بالتأكيد جودته المثيرة والحيوية-حيث تم التصديق على مقترحات ثيمستوكليس الجريئة، عند طرحها للتصويت. الشعب الأثيني، الذي واجه أخطر لحظة في تاريخه، ألزم نفسه مرة واحدة وإلى الأبد بالعنصر الغريب في البحر، ووضع ثقته في رجل لطالما خاف الكثير من طموحاته بشدة. يبدو أن قلة من الأثينيين لم يعد لديهم شك في أن ثيميستوكليس يملك "موهبة فائقة للتوصل إلى الحل الصحيح للأزمة في اللحظة المناسبة بالضبط"[375]؛ ومع ذلك، ربما كانوا فقط وهم على شفا الكارثة أن تمكنوا أن يقروا لأنفسهم بالجودة



الاستثنائية لبُعد نظره. في ظل الظروف العادية، لم يكن للديمقراطية سوى القليل من التسامح مع العبقرية. لكن ظروف ذلك الصيف لم تكن طبيعية بالتأكيد. وهكذا، قرر الأثينيون، بدلاً من معاقبة ثيميستوكليس لأنه كان على حق طوال الوقت بشأن التهديد الفارسي، أن يعفو عنه بدلاً من ذلك. لم يعد الشك في الموهبة، في لحظة أزمة مثل التي تواجهها أثينا، تساهلًا يمكنها تحمله. لذا، بناءً على إصرار ثيمستوكليس نفسه، تم استدعاء مختلف ضحايا النبذ على وجه السرعة للعودة إلى أتيكا، "من أجل أن يكون جميع الأثينيين عقلا واحداً في الدفاع ضد البربري[376]". قام سيمون، ابن ميلتيادس، الذي كان، ربما أكثر من أي شخص آخر، وريث تراث ماراثون، قاد موكبًا للشباب الأثينين الاثرياء عبر سيراميكوس إلى الأكروبوليس، وهناك، بتفاخر كبير، قَدم لجام حصانه إلى أثينا، قبل أن يلتقط درعًا ويتجه مع رفاقه إلى بيرايوس. "وهذا ما فعله لبث رسالة بسيطة إلى المدينة بأكملها: ما هو مطلوب الآن ليس البراعة على ظهور الخيل، بل الرجال للقتال في البحر[377]".

بعد أن توحدت أثينا أخيرًا، كل ما تبقى هو إقناع حلفائها بأداء أدوارهم. كان ثيمستوكليس، وهو يعود إلى البرزخ، يفعل بذلك وذراعه قد صارت أقوى؛ كما أنه لم يجد البيلوبونزيين بالضرورة معاديين، وعلى الرغم من الانهيار في

تمبي، لرسم خط أمامي ثان. في النهاية، تعهد الأسطول الأثيني بالدفاع عن ساحلهم وكذلك ساحل أتيكا؛ و كان ثيمستوكليس، الذي لم تكن الرحلة الاستكشافية إلى ثيساليا في رأيه مضيعة للوقت بشكل واضح، قد حدد بالفعل المكان المثالي لمحاولة إبقاء الأسطول الفارسي بعيدًا. بين الطرف الشمالي من إيبوبا والبر الرئيسي كان هناك مضيق ضيق بالكاد يبلغ عرضه ستة أميال، وهو مناسب بشكل مثالي للانسداد؛ علاوة على ذلك، كان على بعد أربعين ميلاً فقط شرق ممر تيرموبايلي الأضيق. قد يأمل الأسطول والجيش، اللذان يعملان جنبًا إلى جنب، في السيطرة على المضيق والممر-حتى في مواجهة الصعاب الرهيبة. كان الأثينيون، بدافع من ثيميستوكليس، قد صوتوا بالفعل لإرسال مائة سفينة إلى إيبويا ؛ والآن، صوت المندوبون المتحالفون في البرزخ-مرة أخرى، بلا شك، بناءً على طلب ثيمستوكليس -لدعم هذه الاستراتيجية. وافقت كورنث وإيجينا وميغارا والقوى البحرية الأخرى الأقل أهمية على إرسال أسراب لدعم الأسطول الأثيني؛ واسبرطة لقيادة قوة ضاربة إلى ثيرموبيلاي. أخيرًا، بدا أنه رغم كل شيء تم التوصل إلى حل. الآن، في فترة الهدوء التي تسبق العاصفة، لم يكن هناك شيء لفعله سوى انتظار البرابرة.

الانتظار-والانتظار أكثر. تحول يونيو إلى يوليو والملك العظيم لم يأت بعد. انتشرت الشائعات بتقارير مذهلة عن تقدمه: كيف كان جيشه يشرب الأنهار حتى تصبح جافة؛ كيف كان كل الذين على طريقه يهرولون ليقدموا له الأرض والماء. وعن روعة قواربه المذهّبة وأعياده ووسائل الترفيه. حتى الآن، يبدو أن تقدمه عبر أوروبا لم يكن غزوًا بقدر ما كان موكبًا مترفاً-وبالفعل، مع تحول يوليو إلى أغسطس، كانت أفضل الظروف للحملة تتلاشى. بعد فترة وجيزة، مع سخونة بحر إيجة إلى مستويات شديدة الحرارة وتحول الهواء البارد إلى الشمال، سيصل موسم العواصف الصيفية-الشمالية الشرقية، أو كما أطلق عليها الإغريق، "Hellesponters". نصح كهنة دلفي في رسالة أخيرة إلى الحلفاء: "صلوا للرياح". "لأنها ستثبت أنها من الأصدقاء المخلصين لليونان[378]." رسالة كان جميع الذين يستعدون للإبحار مع الأسطول اليوناني قد أخذوها على محمل الجد.

ومع ذلك، بين سكان المدينة الواحدة، بدأ بطء سير الملك العظيم في إثارة مشاعر أقل حماسة تمامًا. بالنسبة لأسبرطة، كان احتمال أن يضطروا للدفاع عن ثيرموبيلاي خلال شهر أغسطس أمرًا مؤلمًا حقًا. أربع سنوات مرت على المباريات السابقة في أولمبيا. الآن، مع اكتمال القمر بالفعل، كان من المقرر أن تبدأ الألعاب الجديدة عندما يكون مكتملاً. كذلك، لمفاقمة العذاب، كانت كارنيا. وكان اقتران هذين المهرجانين ينذر بفترة هدنة تكون أكثر قدسية من المعتاد. كيف يمكن للاسبرطة كسرها؟ وأشباح السفراء الفرس المقتولين تطاردهم بالفعل، كانت فكرة أنهم قد يسيئون إلى الآلهة بمزيد من المعاصي أمرًا شنيعًا للغاية بحيث لا يمكن التفكير فيه. و البيلوبونيز مليء بالوسطاء المحتملين، والارغوسيين يتحينون الفرص كما هو الحال دائمًا ، لم يكن الملك العظيم هو الوكيل الوحيد للانتقام الإلهي الجاهز ليحل بهم. كلا، لم يكن بإمكان الأسبرطيين التقدم شمالًا في أغسطس. القيام بذلك سيكون فعلاً إجراميًا ومجنونًا. فلا يمكن كسر الهدنة الكارنية.

ولكن من هم البرابرة ليحترموا مثل هذا التورع؟ من المؤكد أنه لم يكد يبدأ شهر أغسطس حتى وصلت الأخبار على النحو الواجب إلى البرزخ والتي تفيد بأن نصف جميع بلاد اليونان كان مرتعبا ونصفها الاخر يترقب: بدأ الفرس في إخلاء الطرق على طول سفوح أوليمبوس. انهار المؤتمر في الحال. في أثينا، حيث كانت أرصفة الميناء بالفعل في حالة اضطراب بسبب مطالب الإخلاء، كان أي اعتبار للهدنة هو آخر ما يدور في أذهان الناس. بدلا من ذلك-حرفيا-كان كل شيء على سطح السفينة. كان المقاتلون في المدينة يتدافعون بشكل محموم. بعض السفن-الأكثر استخدامًا-عُهد بها إلى متطوعين مخلصين من بلاتيا، "الذين كان من المأمول أن تعمل شجاعتهم وروحهم على تعويض جهلهم التام بالبحر[379]."وهكذا، حتى تركوا وراءهم أسطولًا احتياطيًا كبيرًا لحراسة مياه موطنهم، نجح الأثينيون في إرسال جميع السفن إلى إيبويا، وليس 100 سفينة كانوا قد اتفقوا عليها في الأصل، بل 127. أرسلت مدن أخرى-برزت كورنث وإيجينا من بينهم-كل ما يمكن كذلك. بالنسبة لأي شخص يشاهد أسطول الحلفاء وهو يدور حول رأس صونيوم في رحلته شمالًا، سفينة ثلاثية المجاديف

بعد أخرى، المجاديف التي تموج المياه، تومض إلى الداخل والخارج، كان المشهد مثيرًا للإعجاب. كان إجمالي عدد السفن الحربية في الخطوط الأمامية 271 سفينة إبحار الى إيبويا: لا شك أنه جزء بسيط فقط مقارنة بالأسطول الذي تحت قيادة الملك العظيم، لكنه كان جهدًا شجاعًا كله وملهمًا.

كان في القيادة، كما تم الاتفاق العام السابق في هلينيون، أرستقراطي اسبرطي اسمه يوريبياديس. هنا، بالنسبة لأبناء بلده، كانت مفارقة مريرة. على الرغم من أنهم قد يكونون مسكونين بخوفهم من كسر الهدنة الكارنية، إلا أن التفكير في ما كانت تلتزم به المدن الأخرى من المجهود الحربي لا يمكن سوى أن يعمل على وخز إحساسهم بالشرف. للإنسان. كان على البعض حراسة الأرض كما كان على الآخرين حراسة الممرات البحرية: لم يكن هذا واجبًا يمكن أن يتجاهله الاسبرطيون الآن. بطريقة ما، كان لابد من التوصل إلى حل وسط، والذي قد يجنبهم غضب الآلهة مع تمكينهم في نفس الوقت من التمسك بالتزاماتهم التي تعهدوا بها. لما لا، إذ من الواضح أنه كان من غير الوارد إرسال جيش كامل إلى أن تنتهي الهدنة الأولمبية، فهل يرسلوا حرسا متقدمًا لتأمين الممر؟ إذا كان من الممكن إقناع مدن أخرى، تقع على الطريق البالغ طوله مائتي ميل والذي يلف من لاكاديمون إلى ثيرموبيلاي، بملئه بوحدات خاصة بها، فقد تأمل حتى القوة الصغيرة من الاسبرطيين في الصمود. خاصة إذا كانت هذه القوة ستُستمد من أقوى أفراد النخبة. وعلى وجه الخصوص-بما أن الرسالة التي تم بثها إلى عالم القرار الاسبرطي ستكون عندئذٍ واضحة-إذا كان يقودها ملك.

ليونايدس هو من تولى المهمة المحفوفة بالمخاطر. بصفته ممثلًا للخط الملكي الأعلى، كان سيشعر أنه من واجبه القيام بذلك، بلا شك-ولكن ربما كان لديه دافع شخصي أيضًا. ربما لم تكن أشباح السفراء الفرس المقتولين هي الأشباح الوحيدة في الخارج في ذلك الصيف في لاكاديمون. لقد مر أكثر من عقد الآن منذ أن تم العثور على كليومينيس، وساقيه ومعدته ممزقة بسكين نحت، محنياً في المخزن. ما بقي غامضًا هو ما إذا كان قد مات بيده-فقط عقابًا على رشوه العرافة ، أو كان ضحية مؤامرة وحشية، ربما تكون قد دبرتها القيادة

الإسبرطية نفسها. في كلتا الحالتين، لا بد أن ليونايدس شعر بأنه متورط في النهاية المروعة لسلفه. كان كليومينيس قريبًا له، في النهاية. كان الدم قد جُرف بعيدًا منذ فترة طويلة، لكن الشعور باللعنة والقمع والتهديد، أقرب ما يكون إلى حرارة أغسطس، لا يزال يهبط فوق اسبرطة. لن ينسى ليونايدس، الذي كان يستعد لمهمته اليائسة، الكلمات الخطرة للعرافة: إما أن مدينته ستُمحى "أو كل شخص داخل حدود لاكاديمون يجب أن يحزن على وفاة ملك، نشأ من سلالة هرقل." من المؤكد أنه لم يغب عن انتباهه إما أنه كان على قمة فوق تيرموبيلاي حيث هلك هرقل نفسه، ودفع لحمه الفاني ودمه إلى النار حتى يصعد بعد ذلك لينضم إلى الآلهة. حسنًا، إذن، ربما كان ليونايدس قد أبعد الهيبيس، فرقة الخيالة عالية التدريب هذه المكونة من ثلاثمائة شاب الذين خدموا عادةً في المعركة كحارس شخصي للملك، واستبدلهم بالمحاربين القدامى الأكبر سنًا- "جميع الرجال الذين لديهم أبناء أحياء[380]."-رسالة واضحة النوايا. بغض النظر عما قد يحدث عند العبور-سواء أكان نصرًا مجيدًا أو هزيمة كاملة-فإن ليونايدس سيظل وفياً لمهمته المصيرية. وبطريقة أو بأخرى، سيؤمن خلاص مدينته. لم يكن هناك تراجع عن ثيرموبيلاي.

الفصل السابع-على مقربة

الاستعدادات الملحمية

كان هيبارخوس، المستبد المستهتر الذي أحيا الأثينيون ذكرى مقتله في شجار العشاق في عام 514 قبل الميلاد كضربة للحرية، كان دائمًا سعيدًا بالاختراع طوال فترة حكمه. كان راعيًا متحمسًا للهندسة المعمارية، مثل الأمراء في كثير من الأحيان، وكان يمتلك أيضًا شغفًا نادرًا بالأدب. لا يزال بإمكان المسافرين قراءة أبيات بليغة ومحسّنة ، منقوشة أسفل القضيب المنتصب الذي كان سمة مذهلة إلى حد ما لعلامات الطريق في أتيكا، ، من تأليف البيستراتي المقتول نفسه. من نواحٍ أخرى أيضًا، استفاد الأثينيون من نمط هيبارخوس الكتابي في الاستبداد. كان بفضل دعمه الحماسي، على سبيل المثال، أن صفوة الموهبة الأدبية اليونانية، الذين كانوا يعتبرون أثينا ذات مرة ركودا، قد أصبحوا يعتبرون المدينة قوة ثقافية، وتوافد على الاستقرار هناك. كان الطاغية مصممًا على نقل شعراء المشاهير إلى بلاطه لدرجة أنه كان قد وضع لهم خدمة سيارات أجرة فاخرة، على شكل سفينة خاصة بخمسين مجذافًا.

وحتى أكثر من الأدب الحديث، مع ذلك، كان هيبارخوس المتحمس الحقيقي لعمل معروف في جميع أنحاء كلها العالم اليونانية - الملاحم منقطع النظير: الإلياذة والأوديسة. وقد ألفت قبل قرون سابقا، وجمعت خلال فترة طروادة حرب. القليل كان معروفًا على وجه اليقين عن مؤلفها، الشاعر الذي يُدعى هوميروس، لكنه كان، بالنسبة لليونانيين، غير محدود جدًا، لا ينضب، تمامًا منبع افتراضاتهم ومثلهم العميقة، لدرجة أن المحيط فقط، الذي يشمل ويسقى كل العالم، يمكن ان يمثله بشكل مناسب. لا عجب أن هيبارخوس، الذي كان يتطلع إلى وضع مدينته على الخريطة الأدبية، كان حريصًا على وصف هوميروس-الذي كان عمومًا، وبشكل محبط، معروفا أنه كان من مواطني شرق بحر إيجه-بطريقة أو بأخرى من الأثينيين. بيسستراتوس، والد هيبارخوس،

عندما رعى طبعة من الشاعر، قيل إنه حاول أن يدس بضع أبيات خفية خاصة به في النصوص، ترنيمة أثينا وأبطالها القدامى؛ قدم هيبارخوس نفسه، بشكل أقل فظاظة، تلاوة من الملاحم إلى الباناثينا. لا يعني ذلك أن هذه تم إجراؤها بأي روح راقية من الكتابة الادبية، ولكن بدلاً من ذلك، مثل المسابقات الرياضية التي ظهرت أيضًا في المهرجان، كانت تنافسية بشدة-وهو ما كان مناسبًا فقط. "كن دائما الأشجع. كن الأفضل دائمًا ". أقوال، ذهبت دون ذكر، من الإلياذة نفسها.

ويعتبرها الإغريق في كل مكان، على الرغم من جهود هيبارخوس الأفضل، حقًا مكتسبًا لهم جميعًا. لم يكن الأسبرطيون، على سبيل المثال، أبناء هيلين ومينيلوس، بحاجة إلى تقديم قراءات شعرية من أجل استعراض تقاربهم مع قيم ملاحم هوميروس. إذا كان حرف رمزهم العسكري مستمدًا من ليكورغوس، فإن روحه، هذا التصميم البطولي على تفضيل الموت و "السمعة المجيدة التي لن تموت أبدًا[381]"، عن حياة الجبن والعار، ظهرت حية مع التألق المخيف للأبطال الذي غنى به "الشاعر". وبطل أكثر من أي بطل آخر: أخيل، أعظم المقاتلين وأكثرهم دموية، الذي سافر إلى طروادة، هناك ليتألق في وهج من الروعة الرهيبة، مع العلم أن كل شهرته ستؤدي فقط إلى القضاء عليه قبل وقته. صحيح، النشوة النقية لصيد مجده، التي دفعته إلى الشجار مع أغاممنون على جارية، و البقاء في خيمته بينما كان رفاقه يذبحون، والعودة إلى المعركة فقط لأن ابن عمه الحبيب قد تم قتله، كان تساهلًا مع الذات لا يكاد يُسمح به لجندي اسبرطي. ومع ذلك، قد يكون هذا الموت في المعركة جميلًا، لأنه قد يكرس ذكرى المحارب، حتى وروحه تتلاشى في الظلال الرمادية للعالم السفلي، بهالة ذهبية رائعة، قد تكسبه شهرة خالدة "kleos": هذه المفاهيم، التي ارتبطت إلى الأبد مع أخيل، اعتبرها الإغريق على أنها كانت لفترة طويلة اسبرطية أيضًا. قد يطمح آخرون إلى مثل هذه المثل العليا ولكن فقط في اسبرطة نشأ المواطنون ليكونوا صادقين معهم منذ ولادتهم.

عندما وصل ليونايدس، الذي يقود قوته الصغيرة الممسكة، في أوائل أغسطس عند ممر تيرموبيلاي، فإن مثال الأبطال الذين قاتلوا قبل قرون في

أول صدام كبير بين أوروبا وآسيا لم يكن من الممكن أن يفشل في أن يلمع في عقله. من هوميروس، كان يعلم أن الآلهة، "كالجوارح، و كالنسور،" ستلقي بظلال غير مرئية قريبًا على مواقف رجاله-لأنه كلما كان على البشر أن يرفعوا شجاعتهم إلى درجة عالية من الشدة، كلما اضطروا إلى تجهيز أنفسهم للمعركة، "يلوحون في موجة بعد موجة، يقاربون صفوفهم في بريق كثيف متلألئ من الدروع والرماح والخوذ"، يعرفوا أنهم يمرون إلى المجال الإلهي[382]. بالتأكيد، كان من الصعب تخيل بوابة أكثر غرابة من ثيرموبيلاي-"البوابات الساخنة". تصاعدت المياه البخارية من الينابيع التي أعطت الممر اسمه؛ وبدت الصخور التي هسهست عليها شاحبة ومشوهة مثل الشمع الذائب. علق عبق من الكبريت رطبًا في حرارة أغسطس. كان كل شيء محمومًا ومختنقًا بالغبار وقريبًا. كان الممر ضيقًا جدًا لدرجة أنه عند نقطتين على طرفيه، والمعروفتين باسم البوابات الشرقية والغربية، لم يكن هناك متسع لمرور سوى عربة واحدة فقط. على جانب واحد من هذا الطريق كانت هناك مستنقعات ضحلة لخليج ماليز. من ناحية أخرى، "سالكة ومنحدرة[383]"، -منحدرات جبل كاليدروموس، مغطاة بالأشجار فوق الصخور السفلية، ثم تربى اللون الرمادي والعارية ضد اللازوردية التي لا ترحم. كانت بقعة غريبة وغير أرضية-ويبدو أنها تشكلت للدفاع.

كما كان السكان المحليون يقدرون منذ فترة طويلة. كان الرجال من فوسيس، البلد الواقع في الوادي الذي يقع بين ثيرموبيلاي ودلفي، قد بنوا ذات مرة جدارًا عبر الممر، ولم يمنعوا أيًا من الازدواجيتين في أي من الطرفين، بل امتدوا إلى عرض حوالي ستين قدمًا، ما يسمى بـ" البوابة الوسطى ". هنا ترتفع المنحدرات في أقصى درجاتها وضوحا. ليونايدس، الذي كان يتنقل من تحتها، بدأ على الفور في إصلاح جدار الفوسي: لم يكن هناك تحد كبير، لأنه جلب معه، بالإضافة إلى حارسه الشخصي، حوالي ثلاثمائة من الهيلوتيين وخمسة آلاف جندي آخر[384]. هؤلاء، الذين تم إقناعهم بالتناوب والتخويف للانضمام إليه، جاءوا في الغالب من البيلوبونيز-لكن ليس جميعهم. كان سبعمائة متطوعًا من ثيسبايا، وهي مدينة في بيوتيا كانت، مثل بلاتيا، مستاءة منذ فترة طويلة من رمي

الأثقال في طيبة وتبرعت عن طيب خاطر بالقوى البشرية لدعم قضية الحلفاء- وأربعمائة أتوا من طيبة نفسها. كان ليونايدس، الذي كان يدرك بشكل غير مريح أن وسط اليونان كان متعفنًا مع الوسطاء، قد أوضح النقطة في طريقه إلى ثيرموبيلاي لاستدعاء كبار المتآمرين والمطالبة بدعمهم بصراحة. استجابت الطبقات الحاكمة في طيبة، التي لم تتجرأ بعد على رفض الملك الاسبرطي، بمراوغات حريرية. ومع ذلك، ولأنهم واثقون من أن ليونايدس كان في مهمة انتحارية، فقد سمحوا بمرح "برجال من الفصيل المنافس"[385]، "الذين عارضوا تفكيرهم ليغادروا معه. وليونايدس، كان في أمس الحاجة إلى كل تعزيزات، استقبل هؤلاء الموالين بامتنان. ومع ذلك، لم يكن لديه أي شك، وهو يحدق في الفراغ المتلألئ للأراضي المسطحة وراء تيرموبيلاي، ويمسح الأفق بحثًا عن مسحات من الغبار، منتظرًا أول لمحة عن جحافل الملك العظيم الوحشية، أن هناك الكثير من خلفه. الذين كانوا يريدون له أن يفشل.

ولم يكن هذا هو الحد من مخاوفه. حتى عندما كان رجاله مشغولين بالحفر، جاء وفد من مدينة تراشيس القريبة، التي تقع في أراضيها تيرموبيلاي، إلى ليونايدس مع بعض الأخبار غير المرحب بها. يبدو أن الممر لم يكن آمنًا تمامًا كما كان الاستراتيجيون الذين عادوا على البرزخ قد افترضوا. كان هناك ممر أخر يلتف حول مرتفعات تيرموبيلاي الجبلية. على الرغم من أنه بالكاد مناسب لسلاح الفرسان أو المشاة الثقيلة، إلا أنها كان قابلا تمامًا مع أي شخص مسلح بأسلحة خفيفة، كما أفاد التراقيين. إذا اكتشف البرابرة هذا الطريق، فسوف يسلكونه بالتأكيد. لم يكن هناك خيار أمام المدافعين عن بوابات البوابات الساخنة، سوى سدّها. بسيط بما فيه الكفاية، ربما كان يعتقد-باستثناء أن ليونايدس، مع القوة الكاملة لجيش الملك العظيم الذي كان على وشك أن يقذف بنفسه ضد منصبه، لم يكن بإمكانه تحمل الكثير من الهوبلايت. في هذه الحالة، لأنه لم يكن لديه خيار سوى القيام بذلك، فقد تنازل. تطوع ألف رجل من فوسيس، الذين دفعهم اشمئزازهم من أتباع الثيساليين إلى الوقوف بحماس مع الحلفاء، لحراسة الطريق. ليونايدس، الذي اعتمد على معرفتهم المحلية وعلى احتمال إرسال مشاة خفيفة فقط ضدهم، قبل عرضهم. لم

يرسل أي أسبرطي، ولا ضابط واحد، لتخليص قلة خبرتهم. استعد ليونايدس للعاصفة القادمة، وأراد كل النخبة معه. يمكن فهمها-لكنها مقامرة شنيعة، حتى مع ذلك.

لا يعني ذلك أن الملك الاسبرطي كان القائد الوحيد الذي اضطر إلى إجراء بعض الحسابات المحرجة. على بعد أربعين ميلاً إلى الشرق، عبر خليج مالي وما وراء المضيق الضيق الذي يفصل إيبويا عن البر الرئيسي، كان الأدميرالات المتحالفون قلقين بشأن حالة جناحهم. صحيح أن المحطة التي اختاروها بدت قوية، مثل تيرموبيلاي. على النقيض من الجانب الكئيب للساحل المواجه، حيث تلوح المنحدرات المغطاة بالجلد من البحر مثل أسنان من الزيتون الموضوعة في لثة من الصخور العارية، كان الطرف الشمالي من إيبويا يتألف إلى حد كبير من الحصى والرمل المترب. وطالما امتد هذا الشاطئ، كان من السهل على اليونانيين نقل سفنهم الحربية إلى الألواح الخشبية، مئات ومئات منها؛ ونظرًا لعدم وجود مياه ضحلة أو شعاب مرجانية في عرض البحر، بل كان هناك تعمق شديد الانحدار للبحر، فقد وعدأن تكون المسألة بسيطة بنفس القدر، بمجرد رؤية الأسطول الفارسي، إطلاق الأسطول مرة أخرى. على الرغم من ذلك-وكان هذا هو السؤال الذي يقضم ثقة اليونانيين بأنفسهم-اين سيتجه البرابرة؟ إذا كان الى الغرب باتجاه المضيق الذي أدى إلى تيرموبيلاي، فإن خط معركة الحلفاء، الذي يدور مثل الباب على مفصل، سيكون في وضع جيد لمنع وصولهم؛ ولكن إذا اتجهوا شرقًا، أسفل الساحل الخارجي لإيبوا، إما لتوجيه ضربات إلى الأمام في أتيكا والبرزخ أو تأرجح الى الجانب الآخر من الجزيرة وهدف إلى مؤخرة الأسطول اليوناني، فسيكون الخطر جسيمًا بالفعل. أمر الملك العظيم بالعديد من سفن التجديف بحيث كان بإمكانه بسهولة تقسيم أسطوله إلى قسمين ولا يزال يجلب قوة ساحقة لتحمله على جبهات منفصلة. لذلك، خاطر الأدميرالات المتحالفون بايجاد أنفسهم، ليس يمنعون المضائق التي تفصل إيبويا عن البر الرئيسي، ولكن يتم تكديسهم داخلها. كما هو الحال في الممر، هكذا على الشاطئ، حمل خط الدفاع الأمامي خطر التعرض للإبادة.

مر أول أسبوعين من شهر أغسطس. لا تزال المداخل إلى الشمال فارغة. امتدت هناك، عبر البحر من الإغريق المتوترين بشكل متزايد، شبه جزيرة جبلية تعرف باسم ماغنيسيا، تكسوها الغابات ومليئة بالوحوش؛ وكلهم يعلمون أنه كان على هذا الساحل غير المضياف أن يأتي الغزاة، مختبئين عن أنظار الجميع في إيبويا ، إلى أن يمروا عبر جزيرة سكياثوس، قبالة الحد الجنوبي من البر الرئيسي، يكونون في مجال الرؤية. فقط من سكياثوس نفسها ظهر احتمال لتلقي تحذير مسبق من اقترابهم، ولذا كانت ثلاث سفن دورية متمركزة على النحو الواجب في الجزيرة، وتم تجهيز منارات على تلالها. ومع ذلك، ظل البحر خاليًا من السفن-وظل البحارة في الأسطول اليوناني يراقبون سكياتوس بقلق، وينتظرون بدء الحرب، وهم يسحقون الألواح الخشبية صعودًا وهبوطًا، ويمسحون العرق اللاذع عن عيونهم. فقط عند الغسق، عندما تغرب الشمس خلف قمة كاليدروموس البعيدة، كان بإمكانهم تحمل تكاليف الاسترخاء: لأنه لا أحد في بحر إيجة، حيث كان التنقل هو القفز على الجزيرة، من المفترض أن يبحر عبر البحر المفتوح ليلاً. بعد ذلك، ربما يشعر اليونانيون بأنفسهم قد عادوا إلى عصر مختلف، عصر كان فيه أجدادهم قد خيموا بالمثل بجانب سفنهم على شاطئ منعزل: لأنه على الرغم من وجود معبد لأرتميس على تلة منخفضة خلفهم. التي أخذ منه اسمها ارتيميسيوم -خلاف ذلك كان الساحل لهم وحدهم.

وهكذا ارتفعت معنوياتهم،
وهم يتخذون مواقعهم في ممرات المعركة
طوال الليل واشتعلت النيران بينهم.
المئات الاقوياء، كما تتألق النجوم في سماء الليل
حول تألق القمر توهجوا بكل مجدهم
عندما يخفت الهواء في هدوء مفاجئ بلا ريح ...[386]

ثم، ذات صباح في منتصف شهر أغسطس، في أكثر الأوقات غير المتوقعة من اليوم، بعد الفجر مباشرة، اندلع حريق فجأة في سكياثوس. لقد شوهد العدو. كانت المعركة الأولى قد جرت بالفعل. كانت النتيجة بالنسبة

لسفن الدورية اليونانية هزيمة مذلة. كما لو كان من العدم، وحتى عندما كانت النجوم لا تزال متلألئة، انقض سرب من عشرة زوارق من صيدا على سكياثوس-لأن الفينيقيين، على عكس منافسيهم، تعلموا الإبحار في البحر المفتوح ليلا[387]. تعرضت سفن الدوريات اليونانية لكمين شامل، ثم تم تجاوزها أيضًا. كان أحدهم قد استسلم على الفور تقريبًا، وقطع حلق السجين الأفضل مظهرًا بشكل طقسي فوق مقدمة السفينة كقربان للآلهة: الدم الأول لأهل صيدا. أما الثاني، فعلى النقيض من ذلك، لم يتم أسره إلا بعد قتال عنيف. في الواقع، لقد تأثر العدو بشدة ببراعة أحد مشاة البحرية اليونانية، لدرجة أنهم بعد أن طغوا عليه أخيرًا، عالجوا جروحه بالمر، ولفوها في ضمادات، وكرموه كبطل حرب. نجحت السفينة الثالثة، وهي سفينة ثلاثية أثينية، في التهرب من مطارديها إلا أن جنحت على مسطح طيني قبالة مصب النهر. ليست أفضل بداية للدفاع عن الحرية اليونانية.

في هذه الأثناء، وبالعودة إلى ارتيميسيوم، كان كل شيء من الذعر والرعب. من غير الواضح ما إذا كانت منارة النار في سكياثوس قد أنذرت باقتراب الأسطول البربري بأكمله. تعثر الطاقم فوق الحصى وخاضوا في المياه الضحلة في صراع محموم لإطلاق سفنهم. مع مرور الساعات وعدم ظهور أي تعزيزات للعدو، أصبح من الواضح أن الصيدونيين، بدلاً من تشكيل حرس متقدم، كانوا يشاركون فقط في مهمة استطلاعية. على الرغم من نجاحاتها المبكرة المذهلة، إلا أن هذا لم يكن مخططًا له بالكامل: شاهدت سفن الدوريات اليونانية، التي كانت تتجنب الفجوة بين سكياثوس والبر الرئيسي، ثلاثة من السفن ثلاثية المجاديف المعادية تنهار على الشعاب المرجانية المخفية. ومع ذلك، وبالعودة إلى ارتيميسيوم، واصل اليونانيون إطلاق سفنهم الخاصة، وبعدها، بمجرد أن طفوا، استهدفوا المضيق قبالة إيبويا والبر الرئيسي، كما لو كانوا في حالة ذعر متهور. ولم يكن إعطاء المزيد من الانطباع بجنون القلب بأي حال محاولة لتأمين القبض على الصيدونيين؛ ولا حتى عندما بدأوا بعرض وقح للبرودة، في بناء علامة دالة على الشعاب المرجانية المخفية. كان الأمر كما لو أن

الإغريق، المتباهون بإحباطهم المعنوي. كانوا يتطلعون بشكل إكيد إلى إرسال تقرير إلى القيادة الفارسية العليا.

وربما كانوا كذلك. بالطبع، مع الأخذ في الاعتبار القوة الكاملة لضربة المطرقة التي كانت على وشك السقوط عليهم، كان من المتوقع فقط حدوث نوع من التشنج. قد يكون قد انتشر إلى القمة. لم يكن يوريبيادیس، الأدميرال الكبير، أكثر القادة إلهامًا. بصفته اسبرطياً، يبدو أنه شعر بعدم الارتياح بشكل مضاعف عندما وجد نفسه على متن سفينة بعيدة حتى الآن عن بيلوبونيز. كانت مساهمته الرئيسية في استراتيجية الحلفاء تئن مرارًا وتكرارًا بأن "الفرس كانوا لا يقهرون في البحر"[388]. ومع ذلك، كان يوريبيادیس، على الرغم من انه القائد، بالكاد مسيطرا. كانت القيادة الفعالة للأسطول اليوناني تقع بدلاً من ذلك على عاتق أميرال من فرقته الاكبر -وكان ثيميستوكليس قد دافع دائمًا عن الحفاظ على خط أمامي. لماذا إذن قد وافق على الانسحاب من ارتيميسيوم؟ فشجاعته، على أي حال، بالكاد يمكن الشك فيها: لقد قاتل في ماراثون: كان يعرف ماذا تعني مواجهة البربري وعدم الفرار. كان سيتذكر أيضًا كيف تم الفوز بالنصر المشهور. هو ورفاقه في الوسط الضعيف، أجبرهم زحف أعدائهم على التراجع، و قلبوا هجوم البرابرة ضدهم، بحيث امكنهم ادارة أجنحتهم، وأوقعوا الفرس في فخ مميت. الغطرسة، غطرسة العدو الذي يعتقد أنه لا يقهر، يمكن، إذا تم التلاعب بها بالمكر الواجب، أن تحول حتى الوزن الهائل للأرقام إلى احتمالية: يبدو أن هذا كان الدرس الذي استوعبه ثيمستوكليس من اشتباكه السابق مع العدو. ومن ثم، قد يكون وراء اختياره الانسحاب من ارتيميسيوم. انسحب قبل أسطول المعركة الفارسي، وقم بإغرائه في المضايق الضيقة قبالة إيبويا، وضايقه بحثًا عن مكان، وهاجمه-واقضي عليه، ربما. تسديدة بعيدة-لكن التسديدات الطويلة عملت من قبل ضد الميديين.

لكن ليس في هذه المناسبة. تم نثر الفخ-لكن لم يكن هناك من يأخذ الطُعم. مر اليوم، وبقيت نقاط المراقبة على مرتفعات إيبويا تشير إلى أن الممرات البحرية من ماغنيسيا خاوية. وبدلاً من أن تعود السفن الحربية اليونانية إلى أرتميسيوم، انسحبت بدلاً من ذلك جنوباً. كالسيس، حيث توقف

المجدفون المرهقون أخيرًا لالتقاط أنفاسهم، استلقوا في منتصف الطريق أسفل الساحل الغربي لإيبويا. من هناك، اعتمادًا على الأخبار التي يتم إحضارها إليهم من خلال مراقبتهم لنوايا الأسطول الفارسي، سيكون اليونانيون في وضع جيد إما للاندفاع من أجل الأمان النسبي لساحل أتيكا أو العودة بالطريقة التي عادوا بها، والعودة إلى الدفاع. من جناح ليونايدس. يمكن أن يشعر المجدفون أنفسهم، مع وجود سلسلة التلال العظيمة لإيبويا الآن مثل درع بينهم وبين البحر المفتوح، والحرارة المتزايدة بشدة، بالتأكيد أن يشعروا بقدر من الراحة عند الابتعاد عن الشواطئ المكشوفة من ارتيميسيوم -للحرارة الشديدة في أواخر الصيف ينذر دائمًا بـ Hellesponter. كانت تقاليد البحارة في بحر إيجه ألا يثقوا أبدًا في الطقس بعد 12 أغسطس-وكان 12 أغسطس قد جاء وذهب بالفعل. لا تزال الأيام تمر. لم تكن هناك حتى الآن مشاهد جديدة للأسطول الفارسي. ولا أي تخفيف للحرارة. الإغريق، المتحصنين في خالكي، أبقوا أعينهم مثبتة على منارات التحذير فوق التلال الإيبوية المرتفعة، ودللوا أصابع قدمهم في التيارات الباردة للبحر. وفعلوا كما نصحهم أبولو: صلوا للرياح.

هم أيضا يخدمون الذين يقفون وينتظرون فقط. إذا كان ليونايدس، الذي كان يقوم بواجبه كالحارس الوحيد في تيرموبيلاي، مستعدًا للموت، فإن ثيميستوكليس، بالتأكيد، قد وضع قلبه على قيد الحياة. كان مجيدًا، بعد أن ترك المنزل والعائلة وراءه، بعد أن قام برحلة إلى الحرب في أرض بعيدة، ورهن المرء بحياته في مسابقة عليا للشجاعة والتحمل، ثم السقوط في أرض المعركة، ومع ذلك أيضًا، في التقاليد اليونانية، قد يظهر البطل غريزة الحفاظ على الذات ولا يكون أقل من بطل. أخيل، الذي منحته والدته بدائل شيخوخة سعيدة ولكن غامضة أو موت مبكر ومجد لا يموت، لم يتردد؛ لكن هوميروس، في ملحمته العظيمة الثانية، تغنى بمآثر رجل اتخذ خيارًا مختلفًا تمامًا. أوديسيوس، عريض الصدر مثل ثيميستوكليس، ومثله "رجل التقلبات والانعطافات"، لم يكن يريد شيئًا أكثر، بعد أن أقال تروي، من العودة إلى المنزل لزوجته. من أجل تحقيق ذلك، لم يكن لديه أي حيلة، ولا خداع، ولا

مكيدة. هذا هو سبب إعجاب أثينا به وتكريمه على كل من تفضلهم: لانه "هنا بين الرجال الفانين"، كما أخبرت أوديسيوس، "أنت الأفضل في التكتيكات، والغزل، وأنا مشهورة بين آلهة الحكمة، حيل ماكرة، أيضا[389]". لذلك كانت تحب الأثينيين الذين اعتبروا أذكى اليونانيين. وهكذا، كلما يظهر أن المستحيل يصير فجأة غير مستحيل، ويبدأ حل مشكلة تبدو مستعصية في الظهور، يعرف الإنسان أن أثينا تقف إلى جانبه. كان ثيمستوكليس يوازن احتمالات المعركة، ويقلب الحيل الجديدة في ذهنه، من المؤكد أنه لم يكن ليقتصر على رفع الصلاة الى ريح الشمال وحدها.

"بالاتحاد مع أثينا جهز يدك للعمل": هكذا ذهب المثل[390]. لكن في الوقت الحالي، أفلتت المبادرة من قبضة ثميستوكليس. سوف تعتمد خطوته التالية على ما فعله الآخرون أولاً: الفرس-وآلهة الرياح. دون أن تكون هناك أي تطورات جديدة-وما زالت درجات الحرارة ترتفع. ثم، أخيرًا، بعد حوالي عشرة أيام، ربما بعد أن تخلى الأسطول اليوناني عن محطته في ارتيميسيوم، كانت هناك دعوة للاستيقاظ المفاجئ. قاطع قارب ذو ثلاثين مجذافًا، بقيادة أحد الأثينيين، وهو أحد أقرباء ثيميستوكليس المسمى أبرونيكس، جاء مسرعًا عبر المضيق إلى خالكيش. تم تعيينه في بداية الحملة ليكون ضابط الاتصال بين ليونايدس والأسطول اليوناني، وأرسل أبرونيكوس صديقه بأخبار مقلقة. يبدو أن الحرب الزائفة قد انتهت. كان جيش الملك العظيم يقترب من ثيرموبيلاي. وكان الميديون عند البوابات الساخنة.

العاصفة تندلع

لم تكن هناك حاجة إلى نقاط المراقبة للتحذير من اقتراب ملك الملوك. قبل وقت طويل من بدء وحدات الاستطلاع الفارسية الأولى بالانتشار فوق الأراضي المنبسطة على طول شاطئ الخليج المالي، كان ليونايدس يعلم أن هناك قوة لايمكن حسابها تقترب منه. ربما تكون سماء شهر أغسطس خالية من الغيوم، لكن الأفق إلى الشمال ضاع خلف ضباب من الغبار. صار أكثر تراباً، وسمكًا، واكثر عصفا؛ ثم الأرض نفسها، التي ارتجت تحت آلاف وآلاف الخطى، بدأت تتزلزل. كانت هذه، بالمعنى الحرفي للكلمة، هي سلطة الملك العظيم: أنه

يستطيع أن يزلزل العالم. ولسنوات طويلة، فرض عملاؤه على اليونانيين استراتيجية الرعب الزاحف. والآن، أخيرًا، صار الرعب على أبوابهم.

بالنسبة للمدافعين عن ثيرموبيلاي، وهم يحدقون في رعب عبر الخليج، كان مشهد جحافل الملك العظيم نظامًا يتجاوز أحلك تخيلاتهم. مرارًا وتكرارًا، كان ضجيج تقدمهم الآن مدويًا، متلامعا أمام الأنظار، تحمله قواطع الغبار الخانق الجياشة. تقدم البرابرة. بالنسبة لليونانيين، الذين يمسحون الحصى من عيونهم الدامعة، ويشعرون بأن الأرض تحتهم ترتجف لساعة بعد ساعة متواصلة، تقارير الجواسيس الثلاثة الذين تم إرسالهم إلى ساردس، والذين تحدثوا عن إفراغ آسيا، وحشد الملايين ضدهم. بدت مؤكدة بشكل مروع. بدأ الذعر في السيطرة على الجيش الصغير. الجميع باستثناء الاسبرطيون، أي الذين حافظوا على رباطة جأشهم المعتادة؛ وليونايدس، حتى عندما سعى إلى تهدئة الأعصاب بين الحلفاء، أمر حارسه الشخصي بالاحتفاظ بموقع وراء الجدار. بعد فترة وجيزة، جاء دخيل فارسي عبر البوابة الغربية. لم ينظر أي من الثلاثمائة إلى الأعلى. قام البعض بتمشيط شعرهم الطويل، كما كانت عادة الاسبرطي عند الاستعداد لمواجهة الموت. وآخرون، أجسادهم العارية زلقة بالزيت، يركضون أو يتصارعون مع بعضهم البعض: ليس بشكل صارم، مع ذلك، "في الحملة، كانت التمارين المطلوبة من الاسبرطيون دائمًا أقل تطلبًا من المعتاد... بحيث تمثل الحرب بالنسبة لهم، بشكل فريد، استرخاء من التدريب العسكري[391] ". الكشاف الفارسي، بعد أن عاين هذا المشهد بدهشة، دار حوله وركض بعيدًا. لم يقم الأسبرطيون بأي محاولة لإيقافه.

في وقت لاحق من اليوم، اقتربت سفارة رسمية من زركسيس من البوابات الساخنة. ليونايدس، الذي كان سيقابله بالتأكيد خارج الجدار حتى لا يتمكن السفراء من رؤية قلة الرجال الذين كانوا تحت إمرته، أُبلغ بشروط الملك العظيم. إذا ألقى المدافعون أسلحتهم، قد يمنحون حرية المرور للعودة إلى منازلهم؛ سيتم منحهم لقب "أصدقاء الشعب الفارسي"؛ "وعلى كل اليونانيين الذين قبلوا صداقته، سيستوطن الملك زركسيس المزيد من الأراضي، وبجودة أفضل من أي أرض يمتلكونها حاليًا[392]." بالنسبة للعديد من البيلوبونزيين،

الذين يتوقون بالفعل للعودة إلى البرزخ، فإن هذه المقترحات أكدت لهم فقط حماسهم المفاجئ للتراجع عن الممر؛ لكن الفوسيين، الذين قد يكون البرزخ بالنسبة لهم في مصر أيضًا بسبب كل الحماية التي وفرها لهم، استجابوا بغضب لاحتمال التخلي عن ثيرموبيلاي. وكذلك فعل ليونايدس أيضًا، بشكل غير مفاجئ. وبما أنه كان القائد الأعلى، وملكًا اسبرطيا، كان قراره كافياً للتأثير على المتذبذبين. سيبقى الحلفاء حيث كانوا. سيتم عقد التمريرة. عندما عادت سفارة الملك العظيم إلى البوابات الساخنة ، وطالبت اليونانيين بتسليم أسلحتهم، كان تحدي ليونايدس مقتضبًا: " Molon labe "؛ "تعال و خذها[393]."

لطالما كان أبناء وطنه يقدّرون هذه النفائس من الرزانة. كلما كانت الظروف أكثر قتامة، كلما تم تدريب الاسبرطيون بشكل أكثر صرامة: وكان ليونايدس، مدركًا تمامًا أن السكينة كان أفضل رافع للمعنويات يمكن أن يقدمه لحلفائه المترددين. نظر بشكل طبيعي إلى حارسه الشخصي لدعمه ببعض اللامبالاة الفولاذية. خاصة. لم يخيب ظنهم. عندما أطلق البرابرة سهامهم، أشار أحد السكان المحليين بشكل مروع، لدرجة أن الكثير منها كانت تصفر في الهواء كانها تحجب الشمس. الأسبرطيون، الذين اعتادوا على رفض الأسهم باعتبارها مجرد مغازل، أنثوية وجبانة، كانوا غير منزعجين تماما. وقال أحدهم متعجرفا "يا لها من أخبار ممتازة". "إذا استطاع الميديين اخفاء الشمس، فهذا أفضل لنا كثيرًا-يمكننا خوض معركتنا في الظل[394]."

ومع ذلك، على الرغم من إلهام مثل هذه الطرافة بالتأكيد، لا بد أنه صدم ليونايدس على أنه قريب بشكل خطير من روح الدعابة المشنقة. كان يعلم أن الوضع الذي يواجه رجاله في الحقيقة كان أخطر مما يقدره معظمهم. بقي ثيمستوكليس والأسطول اليوناني، الذين ما زالوا يصلون من أجل العواصف، في خالسيس. مع التخلي عن ارتيميسيوم. لم يكن هناك الآن ما يمنع الأسطول الفارسي، بمجرد وصوله من إيبويا، من التوجه مباشرة إلى المياه الضحلة قبالة ثيرموبيلاي. مثل هذه اللحظة، مع وجود الملك العظيم بالفعل خلف البوابات الساخنة، لا يمكن أن تكون بعيدة المنال. بينما كان ليونايدس يمسح الأفق الشرقي بحثًا عن صواري بعيدة، كان سيشاهد تعميق الشفق فوق الخليج المالي

واشتعال نيران المخيمات في الممر بارتياح عميق. جاء الليل-ولم يكن الأسطول الفارسي قد حل. لا يزال الحلفاء يحتفظون بثيرموبيلاي. ولكن الى أي مدى؟ بعصبية نظر الرجال فوقهم. كان القمر شبه كامل متلألئًا في سماء صافية بلا ريح. لذلك سيكون أيضًا متلألئًا فوق أولمبيا البعيدة، ولاكاديمون أيضًا. على الرغم من أن ليونايدس قد أرسل رسلًا إلى البرزخ في وقت سابق من بعد ظهر ذلك اليوم مع مناشدة يائسة للحصول على تعزيزات، إلا أنه كان يعلم أن هناك فرصة ضئيلة للرد عليها-ليس لمدة أسبوع آخر أو نحو ذلك، على الأقل، حتى تنتهي المباريات في أولمبيا وكارنيا. وكان الوقت ينفد.

طلع الفجر. دون أي تلميحات بهجوم وشيك على الممر. على طول الطريق الساحلي، قطعت وحدات متناثرة من جيش الملك العظيم وقطار أمتعته طريقهم نحو معسكره. خارج الخليج المالي نفسه، ظلت المضائق خالية من الشحن الفارسية. من المؤكد أن الأسطول الإمبراطوري كان هناك في مكان ما، يقترب من الشمال، مما يجعل على موعد مع ملك الملوك-لكن أين؟ ربما يجلب اليوم الجديد الجواب. امتد البحر، الذي لمسته أشعة الصباح، بعيدًا هادئًا وواضحًا، مؤطرًا الصورة الظلية الزرقاء لإيبوبا. بعيدًا، إلى الشمال الشرقي، ارتفعت قمم مغنيسيا. كان كل شيء لا يزال: بفضول، وبراق، ولا يزال مهددًا. ربما قرأ بحار، تم تربيته للتعرف على الحالة المزاجية لبحر إيجة، ما تنذر به اللحظة؛ لكن كان هناك عدد قليل من البحارة في ثيرموبيلاي. إذن، التغيير في الطقس، الذي جاء فجأة كما حدث، عند عواء الريح المفاجئ، لا بد أنه قد صدمهم كشيء غريب وغير أرضي، مثل أنفاس الآلهة بالفعل. على ما يبدو من العدم، بدأت عاصفة تجتاح الخليج، وتضرب الأمواج، وتضرب المدافعين عن البوابات الساخنة بأعمدة من الرذاذ. أظلم ضوء الفجر إلى السواد، واندفع الرعد بعيدًا فوق بحر إيجه[395]. الهيلسبونتر، الذي اشتاقوا إليه كثيرًا، وصلوا من أجله، جاء أخيرًا-"وبدأت كل البحار تغلي معه، مثل الماء في وعاء[396]."

اندلعت العاصفة ليومين. بقي الحلفاء متجمعين بجانب البوابة الوسطى ليومين، ولف الأسبرطيون عباءاتهم القرمزية بإحكام حولهم، بينما

اجتاحت العواصف من البحر. ليومين، أمضى البرابرة وقتهم، ولم يقوموا بأي اعتداء على الممر. وبدلاً من ذلك، راقب كلا الجانبين الطقس، ومسح الأفق الشرقي، وتعرقا على أخبار فقدان أساطيلهما. بحلول صباح اليوم الثالث من العاصفة، مع بداية هدوء الرياح أخيرًا، أمكن رؤية الحطام، المنجرف من المضيق قبالة إيبويا، عبر الخليج المالي، متمايلًا على المياه المتقطعة. ثم، بعيدًا عبر البحر الرمادي، بدأت أسراب السفن في الظهور، متوترة ضد الرياح، متجهة إلى الشمال. نجا الأسطول اليوناني من العاصفة. والآن عادت، إلى الارتياح الهائل للجيش الصغير في ثيرموبيلاي، إلى محطتها في ارتيميسيوم. تم إعادة تشكيل الروابط في السلسلة. الجبهة، في الوقت الحالي، على أي حال، يمكن أن تعقد. ولا يزال هناك رؤية مؤكدة لأسطول العدو.

أشارت التقارير التي قدمها ضابط الاتصال العامل في ارتيميسيوم في ذلك المساء إلى السبب. بالتوجه إلى فجوة سكياثوس، تم القبض على البرابرة في عرض البحر. قيل إن ساحل مغنيسيا، الذي ضربته القوة الكاملة للعاصفة، مليء بالجثث والقطع الذهبية والذهب. كان العدد الدقيق للسفن التي فقدت بسبب العواصف مسألة تخمين حتى الآن، ولكن كان هناك بعض من بين الأسطول اليوناني الذين تجرأوا على الادعاء "أنه لن يكون هناك سوى عدد قليل لمعارضتهم[397]".17 بالكاد، بالطبع، كان توقعا يمكن أن يردده ليونايدس نفسه: في السهل خلف البوابة الغربية، لا تزال نيران المخيمات البربرية مشتعلة بلا حصر. هناك أيضا كان يمكن الإبلاغ عن مذبحة قبالة مغنيسيا. كان الفشل في الالتفاف على ثيرموبيلاي عن طريق البحر قد تم هضمه. كان من الممكن أن يتم الأمر بخطة هجوم جديدة. وعلى وجه السرعة، لم يكن بمقدور الملك العظيم، مع مئات الآلاف من الأفواه التي عليه إطعامها، تحمل الاستمتاع بوقته. بدت الآثار المترتبة على ليونايدس وجيشه الصغير في ذلك المساء بديهية ومهددة. لقد انتظروا أربعة أيام حتى يقوم الملك العظيم بهجوم مباشر على مواقعهم، وفي صباح اليوم التالي، الخامس، من المؤكد أن جميع جموع آسيا ستقذف ضدهم. سيتم وضع تصميمهم وشجاعتهم على المحك مثل قلة من الرجال الذين واجهتهم من قبل؛ ولا حتى في ايام الغناء. ولا حتى في حقول

طروادة. قاموا بتمشيط شعرهم، وشحذ أسلحتهم، وصقل دروعهم إلى بريق مبهر، واستعد الأسبرطيون للفجر، ولما طوال حياتهم، تربوا على تقديمه : عرض لفن القتل.

ومن المؤكد، أن شروق الشمس قادم، و البربري أيضًا. لقد تم تكليف الميديين بمهمة مسح الممر. كان هؤلاء رجالًا ماهرين في جميع متطلبات حرب الجبال، مدرعون جيدًا أيضًا، ومعاطفهم الفخمة تتلألأ مثل حراشف الأسماك الحديدية، وكان اسمهم لفترة طويلة مصدر رعب لليونانيين. ومع ذلك، اختار ليونايدس موقعه بعناية، ووجد الميديون، على الرغم من أنهم ربما كانوا يتسلقون منحدرات زاغروس، أنه من المستحيل تسلق منحدرات البوابة الوسطى وتطويق خط المدافعين. كما لم يكن هناك مساحة كافية لهم، على مقربة من الممر، لإطلاق العنان لما كان يمكن أن يثبت بطريقة أخرى أنه استراتيجية مميتة بنفس القدر: إطلاق أمطار من السهام الثقيلة جدًا لخدمة الاسبرطيون في شدة الحرارة كحاجز شمسي. بدلاً من ذلك، وجد الميديون أنفسهم وهم يواجهون الممر، ويسارعون إلى الهجوم، أمام القليل من الخيارات سوى توجيه الهجوم مباشرة إلى جدار الدرع ومحاولة سحقه. ولكن كان هذا هو شكل الحرب التي تدرب عليها جميع الهوبليت على القتال، بشكل كبير؛ كانت دروح الميديين مصنوعة من الخيزران، بينما كانت حرابهم أقصر بكثير من حراب اليونانيين.

كذلك كان ثقل عددهم، على الرغم من أنه قد يبدو ساحقًا، إلا أنهم فشل في ذلك. كان الأسبرطيون الذين لم يسبق أن اختبروا أنفسهم ضد البربري أبدًا، قد عرفوا في غضون ثوانٍ من التأثير الأول أنهم عرفوا مقياس مهاجميهم. لا يمكن أن يكون هناك شك في شجاعة الميديين، فقد استعد الرجال لرمي أنفسهم في مواجهة صف من الرماح والدروع، لكنهم قدموا، حتى في دروعهم السمكية، فريسة سهلة لجدار من القتلة المحترفين يرتدون البرونز. في غضون دقائق، اتخذت الجبهة طابع المقبرة. استخدم الأسبرطيون رؤوسهم وسيوفهم لنزع الأحشاء، ومهاراتهم في "القتال بالقرب من أعدائهم[398]" كان شيئًا من الرعب لإخوانهم اليونانيين. الآن، في القرب الجهنمي من البوابات الساخنة، تعلم

الميديون المشاركة في هذا الرعب. أولئك الذين سقطوا فعلوا ذلك بجروح خطيرة؛ أولئك الذين ظلوا على أقدامهم وجدوا أنفسهم ملطخين بالدماء، يتزلقون على الحوايا الممزقة، ويتعثرون فوق أكوام الموتى المتزايدة.

بالنسبة لليونانيين أيضًا، مع ذلك، كانوا يجهدون للبقاء في مواقعهم مقابل الازحام الهائج للعدو، كان القتال يائسًا. لم يكن من المتوقع أن يحتفظ أولئك الموجودون في خط المعركة بمواقعهم، وذلك لرد مهاجميهم بدروعهم الثقيلة، يطعنون، ويحتزون، ويخترقون كل ما في وسعهم، شاعرين بأن الشمس تسخن باطراد برونز دروعهم، غارقين في العرق والدم. طول اليوم. كما أنها لم تكن كذلك: لان ليونايدس، بكفاءة رائعة، كفل نقلًا منتظمًا للقوات الجديدة إلى الجبهة. حتى يمكن للمنسحبين إزالة دروعهم، وتناول مشروب، وتضميد جروحهم. فحتى الاسبرطي قد يحتاج أحيانًا لالتقاط أنفاسه.

وبشكل خاص لأن ليونايدس، غير متأكد من التكتيكات الإضافية التي قد يستخدمها ملك الملوك، فقد احتاج الى ان يكون فيلق النخبة الخاص به على استعداد للتعامل مع أي طارئ مفاجئ. استمرت المعركة طوال اليوم، حتى وجد اليونانيون، بعد أن تخلصوا من الميديين، ومن ثم التعزيزات من سوزا، أنفسهم، مع إستطالة الظلال، في مواجهة مثل هذه اللحظة من الأزمة. تألق من الأسلحة المرصعة بالجواهر، ووميض الألوان الرائعة، الخالدون، الأكثر كفاءة وإخافةً من بين جميع أفواج الملك العظيم، كما هو الحال بين الفرس والإسبرطيين الذين كانوا بين الإغريق، تقدموا في الممر. لمقابلتهم، أمر ليونايدس جميع حراسه الشخصيين بالعودة إلى خط المواجهة-"وهناك قاتل اللاديمونيون بطريقة لا تُنسى أبدًا[399]". ليس الشجاعة والقوة والعزيمة التي أظهروها، كما كان متوقعًا فقط؛ ولكن أيضًا موهبة قاتلة للمناورة التكتيكية. عند الإشارة، كانوا يستديرون، يتعثرون، ويبدو أنهم يفرون في حالة من الذعر: وبعدها، عندما يندفع العدو للأمام في انتصار، وق نسي انضباطه للحظات، كان الأسبرطة يدورون، ويضربون صفوفهم بضربات مخيفة من الدروع، ويقضون على مطارديهم. كان هذا التكتيك محبطًا بشكل مضاعف لمهاجميهم: لأنه، بصرف النظر عن الخسائر التي ألحقت بهم، عمل على دس أنوفهم في الحقيقة

الغاشمة المتمثلة في جدارة معركة الاسبرطيين المستمرة، بعد القتال طوال يوم كامل، حتى في خضم الحر، و الدم والرائحة النتنة والذباب. غير راغب في تبديد أفضل قواته دون جدوى، أمر الملك العظيم مطولاً بالانسحاب، وتراجع الخالدون عبر البوابة الغربية. وترك الممر لظلال المساء والمذبحة واليونانيين.

في تلك الليلة، وسط هدير الرعد البعيد فوق ماغنسيا، بدأ المطر يهطل على أرض المعركة، فحولها ببطء إلى خليط من الوحل والدماء. في أكوام الجثث المتشابكة، بدا أن المجوهرات حول أعناق حراس زركسيس المذبوحين، المتلألئة في ضوء مشاعل الحراس، هل كانت تسخر من قذارة الذبح. و ادعاءات ملك الملوك ايضا؟ كان ليونايدس يريد بشدة أن يصدق. لكنه كان سيعرف ماهو أفضل من الاستسلام للرضا عن الذات. على الرغم من أن موقفه قد بين انه منيع أمام هجوم أمامي، إلا أنه ظل قويًا-أو ضعيفًا-مثل الأجنحة. طمأن رسل من معسكر الفوسيين على منحدرات كاليدروموس ، بعد أن انزلقوا وتعثروا في طريقهم إلى ثيرموبيلاي، طمأن ليونايدس أن الطرق الجبلية كانت فارغة؛ لكن التواصل مع الأسطول في ارتيميسيوم في تلك الليلة، إذا تغير الطقس مرة أخرى بشكل عنيف للغاية ، سيكون غير وارد. تمامًا كما كان الحال خلال العاصفة السابقة، لم يستطع ليونايدس سوى الاستماع إلى صراخ الرياح، واحتضان عباءته الحمراء عن نفسه، والأمل في الأفضل.

وربما، من أجل راحة البال، كان هذا أيضًا أيضًا-لأن اليوم الذي يمكن أن ينظر إليه المدافعون عن ثيرموبيلاي على أنه انتصار للعناد قد مر به الأدميرالات في ارتيميسيوم بروح مختلفة تمامًا20.[400] مفاجأة غير سارة تبعت بسرعة مفاجأة غير سارة. الأسطول الفارسي، بعيدًا عن الدمار التام تقريبًا، كما كان يأمل المتفائلون بين الإغريق، أثبت أنه بعيد جدًا عن الانتهاء. ربما تكون قد تعرضت للعواصف-ولكن طوال فترة ما بعد الظهيرة، عندما سرب بعد سرب، بعد أن مر بسياثوس ودور رأس مغنيسيا، بدأ يتجمع على الشاطئ المقابل لأرتيميسيوم، كان الإغريق يراقبون بإحساس متزايد باليأس. لم يسبق لأي منهم أن رأى البحر أسودًا تمامًا مع الشحن. حتى بعد الخراب الذي أحدثته العواصف، لا يزال بإمكان الفرس حشد ما يقرب من ثمانمائة سفينة ثلاثية،

وهو ما يكفي لتفوق عدد أسطول الحلفاء بنحو ثلاثة إلى واحد. حتى التخبط العرضي في قاعدتهم المكونة من خمسة عشر سفينة معادية والاستيلاء على أطقمهم لم يفعل الكثير ليهتف به اليونانيون. الآن بعد أن تمكنوا من رؤية الأسطول الفارسي أمامهم، على بعد عشرة أميال فقط عبر البحر المفتوح، كان هناك الكثير ممن بدأوا في المجادلة من أجل انسحاب ثان، وعلى وجه السرعة، قبل أن يتمكن البرابرة من إكمال إصلاحاتهم. كان هذا الحديث يعلو ويتعالى- مما أثار ذعر السكان المحليين، الذين كانوا بالفعل متوترين من احتمال التخلي عنهم إلى الميديين. وسرعان ما أرسلوا وفدًا محمومًا، أولاً إلى يوربيدس، وبعد ذلك، عندما رفض طلبهم، إلى ثيمستوكليس، متوسلاً الحلفاء للبقاء. كان ثيمستوكليس، الذي كان مرعوبًا مثل الإيبويين من احتمال إخلاء ارتيميسيوم، قد طالب بمرح مع ذلك برشوة لخدماته. بعد أن اخذ معظمها لنفسه، استخدم الفائض لتزييت كف يوربيادس. لم يكن هذا الأسلوب الدعم الذي كان يفضله ليونايدس، لكنه كان بنفس الفعالية. اتفق يوربيادبس والأدميرال الآخرون على النحو الواجب على أن يبقى أسطول الحلفاء في أرتميسيوم ويحتفظ بالجبهة.

ومع ذلك، ما إن حلت القيادة العليا هذا الأمر، حتى انتابها ذعر متجدد. في وقت متأخر من بعد الظهر، في نفس الوقت تقريبًا الذي كان فيه الخالدون يتقدمون ضد البوابات الساخنة، وبينما كانت الأسراب الفارسية، مع كل التباهي الذي يمكنهم حشده، يقومون بمراجعة مخيفة قبالة الساحل المقابل، استحوذ الحلفاء على هارب يوناني من أسطول العدو، أحد سكيلياس ، من البحر. الغواص المحترف، الذي ادعى أنه سبح مسافة عشرة أميال إلى ارتيميسيوم تحت الماء بالكامل، كان للأخبار التي أحضرها معه مصداقية ربما تفتقر إلى تفاخره: بالتأكيد، كان ذلك كافيا لتهدئة دماء الأدميرالات المستمعين. أفاد سكيلياس أن العدو، أثناء إصلاح الهيكل الرئيسي لأسطوله، قام بفصل مائتي سفينة صالحة للابحار لشق طريقه خفية أسفل الساحل الشرقي لإيبويا، حول طرفه الجنوبي، ثم دعم جانبه الغربي. هنا، رفع رأسه مرة أخرى، وكان أسوأ سيناريو لليونانيين: أنهم قد يجدون أنفسهم مكتظين، و البربري أمامهم ويمنعهم من الهروب. لحظة من الخطر المميت، بالتأكيد-ومع هذا، كما كان

ثيميستوكليس سريعًا في الإشارة، فإن ذكاء سكيليس قد وضّح الفرصة وكذلك الخطر. افصل سربًا كبيرًا من الأسطول في ارتيميسيوم ، وأرسله أسفل المضيق بين إيبويا والبر الرئيسي، وثق في الآلهة أن الدوريات قبالة أتيكا ستلاحق مائتي سفينة فارسية عندما تكتشفها، وقد يكون البرابرة هم البرابرة الذين وجدوا أنفسهم محاصرين بين فكي كماشة.

كل هذه المقامرة ضخمة بالطبع-لكن إذا كان لدى اليونانيين أي أمل في وقف التقدم الفارسي، فلم يكن لديهم خيار سوى الثقة في بعض الأحيان بالجرأة والحظ. تم تمرير القرار حسب الأصول: "أن تبحر وتلتقي بسفن العدو التي كانت تبحر حول إيبويا"[401].21 وبطبيعة الحال، نظرًا لأنه كان من الضروري عدم تنبيه البرابرة على الشاطئ المقابل إلى أي ضعف في الأسطول الرئيسي في ارتيميسيوم ، فلن تتمكن المفرزة من المغادرة إلا بعد حلول الظلام-وبعد أن أظهر اليونانيون، إذا أمكنهم ذلك، العدو الذي لم يكن لديهم نية مهاجمته والهرب. لقد فعلوا ذلك من خلال المغامرة الجريئة بالخروج من مواقعهم في البحر المفتوح، وتحديهم الفرس لمهاجمتهم-وهو ما فعله الفرس، الواثقون من الوزن الساحق لأعدادهم، والمهارة الأكبر لطواقمهم. فيما بدأت الشمس في الغروب خلف القمم الغربية للبر الرئيسي، كان أسطولهم يندفع جائعًا عبر القناة المفتوحة، ويغمر الخط الأقصر بكثير لليونانيين، ويتطلعون إلى تطويقه، وسحقه، وإنهاء الحرب هناك بعدها. ومع ذلك، توقع اليونانيون هذا التكتيك، وأعدوا مناورة مصممة خصيصًا لمواجهته: تشكيل أنفسهم في دائرة، وكباشهم موجهة إلى الخارج، مثل أشواك القنفذ الملتفة بإحكام في كرة، ثم انتقلوا فجأة إلى الهجوم. وجد الفرس، في القتال المتلاحم الذي أعقب ذلك، أن سرعتهم الفائقة وخفة الحركة قد أبطلت. تم الاستيلاء على حوالي ثلاثين من سفنهم، وعندما تغمق الشفق فوق بحر إيجة، انتهى القتال المطول، كان اليونانيون، لدهشة وسعادة، هم الذين استطاعوا المطالبة بتكريم الاشتباك. يبدو أن مهارة الملاحة البربرية قد يتم مواجهتها، بل وحتى هزيمتها، في النهاية. لم يكن من الممكن تخيل اثارة أفضل لتلك الأطقم التي تواجه رحلة ليلية محفوفة بالمخاطر.

ثم جاءت العاصفة بالطبع. مع تساقط الأمطار على سفن الأسطول اليوناني، سرعان ما مزقت الرياح، التي كانت تصرخ من الجنوب الشرقي فوق خصلة أرتميسيوم الكئيبة، أي احتمال لقضاء إجازة في منتصف الليل. لكن لحسن الحظ بالنسبة للحلفاء، لم يكن هذا هو الحد من أضرار العاصفة: لأن حطام معركة المساء سرعان ما بدأ يندفع نحو مواقع العدو، حيث أفسد مجاديف سفن الدوريات المتدحرجة وملأ الموانئ بالصواري والجثث. بعد تعرضهم لعاصفة أخرى، وهم ما يزالون يلعقون جراحهم من الضربات غير المتوقعة التي تلقوها على أيدي الإغريق، حان الآن دور الفرس ليُلقوا في حالة من الذعر -"لأنهم تخيلوا أن ساعة هلاكهم قد حلت[402]." كما ثبت، فقد تصوَّروا خطأ: الموانئ التي كان الأسطول قد اتخذ فيها ملاذًا في اليوم السابق عملت على حمايته من أسوأ اضرار العاصفة. ومع ذلك، لم يكن مثل هذا الملجأ بالنسبة للسفن المائتين المرسلة جنوبًا حول إيبويا . لأن الساحل الشرقي المتوحش للجزيرة، بصخور ومنحدرات خشنة، كان مكانًا بائسًا يجب أن تعلق به أثناء العاصفة. يقال إن الأسطول كان " أعمى أمام الرياح والمطر" تحطم على بقعة سوداء سيئة السمعة تعرف باسم "الأجوف". وبالتأكيد، بغض النظر عما إذا كانت جميع السفن قد ضاعت أم لا، كما كان اليونانيون قد احتشدوا لاحقًا، فإن العاصفة كانت قد حددت نهاية مهمتهم[403].

بحلول بعد ظهر اليوم التالي، وصلت تقارير تحطم السفن إلى أرتميسيوم، وكان الأدميرالات اليونانيون واثقين من أن خطوط انسحابهم لم تعد مهددة، ويمكنهم أن يتنفسوا الصعداء. لا يعني ذلك أن لديهم أي نية الآن للتخلي عن موقفهم المتقدم. ظهرت احتمالات تثبيت الجبهة فجأة وردية وليس كما كانت تبدو قاتمة في اليوم السابق. كانت الأخبار السارة تأتي من كل مكان: تعزيزات، ثلاثة وخمسون سفينة جديدة من أثينا؛ تدمير سرب من السفن القيليقية في غارة مفاجئة في المساء؛ الإحاطة، التي قدمها أبرونيكوس، ضابط الاتصال، بأن ليونايدس ورجاله صمدوا في اليوم الثاني من الضربات القاسية في البوابات الساخنة. إذا لم يتمكن الملك العظيم من تحقيق اختراق قريبًا، فإن جيشه سيبدأ في التعرض للجوع. كان الوقت قد تأخر بالفعل في موسم

الحملات ، وكان البرابرة بعيدين عن موطنهم. إن كان بإمكانهم فحسب تجنب الهزيمة، وإبقاء الميديين في مأزق، فإن ذلك، بالنسبة لليونانيين، سيثبت بالتأكيد النصر بما فيه الكفاية.

لكن الاختبار الحقيقي لأسطول الحلفاء وقدرته على صد العدو لم يحن بعد. لم يحاول الفرس، الذين كانوا يسعون جاهدين جعل سفنهم المتبقية صالحة للإبحار مرة أخرى، تحطيم المحور الرئيسي للخط اليوناني بأكمله الذي، إذا تم قهره، سيفتح الطريق إلى ثيرموبيلاي: المضائق بين إيبوبا والبر الرئيسي. بزغ فجر اليوم الثالث من المعركة ولم يكن لدى اليونانيين، الذين كانوا يشاهدون من ارتيميسيوم، أدنى شك في أن لحظة الحقيقة قادمة أخيرًا. سرب بعد سرب من الأسطول البربري-الفينيقي، المصري، الأيوني-بدأ يتجمع في القناة المفتوحة. الآن، بعد كل المناوشات، كل لعبة، كان من المقرر أن يأتي: أول هجوم أمامي كامل من بحرية الملك العظيم على المواقع اليونانية. أخذ الرجال في التجديف لمنع مروره، الرجال الذين سحبوا المجداف لأول مرة منذ أشهر فقط-أو، في حالة بلاتيا ، أسابيع-قبل أن يستعدوا للقتال.

أقل قدرة على الحركة من العدو، كان الأسطول اليوناني، بعد أن سد المضيق، ثم اختار انتظار الفرس لفرض الهجوم. المجذفون، كانت مفاصلهم تبيض وهم يمسكون بمجاديفهم، أنوفهم تتقلص من الرائحة الكريهة للعرق وحركة الأمعاء، جلسوا القرفصاء على مقاعدهم الخشبية. يجاهدون لسماع صوت صرير الأخشاب، وخز المياه، والكلام العصبي من رفاقهم مع اقتراب مد المعركة. بعد فترة وجيزة، ارتفعت الصرخة من مشاة البحرية على ظهر السفينة: كان البرابرة يقتربون. رؤوس شخصيات مرسومة ببهجة: صراخ متغطرس هتافات الحرب الهمجية[404] ": كانت هذه مشاهد وأصوات التقدم الفارسي أثناء انتشاره عبر القناة. كان التأثير، عندما جاء على النحو الواجب، ساحقاً. حارب اليونانيون طوال اليوم بيأس لإبقاء العدو في مأزق، "يصرخون لبعضهم البعض أن البرابرة يجب ألا يخترقوا الطريق، حتى عندما سعى الفرس، الذين يتطلعون إلى مسح الممر، إلى القضاء عليهم"[405]. بطريقة ما، على الرغم من الضرب المخيف الذي تلقوه، تمكن اليونانيون من السيطرة على

المضيق-ولكن لوهلة فقط. غرقت العديد من السفن أو تم الاستيلاء عليها، وهي خسائر لا يتحملها أسطول الحلفاء الأصغر؛ تم تعطيل العديد من الآخرين. الأثينيون، الذين تحملوا العبء الأكبر من هجوم العدو طوال المعركة، توقف نصف أسطولهم عن العمل. بدت احتمالات الإمساك بالمضيق في اليوم التالي قاتمة. ولسوء الحظ، بدأ اليونانيون في جمع الحطام من المعركة، ومراكمته على الرمال ليكون بمثابة محارق لموتاهم، في حين أن أميرالاتهم، والوجوه القلقة التي أضاءتها حرائق الجنازات، ناقشوا ما يجب القيام به بعد ذلك. حتى الآن، كان السكان المحليون، الذين رأوا الحالة الممزقة للأسطول اليوناني وتوصلوا بالفعل إلى استنتاجاتهم الخاصة فيما يتعلق بمآله، يقودون ماشيتهم إلى الواجهة البحرية، على أمل أن يتم تضمينهم في أي عملية إخلاء. بعد أن أدرك ثيمستوكليس أن التخلي عن ارتيميسيوم قد يكون ضرورة بالفعل، ولم يكن يرغب في أن يضطر رجاله الذين أنهكتهم المعركة بالفعل إلى التجديف طوال الليل على معدة فارغة، فأمر بشواء المواشي.

ومع ذلك، فإن الحالة المزاجية على طول الشاطئ المليء بالنيران في تلك الليلة، حتى وسط كل الإرهاق وخيبة الأمل، لم تكن مليئة باليأس. واجه اليونانيون أسطول الملك العظيم في معركة مفتوحة وعاشوا ليرووا الحكاية. لقد تم تحقيق أشياء عظيمة في ارتيميسيوم -وليس جميعها بسبب الرياح. ظل أسطول الحلفاء سليما كقوة مقاتلة. والانسحاب إذا جاء سيكون استراتيجيا ومنظما. لا يمكن اتخاذ أي قرار نهائي في كلتا الحالتين حتى وصول الأخبار من البوابات الساخنة -فالتزامن مع ليونايدس وجيشه ظل مفتاح الحملة بأكملها. ولم يعرف أي من القوات البحرية ما حدث في تيرموبيلاي. مع حلول الغسق ليلاً، كان على الأدميرالات أن يلعبوا لعبة الانتظار. صعودا وهبوطا على الشاطئ، يتنفسون الروائح المختلطة باحتراق اللحم البقري واللحم البشري، ويلقون بنظراتهم عبر القناة إلى الأضواء البعيدة للمواقع الفارسية، وينتظرون أبرونيكوس لتقديم إيجازه اليومي من الملك الاسبرطي .

وصل قاربه الصغير في تلك الليلة قبالة أرتميسيوم في الوقت المناسب. كان البحارة، الذين تجمعوا حول نيران المعسكر، لا يزالون يتناولون العشاء. لم

تكن السفن جاهزة للمغادرة بعد؛ لم يكن إحساس بالأزمة يسيطر على المخيم. لمحة واحدة على وجه أبرونيكوس، عندما جاء يتعثر في المياه الضحلة، و تغير كل ذلك. كل من رآه كان يعلم، حتى قبل أن يتحدث، أن شيئًا فاجعًا قد حدث في تيرموبلاي.

عشاء ملوكي ووجبات الإفطار الاسبرطية

حتى وقد تم إغلاق الطرق في السهل الترابي، بجانب شاطئ البحر المر، في أرض نائية ووحشية، ظل الملك العظيم المحور الذي تدور حوله دواليب إمبراطوريته العالمية. غير قادر على توجيه غزو اليونان من برسيبوليس، أمر زركسيس ببساطة بإحضار برسيبوليس معه إلى اليونان. ليلة بعد ليلة، بغض النظر عن المكان الذي توقف فيه الملك العظيم، كان الخدم يهرعون لتفريغ جبال من الأمتعة من قوافل البغال والجمال، وتسوية مساحة شاسعة من الأرض، ثم يرفعون عليها خيمة رائعة للغاية بحيث يتم لوضع معظم الامكنة في الظل. نظرًا لأن العائلة المالكة الفارسية كانت مضطربة إلى حد بعيد، وتهاجر من عاصمة إلى عاصمة اعتمادًا على الموسم، فإن مهندسي الملك العظيم، بخبرتهم الطويلة في توفير الرحلات البرية الملكية، يعرفون بدقة أفضل السبل لتصنيع الفخامة مسبقًا. نتيجة لذلك، حتى في البيئة القاتمة بالقرب من ثيرموبيلاي، لم تكن الكرامة الإمبراطورية، المغطاة بالسجاد والوسائد، والمظلات الجلدية والمعلقات الملونة، تحت أي تهديد أبدًا: غرفة بعد غرفة تنطلق بعيدًا عن الحضور الملكي، بينما الخالدون، المتمركزون عند كل مدخل، وقفوا كضمان ضد أي محاولة اغتيال من قبل قدامى المحاربين في كريبتيا[406]. لا يمكن أن يكون التناقض مع الظروف داخل البوابات الساخنة أكثر وحشية: فبينما اضطر ليونايدس إلى التخييم وسط الرائحة الكريهة والعفن، كان بإمكان الملك العظيم توجيه المعركة من داخل قاعة جمهوره المعطرة؛ أو، في الليل، الذي يتطلع إلى الحفاظ على طاقته، يتقاعد إلى أريكة ذات أقدام فضية، حيث تم تجهيز الأغطية له من قبل صانع سرير متخصص، وهو عبد تم تدريبه على

"جعل البياضات جميلة وناعمة، لأن الفرس كانوا أول الناس الذين اعتبروا هذا فنًا[407]".

افترض الإغريق، الذين تمسكوا بالقش، أن ينسبوا الإسراف في مثل هذا الأسلوب في الحملات إلى التخنث: خيانة مؤسفة لافتقارهم إلى التطور. بعد أن قدم مظاهرات وافرة لشجاعته عندما كان لا يزال شابًا، لم يكن زركسيس ينوي المخاطرة بحياته في المعركة الآن، وليس مع جيش كبير وأسطول يتطلعان إليه من أجل القيادة، وحملة من التعقيد غير المسبوق لتوجيهها. ربما كانت الخيمة الملكية ضخمة، لكن يجب أن تكون كذلك إذا كانت ستوفر مركزًا عصبيًا مناسبًا لقوة عظمى عالمية. كما هو الحال في برسيبوليس، وعلى جانب الطريق المؤدية إلى تيرموبيلاي، لم يستخف الملك العظيم بالنصيحة بل طالب بها، بعد أن أدرك أن المعلم الأكثر حكمة هو الشخص الذي يستخدم عبيده على أفضل وجه. من الواضح أن زركسيس، الذي نادرًا ما يفتقر مرؤوسوه إلى الطاعة والشجاعة، كان لديهم موهبة لإلهام التفاني فيهم: لم يكن اسمه يعني "هو الذي يحكم على الأبطال"، وليس لشيء.

ما لا يقل عن الإسبرطيين، إذن، تم تقوية أتباع الملك العظيم من خلال نظام صارم. كان البروتوكول، حتى أثناء الحملة، حتى بالنسبة للأبطال، جامدًا ومقدسًا. بغض النظر عن مدى هياج العواصف خارج الخيمة، أو إلى أي مدى قد تكون الأخبار المقلقة من الأمام، فإن الملك العظيم، الجالس في روعة مناسبة على عرش من الذهب الخالص، أجرى مجالس الحرب كما لو كان يترأس برسيبوليس. فقط في الدرجة التي يمكن أن تنحني بها الأذن الملكية للأجانب، تتدخل الظروف المختلفة جدًا لـ ثيرموبيلاي على الإجراءات. على الرغم من أن الرتب العليا في الجيش شغلها أقارب الملك العظيم والمقربين وكانت كذلك، لم يتم تكريم كل شخص باستدعاء الحضور الملكي بالضرورة من أصل فارسي. كان هناك اثنان من أبناء داتيس، على سبيل المثال، في قيادة سلاح الفرسان؛ وبعد ذلك، بالطبع، كان المستشار الرئيسي لكل شيء يوناني، ديماراتوس. حتى مع قيام زركسيس بإرسال قواته بشكل دوري إلى البوابات الساخنة، واستمر في جس المدافعين عن الممر بحثًا عن أي علامة تشي

بالضعف. فقد حمّس الملك المنفي للحصول على نظرة ثاقبة في علم النفس الاسبرطي. القوة الساحقة وإتقان البيانات: الخاصيتان التوأم، كما كانت في أي وقت مضى، للطريقة الفارسية في شن الحرب. لتجميع هذه بشكل مناسب، من أجل تحييد مشكلة مثل تلك التي قدمها المدافعون عن ثيرموبيلاي، كان تحديًا لا يمكن مواجهته حقًا إلا في خيمة ملك الملوك، حيث أمراء الدم الملكي وعملاء المخابرات، ورؤساء اللوجستيات والمنشقون اليونانيون، يمكن استدعاء جميعهم بالتساوي وجمع تقاريرهم وأحكامهم.

وعلى الرغم من غضب زركسيس من دفاع البوابات الساخنة، إلا أنه لم يستسلم لإحباطه، بل استشار محيطيه وأجرى حسابات وأصدر أوامر وظل صابراً. ملك شعب الجبل، بالكاد جاء مثل أي إيحاء عظيم له أن الممر الضيق قد يصبح منيعا أمام هجوم مباشر. على سبيل المثال، كانت البوابات السورية التي تسلل من خلالها داتيس وجيشه في طريقهم إلى ماراثون، مليئة بتحصينات أقوى بكثير من تلك الموجودة في ثيرموبيلاي: كماشة جاهزة دوماً للانطباق، في حالة الطوارئ، على تدفق الطريق الملكي. ومع ذلك، حتى عندما "تحاكي البوابة الطبيعية بالضبط الدفاعات التي تثيرها البراعة البشرية[408]"، سوف تخون دائمًا، كما يعلم الجيش الفارسي جيدًا، ضعفًا قاتلاً-لأن هناك القليل من الخوانق التي لا يمكن بطريقة ما تجاوزها من خلال طريق عبر مرتفعاتها. كانت بوابات سوريا، والبوابات الكيليسية، والبوابات الفارسية كلها عرضة للتطويق من الطرق الجبلية. فلماذا لا تكون البوابات الساخنة أيضًا؟

مع صمود الإغريق ضد كل ما يمكن إلقاؤه عليهم مباشرة، أصبح هذا، ساعة بساعة، سؤالًا أكثر إلحاحًا. قد يكون هناك القليل من الشك في أن العملاء الفرس، حتى قبل وصول الملك العظيم، كانوا ينتشرون فوق سفوح أويتا وكاليدروموس، ويفحصون وضع الأرض، ويلوحون بالذهب أمام الفلاحين، مناشدين المرشدين المحليين. لم يكن أي منها وشيكًا: تراكيس، التي كانت تجثم فوق شق مضيق أسوبوس القريب من الصخور، كانت معادية للملك العظيم، وكان معظم السكان المحليين قد فروا إما إلى الجبال أو إلى ليونايدس. ومع ذلك، ترك البعض، وكل ما يتطلبه الأمر هو أن يتصدع يوناني واحد، واحد فقط،

يخيفه مشهد روعة الملك العظيم؛ والروعة، بالطبع، كانت شيئًا قام به الملك العظيم بشكل فائق و استثنائي.

على وجه الخصوص، كانت خيمة زركسيس الخاصة، الضخمة في وسط المعسكر المترامي الأطراف، والبيارق الحربية الإمبراطورية المزينة بنسور ترفرف فوقها. لم يكن هذا مجرد مقر للحملة. ولكن بفضل إعادة بنائه بعناية كتخطيط برسيبوليس، وصولاً إلى أدق التفاصيل، درسا متقدما متنقلا في ديناميات السلطة الملكية. مجهول عند هؤلاء لأنهم لا يمكن أن يكونوا سوى متوحشين على الحافة الخارجية للعالم، كان على اليونانيين أن يكونوا مبهورين، مرتعبين وخائفين من جهلهم المؤسف. في محاولة الشرح لزركسيس أهمية الكود الليكورجوسي، أكد ديماراتوس بجرأة أن الأسبرطيين يخشونه "أكثر مما يخافك رعاياك"[409] الامر الذي بالكاد ضحك عليه ملك الملوك "ولم يغضب" ثم صرفه برفق شديد[410]. ربما كانت النزعة الإقليمية الغاضبة في المنفى الحنين إلى الوطن مزحة مثيرة للشفقة لدرجة أنها تثير غضب سيد القوة العظمى. وربما-بالنسبة للإسبرطيين كانوا شعبًا تجرأ على قتل سفراء أبيه، وأرسل ملكهم بثلاثمائة رجل فقط لمعارضة كل قوة جيشه-كانت غطرستهم شيئًا يصعب على زركسيس الشك فيه. "اليوناني النموذجي: رجل يحسد ثروة الآخرين، ويستاء من قوة أولئك الذين هم أقوى منه[411]." هذا، الذي تم تسليمه بتنازل ساحق ولكنه ليس غير دقيق، كان الحكم المدروس للقيادة الفارسية العليا على نفسية عدوهم. ومع ذلك، كان من الممكن تطبيق نفس الاسلوب بالضبط على الميديين أو البابليين أو المصريين-وقد تم إثبات خطأ كل تلك الشعوب القديمة بشكل صارم.

إن شعور الملك العظيم بالتزامه الرسمي بفتح أعين أوروبا على مستقبلها في النظام العالمي الجديد يمكن قياسه من الوتيرة البطيئة لتقدمه من هيلسبونت. وقد تركه هذا يصل إلى ثيرموبيلاي بشكل محفوف بالمخاطر في وقت متأخر من موسم الحملة؛ ولكن كان من المهم لزركسيس أن يوجه رعاياه الجدد بدقة شديدة في طبيعة الخضوع الذي يدينون به له. في حين أن سلسلة من المسيرات، سباقات القوارب وسباقات الخيول استمرت في التباهي بالنطاق

العالمي لموارد الملك العظيم. لذا فإن المساهمة التي كان على السكان الأصليين أنفسهم تقديمها لهذه الروعة، والاحترام الذي سيسمح لهم بعرضه لسيدهم، تم نقله إلى الوطن بالمثل. خلال فصل الشتاء، تم توجيه كل مدينة في مسار الرحلة الاستكشافية لإعداد وليمة مناسبة للملك. لأشهر، لم يفعل السكان الأصليون سوى الذعر من قوائم الطعام. إن التكليف بإعداد حفل عشاء وفقًا للمعايير الفخمة لبرسيبوليس كان سيشكل صداعًا كافيًا لأي مضيف، لكن هذا كان أقل التزاماتهم تقريبًا. كان هناك أيضا جنود الملك العظيم الذين يجب إطعامهم وخيوله وبغاله وجماله. كان لابد من توفير الخشب لنيران الطهاة الملكيين. يجب أن تكون الأكواب على طاولة الملك العظيم من الفضة والذهب، والتركيبات من أجود أنواع الكتان، والبسط والسجاد من أنعم وأفخم المواد التي يمكن للمواطنين البائسين تحملها. ولم يكن هناك أي احتمال لبيعها بعد ذلك للمساعدة في تعويض النفقات، بمجرد استخدامها. لأن الفرس، مثل أسوأ نوع من ضيوف المنزل، كانوا معتادون على تخزين جميع المفروشات "والسير، دون ترك شيء ورائهم[412] ". لا عجب أن مهرجا، نزف دمًا من "رعب" استضافة الجيش الإمبراطوري، قد دعا مواطنيه إلى تقديم الشكر للآلهة "أن الملك زركسيس لم يكن معتادًا على طلب الإفطار أيضًا[413]".

لا عجب أن الإسكندر المقدوني، في شهر مايو، عندما واجه احتمال وجود قوة يونانية ممسكة في تيمبي على الحدود الجنوبية لمملكته، أرسل لها رسالة محمومة، محذرة قادتها من أن موقفهم لا يمكن الدفاع عنه. صحيح تمامًا، بالطبع-واستنتاج بدأ الإغريق بالفعل في رسمه لأنفسهم-لكن أمن القوة الضاربة، من وجهة نظر الإسكندر، كان مجرد عمل عرضي. بدلاً من ذلك، كان همه الرئيسي هو ضمان إقامة قصيرة للجيش الفارسي في مقدونيا قدر الإمكان. تابعا لملك الملوك، كان الإسكندر يدرك بشكل مؤلم أن سيده اعتبر الإمبراطورية بأكملها بمثابة مخزن له-أن "مختلف الأطباق الشهية للبلدان التي حكم عليها، وأفضل ثمار في أي منها[414]" كانت كل ما يستحقه. تحية يجب اقتطاعها من أجل المنفعة الحصرية للمائدة الملكية. لقد تم تصوير الأعياد التي تمت بمثل هذه النفقات والعذاب من أولئك الذين كانوا على طريق زركسيس على أنها

هدايا، ليس من أولئك الذين قدموها، ولكن من الملك العظيم نفسه، التي منحها لأتباعه بشهامة: "عشاء الملك". وقيل أيضًا، على العكس من ذلك، أن زركسيس رفض أي تخصصات يونانية، وأمر بسحبها إذا تم تقديمها في أي وقت-لأنه لا يُسمح إلا بدهن أراضي رعاياه بالمرور على شفاه الملك العظيم. الوقت الكافي لتين أتيكا مرة واحدة جلس زركسيس في أثينا المحتلة.

كان احتمال أن يتضور جيشه جوعًا، أو حتى-يهلك الفكرة-بأن المائدة الملكية نفسها قد تبقى فارغة، كان يمثل أزمة أكثر بكثير من مجرد لوجستيات: لأن أسس الهيبة الإمبراطورية كانت معرضة للخطر. إذا حرم الملك العظيم من حلوى البودينغ الخاصة به، فقد تبدأ الروح المعنوية في الانهيار. لا يعني ذلك أنه كان من السهل اكتشاف بيروقراطية شديدة الاهتمام بالتفاصيل لدرجة أنها كانت معتادة على إصدار أوراق سفر للبط. تم اتخاذ استعدادات واسعة النطاق لمثل هذه اللحظة من الأزمة وهي تختمر في ثيرموبيلاي. من المؤكد أنه كان ممكناً إحضار الطيور المائية في قطار الأمتعة الإمبراطوري، وكذلك الحال مع أي عدد من الأطباق الأخرى التي اعتاد عليها الحنك الملكي: زيت الأقنثة من كرمانيا، والتمور من بابل، والكمون من إثيوبيا. حتى مياه شرب الملك العظيم تم نقلها في جرار كبيرة من نهر بالقرب من سوزا.

ومع ذلك، فإن توريد المكونات-وخاصة المكونات الطازجة-كان له حدود، حتى بالنسبة لرؤساء الخدمات اللوجستية منقطعة النظير في بلاد فارس. بحلول اليوم السادس من التوقف القسري في ثيرموبيلاي، أصبح الوضع خطيرًا خارج الحدود المذهبة للخيمة الملكية. بين الجموع المحتشدة من الرتب والجنود. شهية الإيرانيين، على وجه الخصوص، لم تكن مناسبة بسهولة لشد الأحزمة. الإغريق، الذين كانوا يأكلون فقط لحوم الحيوانات التي تمت التضحية بها لأول مرة للآلهة، فحكوا قصصًا بعيون واسعة عن أذواق أعدائهم أكلة اللحوم. قيل إن الفارسي لن يمانع في خبز حمار كامل عند الاحتفال بعيد ميلاده؛ أو حتى جملا، إذا كان ميسور الحال. تحصل الجنود في الحملة على إمداد منتظم من "الثيران والحمير والغزلان والحيوانات الصغيرة والنعام والأوز والديوك[415]" كحصة يومية. كانت ثيرموبيلاي، والتي لم تكن متوفرة بكثرة على

النعام في أفضل الأوقات، قد سببت خيبة أمل مرعبة في الطهي عند رجال جيش الملك العظيم. فعلى الرغم من شهرة الطهاة الفارسيين بإبداع وصفاتهم، إلا أنهم بالكاد يستطيعون تحضير الطعام بطريقة سحرية في الحقول الخالية تمامًا.

ومع ذلك، كان زركسيس، رغم قلقه من قرقرة بطون جنوده، يعلم أن هناك آخرين قد يشعرون بوطأة أسوأ. كان وجود الجيش الفارسي على أعتاب منازلهم يهدد ملاك الأراضي المحليين بالخراب. نظرًا لأن المسؤولية عن هذه الحالة المؤسفة توقفت بشكل واضح مع ليونايدس وجيشه الصغير المميت، فإن الطريقة الواضحة-في الواقع، الوحيدة-للسكان الأصليين لتجنيب أنفسهم العوز التام كانت مساعدة الملك العظيم على ازالة العائق في البوابات الساخنة. بالتأكيد، إذن، كان على زركسيس أن يثق، حيث فشل مشهد القوة الملكية حتى الآن في تجنيد مرشد، أكان من المحتم أن تنجح المصلحة الذاتية؟

وهكذا نجحت في النهاية. وسط الغبار وخيبات الأمل في قتال اليوم الثاني، جاءت القدرة اليونانية على الطعن بالظهر لإنقاذ القيادة الفارسية العليا. لمدة أسبوع تقريبًا، كان الجيش الإمبراطوري قد خيم قبل ثيرموبيلاي-والآن، أخيرًا، تم إحضار مخبر إلى الخيمة الملكية. كان اسمه إفيالتس، وهو مواطن من السهل الذي كان الجيش الفارسي يخيم فيه، وكان هو الذي كشف للمحققين أن جبل كاليدروموس يمتلك سرًا بالفعل. "على أمل الحصول على مكافأة كبيرة، أخبر الملك عن المسار الذي يؤدي فوق الجبل إلى ثيرموبيلاي"[416]-حتى أنه عرض، في غدر مميت حقًا، خدمة الغزاة كدليل لهم.

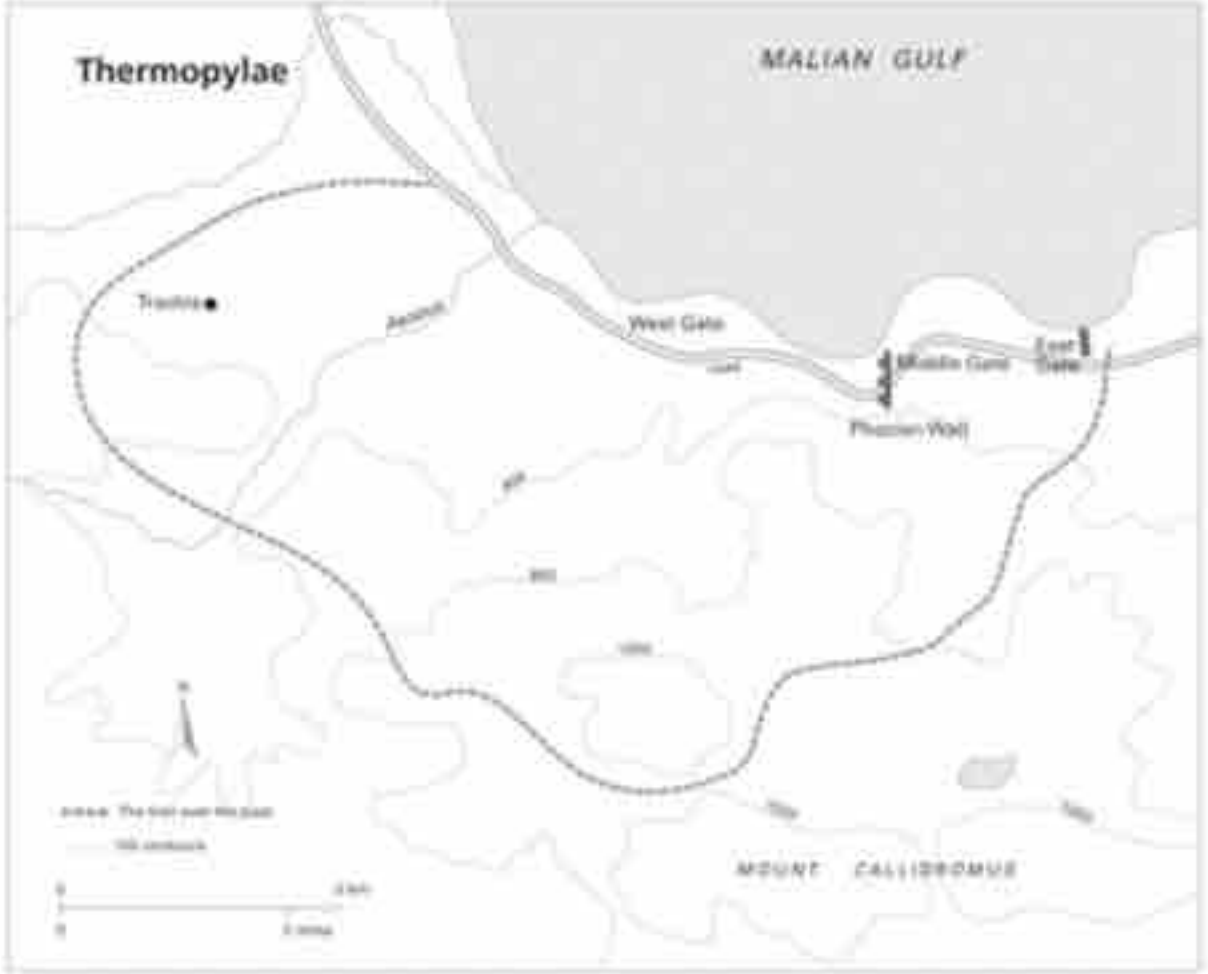
على الفور، تم ضبط الآلة المخيفة للجيش الإمبراطوري في حركة سلسة وقاتلة. في وقت متأخر من اليوم، على الرغم من أنه كان كذلك بالفعل، كان واضحاً أن المزيد من التأخير أمر غير وارد: فتقرر صعود كاليدروموس في تلك الليلة بالذات. ولم يكن من الممكن أن يحاول المشاة الخفيفون ذلك كما كان ليونايدس يعتقد انها القوات الوحيدة القادرة على القيام بهذه الرحلة. كان الخالدون، الذين نشأت قوتهم وسط مرتفعات إيران، فريقًا مصنوعًا لمثل هذه المغامرة. وقد أدموا الممر في اليوم السابق. لم يكن هناك رجل من بينهم غير

راغب في التمتع بفرصة الانتقام. بالنسبة لقائدهم، على وجه الخصوص، كان للمهمة طابع خاص. كان هيدارنس نجل ويحمل الاسم نفسه للشريك المتآمر مع داريوس الذي، قبل 41 سنة، كان قد أمسك طريق خراسان السريع ضد جيش كبير من المتمردين الميديين. الآن، منح الفرصة المثالية ليضيف إلى عائلته شرف التكريم في المعركة، سيخدم هيدارنس ابن داريوس، ليس من خلال السيطرة على الممر الحيوي، بل من خلال ازالة العوائق عنه.

غادر هو ورجاله العشرة آلاف عند الغسق. بدأ طريقهم على بعد عدة أميال إلى الغرب من البوابات الساخنة، والى الغرب أيضًا من تراكيس ومضيق اسوبوس الذي يقف فوقه[417]. من ورائهم، وهم يبتدئون في الصعود، كانت نيران الحراسة قد بدأت تتناثر في السهل، ولكن سرعان ما ضاع منظر المخيم لحسن الحظ، تمامًا كما قال إفيالتس، كان من السهل متابعة الممر، والقمر، القمر الكارني المشؤوم، بدرًا في سماء صافية، تفوق حتى على تألق نجوم أغسطس. لساعات، سار الخالدون، من خلال الضوء والظل الفضي، يتأرجحون يسارًا عبر السهل الواسع الذي امتد إلى ما وراء المنحدرات العالية في تراكيس، نزولاً إلى الوادي ثم فوق نهر اسوبوس. هنا، وراء الضفة البعيدة، امتدت الطريق أكثر. حتى الآن، على الرغم من أثقالهم بالدروع والتروس، ظل بإمكان الفرس الصعود دون تعرج، وبعد ساعة أو نحو ذلك، وهم يرتادون حافة من خشب البلوط والصنوبر، وصلوا إلى هضبة واسعة أخرى. أمامهم، بعد المزيد من الأشجار، وعلى مساحات عريضة من العشب المفتوح، انفتح المسار، ظلوا يتسلقون، ولكن مرة أخرى برفق، وبدأ الخالدون، الذين استعادوا سرعتهم مرة أخرى، في الدوران حول القمة التي تلوح الآن بينهم وبين ثيرموبيلاي. بينهم وبين رؤيتهم للأفق الشرقي أيضا. و تدريجيا، عندما بدأت النجوم تتلاشى، امكن للفرس أن يشعروا بقدوم الصباح، وأن الشمس، المشرقة مع الجمال الأبدي لأهورا مازدا، ستبزغ قريبًا فوق البوابات الساخنة . بدأ لون الافق في التوحد. انتقل الخالدون إلى غابة من شجر البلوط. ومع ذلك، حتى تحت الأشجار، ظل الطريق أمامهم مرئيًا تمامًا، لأنه لم يكن أخف وزنا مع مرور الوقت فحسب، بل اكتسحت العواصف الأخيرة تعريشة الأغصان فوقه. الأوراق، كان جافة بالفعل، تتقصف

تحت الأقدام. ثم، فوق حفيف وسحق عشرة آلاف زوج من الأقدام، كان هناك رنين مفاجئ: صوت المعدن.

متقدمًا إلى حافة الأشجار، رأى قائد فريق الخالدين، في ذهوله، حامية من المحاربين تسد طريقه. من الواضح أنه قد فاجأهم، لأن اليونانيين



ظلوا يجاهدون من أجل سحب دروعهم؛ لكن هيدارنس، الذي تعلم بالطريقة الصعبة عدم التقليل من شأن الاسبرطيين، أراد مباراة العودة معهم في البوابات الساخنة ، وليس على المرتفعات فوق الممر. ومع هذا، عندما أشار إفيالتيس إلى عدم وجود أقمصة وأردية قرمزية بين العدو، طمأن سيده بأنه لا يواجه رجال ليونايدس، بل جنود مدينة أخرى، على الأرجح فوسيس، أعطى هيدارنيس رجاله على الفور الأمر بالهجوم . فسحبوا أقواسهم، أطلق الخالدون على النحو الواجب تسديدة قوية على الكتائب نصف المشكّلة. كان الفوسيون، الذين يفتقرون إلى الحس الاستراتيجي الجيد الذي كان من الممكن أن يزودهم به، ربما، وجود ضابط اسبرطي، واعتبروا أن البرابرة ساروا طوال الليل بهدف محدد هو القضاء عليهم، تراجعوا بطريقة فوضوية. إلى قمة تل قريب. هناك ثبتوا أنفسهم لاتخاذ موقف نهائي بطولي-فقط ليروا الخالدين يكتسحونهم بازدراء، ويستمرون على طول الطريق المفتوح

تمبي، لرسم خط أمامي ثان. في النهاية، تعهد الأسطول الأثيني بالدفاع عن ساحلهم وكذلك ساحل أتيكا؛ و كان ثيمستوكليس، الذي لم تكن الرحلة الاستكشافية إلى ثيساليا في رأيه مضيعة للوقت بشكل واضح، قد حدد بالفعل المكان المثالي لمحاولة إبقاء الأسطول الفارسي بعيدًا. بين الطرف الشمالي من إيبويا والبر الرئيسي كان هناك مضيق ضيق بالكاد يبلغ عرضه ستة أميال، وهو مناسب بشكل مثالي للانسداد؛ علاوة على ذلك، كان على بعد أربعين ميلاً فقط شرق ممر تيرموبايلي الأضيق. قد يأمل الأسطول والجيش، اللذان يعملان جنبًا إلى جنب، في السيطرة على المضيق والممر-حتى في مواجهة الصعاب الرهيبة. كان الأثينيون، بدافع من ثيميستوكليس، قد صوتوا بالفعل لإرسال مائة سفينة إلى إيبويا ؛ والآن، صوت المندوبون المتحالفون في البرزخ-مرة أخرى، بلا شك، بناءً على طلب ثيمستوكليس -لدعم هذه الاستراتيجية. وافقت كورنث وإيجينا وميغارا والقوى البحرية الأخرى الأقل أهمية على إرسال أسراب لدعم الأسطول الأثيني؛ واسبرطة لقيادة قوة ضاربة إلى ثيرموبيلاي. أخيرًا، بدا أنه رغم كل شيء تم التوصل إلى حل. الآن، في فترة الهدوء التي تسبق العاصفة، لم يكن هناك شيء لفعله سوى انتظار البرابرة.

الانتظار-والانتظار أكثر. تحول يونيو إلى يوليو والملك العظيم لم يأت بعد. انتشرت الشائعات بتقارير مذهلة عن تقدمه: كيف كان جيشه يشرب الأنهار حتى تصبح جافة؛ كيف كان كل الذين على طريقه يهرولون ليقدموا له الأرض والماء. وعن روعة قواربه المذهَبة وأعياده ووسائل الترفيه. حتى الآن، يبدو أن تقدمه عبر أوروبا لم يكن غزوًا بقدر ما كان موكبًا مترفاً-وبالفعل، مع تحول يوليو إلى أغسطس، كانت أفضل الظروف للحملة تتلاشى. بعد فترة وجيزة، مع سخونة بحر إيجة إلى مستويات شديدة الحرارة وتحول الهواء البارد إلى الشمال، سيصل موسم العواصف الصيفية-الشمالية الشرقية، أو كما أطلق عليها الإغريق، "Hellesponters". نصح كهنة دلفي في رسالة أخيرة إلى الحلفاء: "صلوا للرياح". "لأنها ستثبت أنها من الأصدقاء المخلصين لليونان[378]." رسالة كان جميع الذين يستعدون للإبحار مع الأسطول اليوناني قد أخذوها على محمل الجد.

ومع ذلك، بين سكان المدينة الواحدة، بدأ بطء سير الملك العظيم في إثارة مشاعر أقل حماسة تمامًا. بالنسبة لأسبرطة، كان احتمال أن يضطروا للدفاع عن ثيرموبيلاي خلال شهر أغسطس أمرًا مؤلمًا حقًا. أربع سنوات مرت على المباريات السابقة في أولمبيا. الآن، مع اكتمال القمر بالفعل، كان من المقرر أن تبدأ الألعاب الجديدة عندما يكون مكتملاً. كذلك، لمفاقمة العذاب، كانت كارنيا. وكان اقتران هذين المهرجانين ينذر بفترة هدنة تكون أكثر قدسية من المعتاد. كيف يمكن للاسبرطة كسرها؟ وأشباح السفراء الفرس المقتولين تطاردهم بالفعل، كانت فكرة أنهم قد يسيئون إلى الآلهة بمزيد من المعاصي أمرًا شنيعًا للغاية بحيث لا يمكن التفكير فيه. و البيلوبونيز مليء بالوسطاء المحتملين، والارغوسيين يتحينون الفرص كما هو الحال دائمًا ، لم يكن الملك العظيم هو الوكيل الوحيد للانتقام الإلهي الجاهز ليحل بهم. كلا، لم يكن بإمكان الأسبرطيين التقدم شمالًا في أغسطس. القيام بذلك سيكون فعلاً إجراميًا ومجنونًا. فلا يمكن كسر الهدنة الكارنية.

ولكن من هم البرابرة ليحترموا مثل هذا التورع؟ من المؤكد أنه لم يكد يبدأ شهر أغسطس حتى وصلت الأخبار على النحو الواجب إلى البرزخ والتي تفيد بأن نصف جميع بلاد اليونان كان مرتعبا ونصفها الاخر يترقب: بدأ الفرس في إخلاء الطرق على طول سفوح أوليمبوس. انهار المؤتمر في الحال. في أثينا، حيث كانت أرصفة الميناء بالفعل في حالة اضطراب بسبب مطالب الإخلاء، كان أي اعتبار للهدنة هو آخر ما يدور في أذهان الناس. بدلا من ذلك-حرفيا-كان كل شيء على سطح السفينة. كان المقاتلون في المدينة يتدافعون بشكل محموم. بعض السفن-الأكثر استخدامًا-عُهد بها إلى متطوعين مخلصين من بلاتيا، "الذين كان من المأمول أن تعمل شجاعتهم وروحهم على تعويض جهلهم التام بالبحر[379]." وهكذا، حتى تركوا وراءهم أسطولًا احتياطيًا كبيرًا لحراسة مياه موطنهم، نجح الأثينيون في إرسال جميع السفن إلى إيبويا، وليس 100 سفينة كانوا قد اتفقوا عليها في الأصل، بل 127. أرسلت مدن أخرى-برزت كورنث وإيجينا من بينهم-كل ما يمكن كذلك. بالنسبة لأي شخص يشاهد أسطول الحلفاء وهو يدور حول رأس صونيوم في رحلته شمالًا، سفينة ثلاثية المجاديف

بعد أخرى، المجاديف التي تموج المياه، تومض إلى الداخل والخارج، كان المشهد مثيرًا للإعجاب. كان إجمالي عدد السفن الحربية في الخطوط الأمامية 271 سفينة إبحار الى إيبويا: لا شك أنه جزء بسيط فقط مقارنة بالأسطول الذي تحت قيادة الملك العظيم، لكنه كان جهدًا شجاعًا كله وملهمًا.

كان في القيادة، كما تم الاتفاق العام السابق في هلينيون، أرستقراطي اسبرطي اسمه يوريبياديس. هنا، بالنسبة لأبناء بلده، كانت مفارقة مريرة. على الرغم من أنهم قد يكونون مسكونين بخوفهم من كسر الهدنة الكارنية، إلا أن التفكير في ما كانت تلتزم به المدن الأخرى من المجهود الحربي لا يمكن سوى أن يعمل على وخز إحساسهم بالشرف. للإنسان. كان على البعض حراسة الأرض كما كان على الآخرين حراسة الممرات البحرية: لم يكن هذا واجبًا يمكن أن يتجاهله الاسبرطيون الآن. بطريقة ما، كان لابد من التوصل إلى حل وسط، والذي قد يجنبهم غضب الآلهة مع تمكينهم في نفس الوقت من التمسك بالتزاماتهم التي تعهدوا بها. لما لا، إذ من الواضح أنه كان من غير الوارد إرسال جيش كامل إلى أن تنتهي الهدنة الأولمبية، فهل يرسلوا حرسا متقدمًا لتأمين الممر؟ إذا كان من الممكن إقناع مدن أخرى، تقع على الطريق البالغ طوله مائتي ميل والذي يلف من لاكاديمون إلى ثيرموبيلاي، بملئه بوحدات خاصة بها، فقد تأمل حتى القوة الصغيرة من الاسبرطيين في الصمود. خاصة إذا كانت هذه القوة ستُستمد من أقوى أفراد النخبة. وعلى وجه الخصوص-بما أن الرسالة التي تم بثها إلى عالم القرار الاسبرطي ستكون عندئذٍ واضحة-إذا كان يقودها ملك.

ليونايدس هو من تولى المهمة المحفوفة بالمخاطر. بصفته ممثلًا للخط الملكي الأعلى، كان سيشعر أنه من واجبه القيام بذلك، بلا شك-ولكن ربما كان لديه دافع شخصي أيضًا. ربما لم تكن أشباح السفراء الفرس المقتولين هي الأشباح الوحيدة في الخارج في ذلك الصيف في لاكاديمون. لقد مر أكثر من عقد الآن منذ أن تم العثور على كليومينيس، وساقيه ومعدته ممزقة بسكين نحت، محنياً في المخزن. ما بقي غامضًا هو ما إذا كان قد مات بيده-فقط عقابًا على رشوه العرافة ، أو كان ضحية مؤامرة وحشية، ربما تكون قد دبرتها القيادة

الإسبرطية نفسها. في كلتا الحالتين، لا بد أن ليونايدس شعر بأنه متورط في النهاية المروعة لسلفه. كان كليومينيس قريبًا له، في النهاية. كان الدم قد جُرف بعيدًا منذ فترة طويلة، لكن الشعور باللعنة والقمع والتهديد، أقرب ما يكون إلى حرارة أغسطس، لا يزال يهبط فوق اسبرطة. لن ينسى ليونايدس، الذي كان يستعد لمهمته اليائسة، الكلمات الخطرة للعرافة: إما أن مدينته ستُمحى "أو كل شخص داخل حدود لاكاديمون يجب أن يحزن على وفاة ملك، نشأ من سلالة هرقل." من المؤكد أنه لم يغب عن انتباهه إما أنه كان على قمة فوق تيرموبيلاي حيث هلك هرقل نفسه، ودفع لحمه الفاني ودمه إلى النار حتى يصعد بعد ذلك لينضم إلى الآلهة. حسنًا، إذن، ربما كان ليونايدس قد أبعد الهيبيس، فرقة الخيالة عالية التدريب هذه المكونة من ثلاثمائة شاب الذين خدموا عادةً في المعركة كحارس شخصي للملك، واستبدلهم بالمحاربين القدامى الأكبر سنًا- "جميع الرجال الذين لديهم أبناء أحياء[380]."-رسالة واضحة النوايا. بغض النظر عما قد يحدث عند العبور-سواء أكان نصرًا مجيدًا أو هزيمة كاملة-فإن ليونايدس سيظل وفياً لمهمته المصيرية. وبطريقة أو بأخرى، سيؤمن خلاص مدينته. لم يكن هناك تراجع عن ثيرموبيلاي.

الفصل السابع-على مقربة

الاستعدادات الملحمية

كان هيبارخوس، المستبد المستهتر الذي أحيا الأثينيون ذكرى مقتله في شجار العشاق في عام 514 قبل الميلاد كضربة للحرية، كان دائمًا سعيدًا بالاختراع طوال فترة حكمه. كان راعيًا متحمسًا للهندسة المعمارية، مثل الأمراء في كثير من الأحيان، وكان يمتلك أيضًا شغفًا نادرًا بالأدب. لا يزال بإمكان المسافرين قراءة أبيات بليغة ومحسّنة ، منقوشة أسفل القضيب المنتصب الذي كان سمة مذهلة إلى حد ما لعلامات الطريق في أتيكا، ، من تأليف البيستراتي المقتول نفسه. من نواحٍ أخرى أيضًا، استفاد الأثينيون من نمط هيبارخوس الكتابي في الاستبداد. كان بفضل دعمه الحماسي، على سبيل المثال، أن صفوة الموهبة الأدبية اليونانية، الذين كانوا يعتبرون أثينا ذات مرة ركودا، قد أصبحوا يعتبرون المدينة قوة ثقافية، وتوافد على الاستقرار هناك. كان الطاغية مصممًا على نقل شعراء المشاهير إلى بلاطه لدرجة أنه كان قد وضع لهم خدمة سيارات أجرة فاخرة، على شكل سفينة خاصة بخمسين مجذافًا.

وحتى أكثر من الأدب الحديث، مع ذلك، كان هيبارخوس المتحمس الحقيقي لعمل معروف في جميع أنحاء كلها العالم اليونانية - الملاحم منقطع النظير: الإلياذة والأوديسة، وقد ألفت قبل قرون سابقا، وجمعت خلال فترة طروادة حرب. القليل كان معروفًا على وجه اليقين عن مؤلفها، الشاعر الذي يُدعى هوميروس، لكنه كان، بالنسبة لليونانيين، غير محدود جدًا، لا ينضب، تمامًا منبع افتراضاتهم ومثلهم العميقة، لدرجة أن المحيط فقط، الذي يشمل ويسقى كل العالم، يمكن ان يمثله بشكل مناسب. لا عجب أن هيبارخوس، الذي كان يتطلع إلى وضع مدينته على الخريطة الأدبية، كان حريصًا على وصف هوميروس-الذي كان عمومًا، وبشكل محبط، معروفا أنه كان من مواطني شرق بحر إيجه-بطريقة أو بأخرى من الأثينيين. بيسستراتوس، والد هيبارخوس،

عندما رعى طبعة من الشاعر، قيل إنه حاول أن يدس بضع أبيات خفية خاصة به في النصوص، ترنيمة أثينا وأبطالها القدامى؛ قدم هيبارخوس نفسه، بشكل أقل فظاظة، تلاوة من الملاحم إلى الباناثينا. لا يعني ذلك أن هذه تم إجراؤها بأي روح راقية من الكتابة الادبية، ولكن بدلاً من ذلك، مثل المسابقات الرياضية التي ظهرت أيضًا في المهرجان، كانت تنافسية بشدة-وهو ما كان مناسبًا فقط. "كن دائما الأشجع. كن الأفضل دائمًا ". أقوال، ذهبت دون ذكر، من الإلياذة نفسها.

ويعتبرها الإغريق في كل مكان، على الرغم من جهود هيبارخوس الأفضل، حقًا مكتسبًا لهم جميعًا. لم يكن الأسبرطيون، على سبيل المثال، أبناء هيلين ومينيلوس، بحاجة إلى تقديم قراءات شعرية من أجل استعراض تقاربهم مع قيم ملاحم هوميروس. إذا كان حرف رمزهم العسكري مستمدًا من ليكورغوس، فإن روحه، هذا التصميم البطولي على تفضيل الموت و "السمعة المجيدة التي لن تموت أبدًا[381]"، عن حياة الجبن والعار، ظهرت حية مع التألق المخيف للأبطال الذي غنى به "الشاعر". وبطل أكثر من أي بطل آخر: أخيل، أعظم المقاتلين وأكثرهم دموية، الذي سافر إلى طروادة، هناك ليتألق في وهج من الروعة الرهيبة، مع العلم أن كل شهرته ستؤدي فقط إلى القضاء عليه قبل وقته. صحيح، النشوة النقية لصيد مجده، التي دفعته إلى الشجار مع أغاممنون على جارية، و البقاء في خيمته بينما كان رفاقه يذبحون، والعودة إلى المعركة فقط لأن ابن عمه الحبيب قد تم قتله، كان تساهلًا مع الذات لا يكاد يُسمح به لجندي اسبرطي. ومع ذلك، قد يكون هذا الموت في المعركة جميلًا، لأنه قد يكرس ذكرى المحارب، حتى وروحه تتلاشى في الظلال الرمادية للعالم السفلي، بهالة ذهبية رائعة، قد تكسبه شهرة خالدة "kleos": هذه المفاهيم، التي ارتبطت إلى الأبد مع أخيل، اعتبرها الإغريق على أنها كانت لفترة طويلة اسبرطية أيضًا. قد يطمح آخرون إلى مثل هذه المثل العليا ولكن فقط في اسبرطة نشأ المواطنون ليكونوا صادقين معهم منذ ولادتهم.

عندما وصل ليونايدس، الذي يقود قوته الصغيرة الممسكة، في أوائل أغسطس عند ممر تيرموبيلاي، فإن مثال الأبطال الذين قاتلوا قبل قرون في

أول صدام كبير بين أوروبا وآسيا لم يكن من الممكن أن يفشل في أن يلمع في عقله. من هوميروس، كان يعلم أن الآلهة، "كالجوارح، و كالنسور،" ستلقي بظلال غير مرئية قريبًا على مواقف رجاله-لأنه كلما كان على البشر أن يرفعوا شجاعتهم إلى درجة عالية من الشدة، كلما اضطروا إلى تجهيز أنفسهم للمعركة، "يلوحون في موجة بعد موجة، يقاربون صفوفهم في بريق كثيف متلألئ من الدروع والرماح والخوذ"، يعرفوا أنهم يمرون إلى المجال الإلهي[382]. بالتأكيد، كان من الصعب تخيل بوابة أكثر غرابة من ثيرموبيلاي-"البوابات الساخنة". تصاعدت المياه البخارية من الينابيع التي أعطت الممر اسمه؛ وبدت الصخور التي هسهست عليها شاحبة ومشوهة مثل الشمع الذائب. علق عبق من الكبريت رطبًا في حرارة أغسطس. كان كل شيء محمومًا ومختنقًا بالغبار وقريبًا. كان الممر ضيقًا جدًا لدرجة أنه عند نقطتين على طرفيه، والمعروفتين باسم البوابات الشرقية والغربية، لم يكن هناك متسع لمرور سوى عربة واحدة فقط. على جانب واحد من هذا الطريق كانت هناك مستنقعات ضحلة لخليج ماليز. من ناحية أخرى، "سالكة ومنحدرة[383]"، -منحدرات جبل كاليدروموس، مغطاة بالأشجار فوق الصخور السفلية، ثم تربى اللون الرمادي والعارية ضد اللازوردية التي لا ترحم. كانت بقعة غريبة وغير أرضية-ويبدو أنها تشكلت للدفاع.

كما كان السكان المحليون يقدرون منذ فترة طويلة. كان الرجال من فوسيس، البلد الواقع في الوادي الذي يقع بين تيرموبيلاي ودلفي، قد بنوا ذات مرة جدارًا عبر الممر، ولم يمنعوا أيًا من الازدواجيتين في أي من الطرفين، بل امتدوا إلى عرض حوالي ستين قدمًا، ما يسمى بـ" البوابة الوسطى". هنا ترتفع المنحدرات في أقصى درجاتها وضوحا. ليونايدس، الذي كان يتنقل من تحتها، بدأ على الفور في إصلاح جدار الفوسي: لم يكن هناك تحد كبير، لأنه جلب معه، بالإضافة إلى حارسه الشخصي، حوالي ثلاثمائة من الهيلوتيين وخمسة آلاف جندي أخر[384]. هؤلاء، الذين تم إقناعهم بالتناوب والتخويف للانضمام إليه، جاءوا في الغالب من البيلوبونيز-لكن ليس جميعهم. كان سبعمائة متطوعًا من ثيسبايا، وهي مدينة في بيوتيا كانت، مثل بلاتيا، مستاءة منذ فترة طويلة من رمي

الأثقال في طيبة وتبرعت عن طيب خاطر بالقوى البشرية لدعم قضية الحلفاء- وأربعمائة أتوا من طيبة نفسها. كان ليونايدس، الذي كان يدرك بشكل غير مريح أن وسط اليونان كان متعفنًا مع الوسطاء، قد أوضح النقطة في طريقه إلى ثيرموبيلاي لاستدعاء كبار المتآمرين والمطالبة بدعمهم بصراحة. استجابت الطبقات الحاكمة في طيبة، التي لم تتجرأ بعد على رفض الملك الاسبرطي، بمراوغات حريرية. ومع ذلك، ولأنهم واثقون من أن ليونايدس كان في مهمة انتحارية، فقد سمحوا بمرح "برجال من الفصيل المنافس"[385]، "الذين عارضوا تفكيرهم ليغادروا معه. وليونايدس، كان في أمس الحاجة إلى كل تعزيزات، استقبل هؤلاء الموالين بامتنان. ومع ذلك، لم يكن لديه أي شك، وهو يحدق في الفراغ المتلألئ للأراضي المسطحة وراء تيرموبيلاي، ويمسح الأفق بحثًا عن مسحات من الغبار، منتظرًا أول لمحة عن جحافل الملك العظيم الوحشية، أن هناك الكثير من خلفه. الذين كانوا يريدون له أن يفشل.

ولم يكن هذا هو الحد من مخاوفه. حتى عندما كان رجاله مشغولين بالحفر، جاء وفد من مدينة تراشيس القريبة، التي تقع في أراضيها تيرموبيلاي، إلى ليونايدس مع بعض الأخبار غير المرحب بها. يبدو أن الممر لم يكن آمنًا تمامًا كما كان الاستراتيجيون الذين عادوا على البرزخ قد افترضوا. كان هناك ممر أخر يلتف حول مرتفعات تيرموبيلاي الجبلية. على الرغم من أنه بالكاد مناسب لسلاح الفرسان أو المشاة الثقيلة، إلا أنها كان قابلا تمامًا مع أي شخص مسلح بأسلحة خفيفة، كما أفاد التراقيين. إذا اكتشف البرابرة هذا الطريق، فسوف يسلكونه بالتأكيد. لم يكن هناك خيار أمام المدافعين عن بوابات البوابات الساخنة، سوى سدّها. بسيط بما فيه الكفاية، ربما كان يعتقد-باستثناء أن ليونايدس، مع القوة الكاملة لجيش الملك العظيم الذي كان على وشك أن يقذف بنفسه ضد منصبه، لم يكن بإمكانه تحمل الكثير من الهوبلايت. في هذه الحالة، لأنه لم يكن لديه خيار سوى القيام بذلك، فقد تنازل. تطوع ألف رجل من فوسيس، الذين دفعهم اشمئزازهم من أتباع الثيساليين إلى الوقوف بحماس مع الحلفاء، لحراسة الطريق. ليونايدس، الذي اعتمد على معرفتهم المحلية وعلى احتمال إرسال مشاة خفيفة فقط ضدهم، قبل عرضهم. لم

يرسل أي أسبرطي، ولا ضابط واحد، لتخليص قلة خبرتهم. استعد ليونايدس للعاصفة القادمة، وأراد كل النخبة معه. يمكن فهمها-لكنها مقامرة شنيعة، حتى مع ذلك.

لا يعني ذلك أن الملك الاسبرطي كان القائد الوحيد الذي اضطر إلى إجراء بعض الحسابات المحرجة. على بعد أربعين ميلاً إلى الشرق، عبر خليج مالي وما وراء المضيق الضيق الذي يفصل إيبويا عن البر الرئيسي، كان الأدميرالات المتحالفون قلقين بشأن حالة جناحهم. صحيح أن المحطة التي اختاروها بدت قوية، مثل تيرموبيلاي. على النقيض من الجانب الكئيب للساحل المواجه، حيث تلوح المنحدرات المغطاة بالجلد من البحر مثل أسنان من الزيتون الموضوعة في لثة من الصخور العارية، كان الطرف الشمالي من إيبويا يتألف إلى حد كبير من الحصى والرمل المترب. وطالما امتد هذا الشاطئ، كان من السهل على اليونانيين نقل سفنهم الحربية إلى الألواح الخشبية، مئات ومئات منها؛ ونظرًا لعدم وجود مياه ضحلة أو شعاب مرجانية في عرض البحر، بل كان هناك تعمق شديد الانحدار للبحر، فقد وعدأن تكون المسألة بسيطة بنفس القدر، بمجرد رؤية الأسطول الفارسي، إطلاق الأسطول مرة أخرى. على الرغم من ذلك-وكان هذا هو السؤال الذي يقضم ثقة اليونانيين بأنفسهم-اين سيتجه البرابرة؟ إذا كان الى الغرب باتجاه المضيق الذي أدى إلى تيرموبيلاي، فإن خط معركة الحلفاء، الذي يدور مثل الباب على مفصل، سيكون في وضع جيد لمنع وصولهم؛ ولكن إذا اتجهوا شرقًا، أسفل الساحل الخارجي لإيبوا، إما لتوجيه ضربات إلى الأمام في أتيكا والبرزخ أو تأرجح الى الجانب الآخر من الجزيرة وهدف إلى مؤخرة الأسطول اليوناني، فسيكون الخطر جسيمًا بالفعل. أمر الملك العظيم بالعديد من سفن التجديف بحيث كان بإمكانه بسهولة تقسيم أسطوله إلى قسمين ولا يزال يجلب قوة ساحقة لتحمله على جبهات منفصلة. لذلك، خاطر الأدميرالات المتحالفون بايجاد أنفسهم، ليس يمنعون المضائق التي تفصل إيبويا عن البر الرئيسي، ولكن يتم تكديسهم داخلها. كما هو الحال في الممر، هكذا على الشاطئ، حمل خط الدفاع الأمامي خطر التعرض للإبادة.

مر أول أسبوعين من شهر أغسطس. لا تزال المداخل إلى الشمال فارغة. امتدت هناك، عبر البحر من الإغريق المتوترين بشكل متزايد، شبه جزيرة جبلية تعرف باسم ماغنيسيا، تكسوها الغابات ومليئة بالوحوش؛ وكلهم يعلمون أنه كان على هذا الساحل غير المضياف أن يأتي الغزاة، مختبئين عن أنظار الجميع في إيبويا ، إلى أن يمروا عبر جزيرة سكياثوس، قبالة الحد الجنوبي من البر الرئيسي، يكونون في مجال الرؤية. فقط من سكياثوس نفسها ظهر احتمال لتلقي تحذير مسبق من اقترابهم، ولذا كانت ثلاث سفن دورية متمركزة على النحو الواجب في الجزيرة، وتم تجهيز منارات على تلالها. ومع ذلك، ظل البحر خاليًا من السفن-وظل البحارة في الأسطول اليوناني يراقبون سكياتوس بقلق، وينتظرون بدء الحرب، وهم يسحقون الألواح الخشبية صعودًا وهبوطًا، ويمسحون العرق اللاذع عن عيونهم. فقط عند الغسق، عندما تغرب الشمس خلف قمة كاليدروموس البعيدة، كان بإمكانهم تحمل تكاليف الاسترخاء: لأنه لا أحد في بحر إيجة، حيث كان التنقل هو القفز على الجزيرة، من المفترض أن يبحر عبر البحر المفتوح ليلاً. بعد ذلك، ربما يشعر اليونانيون بأنفسهم قد عادوا إلى عصر مختلف، عصر كان فيه أجدادهم قد خيموا بالمثل بجانب سفنهم على شاطئ منعزل: لأنه على الرغم من وجود معبد لأرتميس على تلة منخفضة خلفهم. التي أخذ منه اسمها ارتيميسيوم -خلاف ذلك كان الساحل لهم وحدهم.

وهكذا ارتفعت معنوياتهم،
وهم يتخذون مواقعهم في ممرات المعركة
طوال الليل واشتعلت النيران بينهم.
المئات الاقوياء، كما تتألق النجوم في سماء الليل
حول تألق القمر توهجوا بكل مجدهم
عندما يخفت الهواء في هدوء مفاجئ بلا ريح[386]. . .

ثم، ذات صباح في منتصف شهر أغسطس، في أكثر الأوقات غير المتوقعة من اليوم، بعد الفجر مباشرة، اندلع حريق فجأة في سكياثوس. لقد شوهد العدو. كانت المعركة الأولى قد جرت بالفعل. كانت النتيجة بالنسبة

لسفن الدورية اليونانية هزيمة مذلة. كما لو كان من العدم، وحتى عندما كانت النجوم لا تزال متلألئة، انقض سرب من عشرة زوارق من صيدا على سكياثوس-لأن الفينيقيين، على عكس منافسيهم، تعلموا الإبحار في البحر المفتوح ليلا[387]. تعرضت سفن الدوريات اليونانية لكمين شامل، ثم تم تجاوزها أيضًا. كان أحدهم قد استسلم على الفور تقريبًا، وقطع حلق السجين الأفضل مظهرًا بشكل طقسي فوق مقدمة السفينة كقربان للآلهة: الدم الأول لأهل صيدا. أما الثاني، فعلى النقيض من ذلك، لم يتم أسره إلا بعد قتال عنيف. في الواقع، لقد تأثر العدو بشدة ببراعة أحد مشاة البحرية اليونانية، لدرجة أنهم بعد أن طغوا عليه أخيرًا، عالجوا جروحه بالمر، ولفوها في ضمادات، وكرموه كبطل حرب. نجحت السفينة الثالثة، وهي سفينة ثلاثية أثينية، في التهرب من مطارديها إلا أن جنحت على مسطح طيني قبالة مصب النهر. ليست أفضل بداية للدفاع عن الحرية اليونانية.

في هذه الأثناء، وبالعودة إلى ارتيميسيوم، كان كل شيء من الذعر والرعب. من غير الواضح ما إذا كانت منارة النار في سكياثوس قد أنذرت باقتراب الأسطول البربري بأكمله. تعثر الطاقم فوق الحصى وخاضوا في المياه الضحلة في صراع محموم لإطلاق سفنهم. مع مرور الساعات وعدم ظهور أي تعزيزات للعدو، أصبح من الواضح أن الصيدونيين، بدلاً من تشكيل حرس متقدم، كانوا يشاركون فقط في مهمة استطلاعية. على الرغم من نجاحاتها المبكرة المذهلة، إلا أن هذا لم يكن مخططًا له بالكامل: شاهدت سفن الدوريات اليونانية، التي كانت تتجنب الفجوة بين سكياثوس والبر الرئيسي، ثلاثة من السفن ثلاثية المجاديف المعادية تنهار على الشعاب المرجانية المخفية. ومع ذلك، وبالعودة إلى ارتيميسيوم، واصل اليونانيون إطلاق سفنهم الخاصة، وبعدها، بمجرد أن طفوا، استهدفوا المضيق قبالة إيبويا والبر الرئيسي، كما لو كانوا في حالة ذعر متهور. ولم يكن إعطاء المزيد من الانطباع بجنون القلب بأي حال محاولة لتأمين القبض على الصيدونيين؛ ولا حتى عندما بدأوا بعرض وقح للبرودة، في بناء علامة دالة على الشعاب المرجانية المخفية. كان الأمر كما لو أن

الإغريق، المتباهون بإحباطهم المعنوي، كانوا يتطلعون بشكل إكيد إلى إرسال تقرير إلى القيادة الفارسية العليا.

وربما كانوا كذلك. بالطبع، مع الأخذ في الاعتبار القوة الكاملة لضربة المطرقة التي كانت على وشك السقوط عليهم، كان من المتوقع فقط حدوث نوع من التشنج. قد يكون قد انتشر إلى القمة. لم يكن يوريبياديس، الأدميرال الكبير، أكثر القادة إلهامًا. بصفته اسبرطياً، يبدو أنه شعر بعدم الارتياح بشكل مضاعف عندما وجد نفسه على متن سفينة بعيدة حتى الآن عن بيلوبونيز. كانت مساهمته الرئيسية في استراتيجية الحلفاء تئن مرارًا وتكرارًا بأن "الفرس كانوا لا يقهرون في البحر"[388]. ومع ذلك، كان يوريبياديس، على الرغم من انه القائد، بالكاد مسيطرا. كانت القيادة الفعالة للأسطول اليوناني تقع بدلاً من ذلك على عاتق أميرال من فرقته الاكبر -وكان ثيميستوكليس قد دافع دائمًا عن الحفاظ على خط أمامي. لماذا إذن قد وافق على الانسحاب من ارتيميسيوم؟ فشجاعته، على أي حال، بالكاد يمكن الشك فيها: لقد قاتل في ماراثون: كان يعرف ماذا تعني مواجهة البربري وعدم الفرار. كان سيتذكر أيضًا كيف تم الفوز بالنصر المشهور. هو ورفاقه في الوسط الضعيف، أجبرهم زحف أعدائهم على التراجع، و قلبوا هجوم البرابرة ضدهم، بحيث امكنهم ادارة أجنحتهم، وأوقعوا الفرس في فخ مميت. الغطرسة، غطرسة العدو الذي يعتقد أنه لا يقهر، يمكن، إذا تم التلاعب بها بالمكر الواجب، أن تحول حتى الوزن الهائل للأرقام إلى احتمالية: يبدو أن هذا كان الدرس الذي استوعبه ثيمستوكليس من اشتباكه السابق مع العدو. ومن ثم، قد يكون وراء اختياره الانسحاب من ارتيميسيوم. انسحب قبل أسطول المعركة الفارسي، وقم بإغرائه في المضايق الضيقة قبالة إيبويا، وضايقه بحثًا عن مكان، وهاجمه-واقضي عليه، ربما. تسديدة بعيدة-لكن التسديدات الطويلة عملت من قبل ضد الميديين.

لكن ليس في هذه المناسبة. تم نثر الفخ-لكن لم يكن هناك من يأخذ الطُعم. مر اليوم، وبقيت نقاط المراقبة على مرتفعات إيبويا تشير إلى أن الممرات البحرية من ماغنيسيا خاوية. وبدلاً من أن تعود السفن الحربية اليونانية إلى أرتميسيوم، انسحبت بدلاً من ذلك جنوباً. كالسيس، حيث توقف

المجدفون المرهقون أخيرًا لالتقاط أنفاسهم، استلقوا في منتصف الطريق أسفل الساحل الغربي لإيبويا. من هناك، اعتمادًا على الأخبار التي يتم إحضارها إليهم من خلال مراقبتهم لنوايا الأسطول الفارسي، سيكون اليونانيون في وضع جيد إما للاندفاع من أجل الأمان النسبي لساحل أتيكا أو العودة بالطريقة التي عادوا بها، والعودة إلى الدفاع. من جناح ليونايدس. يمكن أن يشعر المجدفون أنفسهم، مع وجود سلسلة التلال العظيمة لإيبويا الآن مثل درع بينهم وبين البحر المفتوح، والحرارة المتزايدة بشدة، بالتأكيد أن يشعروا بقدر من الراحة عند الابتعاد عن الشواطئ المكشوفة من ارتيميسيوم -للحرارة الشديدة في أواخر الصيف ينذر دائمًا بـHellesponter. كانت تقاليد البحارة في بحر إيجه ألا يثقوا أبدًا في الطقس بعد 12 أغسطس-وكان 12 أغسطس قد جاء وذهب بالفعل. لا تزال الأيام تمر. لم تكن هناك حتى الآن مشاهد جديدة للأسطول الفارسي. ولا أي تخفيف للحرارة. الإغريق، المتحصنين في خالكي، أبقوا أعينهم مثبتة على منارات التحذير فوق التلال الإيبوية المرتفعة، ودللوا أصابع قدمهم في التيارات الباردة للبحر، وفعلوا كما نصحهم أبولو: صلوا للرياح.

هم أيضا يخدمون الذين يقفون وينتظرون فقط. إذا كان ليونايدس، الذي كان يقوم بواجبه كالحارس الوحيد في تيرموبيلاي، مستعدًا للموت، فإن ثيميستوكليس، بالتأكيد، قد وضع قلبه على قيد الحياة. كان مجيدًا، بعد أن ترك المنزل والعائلة وراءه، بعد أن قام برحلة إلى الحرب في أرض بعيدة، ورهن المرء بحياته في مسابقة عليا للشجاعة والتحمل، ثم السقوط في أرض المعركة، ومع ذلك أيضًا، في التقاليد اليونانية، قد يظهر البطل غريزة الحفاظ على الذات ولا يكون أقل من بطل. أخيل، الذي منحته والدته بدائل شيخوخة سعيدة ولكن غامضة أو موت مبكر ومجد لا يموت، لم يتردد؛ لكن هوميروس، في ملحمته العظيمة الثانية، تغنى بمآثر رجل اتخذ خيارًا مختلفًا تمامًا. أوديسيوس، عريض الصدر مثل ثيميستوكليس، ومثله "رجل التقلبات والانعطافات"، لم يكن يريد شيئًا أكثر، بعد أن أقال تروي، من العودة إلى المنزل لزوجته. من أجل تحقيق ذلك، لم يكن لديه أي حيلة، ولا خداع، ولا

مكيدة. هذا هو سبب إعجاب أثينا به وتكريمه على كل من تفضلهم: لانه "هنا بين الرجال الفانين"، كما أخبرت أوديسيوس، "أنت الأفضل في التكتيكات، والغزل، وأنا مشهورة بين آلهة الحكمة، حيل ماكرة، أيضا[389]". لذلك كانت تحب الأثينيين الذين اعتبروا أذكى اليونانيين. وهكذا، كلما يظهر أن المستحيل يصير فجأة غير مستحيل، ويبدأ حل مشكلة تبدو مستعصية في الظهور، يعرف الإنسان أن أثينا تقف إلى جانبه. كان ثيمستوكليس يوازن احتمالات المعركة، ويقلب الحيل الجديدة في ذهنه، من المؤكد أنه لم يكن ليقتصر على رفع الصلاة الى ريح الشمال وحدها.

"بالاتحاد مع أثينا جهز يدك للعمل": هكذا ذهب المثل[390]. لكن في الوقت الحالي، أفلتت المبادرة من قبضة ثميستوكليس. سوف تعتمد خطوته التالية على ما فعله الآخرون أولاً: الفرس-وآلهة الرياح. دون أن تكون هناك أي تطورات جديدة-وما زالت درجات الحرارة ترتفع. ثم، أخيرًا، بعد حوالي عشرة أيام، ربما بعد أن تخلى الأسطول اليوناني عن محطته في ارتيميسيوم، كانت هناك دعوة للاستيقاظ المفاجئ. قاطع قارب ذو ثلاثين مجذافًا، بقيادة أحد الأثينيين، وهو أحد أقرباء ثيميستوكليس المسمى أبرونيكس، جاء مسرعًا عبر المضيق إلى خالكيش. تم تعيينه في بداية الحملة ليكون ضابط الاتصال بين ليونايدس والأسطول اليوناني، وأرسل أبرونيكوس صديقه بأخبار مقلقة. يبدو أن الحرب الزائفة قد انتهت. كان جيش الملك العظيم يقترب من ثيرموبيلاي. وكان الميديون عند البوابات الساخنة.

العاصفة تندلع

لم تكن هناك حاجة إلى نقاط المراقبة للتحذير من اقتراب ملك الملوك. قبل وقت طويل من بدء وحدات الاستطلاع الفارسية الأولى بالانتشار فوق الأراضي المنبسطة على طول شاطئ الخليج المالي، كان ليونايدس يعلم أن هناك قوة لايمكن حسابها تقترب منه. ربما تكون سماء شهر أغسطس خالية من الغيوم، لكن الأفق إلى الشمال ضاع خلف ضباب من الغبار. صار أكثر تراباً، وسمكًا، واكثر عصفا؛ ثم الأرض نفسها، التي ارتجت تحت آلاف وآلاف الخطى، بدأت تتزلزل. كانت هذه، بالمعنى الحرفي للكلمة، هي سلطة الملك العظيم: أنه

يستطيع أن يزلزل العالم. ولسنوات طويلة، فرض عملاؤه على اليونانيين استراتيجية الرعب الزاحف. والآن، أخيرًا، صار الرعب على أبوابهم.

بالنسبة للمدافعين عن ثيرموبيلاي، وهم يحدقون في رعب عبر الخليج، كان مشهد جحافل الملك العظيم نظامًا يتجاوز أحلك تخيلاتهم. مرارًا وتكرارًا، كان ضجيج تقدمهم الآن مدويًا، متلامعا أمام الأنظار، تحمله قواطع الغبار الخانق الجياشة. تقدم البرابرة. بالنسبة لليونانيين، الذين يمسحون الحصى من عيونهم الدامعة، ويشعرون بأن الأرض تحتهم ترتجف لساعة بعد ساعة متواصلة، تقارير الجواسيس الثلاثة الذين تم إرسالهم إلى ساردس، والذين تحدثوا عن إفراغ آسيا، وحشد الملايين ضدهم. بدت مؤكدة بشكل مروع. بدأ الذعر في السيطرة على الجيش الصغير. الجميع باستثناء الاسبرطيون، أي الذين حافظوا على رباطة جأشهم المعتادة؛ وليونايدس، حتى عندما سعى إلى تهدئة الأعصاب بين الحلفاء، أمر حارسه الشخصي بالاحتفاظ بموقع وراء الجدار. بعد فترة وجيزة، جاء دخيل فارسي عبر البوابة الغربية. لم ينظر أي من الثلاثمائة إلى الأعلى. قام البعض بتمشيط شعرهم الطويل، كما كانت عادة الاسبرطي عند الاستعداد لمواجهة الموت. وآخرون، أجسادهم العارية زلقة بالزيت، يركضون أو يتصارعون مع بعضهم البعض: ليس بشكل صارم، مع ذلك، "في الحملة، كانت التمارين المطلوبة من الاسبرطيون دائمًا أقل تطلبًا من المعتاد... بحيث تمثل الحرب بالنسبة لهم، بشكل فريد، استرخاء من التدريب العسكري[391] ". الكشاف الفارسي، بعد أن عاين هذا المشهد بدهشة، دار حوله وركض بعيدًا. لم يقم الأسبرطيون بأي محاولة لإيقافه.

في وقت لاحق من اليوم، اقتربت سفارة رسمية من زركسيس من البوابات الساخنة. ليونايدس، الذي كان سيقابله بالتأكيد خارج الجدار حتى لا يتمكن السفراء من رؤية قلة الرجال الذين كانوا تحت إمرته، أُبلغ بشروط الملك العظيم. إذا ألقى المدافعون أسلحتهم، قد يمنحون حرية المرور للعودة إلى منازلهم؛ سيتم منحهم لقب "أصدقاء الشعب الفارسي": "وعلى كل اليونانيين الذين قبلوا صداقته، سيستوطن الملك زركسيس المزيد من الأراضي، وبجودة أفضل من أي أرض يمتلكونها حاليًا[392]." بالنسبة للعديد من البيلوبونزيين،

الذين يتوقون بالفعل للعودة إلى البرزخ، فإن هذه المقترحات أكدت لهم فقط حماسهم المفاجئ للتراجع عن الممر؛ لكن الفوسيين، الذين قد يكون البرزخ بالنسبة لهم في مصر أيضًا بسبب كل الحماية التي وفرها لهم، استجابوا بغضب لاحتمال التخلي عن ثيرموبيلاي. وكذلك فعل ليونايدس أيضًا، بشكل غير مفاجئ. وبما أنه كان القائد الأعلى، وملكًا اسبرطيا، كان قراره كافياً للتأثير على المتذبذبين. سيبقى الحلفاء حيث كانوا. سيتم عقد التمريرة. عندما عادت سفارة الملك العظيم إلى البوابات الساخنة ، وطالبت اليونانيين بتسليم أسلحتهم، كان تحدي ليونايدس مقتضبًا: " Molon labe "؛ "تعال و خذها[393]".

لطالما كان أبناء وطنه يقدّرون هذه النفائس من الرزانة. كلما كانت الظروف أكثر قتامة، كلما تم تدريب الاسبرطيون بشكل أكثر صرامة: وكان ليونايدس، مدركًا تمامًا أن السكينة كان أفضل رافع للمعنويات يمكن أن يقدمه لحلفائه المترددين. نظر بشكل طبيعي إلى حارسه الشخصي لدعمه ببعض اللامبالاة الفولاذية. خاصة. لم يخيب ظنهم. عندما أطلق البرابرة سهامهم، أشار أحد السكان المحليين بشكل مروع، لدرجة أن الكثير منها كانت تصفر في الهواء كأنها تحجب الشمس. الأسبرطيون، الذين اعتادوا على رفض الأسهم باعتبارها مجرد مغازل، أنثوية وجبانة، كانوا غير منزعجين تماما. وقال أحدهم متعجرفا "يا لها من أخبار ممتازة". "إذا استطاع الميديين اخفاء الشمس، فهذا أفضل لنا كثيرًا-يمكننا خوض معركتنا في الظل[394]".

ومع ذلك، على الرغم من إلهام مثل هذه الطرافة بالتأكيد، لا بد أنه صدم ليونايدس على أنه قريب بشكل خطير من روح الدعابة المشنقة. كان يعلم أن الوضع الذي يواجه رجاله في الحقيقة كان أخطر مما يقدره معظمهم. بقي ثيمستوكليس والأسطول اليوناني، الذين ما زالوا يصلون من أجل العواصف، في خالسيس. مع التخلي عن ارتيميسيوم. لم يكن هناك الآن ما يمنع الأسطول الفارسي، بمجرد وصوله من إيبويا، من التوجه مباشرة إلى المياه الضحلة قبالة ثيرموبيلاي. مثل هذه اللحظة، مع وجود الملك العظيم بالفعل خلف البوابات الساخنة، لا يمكن أن تكون بعيدة المنال. بينما كان ليونايدس يمسح الأفق الشرقي بحثًا عن صواري بعيدة، كان سيشاهد تعميق الشفق فوق الخليج المالي

واشتعال نيران المخيمات في الممر بارتياح عميق. جاء الليل-ولم يكن الأسطول الفارسي قد حل. لا يزال الحلفاء يحتفظون بثيرموبيلاي. ولكن الى أي مدى؟ بعصبية نظر الرجال فوقهم. كان القمر شبه كامل متلألئًا في سماء صافية بلا ريح. لذلك سيكون أيضًا متلألئًا فوق أولمبيا البعيدة، ولاكاديمون أيضًا. على الرغم من أن ليونايدس قد أرسل رسلًا إلى البرزخ في وقت سابق من بعد ظهر ذلك اليوم مع مناشدة يائسة للحصول على تعزيزات، إلا أنه كان يعلم أن هناك فرصة ضئيلة للرد عليها-ليس لمدة أسبوع آخر أو نحو ذلك، على الأقل، حتى تنتهي المباريات في أولمبيا وكارنيا. وكان الوقت ينفد.

طلع الفجر. دون أي تلميحات بهجوم وشيك على الممر. على طول الطريق الساحلي، قطعت وحدات متناثرة من جيش الملك العظيم وقطار أمتعته طريقهم نحو معسكره. خارج الخليج المالي نفسه، ظلت المضائق خالية من الشحن الفارسية. من المؤكد أن الأسطول الإمبراطوري كان هناك في مكان ما، يقترب من الشمال، مما يجعل على موعد مع ملك الملوك-لكن أين؟ ربما يجلب اليوم الجديد الجواب. امتد البحر، الذي لمسته أشعة الصباح، بعيدًا هادئًا وواضحًا، مؤطرًا الصورة الظلية الزرقاء لإيبويا. بعيدًا، إلى الشمال الشرقي، ارتفعت قمم مغنيسيا. كان كل شيء لا يزال: بفضول، وبراق، ولا يزال مهددًا. ربما قرأ بحار، تم تربيته للتعرف على الحالة المزاجية لبحر إيجة، ما تنذر به اللحظة؛ لكن كان هناك عدد قليل من البحارة في ثيرموبيلاي. إذن، التغيير في الطقس، الذي جاء فجأة كما حدث، عند عواء الريح المفاجئ، لا بد أنه قد صدمهم كشيء غريب وغير أرضي، مثل أنفاس الآلهة بالفعل. على ما يبدو من العدم، بدأت عاصفة تجتاح الخليج، وتضرب الأمواج، وتضرب المدافعين عن البوابات الساخنة بأعمدة من الرذاذ. أظلم ضوء الفجر إلى السواد، واندفع الرعد بعيدًا فوق بحر إيجه[395]. الهيلسبونتر، الذي اشتاقوا إليه كثيرًا، وصلوا من أجله، جاء أخيرًا-"وبدأت كل البحار تغلي معه، مثل الماء في وعاء[396]."

اندلعت العاصفة ليومين. بقي الحلفاء متجمعين بجانب البوابة الوسطى ليومين، ولف الأسبرطيون عباءاتهم القرمزية بإحكام حولهم، بينما

اجتاحت العواصف من البحر. ليومين، أمضى البرابرة وقتهم، ولم يقوموا بأي اعتداء على الممر. وبدلاً من ذلك، راقب كلا الجانبين الطقس، ومسح الأفق الشرقي، وتعرفا على أخبار فقدان أساطيلهما. بحلول صباح اليوم الثالث من العاصفة، مع بداية هدوء الرياح أخيرًا، أمكن رؤية الحطام، المنجرف من المضيق قبالة إيبويا، عبر الخليج المالي، متمايلًا على المياه المتقطعة. ثم، بعيدًا عبر البحر الرمادي، بدأت أسراب السفن في الظهور، متوترة ضد الرياح، متجهة إلى الشمال. نجا الأسطول اليوناني من العاصفة. والآن عادت، إلى الارتياح الهائل للجيش الصغير في ثيرموبيلاي، إلى محطتها في ارتيميسيوم. تم إعادة تشكيل الروابط في السلسلة. الجبهة، في الوقت الحالي، على أي حال، يمكن أن تعقد. ولا يزال هناك رؤية مؤكدة لأسطول العدو.

أشارت التقارير التي قدمها ضابط الاتصال العامل في ارتيميسيوم في ذلك المساء إلى السبب. بالتوجه إلى فجوة سكياثوس، تم القبض على البرابرة في عرض البحر. قيل إن ساحل مغنيسيا، الذي ضربته القوة الكاملة للعاصفة، مليء بالجثث والقطع الذهبية والذهب. كان العدد الدقيق للسفن التي فقدت بسبب العواصف مسألة تخمين حتى الآن، ولكن كان هناك بعض من بين الأسطول اليوناني الذين تجرأوا على الادعاء "أنه لن يكون هناك سوى عدد قليل لمعارضتهم".[397] 17 بالكاد، بالطبع، كان توقعا يمكن أن يردده ليونايدس نفسه: في السهل خلف البوابة الغربية، لا تزال نيران المخيمات البربرية مشتعلة بلا حصر. هناك أيضا كان يمكن الإبلاغ عن مذبحة قبالة مغنيسيا. كان الفشل في الالتفاف على ثيرموبيلاي عن طريق البحر قد تم هضمه. كان من الممكن أن يتم الأمر بخطة هجوم جديدة، وعلى وجه السرعة. لم يكن بمقدور الملك العظيم، مع مئات الآلاف من الأفواه التي عليه إطعامها، تحمل الاستمتاع بوقته. بدت الآثار المترتبة على ليونايدس وجيشه الصغير في ذلك المساء بديهية ومهددة. لقد انتظروا أربعة أيام حتى يقوم الملك العظيم بهجوم مباشر على مواقعهم، وفي صباح اليوم التالي، الخامس، من المؤكد أن جميع جموع آسيا ستقذف ضدهم. سيتم وضع تصميمهم وشجاعتهم على المحك مثل قلة من الرجال الذين واجهتهم من قبل؛ ولا حتى في ايام الغناء. ولا حتى في حقول

طروادة. قاموا بتمشيط شعرهم، وشحذ أسلحتهم، وصقل دروعهم إلى بريق مبهر، واستعد الأسبرطيون للفجر، ولما طوال حياتهم، تربوا على تقديمه : عرض لفن القتل.

ومن المؤكد، أن شروق الشمس قادم، و البربري أيضًا. لقد تم تكليف الميديين بمهمة مسح الممر. كان هؤلاء رجالًا ماهرين في جميع متطلبات حرب الجبال، مدرعون جيدًا أيضًا، ومعاطفهم الفخمة تتلألأ مثل حراشف الأسماك الحديدية، وكان اسمهم لفترة طويلة مصدر رعب لليونانيين. ومع ذلك، اختار ليونايدس موقعه بعناية، ووجد الميديون، على الرغم من أنهم ربما كانوا يتسلقون منحدرات زاغروس، أنه من المستحيل تسلق منحدرات البوابة الوسطى وتطويق خط المدافعين. كما لم يكن هناك مساحة كافية لهم، على مقربة من الممر، لإطلاق العنان لما كان يمكن أن يثبت بطريقة أخرى أنه استراتيجية مميتة بنفس القدر: إطلاق أمطار من السهام الثقيلة جدًا لخدمة الاسبرطيون في شدة الحرارة كحاجز شمسي. بدلاً من ذلك، وجد الميديون أنفسهم وهم يواجهون الممر، ويسارعون إلى الهجوم، أمام القليل من الخيارات سوى توجيه الهجوم مباشرة إلى جدار الدرع ومحاولة سحقه. ولكن كان هذا هو شكل الحرب التي تدرب عليها جميع الهوبليت على القتال، بشكل كبير؛ كانت دروح الميديين مصنوعة من الخيزران، بينما كانت حرابهم أقصر بكثير من حراب اليونانيين.

كذلك كان ثقل عددهم، على الرغم من أنه قد يبدو ساحقًا، إلا أنهم فشل في ذلك. كان الأسبرطيون الذين لم يسبق أن اختبروا أنفسهم ضد البربري أبدًا، قد عرفوا في غضون ثوانٍ من التأثير الأول أنهم عرفوا مقياس مهاجميهم. لا يمكن أن يكون هناك شك في شجاعة الميديين، فقد استعد الرجال لرمي أنفسهم في مواجهة صف من الرماح والدروع، لكنهم قدموا، حتى في دروعهم السمكية، فريسة سهلة لجدار من القتلة المحترفين يرتدون البرونز. في غضون دقائق، اتخذت الجبهة طابع المقبرة. استخدم الأسبرطيون رؤوسهم وسيوفهم لنزع الأحشاء، ومهاراتهم في "القتال بالقرب من أعدائهم[398]" كان شيئًا من الرعب لإخوانهم اليونانيين. الآن، في القرب الجهنمي من البوابات الساخنة، تعلم

الميديون المشاركة في هذا الرعب. أولئك الذين سقطوا فعلوا ذلك بجروح خطيرة؛ أولئك الذين ظلوا على أقدامهم وجدوا أنفسهم ملطخين بالدماء، يتزلقون على الحوايا الممزقة، ويتعثرون فوق أكوام الموتى المتزايدة.

بالنسبة لليونانيين أيضًا، مع ذلك، كانوا يجهدون للبقاء في مواقعهم مقابل الازحام الهائج للعدو، كان القتال يائسًا. لم يكن من المتوقع أن يحتفظ أولئك الموجودون في خط المعركة بمواقعهم، وذلك لرد مهاجميهم بدروعهم الثقيلة، يطعنون، ويحتزون، ويخترقون كل ما في وسعهم، شاعرين بأن الشمس تسخن باطراد برونز دروعهم، غارقين في العرق والدم. طول اليوم. كما أنها لم تكن كذلك: لان ليونايدس، بكفاءة رائعة، كفل نقلًا منتظمًا للقوات الجديدة إلى الجبهة. حتى يمكن للمنسحبين إزالة دروعهم، وتناول مشروب، وتضميد جروحهم. فحتى الاسبرطي قد يحتاج أحيانًا لالتقاط أنفاسه.

وبشكل خاص لأن ليونايدس، غير متأكد من التكتيكات الإضافية التي قد يستخدمها ملك الملوك، فقد احتاج الى ان يكون فيلق النخبة الخاص به على استعداد للتعامل مع أي طارئ مفاجئ. استمرت المعركة طوال اليوم، حتى وجد اليونانيون، بعد أن تخلصوا من الميديين، ومن ثم التعزيزات من سوزا، أنفسهم، مع إستطالة الظلال، في مواجهة مثل هذه اللحظة من الأزمة. تألق من الأسلحة المرصعة بالجواهر، ووميض الألوان الرائعة، الخالدون، الأكثر كفاءة وإخافةً من بين جميع أفواج الملك العظيم، كما هو الحال بين الفرس والإسبرطيين الذين كانوا بين الإغريق، تقدموا في الممر. لمقابلتهم، أمر ليونايدس جميع حراسه الشخصيين بالعودة إلى خط المواجهة-"وهناك قاتل اللاديمونيون بطريقة لا تُنسى أبدًا"[399]. ليس الشجاعة والقوة والعزيمة التي أظهروها، كما كان متوقعًا فقط؛ ولكن أيضًا موهبة قاتلة للمناورة التكتيكية. عند الإشارة، كانوا يستديرون، يتعثرون، ويبدو أنهم يفرون في حالة من الذعر: وبعدها، عندما يندفع العدو للأمام في انتصار، وق نسي انضباطه للحظات، كان الأسبرطة يدورون، ويضربون صفوفهم بضربات مخيفة من الدروع، ويقضون على مطارديهم. كان هذا التكتيك محبطًا بشكل مضاعف لمهاجميهم: لأنه، بصرف النظر عن الخسائر التي ألحقت بهم، عمل على دس أنوفهم في الحقيقة

الغاشمة المتمثلة في جدارة معركة الاسبرطيين المستمرة، بعد القتال طوال يوم كامل، حتى في خضم الحر، و الدم والرائحة النتنة والذباب. غير راغب في تبديد أفضل قواته دون جدوى، أمر الملك العظيم مطولاً بالانسحاب، وتراجع الخالدون عبر البوابة الغربية. وترك الممر لظلال المساء والمذبحة واليونانيين.

في تلك الليلة، وسط هدير الرعد البعيد فوق ماغنسيا، بدأ المطر يهطل على أرض المعركة، فحولها ببطء إلى خليط من الوحل والدماء. في أكوام الجثث المتشابكة، بدا أن المجوهرات حول أعناق حراس زركسيس المذبوحين، المتلألئة في ضوء مشاعل الحراس، هل كانت تسخر من قذارة الذبح. و ادعاءات ملك الملوك ايضا؟ كان ليونايدس يريد بشدة أن يصدق. لكنه كان سيعرف ماهو أفضل من الاستسلام للرضا عن الذات. على الرغم من أن موقفه قد بين انه منيع أمام هجوم أمامي، إلا أنه ظل قويًا-أو ضعيفًا-مثل الأجنحة. طمأن رسل من معسكر الفوسيين على منحدرات كاليدروموس ، بعد أن انزلقوا وتعثروا في طريقهم إلى ثيرموبيلاي، طمأن ليونايدس أن الطرق الجبلية كانت فارغة؛ لكن التواصل مع الأسطول في ارتيميسيوم في تلك الليلة، إذا تغير الطقس مرة أخرى بشكل عنيف للغاية ، سيكون غير وارد. تمامًا كما كان الحال خلال العاصفة السابقة، لم يستطع ليونايدس سوى الاستماع إلى صراخ الرياح، واحتضان عباءته الحمراء عن نفسه، والأمل في الأفضل.

وربما، من أجل راحة البال، كان هذا أيضًا أيضًا-لأن اليوم الذي يمكن أن ينظر إليه المدافعون عن ثيرموبيلاي على أنه انتصار للعناد قد مر به الأدميرالات في ارتيميسيوم بروح مختلفة تمامًا20.[400] مفاجأة غير سارة تبعت بسرعة مفاجأة غير سارة. الأسطول الفارسي، بعيدًا عن الدمار التام تقريبًا، كما كان يأمل المتفائلون بين الإغريق، أثبت أنه بعيد جدًا عن الانتهاء. ربما تكون قد تعرضت للعواصف-ولكن طوال فترة ما بعد الظهيرة، عندما سرب بعد سرب، بعد أن مر بسياثوس ودور رأس مغنيسيا، بدأ يتجمع على الشاطئ المقابل لأرتيميسيوم، كان الإغريق يراقبون بإحساس متزايد باليأس. لم يسبق لأي منهم أن رأى البحر أسودًا تمامًا مع الشحن. حتى بعد الخراب الذي أحدثته العواصف، لا يزال بإمكان الفرس حشد ما يقرب من ثمانمائة سفينة ثلاثية،

وهو ما يكفي لتفوق عدد أسطول الحلفاء بنحو ثلاثة إلى واحد. حتى التخبط العرضي في قاعدتهم المكونة من خمسة عشر سفينة معادية والاستيلاء على أطقمهم لم يفعل الكثير ليهتف به اليونانيون. الآن بعد أن تمكنوا من رؤية الأسطول الفارسي أمامهم، على بعد عشرة أميال فقط عبر البحر المفتوح، كان هناك الكثير ممن بدأوا في المجادلة من أجل انسحاب ثان، وعلى وجه السرعة، قبل أن يتمكن البرابرة من إكمال إصلاحاتهم. كان هذا الحديث يعلو ويتعالى- مما أثار ذعر السكان المحليين، الذين كانوا بالفعل متوترين من احتمال التخلي عنهم إلى الميديين. وسرعان ما أرسلوا وفدًا محمومًا، أولاً إلى يوريبيدس، وبعد ذلك، عندما رفض طلبهم، إلى ثيمستوكليس، متوسلاً الحلفاء للبقاء. كان ثيمستوكليس، الذي كان مرعوبًا مثل الإيبويين من احتمال إخلاء ارتيميسيوم، قد طالب بمرح مع ذلك برشوة لخدماته. بعد أن اخذ معظمها لنفسه، استخدم الفائض لتزييت كف يوريبيادس. لم يكن هذا الأسلوب الدعم الذي كان يفضله ليونايدس، لكنه كان بنفس الفعالية. اتفق يوريبياديس والأدميرال الآخرون على النحو الواجب على أن يبقى أسطول الحلفاء في أرتميسيوم ويحتفظ بالجبهة.

ومع ذلك، ما إن حلت القيادة العليا هذا الأمر، حتى انتابها ذعر متجدد. في وقت متأخر من بعد الظهر، في نفس الوقت تقريبًا الذي كان فيه الخالدون يتقدمون ضد البوابات الساخنة، وبينما كانت الأسراب الفارسية، مع كل التباهي الذي يمكنهم حشده، يقومون بمراجعة مخيفة قبالة الساحل المقابل، استحوذ الحلفاء على هارب يوناني من أسطول العدو، أحد سكيلياس ، من البحر. الغواص المحترف، الذي ادعى أنه سبح مسافة عشرة أميال إلى ارتيميسيوم تحت الماء بالكامل. كان للأخبار التي أحضرها معه مصداقية ربما تفتقر إلى تفاخره: بالتأكيد، كان ذلك كافيا لتهدئة دماء الأدميرالات المستمعين. أفاد سكيلياس أن العدو، أثناء إصلاح الهيكل الرئيسي لأسطوله، قام بفصل مائتي سفينة صالحة للابحار لشق طريقه خفية أسفل الساحل الشرقي لإيبويا، حول طرفه الجنوبي، ثم دعم جانبه الغربي. هنا، رفع رأسه مرة أخرى، وكان أسوأ سيناريو لليونانيين: أنهم قد يجدون أنفسهم مكتظين، و البربري أمامهم ويمنعهم من الهروب. لحظة من الخطر المميت، بالتأكيد-ومع هذا، كما كان

ثيميستوكليس سريعًا في الإشارة، فإن ذكاء سكيليس قد وضّح الفرصة وكذلك الخطر. افصل سربًا كبيرًا من الأسطول في ارتيميسيوم ، وأرسله أسفل المضيق بين إيبويا والبر الرئيسي، وثق في الآلهة أن الدوريات قبالة أتيكا ستلاحق مائتي سفينة فارسية عندما تكتشفها، وقد يكون البرابرة هم البرابرة الذين وجدوا أنفسهم محاصرين بين فكي كماشة.

كل هذه المقامرة ضخمة بالطبع-لكن إذا كان لدى اليونانيين أي أمل في وقف التقدم الفارسي، فلم يكن لديهم خيار سوى الثقة في بعض الأحيان بالجرأة والحظ. تم تمرير القرار حسب الأصول: "أن تبحر وتلتقي بسفن العدو التي كانت تبحر حول إيبويا"[401] .21 وبطبيعة الحال، نظرًا لأنه كان من الضروري عدم تنبيه البرابرة على الشاطئ المقابل إلى أي ضعف في الأسطول الرئيسي في ارتيميسيوم ، فلن تتمكن المفرزة من المغادرة إلا بعد حلول الظلام- وبعد أن أظهر اليونانيون، إذا أمكنهم ذلك، العدو الذي لم يكن لديهم نية مهاجمته والهرب. لقد فعلوا ذلك من خلال المغامرة الجريئة بالخروج من مواقعهم في البحر المفتوح، وتحديهم الفرس لمهاجمتهم-وهو ما فعله الفرس، الواثقون من الوزن الساحق لأعدادهم، والمهارة الأكبر لطواقمهم. فيما بدأت الشمس في الغروب خلف القمم الغربية للبر الرئيسي، كان أسطولهم يندفع جائعًا عبر القناة المفتوحة، ويغمر الخط الأقصر بكثير لليونانيين، ويتطلعون إلى تطويقه، وسحقه، وإنهاء الحرب هناك بعدها. ومع ذلك، توقع اليونانيون هذا التكتيك، وأعدوا مناورة مصممة خصيصًا لمواجهته: تشكيل أنفسهم في دائرة، وكباشهم موجهة إلى الخارج، مثل أشواك القنفذ الملتفة بإحكام في كرة، ثم انتقلوا فجأة إلى الهجوم. وجد الفرس، في القتال المتلاحم الذي أعقب ذلك، أن سرعتهم الفائقة وخفة الحركة قد أبطلت. تم الاستيلاء على حوالي ثلاثين من سفنهم، وعندما تغمق الشفق فوق بحر إيجة، انتهى القتال المطول، كان اليونانيون، لدهشة وسعادة، هم الذين استطاعوا المطالبة بتكريم الاشتباك. يبدو أن مهارة الملاحة البربرية قد يتم مواجهتها، بل وحتى هزيمتها، في النهاية. لم يكن من الممكن تخيل اثارة أفضل لتلك الأطقم التي تواجه رحلة ليلية محفوفة بالمخاطر.

ثم جاءت العاصفة بالطبع. مع تساقط الأمطار على سفن الأسطول اليوناني، سرعان ما مزقت الرياح، التي كانت تصرخ من الجنوب الشرقي فوق خصلة أرتميسيوم الكئيبة، أي احتمال لقضاء إجازة في منتصف الليل. لكن لحسن الحظ بالنسبة للحلفاء، لم يكن هذا هو الحد من أضرار العاصفة: لأن حطام معركة المساء سرعان ما بدأ يندفع نحو مواقع العدو، حيث أفسد مجاديف سفن الدوريات المتدحرجة وملأ الموانئ بالصواري والجثث. بعد تعرضهم لعاصفة أخرى، وهم ما يزالون يلعقون جراحهم من الضربات غير المتوقعة التي تلقوها على أيدي الإغريق، حان الآن دور الفرس ليُلقوا في حالة من الذعر-"لأنهم تخيلوا أن ساعة هلاكهم قد حلت[402]." كما ثبت، فقد تصوَّروا خطأً: الموانئ التي كان الأسطول قد اتخذ فيها ملاذًا في اليوم السابق عملت على حمايته من أسوأ اضرار العاصفة. ومع ذلك، لم يكن مثل هذا الملجأ بالنسبة للسفن المائتين المرسلة جنوبًا حول إيبويا . لأن الساحل الشرقي المتوحش للجزيرة، بصخور ومنحدرات خشنة، كان مكانًا بائسًا يجب أن تعلق به أثناء العاصفة. يقال إن الأسطول كان " أعمى أمام الرياح والمطر" تحطم على بقعة سوداء سيئة السمعة تعرف باسم "الأجوف". وبالتأكيد، بغض النظر عما إذا كانت جميع السفن قد ضاعت أم لا، كما كان اليونانيون قد احتشدوا لاحقًا، فإن العاصفة كانت قد حددت نهاية مهمتهم[403].

بحلول بعد ظهر اليوم التالي، وصلت تقارير تحطم السفن إلى أرتميسيوم، وكان الأدميرالات اليونانيون واثقين من أن خطوط انسحابهم لم تعد مهددة، ويمكنهم أن يتنفسوا الصعداء. لا يعني ذلك أن لديهم أي نية الآن للتخلي عن موقفهم المتقدم. ظهرت احتمالات تثبيت الجبهة فجأة وردية وليس كما كانت تبدو قاتمة في اليوم السابق. كانت الأخبار السارة تأتي من كل مكان: تعزيزات، ثلاثة وخمسون سفينة جديدة من أثينا؛ تدمير سرب من السفن القيليقية في غارة مفاجئة في المساء؛ الإحاطة، التي قدمها أبرونيكوس، ضابط الاتصال، بأن ليونايدس ورجاله صمدوا في اليوم الثاني من الضربات القاسية في البوابات الساخنة. إذا لم يتمكن الملك العظيم من تحقيق اختراق قريبًا، فإن جيشه سيبدأ في التعرض للجوع. كان الوقت قد تأخر بالفعل في موسم

الحملات ، وكان البرابرة بعيدين عن موطنهم. إن كان بإمكانهم فحسب تجنب الهزيمة، وإبقاء الميديين في مأزق، فإن ذلك، بالنسبة لليونانيين، سيثبت بالتأكيد النصر بما فيه الكفاية.

لكن الاختبار الحقيقي لأسطول الحلفاء وقدرته على صد العدو لم يحن بعد. لم يحاول الفرس، الذين كانوا يسعون جاهدين جعل سفنهم المتبقية صالحة للإبحار مرة أخرى، تحطيم المحور الرئيسي للخط اليوناني بأكمله الذي، إذا تم قهره، سيفتح الطريق إلى ثيرموبيلاي: المضائق بين إيبويا والبر الرئيسي. بزغ فجر اليوم الثالث من المعركة ولم يكن لدى اليونانيين، الذين كانوا يشاهدون من ارتيميسيوم، أدنى شك في أن لحظة الحقيقة قادمة أخيرًا. سرب بعد سرب من الأسطول البربري-الفينيقي، المصري، الأيوني-بدأ يتجمع في القناة المفتوحة. الآن، بعد كل المناوشات، كل لعبة، كان من المقرر أن يأتي: أول هجوم أمامي كامل من بحرية الملك العظيم على المواقع اليونانية. أخذ الرجال في التجديف لمنع مروره، الرجال الذين سحبوا المجداف لأول مرة منذ أشهر فقط-أو، في حالة بلاتيا ، أسابيع-قبل أن يستعدوا للقتال.

أقل قدرة على الحركة من العدو، كان الأسطول اليوناني، بعد أن سد المضيق، ثم اختار انتظار الفرس لفرض الهجوم. المجذفون، كانت مفاصلهم تبيض وهم يمسكون بمجاديفهم، أنوفهم تتقلص من الرائحة الكريهة للعرق وحركة الأمعاء، جلسوا القرفصاء على مقاعدهم الخشبية، يجاهدون لسماع صوت صرير الأخشاب، وخز المياه، والكلام العصبي من رفاقهم مع اقتراب مد المعركة. بعد فترة وجيزة، ارتفعت الصرخة من مشاة البحرية على ظهر السفينة: كان البرابرة يقتربون. رؤوس شخصيات مرسومة ببهجة؛ صراخ متغطرس هتافات الحرب الهمجية[404] ": كانت هذه مشاهد وأصوات التقدم الفارسي أثناء انتشاره عبر القناة. كان التأثير، عندما جاء على النحو الواجب، ساحقاً. حارب اليونانيون طوال اليوم بيأس لإبقاء العدو في مأزق، "يصرخون لبعضهم البعض أن البرابرة يجب ألا يخترقوا الطريق، حتى عندما سعى الفرس، الذين يتطلعون إلى مسح الممر، إلى القضاء عليهم"[405]. بطريقة ما، على الرغم من الضرب المخيف الذي تلقوه، تمكن اليونانيون من السيطرة على

المضيق-ولكن لوهلة فقط. غرقت العديد من السفن أو تم الاستيلاء عليها، وهي خسائر لا يتحملها أسطول الحلفاء الأصغر؛ تم تعطيل العديد من الآخرين. الأثينيون، الذين تحملوا العبء الأكبر من هجوم العدو طوال المعركة، توقف نصف أسطولهم عن العمل. بدت احتمالات الإمساك بالمضيق في اليوم التالي قاتمة. ولسوء الحظ، بدأ اليونانيون في جمع الحطام من المعركة، ومراكمته على الرمال ليكون بمثابة محارق لموتاهم، في حين أن أميرالاتهم، والوجوه القلقة التي أضاءتها حرائق الجنازات، ناقشوا ما يجب القيام به بعد ذلك. حتى الآن، كان السكان المحليون، الذين رأوا الحالة الممزقة للأسطول اليوناني وتوصلوا بالفعل إلى استنتاجاتهم الخاصة فيما يتعلق بمأله، يقودون ماشيتهم إلى الواجهة البحرية، على أمل أن يتم تضمينهم في أي عملية إخلاء. بعد أن أدرك ثيمستوكليس أن التخلي عن ارتيميسيوم قد يكون ضرورة بالفعل، ولم يكن يرغب في أن يضطر رجاله الذين أنهكتهم المعركة بالفعل إلى التجديف طوال الليل على معدة فارغة، فأمر بشواء المواشي.

ومع ذلك، فإن الحالة المزاجية على طول الشاطئ المليء بالنيران في تلك الليلة، حتى وسط كل الإرهاق وخيبة الأمل، لم تكن مليئة باليأس. واجه اليونانيون أسطول الملك العظيم في معركة مفتوحة وعاشوا ليرووا الحكاية. لقد تم تحقيق أشياء عظيمة في ارتيميسيوم -وليس جميعها بسبب الرياح. ظل أسطول الحلفاء سليما كقوة مقاتلة. والانسحاب إذا جاء سيكون استراتيجيا ومنظما. لا يمكن اتخاذ أي قرار نهائي في كلتا الحالتين حتى وصول الأخبار من البوابات الساخنة -فالتزامن مع ليونايدس وجيشه ظل مفتاح الحملة بأكملها. ولم يعرف أي من القوات البحرية ما حدث في تيرموبيلاي. مع حلول الغسق ليلاً، كان على الأدميرالات أن يلعبوا لعبة الانتظار. صعودا وهبوطا على الشاطئ، يتنفسون الروائح المختلطة باحتراق اللحم البقري واللحم البشري، ويلقون بنظراتهم عبر القناة إلى الأضواء البعيدة للمواقع الفارسية، وينتظرون أبرونيكوس لتقديم إيجازه اليومي من الملك الاسبرطي .

وصل قاربه الصغير في تلك الليلة قبالة أرتميسيوم في الوقت المناسب. كان البحارة، الذين تجمعوا حول نيران المعسكر، لا يزالون يتناولون العشاء. لم

تكن السفن جاهزة للمغادرة بعد؛ لم يكن إحساس بالأزمة يسيطر على المخيم. لمحة واحدة على وجه أبرونيكوس، عندما جاء يتعثر في المياه الضحلة، و تغير كل ذلك. كل من رآه كان يعلم، حتى قبل أن يتحدث، أن شيئًا فاجعًا قد حدث في تيرموبلاي.

عشاء ملوكي ووجبات الإفطار الاسبرطية

حتى وقد تم إغلاق الطرق في السهل الترابي، بجانب شاطئ البحر المر، في أرض نائية ووحشية، ظل الملك العظيم المحور الذي تدور حوله دواليب إمبراطوريته العالمية. غير قادر على توجيه غزو اليونان من برسيبوليس، أمر زركسيس ببساطة بإحضار برسيبوليس معه إلى اليونان. ليلة بعد ليلة، بغض النظر عن المكان الذي توقف فيه الملك العظيم، كان الخدم يهرعون لتفريغ جبال من الأمتعة من قوافل البغال والجمال، وتسوية مساحة شاسعة من الأرض، ثم يرفعون عليها خيمة رائعة للغاية بحيث يتم لوضع معظم الامكنة في الظل. نظرًا لأن العائلة المالكة الفارسية كانت مضطربة إلى حد بعيد، وتهاجر من عاصمة إلى عاصمة اعتمادًا على الموسم، فإن مهندسي الملك العظيم، بخبرتهم الطويلة في توفير الرحلات البرية الملكية، يعرفون بدقة أفضل السبل لتصنيع الفخامة مسبقًا. نتيجة لذلك، حتى في البيئة القاتمة بالقرب من ثيرموبيلاي، لم تكن الكرامة الإمبراطورية، المغطاة بالسجاد والوسائد، والمظلات الجلدية والمعلقات الملونة، تحت أي تهديد أبدًا: غرفة بعد غرفة تنطلق بعيدًا عن الحضور الملكي، بينما الخالدون، المتمركزون عند كل مدخل، وقفوا كضمان ضد أي محاولة اغتيال من قبل قدامى المحاربين في كريبتيا[406]. لا يمكن أن يكون التناقض مع الظروف داخل البوابات الساخنة أكثر وحشية: فبينما اضطر ليونايدس إلى التخييم وسط الرائحة الكريهة والعفن، كان بإمكان الملك العظيم توجيه المعركة من داخل قاعة جمهوره المعطرة؛ أو، في الليل، الذي يتطلع إلى الحفاظ على طاقته، يتقاعد إلى أريكة ذات أقدام فضية، حيث تم تجهيز الأغطية له من قبل صانع سرير متخصص، وهو عبد تم تدريبه على

"جعل البياضات جميلة وناعمة، لأن الفرس كانوا أول الناس الذين اعتبروا هذا فنًا[407]".

افترض الإغريق، الذين تمسكوا بالقش، أن ينسبوا الإسراف في مثل هذا الأسلوب في الحملات إلى التخنث: خيانة مؤسفة لافتقارهم إلى التطور. بعد أن قدم مظاهرات وافرة لشجاعته عندما كان لا يزال شابًا، لم يكن زركسيس ينوي المخاطرة بحياته في المعركة الآن، وليس مع جيش كبير وأسطول يتطلعان إليه من أجل القيادة، وحملة من التعقيد غير المسبوق لتوجيهها. ربما كانت الخيمة الملكية ضخمة، لكن يجب أن تكون كذلك إذا كانت ستوفر مركزًا عصبيًا مناسبًا لقوة عظمى عالمية. كما هو الحال في برسيبوليس، وعلى جانب الطريق المؤدية إلى تيرموبيلاي، لم يستخف الملك العظيم بالنصيحة بل طالب بها، بعد أن أدرك أن المعلم الأكثر حكمة هو الشخص الذي يستخدم عبيده على أفضل وجه. من الواضح أن زركسيس، الذي نادرًا ما يفتقر مرؤوسوه إلى الطاعة والشجاعة، كان لديهم موهبة لإلهام التفاني فيهم: لم يكن اسمه يعني "هو الذي يحكم على الأبطال"، وليس لشيء.

ما لا يقل عن الإسبرطيين، إذن، تم تقوية أتباع الملك العظيم من خلال نظام صارم. كان البروتوكول، حتى أثناء الحملة، حتى بالنسبة للأبطال، جامدًا ومقدسًا. بغض النظر عن مدى هياج العواصف خارج الخيمة، أو إلى أي مدى قد تكون الأخبار المقلقة من الأمام، فإن الملك العظيم، الجالس في روعة مناسبة على عرش من الذهب الخالص، أجرى مجالس الحرب كما لو كان يترأس برسيبوليس. فقط في الدرجة التي يمكن أن تنحني بها الأذن الملكية للأجانب، تتدخل الظروف المختلفة جدًا لـ ثيرموبيلاي على الإجراءات. على الرغم من أن الرتب العليا في الجيش شغلها أقارب الملك العظيم والمقربين وكانت كذلك، لم يتم تكريم كل شخص باستدعاء الحضور الملكي بالضرورة من أصل فارسي. كان هناك اثنان من أبناء داتيس، على سبيل المثال، في قيادة سلاح الفرسان؛ وبعد ذلك، بالطبع، كان المستشار الرئيسي لكل شيء يوناني، ديماراتوس. حتى مع قيام زركسيس بإرسال قواته بشكل دوري إلى البوابات الساخنة، واستمر في جس المدافعين عن الممر بحثًا عن أي علامة تشي

بالضعف. فقد حمّس الملك المنفي للحصول على نظرة ثاقبة في علم النفس الاسبرطي. القوة الساحقة وإتقان البيانات: الخاصيتان التوأم، كما كانت في أي وقت مضى، للطريقة الفارسية في شن الحرب. لتجميع هذه بشكل مناسب، من أجل تحييد مشكلة مثل تلك التي قدمها المدافعون عن ثيرموبيلاي، كان تحديًا لا يمكن مواجهته حقًا إلا في خيمة ملك الملوك، حيث أمراء الدم الملكي وعملاء المخابرات، ورؤساء اللوجستيات والمنشقون اليونانيون، يمكن استدعاء جميعهم بالتساوي وجمع تقاريرهم وأحكامهم.

وعلى الرغم من غضب زركسيس من دفاع البوابات الساخنة، إلا أنه لم يستسلم لإحباطه، بل استشار محيطيه وأجرى حسابات وأصدر أوامر وظل صابراً. ملك شعب الجبل، بالكاد جاء مثل أي إيحاء عظيم له أن الممر الضيق قد يصبح منيعا أمام هجوم مباشر. على سبيل المثال، كانت البوابات السورية التي تسلل من خلالها داتيس وجيشه في طريقهم إلى ماراثون، مليئة بتحصينات أقوى بكثير من تلك الموجودة في ثيرموبيلاي: كماشة جاهزة دوماً للانطباق، في حالة الطوارئ، على تدفق الطريق الملكي. ومع ذلك، حتى عندما "تحاكي البوابة الطبيعية بالضبط الدفاعات التي تثيرها البراعة البشرية[408]"، "سوف تخون دائمًا، كما يعلم الجيش الفارسي جيدًا، ضعفًا قاتلاً-لأن هناك القليل من الخوانق التي لا يمكن بطريقة ما تجاوزها من خلال طريق عبر مرتفعاتها. كانت بوابات سوريا، والبوابات الكيليسية، والبوابات الفارسية كلها عرضة للتطويق من الطرق الجبلية. فلماذا لا تكون البوابات الساخنة أيضًا؟

مع صمود الإغريق ضد كل ما يمكن إلقاؤه عليهم مباشرة، أصبح هذا، ساعة بساعة، سؤالًا أكثر إلحاحًا. قد يكون هناك القليل من الشك في أن العملاء الفرس، حتى قبل وصول الملك العظيم، كانوا ينتشرون فوق سفوح أويتا وكاليدروموس، ويفحصون وضع الأرض، ويلوحون بالذهب أمام الفلاحين، مناشدين المرشدين المحليين. لم يكن أي منها وشيكًا: تراكيس، التي كانت تجثم فوق شق مضيق أسوبوس القريب من الصخور، كانت معادية للملك العظيم، وكان معظم السكان المحليين قد فروا إما إلى الجبال أو إلى ليونايدس. ومع ذلك، ترك البعض، وكل ما يتطلبه الأمر هو أن يتصدع يوناني واحد، واحد فقط،

يخيفه مشهد روعة الملك العظيم؛ والروعة، بالطبع، كانت شيئًا قام به الملك العظيم بشكل فائق و استثنائي.

على وجه الخصوص، كانت خيمة زركسيس الخاصة، الضخمة في وسط المعسكر المترامي الأطراف، والبيارق الحربية الإمبراطورية المزينة بنسور ترفرف فوقها. لم يكن هذا مجرد مقر للحملة، ولكن بفضل إعادة بنائه بعناية كتخطيط برسيبوليس، وصولاً إلى أدق التفاصيل، درسا متقدما متنقلا في ديناميات السلطة الملكية. مجهول عند هؤلاء لأنهم لا يمكن أن يكونوا سوى متوحشين على الحافة الخارجية للعالم، كان على اليونانيين أن يكونوا مبهورين، مرتعبين وخائفين من جهلهم المؤسف. في محاولة الشرح لزركسيس أهمية الكود الليكورجوسي، أكد ديماراتوس بجرأة أن الأسبرطيين يخشونه "أكثر مما يخافك رعاياك"[409] الامر الذي بالكاد ضحك عليه ملك الملوك "ولم يغضب" ثم صرفه برفق شديد[410]. ربما كانت النزعة الإقليمية الغاضبة في المنفى الحنين إلى الوطن مزحة مثيرة للشفقة لدرجة أنها تثير غضب سيد القوة العظمى. وربما-بالنسبة للإسبرطيين كانوا شعبًا تجرأ على قتل سفراء أبيه، وأرسل ملكهم بثلاثمائة رجل فقط لمعارضة كل قوة جيشه-كانت غطرستهم شيئًا يصعب على زركسيس الشك فيه. "اليوناني النموذجي: رجل يحسد ثروة الآخرين، ويستاء من قوة أولئك الذين هم أقوى منه[411]." هذا، الذي تم تسليمه بتنازل ساحق ولكنه ليس غير دقيق، كان الحكم المدروس للقيادة الفارسية العليا على نفسية عدوهم. ومع ذلك، كان من الممكن تطبيق نفس الاسلوب بالضبط على الميديين أو البابليين أو المصريين-وقد تم إثبات خطأ كل تلك الشعوب القديمة بشكل صارم.

إن شعور الملك العظيم بالتزامه الرسمي بفتح أعين أوروبا على مستقبلها في النظام العالمي الجديد يمكن قياسه من الوتيرة البطيئة لتقدمه من هيلسبونت. وقد تركه هذا يصل إلى ثيرموبيلاي بشكل محفوف بالمخاطر في وقت متأخر من موسم الحملة؛ ولكن كان من المهم لزركسيس أن يوجه رعاياه الجدد بدقة شديدة في طبيعة الخضوع الذي يدينون به له. في حين أن سلسلة من المسيرات، سباقات القوارب وسباقات الخيول استمرت في التباهي بالنطاق

العالمي لموارد الملك العظيم. لذا فإن المساهمة التي كان على السكان الأصليين أنفسهم تقديمها لهذه الروعة، والاحترام الذي سيسمح لهم بعرضه لسيدهم، تم نقله إلى الوطن بالمثل. خلال فصل الشتاء، تم توجيه كل مدينة في مسار الرحلة الاستكشافية لإعداد وليمة مناسبة للملك. لأشهر، لم يفعل السكان الأصليون سوى الذعر من قوائم الطعام. إن التكليف بإعداد حفل عشاء وفقًا للمعايير الفخمة لبرسيبوليس كان سيشكل صداعًا كافيًا لأي مضيف، لكن هذا كان أقل التزاماتهم تقريبًا. كان هناك أيضا جنود الملك العظيم الذين يجب إطعامهم وخيوله وبغاله وجماله. كان لابد من توفير الخشب لنيران الطهاة الملكيين. يجب أن تكون الأكواب على طاولة الملك العظيم من الفضة والذهب، والتركيبات من أجود أنواع الكتان، والبسط والسجاد من أنعم وأفخم المواد التي يمكن للمواطنين البائسين تحملها. ولم يكن هناك أي احتمال لبيعها بعد ذلك للمساعدة في تعويض النفقات، بمجرد استخدامها. لأن الفرس، مثل أسوأ نوع من ضيوف المنزل، كانوا معتادون على تخزين جميع المفروشات "والسير، دون ترك شيء ورائهم[412] ". لا عجب أن مهرجا، نزف دمًا من "رعب" استضافة الجيش الإمبراطوري، قد دعا مواطنيه إلى تقديم الشكر للآلهة "أن الملك زركسيس لم يكن معتادًا على طلب الإفطار أيضًا[413]".

لا عجب أن الإسكندر المقدوني، في شهر مايو، عندما واجه احتمال وجود قوة يونانية ممسكة في تيمبي على الحدود الجنوبية لمملكته، أرسل لها رسالة محمومة، محذرة قادتها من أن موقفهم لا يمكن الدفاع عنه. صحيح تمامًا، بالطبع-واستنتاج بدأ الإغريق بالفعل في رسمه لأنفسهم-لكن أمن القوة الضاربة، من وجهة نظر الإسكندر، كان مجرد عمل عرضي. بدلاً من ذلك، كان همه الرئيسي هو ضمان إقامة قصيرة للجيش الفارسي في مقدونيا قدر الإمكان. تابعا لملك الملوك، كان الإسكندر يدرك بشكل مؤلم أن سيده اعتبر الإمبراطورية بأكملها بمثابة مخزن له-أن "مختلف الأطباق الشهية للبلدان التي حكم عليها، وأفضل ثمار في أي منها[414]" كانت كل ما يستحقه، تحية يجب اقتطاعها من أجل المنفعة الحصرية للمائدة الملكية. لقد تم تصوير الأعياد التي تمت بمثل هذه النفقات والعذاب من أولئك الذين كانوا على طريق زركسيس على أنها

هدايا، ليس من أولئك الذين قدموها، ولكن من الملك العظيم نفسه، التي منحها لأتباعه بشهامة: "عشاء الملك". وقيل أيضًا، على العكس من ذلك، أن زركسيس رفض أي تخصصات يونانية، وأمر بسحبها إذا تم تقديمها في أي وقت-لأنه لا يُسمح إلا بدهن أراضي رعاياه بالمرور على شفاه الملك العظيم. الوقت الكافي لتين أتيكا مرة واحدة جلس زركسيس في أثينا المحتلة.

كان احتمال أن يتضور جيشه جوعًا، أو حتى-يهلك الفكرة-بأن المائدة الملكية نفسها قد تبقى فارغة، كان يمثل أزمة أكثر بكثير من مجرد لوجستيات: لأن أسس الهيبة الإمبراطورية كانت معرضة للخطر. إذا حرم الملك العظيم من حلوى البودينغ الخاصة به، فقد تبدأ الروح المعنوية في الانهيار. لا يعني ذلك أنه كان من السهل اكتشاف بيروقراطية شديدة الاهتمام بالتفاصيل لدرجة أنها كانت معتادة على إصدار أوراق سفر للبط. تم اتخاذ استعدادات واسعة النطاق لمثل هذه اللحظة من الأزمة وهي تختمر في ثيرموبيلاي. من المؤكد أنه كان ممكناً إحضار الطيور المائية في قطار الأمتعة الإمبراطوري، وكذلك الحال مع أي عدد من الأطباق الأخرى التي اعتاد عليها الحنك الملكي: زيت الأقنثة من كرمانيا، والتمور من بابل، والكمون من إثيوبيا. حتى مياه شرب الملك العظيم تم نقلها في جرار كبيرة من نهر بالقرب من سوزا.

ومع ذلك، فإن توريد المكونات-وخاصة المكونات الطازجة-كان له حدود، حتى بالنسبة لرؤساء الخدمات اللوجستية منقطعة النظير في بلاد فارس. بحلول اليوم السادس من التوقف القسري في ثيرموبيلاي، أصبح الوضع خطيرًا خارج الحدود المذهبة للخيمة الملكية. بين الجموع المحتشدة من الرتب والجنود. شهية الإيرانيين، على وجه الخصوص، لم تكن مناسبة بسهولة لشد الأحزمة. الإغريق، الذين كانوا يأكلون فقط لحوم الحيوانات التي تمت التضحية بها لأول مرة للآلهة، فحكوا قصصًا بعيون واسعة عن أذواق أعدائهم أكلة اللحوم. قيل إن الفارسي لن يمانع في خبز حمار كامل عند الاحتفال بعيد ميلاده؛ أو حتى جملا، إذا كان ميسور الحال. تحصل الجنود في الحملة على إمداد منتظم من "الثيران والحمير والغزلان والحيوانات الصغيرة والنعام والأوز والديوك[415]" كحصة يومية. كانت ثيرموبيلاي، والتي لم تكن متوفرة بكثرة على

النعام في أفضل الأوقات، قد سببت خيبة أمل مرعبة في الطهي عند رجال جيش الملك العظيم. فعلى الرغم من شهرة الطهاة الفارسيين بإبداع وصفاتهم، إلا أنهم بالكاد يستطيعون تحضير الطعام بطريقة سحرية في الحقول الخالية تمامًا.

ومع ذلك، كان زركسيس، رغم قلقه من قرقرة بطون جنوده، يعلم أن هناك آخرين قد يشعرون بوطأة أسوأ. كان وجود الجيش الفارسي على أعتاب منازلهم يهدد ملاك الأراضي المحليين بالخراب. نظرًا لأن المسؤولية عن هذه الحالة المؤسفة توقفت بشكل واضح مع ليونايدس وجيشه الصغير المميت، فإن الطريقة الواضحة-في الواقع، الوحيدة-للسكان الأصليين لتجنيب أنفسهم العوز التام كانت مساعدة الملك العظيم على ازالة العائق في البوابات الساخنة. بالتأكيد، إذن، كان على زركسيس أن يثق، حيث فشل مشهد القوة الملكية حتى الآن في تجنيد مرشد، أكان من المحتم أن تنجح المصلحة الذاتية؟

وهكذا نجحت في النهاية. وسط الغبار وخيبات الأمل في قتال اليوم الثاني، جاءت القدرة اليونانية على الطعن بالظهر لإنقاذ القيادة الفارسية العليا. لمدة أسبوع تقريبًا، كان الجيش الإمبراطوري قد خيم قبل ثيرموبيلاي-والآن، أخيرًا، تم إحضار مخبر إلى الخيمة الملكية. كان اسمه إفيالتس، وهو مواطن من السهل الذي كان الجيش الفارسي يخيم فيه، وكان هو الذي كشف للمحققين أن جبل كاليدروموس يمتلك سرًا بالفعل. "على أمل الحصول على مكافأة كبيرة، أخبر الملك عن المسار الذي يؤدي فوق الجبل إلى ثيرموبيلاي"[416]- حتى أنه عرض، في غدر مميت حقًا، خدمة الغزاة كدليل لهم.

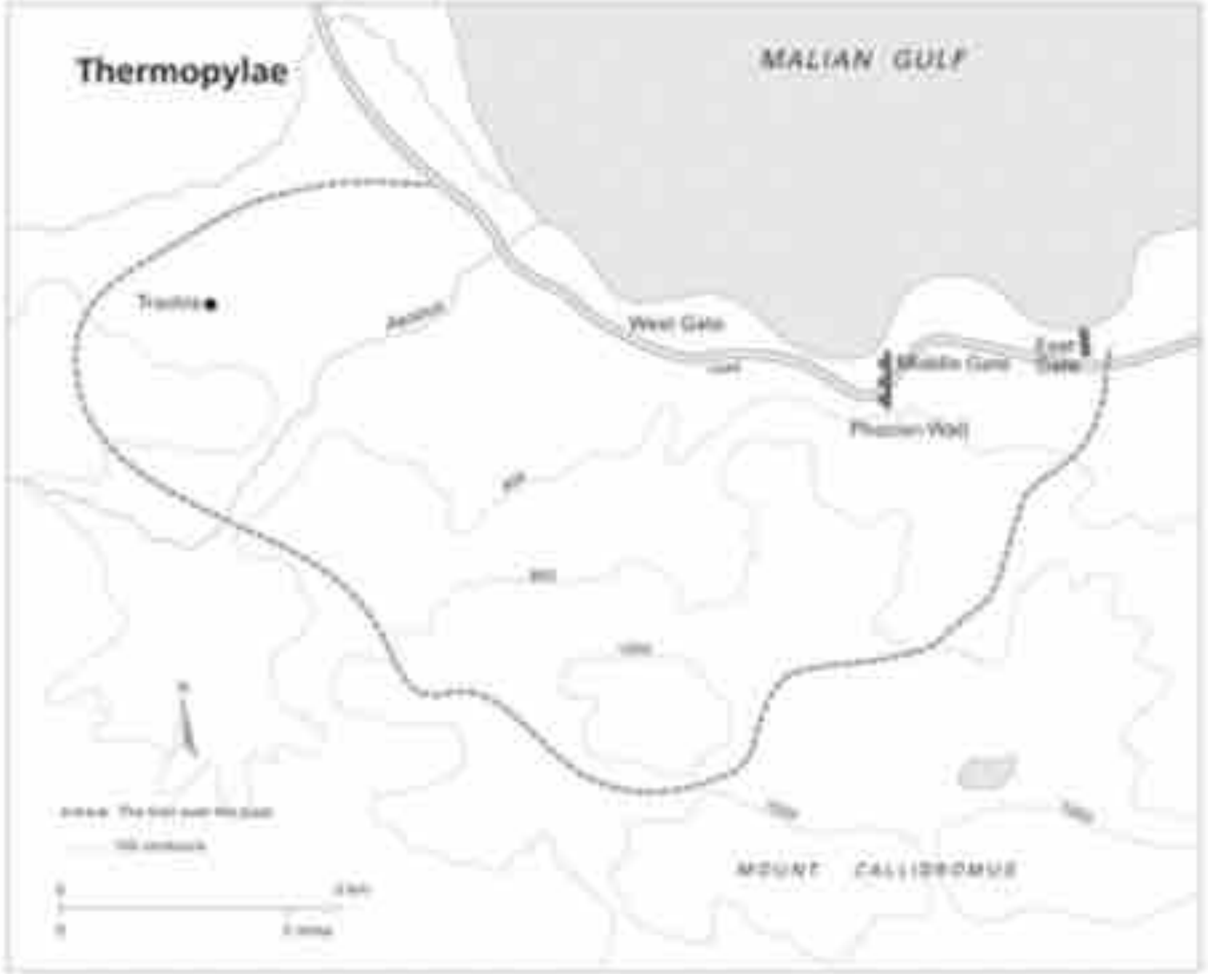
على الفور، تم ضبط الآلة المخيفة للجيش الإمبراطوري في حركة سلسة وقاتلة. في وقت متأخر من اليوم، على الرغم من أنه كان كذلك بالفعل، كان واضحاً أن المزيد من التأخير أمر غير وارد: فتقرر صعود كاليدروموس في تلك الليلة بالذات. ولم يكن من الممكن أن يحاول المشاة الخفيفون ذلك كما كان ليونايدس يعتقد انها القوات الوحيدة القادرة على القيام بهذه الرحلة. كان الخالدون، الذين نشأت قوتهم وسط مرتفعات إيران، فريقًا مصنوعًا لمثل هذه المغامرة. وقد أدموا الممر في اليوم السابق، لم يكن هناك رجل من بينهم غير

راغب في التمتع بفرصة الانتقام. بالنسبة لقائدهم، على وجه الخصوص، كان للمهمة طابع خاص. كان هيدارنس نجل ويحمل الاسم نفسه للشريك المتآمر مع داريوس الذي، قبل 41 سنة، كان قد أمسك طريق خراسان السريع ضد جيش كبير من المتمردين الميديين. الآن، منح الفرصة المثالية ليضيف إلى عائلته شرف التكريم في المعركة، سيخدم هيدارنس ابن داريوس، ليس من خلال السيطرة على الممر الحيوي، بل من خلال ازالة العوائق عنه.

غادر هو ورجاله العشرة آلاف عند الغسق. بدأ طريقهم على بعد عدة أميال إلى الغرب من البوابات الساخنة، والى الغرب أيضًا من تراكيس ومضيق اسوبوس الذي يقف فوقه[417]. من ورائهم، وهم يبتدئون في الصعود، كانت نيران الحراسة قد بدأت تتناثر في السهل، ولكن سرعان ما ضاع منظر المخيم لحسن الحظ، تمامًا كما قال إفيالتس، كان من السهل متابعة الممر، والقمر، القمر الكارني المشؤوم، بدرا في سماء صافية، تفوق حتى على تألق نجوم أغسطس. لساعات، سار الخالدون، من خلال الضوء والظل الفضي، يتأرجحون يسارًا عبر السهل الواسع الذي امتد إلى ما وراء المنحدرات العالية في تراكيس، نزولاً إلى الوادي ثم فوق نهر اسوبوس. هنا، وراء الضفة البعيدة، امتدت الطريق أكثر. حتى الآن، على الرغم من أثقالهم بالدروع والتروس، ظل بإمكان الفرس الصعود دون تعرج، وبعد ساعة أو نحو ذلك، وهم يرتادون حافة من خشب البلوط والصنوبر، وصلوا إلى هضبة واسعة أخرى. أمامهم، بعد المزيد من الأشجار، وعلى مساحات عريضة من العشب المفتوح، انفتح المسار، ظلوا يتسلقون، ولكن مرة أخرى برفق، وبدأ الخالدون، الذين استعادوا سرعتهم مرة أخرى، في الدوران حول القمة التي تلوح الآن بينهم وبين ثيرموبيلاي. بينهم وبين رؤيتهم للأفق الشرقي أيضا. و تدريجياً، عندما بدأت النجوم تتلاشى، امكن للفرس أن يشعروا بقدوم الصباح، وأن الشمس، المشرقة مع الجمال الأبدي لأهورا مازدا، ستبزغ قريبًا فوق البوابات الساخنة . بدأ لون الافق في التوحد. انتقل الخالدون إلى غابة من شجر البلوط. ومع ذلك، حتى تحت الأشجار، ظل الطريق أمامهم مرئيًا تمامًا، لأنه لم يكن أخف وزنا مع مرور الوقت فحسب، بل اكتسحت العواصف الأخيرة تعريشة الأغصان فوقه. الأوراق، كان جافة بالفعل، تتقصف

تحت الأقدام. ثم، فوق حفيف وسحق عشرة آلاف زوج من الأقدام، كان هناك رنين مفاجئ: صوت المعدن.

متقدمًا إلى حافة الأشجار، رأى قائد فريق الخالدين، في ذهوله، حامية من المحاربين تسد طريقه. من الواضح أنه قد فاجأهم، لأن اليونانيين



ظلوا يجاهدون من أجل سحب دروعهم؛ لكن هيدارنس، الذي تعلم بالطريقة الصعبة عدم التقليل من شأن الاسبرطيين، أراد مباراة العودة معهم في البوابات الساخنة ، وليس على المرتفعات فوق الممر. ومع هذا، عندما أشار إفيالتيس إلى عدم وجود أقمصة وأردية قرمزية بين العدو، طمأن سيده بأنه لا يواجه رجال ليونايدس، بل جنود مدينة أخرى، على الأرجح فوسيس، أعطى هيدارنيس رجاله على الفور الأمر بالهجوم. فسحبوا أقواسهم، أطلق الخالدون على النحو الواجب تسديدة قوية على الكتائب نصف المشكّلة. كان الفوسيون، الذين يفتقرون إلى الحس الاستراتيجي الجيد الذي كان من الممكن أن يزودهم به، ربما، وجود ضابط اسبرطي، واعتبروا أن البرابرة ساروا طوال الليل بهدف محدد هو القضاء عليهم، تراجعوا بطريقة فوضوية. إلى قمة تل قريب. هناك ثبتوا أنفسهم لاتخاذ موقف نهائي بطولي-فقط ليروا الخالدين يكتسحونهم بازدراء، ويستمرون على طول الطريق المفتوح

كان على هيدارنس، عندما بدأ نزوله نحو البوابات الساخنة، أن يفترض الآن أن هناك عدّاء فوسياً على الطريق أمامه، مسرعًا لتنبيه ليونايدس. من غير المحتمل أن يكون هذا التفكير قد أزعجه إلى حد كبير. ربما كانت الإستراتيجية الفارسية هي تحذير الإغريق من هلاكهم. قبل شروق الشمس بوقت قصير، وصدام الخالدين مع الفوسيين، كان أحد الفارين من معسكر الملك العظيم قد تسلل إلى البوابات الساخنة. لقد كان أيونيًا، اسمه تيرهاستيادس -أصر على أن الدافع وراءه هو مجرد قلقه على اقربائه اليونانيين. ربما كان كذلك-باستثناء أنه كان يبدو ليس أكثر من نفحة من الحيل الفارسية القذرة عند وصوله. بصرف النظر عن حقيقة أنه من غير المعتاد أن تنضم الفئران إلى سفينة تغرق، أظهر توقيت ظهوره في المعسكر اليوناني كل علامة على الحساب الأكثر دقة. بعد فوات الأوان تمكن ليونايدس من تعزيز موقف الفوسيين، أغراه في نفس الوقت على أمل أنه قد تكون هناك فرصة للانسحاب. كان هذا، بالطبع، بالضبط ما أراده الملك العظيم أن يؤمن به: بالنسبة لليونانيين، إذا اختاروا الدفاع عن طرفي البوابات الساخنة ضد حركة الكماشة التي تتم ضدهم، فقد يستمرون في الممر لعدة أيام. أمسك بهم وهم يتراجعون على الطريق المفتوح، ولن يواجه سلاح الفرسان الفارسي مشكلة في تقطيعهم إلى أشلاء. سيكون الممر محرراً، وكان سيتم القضاء على خمسة آلاف من جنود الهوبليت اليونانيين من الميزانية العسكرية، وسيكون انتصار الملك العظيم كاملاً.

لكن هل سيأخذ ليونايدس الطعم؟ كان القائد العام لرابطة الحلفاء، متخرقا لعدم رؤية جيشه بالكامل يخسر، لكنه تعهد أيضًا، بصفته ملكًا اسبرطياً، بعدم التخلي عن ثيرموبيلاي، كان لديه خيار ثالث. وبمجرد التأكد من إمكانية قراءة الكارثة في أحشاء الماعز التي قُتلت في القربان، استدعى قادة الوحدات الأخرى عُمش العيون إلى مجلس الحرب. الارتباك والقلق، بشكل غير مفاجئ، كانا سائدين في هذا الاجتماع، حيث رفض البعض قبول الإخلاء، بينما طالبت الأغلبية ببدء ذلك على الفور. أعلن ليونايدس، في إسكات للضجة، عن نية حارسه الشخصي التشبث بالثغرة أمام العدو، بغض النظر عما يوّجه

ضدهم. ثم لم يكتف بالسماح للجيش بالمغادرة، بل أمره بشكل أكيد، وبأسرع وقت ممكن، بإعطاء نفسه كل فرصة للبقاء على قيد الحياة للقتال في يوم آخر. رفض الثسبيين، الذين اشتهروا باللعنة، التخلي عن مناصبهم؛ وكذلك فعل الموالون لهم -لأن مدينتهم الآن محكوم عليها بالتوسط، لم يكن لديهم ما يعودون إليه، باستثناء احتمال تعرضهم للتطهير[418]. أمر ليونايدس جنود الهيلوت بالبقاء في البوابات الساخنة أيضًا، لمساعدة الاسبرطيون على الاستعداد للمعركة، ليكون بمثابة مشاة خفيفة ويموتوا من أجل حرية أسيادهم. بعد ذلك، قام حوالي 1500 رجل في المجموع، وهم يتحسسون أسلحتهم المثلمة والبالية بأصابع رطبة، ويشعرون بأشعة الشمس الأولى على وجوههم، ويحاولون عدم ترك تعبيراتهم تعكس مشاعرهم، سواء بالازدراء أو الاستسلام أو الحسد، وشاهدوا رفاقهم يحزمون دروعهم ويغادرون المعسكر ويتجهون جنوبا[419]. 38 تلاشي صوت الأقدام، وتناثر الغبار الأبيض في نسيم الصباح، وتركت القوة الصغيرة وحدها في ضباب وتراص الممر. لم يكن هناك ما يزعج الهدوء في المنحدرات الغربية لكاليدروموس، والتي كان هيدرنيس وأفراده الخالدون ينحدرون منها في تلك اللحظة؛ لا شيء يوحي بأن البرابرة كانوا يقتربون. حتى الآن، لم يكن هناك أي شيء من البوابة الغربية أيضًا. نصح ليونايدس رجاله: "تناولوا فطورًا جيدًا، لأننا الليلة سنتعشى في العالم السفلي[420]".

في هذه الأثناء، في الخيمة الملكية، تم تناول وجبة الإفطار أيضًا، ولكنها بلا شك كانت في مزاج أكثر بهجة، وأكثر استرخاءً أيضًا: بالنسبة إلى زركسيس، على الرغم من أنه قد استيقظ عند الفجر لصب الإراقة الى الشمس، إلا أنه تمنى منح هيدارنس فرصة للوصول إلى الممر قبل أن يشن هجومه. أخيرًا، في حوالي الساعة التاسعة صباحًا، أعطى إيماءة لجنرالاته، وبدأت الكتلة الهائلة من جيشه في التقدم. حتى قبل وصولهم إلى الممر، كانت رائحة الموت النتنة، المنبعثة من ذباب الجيف، تبدو وكأنها تلمع مثل غيوم الغبار والحرارة؛ وعندما دخلوا البوابات الساخنة، كانوا سيشاهدون أمامهم الأطراف المتشابكة لزملائهم المذبوحين، وبطونهم منتفخة أو ممزقة، والأحشاء تندلق على الأرض.

كان العدو أيضا في العراء. فبدلاً من البقاء خلف سور البوابة الوسطى، كما فعلوا خلال قتال اليومين السابقين، تقدم اليونانيون إلى ما وراءها، واستعدوا للقتال، ليس في تتابع، ولكن في كتلة واحدة قاسية. للحظة، تراجعت قوات الملك العظيم، بعد أن شعرت بالذهول من منظر هؤلاء الرجال في البرونز والدم. ثم بدأ ضباطهم، وهم يلوحون بالسياط، بجلدهم لدفعهم إلى الأمام. تم الاستهزاء به باعتباره دعاية يونانية على الرغم من أن التفاصيل غالبًا ما تكون كذلك، لا يبدو أنه يوجد سبب حقيقي للشك فيه. كان ثقل العدد، الذي أصبح من الممكن الآن استخدامه بشكل أكثر فاعلية ضد العدو، ميزة ساحقة كان لدى القيادة الفارسية العليا كل الأسباب لاستغلاله؛ واستخدام الجنود غير المدربين، على الأقل خلال الافتتاح الجهنمية للمعركة، لابد أن يكون قد طرقهم باعتباره الطريقة الأكثر فعالية من حيث التكلفة لتحييد الرماح الطويلة لليونانيين. محاصرين بين الشرطة العسكرية الخاصة بهم والكتائب اليونانية المخيفة ذات الرؤوس البرونزية والمكسوة بالدماء، لم يكن أمام الجنود التعساء خيار سوى المشي بالتثاقل إلى الأمام، أو قد يتم سحقهم على جدار الدرع أو اغراقهم في المياه الضحلة، وسقوطهم بالمئات فوقها. المئات، بالتأكيد، ولكن أيضًا، وهم يفعلون ذلك، كانوا تدريجياً يشقّون الرماح اليونانية كأعواد الثقاب.

وبعد ذلك، على ما يبدو، عندما تم قطع كل الفتحات، تحركت النخبة الفارسية من أجل القتل. ما تبع ذلك كان المعركة كما وصفتها الإلياذة: صراع الأبطال الأقوياء، "صرخات الرجال وصرخات انتصار تخرج في نفس واحد[421]". وكان من بين الذين سقطوا اثنان من ابناء داريوس وأخيه-ثم ليونايدس نفسه. جرى صراع يائس، ملحمي على نحو ملائم، على جثة الملك الميت، حتى أعادها الأسبرطيون، في شراسة معاناتهم ويأسهم، إلى أمان مؤقت. ولكن بعد ذلك، من خلفهم، فوق المخرج الشرقي من البوابات الساخنة مباشرة، جاء بريق رؤوس الرمح من بين شجيرات المنحدر: ووصل الخالدون. بعد أن تعرضوا للتهديد من جميع الجوانب الآن، تراجع اليونانيون الذين بقوا على قيد الحياة إلى ما وراء الجدار، مستهدفين تلة صغيرة في ظل البوابة الوسطى. هناك-على الرغم من أن

الطيبيين، انفصلوا عن زملائهم، وأجبروا على مواجهة المنحدر، ولم يصلوا إليه أبدًا-اتخذ الأسبرطيين موقفهم النهائي. وقاوموا حتى النهاية، تخترقهم السهام، وتغمرهم بالدماء. حتى عندما اصطكت سيوفهم، استخدموا المقابض، أو قاتلوا بأسنانهم، بقبضاتهم، وأظافرهم. فقط عندما مات كل اسبرطي وآخر والتيسبيين، كان التراب ملطخًا بالدماء، و قد تراكمت الجثث عالياً، يمكن تقدير أن الصراع انتهى، وصار الممر للملك العظيم أخيرًا.

كان زركسيس نفسه، عند دخوله البوابات الساخنة في منتصف النهار تقريبًا، مبتهجًا بمشهد الرايات الفارسية التي ترفرف فوق ساحة المعركة، وثارت من جراء المذبحة. كما كان واجبه تجاه الرجال الذين سقطوا في سبيل قضيته، فقد أصدر تعليماته بحفر الخنادق ووضع جثث موتاهم فيها، ثم تغطيتها بوقار بالتراب والأوراق. وترك جثث الإغريق لتتعفن، بينما أمر لهؤلاء القلائل من الطيبيين الذين اختاروا رمي أسلحتهم بدلاً من ذبحهم تقييدهم بالسلاسل ووسمهم. لم يكن من المستغرب أنه لم يكن في حالة مزاجية تناسب الشهامة. لأنه، على الرغم من نجاحه الرائع في التدمير، بعد يومين ونصف اليوم فقط من القتال، كان موقع الإغريق الذي كان يبدو منيعًا، لم يكن جزءًا من خطته في المعركة أن يفلت العديد من المدافعين من الإبادة. وسرعان ما ظهرت وخزات أخرى. بالنسبة للأسطول اليوناني، تم إبلاغه بعد ظهر اليوم التالي، أنه قد قام بعملية إخلاء ناجحة خاصة به، بعد أن هرب بعيدًا في جوف الليل إلى مياه أكثر أمانًا. لم يعثر الأسطول الفارسي، الذي كان يعبر إلى أرتميسيوم في الصباح، على شيء من العدو باستثناء جمر النار المتصاعد من النيران وعظام الماشية. كالهاربين من العدالة ربما تعرض اليونانيون للإذلال في البر والبحر-لكن يبدو أنهم ما زالوا مصممين على الاستمرار في القتال.

لكن بالتأكيد لن يمر وقت طويل قبل أن تلتوى أعناقهم مثل الدجاج. لم يستطع الملك العظيم، الذي كان يفرز تقارير الاستخبارات في أعقاب ثيرموبيلاي، إلا أن يبتسم لمحاولات أعدائه اليائسة منافسته في الحرب النفسية. تم الإبلاغ، على سبيل المثال، أن أميرالًا يونانيًا، توقف في رحلته على طول ساحل إيبويا، قام بنقش رسائل على طول شاطئ البحر، يناشد الأيونيين

ان يكونوا جديرين-أو على الأقل القتال بشدة. خدعة مضحكة! لماذا، عندما فازت الأسلحة الفارسية للتو بانتصارين عظيمين، وعندما كانت مدن بيوتيا تندفع لفتح أبوابها أمام الفاتح، وعندما كانت السيطرة على أوروبا في قبضة الملك العظيم، قد يفكر أي من رعاياه في التمرد؟ ربما تكون أسرابه قد تعرضت لضربات من العواصف، وربما تكون بائسة لأن الإغريق أفلتوا من قبضتها-لكن الطريقة لتعزيز معنوياتهم كانت في متناول اليد. صدرت دعوة رسمية للأسطول: "غادر للذهاب وانظر كيف يتعامل الملك زركسيس مع المجانين الذين يعتقدون أنهم قادرون على هزيمته"[422]. لقد قبل الكثير من الرجال هذا العرض، كما يقال، لم يكن هناك ما يكفي من القوارب لنقلهم جميعًا إلى البوابات الساخنة.

المزيد من جثث الإغريق، المزيد من أكوام الخوذات التي يعلوها شعر الخيل، تم تمزيقها وتقطيعها، المزيد من شارات فخر الاسبرطيين، عباءاتهم وستراتهم الحمراء، صارت الآن لا شيء سوى خرق ممزقة، تذكار، مروع وبشع، كان سيعيد بالتأكيد إلى أذهان البحارة الأيونيين النطاق الفظيع لقوة سيدهم. انتصب وتد إلى جانب الطريق، ووضع رأس الإنسان على الجزء العلوي من الوتد. على الرغم من أنه كان من عادة الفرس، "أكثر من أي شعب آخر في العالم، تكريم الرجال الذين يميزون أنفسهم في الحرب"[423]، "لم يكّرم ليونايدس. ملك مدينة ملعون، أي مصير أفضل كان يستحقه؟ وكذلك فعل فاتحه، ملك الملوك، مع كل خدام الباطل.

وقد تم تثبيت مقل العيون غير المرئية للقائد الأعلى للحلفاء، والتي تقلصت بالفعل وزحف عليها الذباب، على الطريق المؤدي إلى أثينا-وهي الآن مفتوحة وعزلاء.

مدينة الأشباح

ذلك اليوم من كل عام، عندما يذوب الشتاء في الربيع، أصبح الأثينيون غرباء في مدينتهم. اغلقت معابدهم ووضعت خارج الحدود بشكل صارم. كانت أبوابهم ملطخة بالقار. أقاربهم وأطفالهم وحتى عبيدهم تم إبعادهم عن الشوارع. في خصوصية منازلهم، جالسين على طاولات منفصلة، يتسابقون لتصريف أباريق منفصلة، ممنوعون من التحدث حتى ينتهوا من شرابهم،

احتفل الأثينيون بأنستيريا: مهرجان النبيذ الجديد. لا توجد مناسبة أعطت فرصًا أفضل لأعمال شغب عائلية سعيدة. يُسمح للأطفال الذين تقل أعمارهم عن ثلاث سنوات، متوجين بأكاليل الزهور ويلوحون بأباريق صغيرة خاصة بهم، بالانضمام إلى مسابقة الشرب ثم الترنح دون ثبات، وهم ينظرون إلى مشاهد الاحتفال. "الأرائك، والطاولات، والوسائد، والأغطية، والأكاليل، والعطور، والعاهرات، والمقبلات، كلها موجودة هناك، والإسفنج، والفطائر، وكعك السمسم، والمعجنات، والراقصات، والأغاني الجيدة أيضًا، وجميع الأغاني المفضلة[424]." بغض النظر عن العاهرات، ربما لم يكن أي مهرجان آخر في التقويم الأثيني قريبًا تمامًا من روح عيد الميلاد في العصر الحديث.

ومع ذلك، بينما كانت أصوات الفرح المكتومة تنساب من خلف الأبواب المتلألئة المطلية باللون الأسود، لم تكن الشوارع مهجورة بالكامل. كان يُعتقد أن الشياطين في الخارج: أرواح شريرة، نذير كارثة. أطلق عليهم الناس اسم "كيريس "، أشباح من وراء أسوار المدينة. فقط عند غروب الشمس شعر الأثينيون بأنهم قادرون على الصراخ بارتياح، "ابتعد عنك يا كيريس-لأن أنثيستريا قد انتهى[425]!" انفتحت الابواب المغطاة بالسواد، وانسكب الرجال في الشوارع وانزلت الحبال من حول الهيكل. عادت إيقاعات الحياة اليومية إلى أثينا.

ولكن ماذا لو اختفت هذه الإيقاعات ولم تعد أبدًا؟ كان هذا هو السؤال الذي كان يطارد المدينة منذ أن أقنع ثيمستوكليس، في وقت سابق من الصيف، الشعب الأثيني بإخلاء وطنهم. ربما كان هناك كائنات فضائية أكثر تهديدًا من الغول. ألقى غموض مقلق بظلاله على أنتيستيريا. "كيريس"، وذلك بفضل خصوصية لهجة أتيكا، قد يكون من السهل نطقها "كارس "-"كاريون"، أو "شعب كاريا". هؤلاء، جيران الأيونيين في الزاوية الجنوبية الغربية لما يعرف الآن بتركيا، كانوا من بين أوائل البرابرة الذين تطفلوا على وعي الإغريق. لقرون كانوا يرمزون إلى الغربة وآسيا. لقد قاتلوا، كما قيل، في الحرب الكبرى الأولى بين الشرق والغرب، إلى جانب الطرواديين؛ وعلى عكس أبناء عمومتهم في إيونيا، لم يخضعوا أبدًا لحكم المستوطنين اليونانيين. على الرغم من أن مدينة هاليكارناسوس، عاصمة كاريا العظيمة، كانت تدين بأساسها الأصلي

للمستعمرين من البيلوبونيز، إلا أن الإغريق كانوا مجرد عنصر واحد في ما أصبح، على مر القرون، بوتقة انصهار معقدة. كانت المدينة، في نظر الأثينيين، على أي حال، هجينا مزعجًا. ازدهرت هناك عادات غريبة ومعقدة. لماذا، كما أنها كانت تحكمها امرأة هي: الملكة أرتيميسيا. كانت "ذكورية" جدا هي "روح المغامرة[426]" المقلقة لهذه الأنثى بحيث دفعتها للمشاركة في أسطول المعركة الإمبراطوري. مزينة بمجوهرات ذهبية ومرتدية أرواب أرجوانية ومعطرة برائحة باهظة الثمن ربما كانت كذلك، لكن مهارتها كأميرال بالكاد يمكن الشك فيها. كانت سفن التجديف الخاصة بها مدارة بشكل جيد، حتى أنها كانت تتمتع بسمعة طيبة في المرتبة الثانية بعد أسراب صيدا. إذا لم يكن من الممكن إيقاف البرابرة قبل وصولهم إلى أتيكا، فمن المحتمل أن تبحر أرتيميسيا وسفنها الحربية قريبًا في بيرايوس. " كيريس " أو " كاريس "، لن يحدث فرق كبير في الكلمة التي تم استخدامها: الغرباء سوف يمشون في شوارع أثينا-ولن يختفوا عند غروب الشمس.

ربما كان من المتوقع فقط، إذن، أن العديد من الأثينيين، حتى عندما قاتل مواطنوهم وماتوا في أرتميسيوم لكسب الوقت من أجل إخلاء أتيكا، جروا أقدامهم. لم يكن هذا بالتأكيد انعكاسًا على جودة ما تم توفيره لهم في المنفى. كانت بوابات تروزن، وهي مدينة آمنة في بيلوبونيز، على بعد حوالي ثلاثين ميلاً عبر خليج سارونيك من بيرايوس، مفتوحة للاجئين من أثينا منذ بداية الأزمة. على الرغم من بؤسهم بسبب التشرد-وربما بشكل غريب بالنسبة للأثينيين المولودين من الأرض-فقد أثبت التروزينيون بالفعل أنهم مضيفون كرماء بشكل ملحوظ: فقد تم منح كل أم متوترة تصل إلى مدينتهم رفاهية عامة، وتعليمًا مجانيًا لكل طفل، وحتى حسب الطلب. وحرية التصرف لقطف الفاكهة الطازجة من البساتين والجنان. ومع ذلك، بالعودة إلى أثينا، أثار نجاح الإخلاء نوبة جديدة من الألم. كلما شوهدت العائلات تصعد إلى منازلها، وتتجول في الشوارع بأمتعتها، وتدفع عربات اليد المحملة بزيادة إلى الشواطئ والأرصفة، كلما صدم أولئك الذين يشعرون بالضيق أو الغضب الشديد للانضمام إليهم لأن العالم قد انقلب رأسًا على عقب.

وكم كانت علامة تنذر بالسوء في تلك الأوقات أن الزوجات والأمهات-حرائر أثينا المحترمات! -كن في الشوارع على الإطلاق. كانت فرص سوء السلوك التي قد توفرها أزمة دولية للنساء تفترس عقول الأزواج اليونانيين منذ أيام حرب طروادة على الأقل. لكن في أثينا، كان لمثل هذه المخاوف صدى خاص. "نشأت في ظل أكثر القيود تشنجًا، وترعرعت منذ الطفولة على رؤية وسماع أقل قدر ممكن، وطرح الحد الأدنى من الأسئلة فقط"[427]، "عاشت النساء في أثينا حياة العزلة دون مثيل في أي مكان آخر في اليونان. لم تتطلب الطبيعة الخاصة للديمقراطية أقل من ذلك. كانت قدرة المرأة على إثارة الأذى في الحياة العامة مصدر قلق للمصلحين المفكرين قبل ثورة 507 قبل الميلاد بفترة طويلة. وحرصًا على إرشاد النخبة إلى فضائل ضبط النفس، وجد سولون أي تلميح إلى البهاء الأنثوي أمراً لا يطاق بشكل خاص، وبذل جهودًا صارمة لكبح جماحه. وبدلاً من السماح لبنات الطبقة الأرستقراطية بالتباهي بثرواتهن وذوقهن في الأماكن العامة، اتخذ الخطوة البسيطة، وإن كانت جذرية، والمتمثلة في إصدار أمر بأن أي امرأة "تمشي في الشوارع، في الخارج وفي كل مكان[428]"، يجب اعتبارها عاهرة. لقد انتهز الأزواج الأثينيون-أو على الأقل أولئك الذين لديهم مساحة أرضية كافية لتأمين زوجاتهم في أماكن منفصلة-الفرص التي يوفرها هذا التشريع باستمتاع. على نحو متزايد، على مدى العقود، كفل القانون أن النساء اللواتي لم يرهن أحد من قبل هن فقط من يمكن اعتبارهن محترمات. في الوقت نفسه، بالطبع، فعل العجائب لتجارة الجنس.

الكثير لدرجة أن سولون، بعد قرن من وفاته، سوف يتذكره المواطنون الأثينيون بامتنان كرجل استخدم تمويل الدولة لدعم بيوت الدعارة، على أساس مبدأ المساواة التام بأن تكون العاهرات متاحات للجميع. ربما كان هذا التقليد-نظرًا لأن موقف المصلح العظيم تجاه المرأة هو بالتأكيد موقف غير مبالٍ صارم-تشويهًا. لكنه يشير إلى كيف أن حق البغايا في الرحلات البحرية أصبح ينظر إليه من قبل العديد من المواطنين على أنه حجر الأساس للديمقراطية. مثل تمثال قتلة الطغاة في اغورا، أو صفوف المقاعد المنحوتة في بينكس، كانت منطقة الضوء الأحمر الأثينية، النابضة بالحيوية والمعاناة

والمتعة، واحدة من المعالم الأسمى للنظام الجديد. كان يمكن رؤية العاهرات في كل مكان في سيراميكوس، سواء كن يشمسن أنفسهن عاريات الصدور خارج بيوت الدعارة، أو يتشاجرن في الأزقة الخلفية القذرة أو يطاردن المقابر خارج حدود المدينة. في ظل هذه الرؤية الملتهبة، تقلص دور أخواتهن المحترمات وأصبحن أقل وضوحًا قبل ذلك، بحيث أصبح قريبًا من العرف، في ظل الديمقراطية، الامتناع عن ذكر اسم المرأة متزوجة في الأماكن العامة. في الواقع، كانت الطبيعة الآكلة للحوم للسياسة الأثينية على ما هي عليه، وكان التأثير الحقيقي الوحيد الذي يمكن أن تحدثه حتى أكثر الزوجات فضيلة على حياة زوجها المهنية. بالنسبة للسياسي، كان هناك شيء واحد أسوأ من عدم الحديث عنه، وهو التحدث عن عائلته. كان العديد من المواطنين، الذين كانوا يشاهدون الخادمات والعاهرات يتدافعن على بعضهن البعض في طريقهن إلى الشواطئ، مرعوبين للغاية لدرجة أنهم منعوا زوجاتهم بشكل قاطع من الانضمام إلى الهجرة الجماعية.

نتيجة لذلك، عندما سار ثيمستوكليس، بعد أن قاد أسطوله المدمر بأمان من ارتيميسيوم ، أخيرًا إلى بيرايوس، وجد لرعبه أن أثينا كانت بعيدة جدًا عن الإخلاء. كان هو، بالطبع-"رجل التقلبات" على الإطلاق-الذي أرسل النداءات إلى الأسراب الأيونية بالتمرد. لكنه عرف أفضل من الاعتماد على أي انفجار داخلي لأسطول المعركة الإمبراطوري. أو على البيلوبونزيين، في هذا الصدد. كان هناك الكثير في الطبقات العليا للمجتمع الأثيني، ممن يثقون في تأكيدات الاسبرطيين الخاصة ، والذين تشبثوا بالأمل اليائس في أن جيشًا متحالفًا قد يسير قريبًا لإنقاذهم. وليس ثيمستوكليس. في ممر بعيد عن البيلوبونيز، مات ملك اسبرطة وجميع حراسه الشخصيين، ولم يكن هناك أي شيء يمكن أن يقوله الأثينيون أو يفعلونه الآن من شأنه أن يقنع الاسبرطيون بإرسال المزيد من قواتهم إلى حقل أجنبي. لم يكن من الممكن أن توضح استجابة مندوبي الحلفاء في كورنث للأخبار الواردة من ثيرموبيلاي ذلك الأمر. وبالإجماع، صوت سكان البيلوبونيز للنظر إلى الفناء الخلفي الخاص بهم. حتى عندما كانت طلائع الملك العظيم تقترب من أتيكا، كان جيش من العمال، تحت إشراف

شقيق ليونايدس الأصغر كليومبروتوس، منشغلًا في العمل بإقامة جدار على طول خمسة أميال من البرزخ، "سحب كتل من الحجر، والطوب، والخشب، وأكياس الرمل، لا يستريح دقيقة، ويجتهد ليلا ونهارا[429]." كان آخرون قد شرعوا بالفعل في هدم الطريق المؤدي إلى ميغارا، وهو كورنيش ضيق ومنحدر تم قطعه من جوانب المنحدرات الساحلية، وهو الطريق البري الوحيد الذي يمكن أن يسلكه الجيش إلى البرزخ أو منه. مع كل انهيار أرضي يتحطم الطريق إلى الخلجان الضحلة أدناه، كان البيلوبونيز يهجرون أتيكا بشكل مؤكد أكثر من أي وقت مضى ويتركونها لمصيرها.

حتى الآلهة، على ما يبدو، كانت يائسة من أثينا الآن. ما إن عاد ثيمستوكليس إلى الجمعية وجدد أمر الإخلاء بشكل محموم حتى وصلت أخبار مخيفة من الأكروبوليس. الثعبان المقدس، الذي كان وجوده بجانب قبر اراكثيوس قد خدم أجيالًا من الأثينيين كضمان بأن مدينتهم لن تسقط أبدًا، أفاد الحاضرين أنه ترك كعكة العسل الخاصة به دون أن يأكل، واختفى. انتشر الخبر بين الحشود المذعورة "أن أثينا نفسها قد تخلت عن المدينة، وكانت تشير إليهم في الطريق إلى البحر[430]". كلها مناسبة للغاية لـ ثيمستوكليس، بالطبع: كما كان، بشكل مثير للريبة، اكتشاف ثانٍ، حتى عندما كان اللاجئون يتدفقون إلى الساحل بأمتعتهم. يبدو أن الأفعى المقدسة لم تكن وحدها التي اختفت من الأكروبوليس. كذلك أيضًا، كانت الصورة الذاتية لأثينا بولياس، الملتفة من حول عنق أقدس التماثيل، تحمل رأس غورغونة ذهبية. احتج ثيمستوكليس بصوت عالٍ على غضبه من هذا التدنيس، وشرع على الفور في نهب حقائب المواطنين الأثرياء بشكل خاص. عندما وجد، كما كان يفعل دائمًا، أكياسًا من الذهب محشورة بعيدًا بين الأمتعة، كان يحجزها على الفور. أدت هذه المصادرات، جنبًا إلى جنب مع جولة سوط بين أرخون سابقين، إلى جمع مبلغ كبير من المال: احتياطي مالي قد لا يكون أمام الشعب الأثيني، الآن بعد أن انتقلوا إلى المنفى، الا القليل من الخيارات سوى الاعتماد عليه من أجل رفاهيتهم. .

وطوال الوقت، بينما كان آباؤهم يقودون الأطفال الذين يبكون عبر المياه الضحلة، والأمهات ذوات الوجوه البيضاء يمسكن بأوشحة رؤسهن بإحكام ويتعثرن في أعقابهن، وتتزاحم السفن من كل نوع في المياه قبالة فاليروم وبيرايوس، كان الوقت ينفد. مرت ستة أيام على فتح البوابات الساخنة. مع تزايد تحول أثينا الى مدينة أشباح، بدأ أولئك الذين يحتشدون على الشواطئ في إلقاء نظرة أكثر قلقًا من فوق أكتافهم، ومسح الأفق بحثًا عن سحب الغبار، ووميض المعدن، وقبس النار. لا شيء حتى الآن. بحلول المساء، عندما أصبحت أثينا فارغة أخيرًا، كانت الحركة الوحيدة في كل الامتداد الكبير للمدينة المهجورة هي حركة الكلاب، التي حيرها الهدوء المفاجئ. تبعت الكثير منها، المخلصة، أصحابها، إلى الشواطئ، وهي تركض على طول الرمال، وتعوي على القوارب عند اختفائها. يقال إن زانثيبوس قد تم استدعاؤه مرة أخرى إلى أثينا مع جميع ضحايا النبذ الآخرين، ولكنه الآن يتجه إلى المنفى مرة أخرى، نظر خلفه وهو يبحر بعيدًا عن البر الرئيسي، فقط ليرى كلبه يجدف يائسًا في مسعاه. عند وصوله إلى اليابسة أخيرًا، كان المخلوق المنهك ينبش الصخور، وبأن ثم انتهى[431].

كانت وجهة زانثيبوس ووجهة جميع مواطنيه سالاميس. هنا، عبر المضيق الضيق في جبل إيغاليوس، أعاد الشعب الأثيني إحياء ما يشبه المدينة التي هجروها للتو، مهما كانت شبحية وفقيرة. عدد قليل من النساء والأطفال-أولئك المتخلفون الذين أصبحت رحلتهم إلى تروزن محفوفة بالمخاطر-يقيمون الآن في الخارج. وكذلك، فإن الرموز والأوصياء على حد سواء في الدستور هم قضاة الديمقراطية. كبار السن، الذين كانت حكمتهم في وقت الأزمات تعتبر مورداً لا يقدر بثمن، قد استقروا في الجزيرة منذ بداية الإخلاء، إلى جانب كنوز المدينة ومخزون الحبوب. والآن، الأكثر إثارة، رغم أنها تعرضت للضربات الجوية وندوب المعارك، وكانت أخشابها تحمل علامات العمل المحموم في أحواض بناء السفن، كانت هناك على استعداد قبالة خلجان سالاميس نحو 180 سفينة من السفن الأثينية: جدار خشبي بالفعل. حسنًا، قد يصر ثيمستوكليس، مشيرًا إلى الأسطول، على أن مواطنيه، حتى في المنفى، ما زالوا مواطنين في "أعظم مدينة في كل اليونان[432]".

ادعاء سيضطر إلى التمسك به كأنه قارب نجاة في الساعات التي أعقبت وصوله إلى سلاميس. لم تكن السفن الأثينية هي الوحيدة التي يمكن رؤيتها من الجزيرة. على مدار اليومين الماضيين، بينما كان ثيمستوكليس ورجاله ينقلون لاجئين من أتيكا، كانت أسراب الحلفاء الأخرى تتربص في المضيق. وافق الأدميرالات البيلوبونيزيون على الانتظار هناك طوال فترة الإجلاء نظرا للكثير من روابط الزمالة المصاغة في ارتيميسيوم. كانت أوامرهم وميولهم الشخصية تحثهم على التوجه فورًا إلى البرزخ. من سالاميس، بعيدًا عبر الخليج الأزرق، كان من الممكن وحسب الاستفادة من ذلك الكعب الصخري المحاط بالسماء: كان هذا المعلم المحير هو أكروبوليس كورينث، برج المراقبة في البيلوبونيز، وعلى بعد خمسة أميال تقريبًا جنوب جدار البرزخ. ربما كان من المتوقع إذن أن يكون الكورنثي، القائد الشاب الناري أديمانتوس، هو الذي تولى القيادة في مجلس الحرب الذي أعقب مباشرة عودة ثيمستوكليس إلى أسطول الحلفاء. غادر إلى البرزخ في الحال، وطالب يوريبيدس وزملائه الأدميرالات. تركيز الموارد البحرية والعسكرية معًا. انضم إلى الجيش المحتشد بالفعل على طول البرزخ. كانت هناك أخوار وخلجان كافية حول كورنثوس لحراسة جناح خط المعركة. وإذا تجاوزت الكارثة الأسطول-حسنًا، فقد يجد البيلوبونيز على الأقل ملاذًا بين شعوبهم[433].

بالكاد، طبعا، كان ممكناً التفكير في الجدال التي يصمم لإثارة الأدميرال الأثيني-وليس اولئك الذين من إيجينا وميجارا-نظرًا لأن هؤلاء الرجال كانوا في قيادة حوالي ثلاثة أرباع إجمالي الأسطول اليوناني البالغ 310 سفينة، واعتراضاتهم ستكون حاسمة[434]. ليس القليل منه. كان الخطر الذي يواجه ثيمستوكليس وزميليه هو نفس الخطر الذي كان يطارد المجهود الحربي منذ البداية: أن التحالف قد يتفتت ويتفكك. ربما فاق عددهم اثنين إلى واحد لأن الأسطول اليوناني كان موجودا، ولم يكن حتى الأثينيين يستطيعون تحمل تكاليفه بمفردهم. أي انقسام بين أسراب الحلفاء سيقضي على كل آمال النصر.

وكان هدف ثيميستوكليس هو الانتصار-ليس مجرد عملية إمساك، كما تصورها أديمانتوس، بل إعاقة حاسمة لقدرة الملك العظيم البحرية بأكملها. ولإقناع زملائه بأن هذا الطموح كان أكثر من مجرد خيال المنفى اليائس، اعتمد على الشيء الوحيد الذي يمكن أن يوحدهم، وبشكل مجيد: ذكرياتهم المشتركة عن حملة ارتيميسيوم . عرف ثيمستوكليس أن المعركة في المياه المفتوحة-التي سيواجهها اليونانيون إذا وقفوا أمام البرزخ-كانت لصالح العدو. وحث على أن "المعركة في ظروف متقاربة تعمل لصالحنا[435]". كان هذا هو الدرس الذي تعلمه من يوم القتال الأشد، عندما نجحت أسراب الحلفاء-على الرغم من تعرضها للضرب-في السيطرة على الممر بين إيبويا والبر الرئيسي ضد الوزن الكامل للأسطول البربري. كانت المضائق في تلك المعركة بعرض ميلين أو ثلاثة أميال: في سالاميس، إذا كان من الممكن جذب البرابرة فقط، فإن المياه كانت بعرض نصف ميل على الأكثر. "إذا سارت الأمور على ما يرام-ولم تكن احتمالات ذلك غير معقولة-فيمكننا الفوز[436]."

وهنا، على الرغم من كل الثقة بالنفس المتزايدة التي تم إصدارها بها، كان الحكم متجذرًا تمامًا في تجارب كل من قاتل في ارتيميسيوم -بما في ذلك الأدميرالات البيلوبونيزيين -كما هو الحال في خصوبة دماغ أثينا المتآمر باستمرار. لقد قدر ثيمستوكليس هذا جيدًا، لأنه كان لديه، لدرجة أنه لا يمكن لأي من الأعداد المقابلة له أن ينافسه عن بعد، جعل حياته المهنية بدافع الإقناع. لقد أثبتت الديمقراطية، في عقودها الأولى، أنها مدرسة صارمة. لا أحد في العالم الآن أفضل من السياسي الأثيني الناجح في الحصول على طريقته الخاصة. يمكن قياس فعالية ملعب ثيمستوكليس من حقيقة أنه عندما وصل الرسل، في منتصف الطريق عبر مجلس الحرب، بأخبار مرعبة تقول أن البرابرة شوهدوا وهم يدخلون أتيكا، "يشعلون النار في البلد بأكمله[437]،" لم ينفجر الاجتماع في حالة من الذعر. ولاحتى رغم الإدراك المروع بأن الأسطول الفارسي قد ينزلق إلى المياه الأثينية في أي لحظة، وربما يغلق طرق الهروب، لم يطالب البيلوبونيزين بالانسحاب الفوري. بدلاً من ذلك، وافق كل من في القيادة العليا

على بقاء الأسطول في مكانه: قبالة سالاميس. لقد أقنع ثيمستوكليس المشككين في الوقت الحالي على أي حال.

وهذا على الرغم من حقيقة أنه كان الآن، في نظر زملائه الأميرالات، الأكثر ازدراءًا بين جميع المخلوقات-"رجل بلا وطن[438]". لم تكن هذه التسمية دقيقة تمامًا، بالطبع-ليس أثناء بقاء سالاميس في أيدي الأثينيين. وحتى مع اندفاع سلاح الفرسان الفارسي السريع نحو المدينة، لم تستسلم أثينا بالكامل: بل ظل معقل واحد، قلب أتيكا المقدس، صامدًا. لم يقترح حتى ثيمستوكليس المتمرد أنه يجب التخلي عن الأكروبوليس. وبدلاً من ذلك، وبتصويت من المجلس، تم الاتفاق على "بقاء أمناء الخزانة والكاهنات فيها لحماية ممتلكات الآلهة[439]". وأثينيون آخرون أيضًا، أولئك المعاندين جدًا للذهاب إلى المنفى، قد لجأوا إلى هناك. بعد أن كان أمام المدافعين أسابيع لتأمين أنفسهم وإقامة الحواجز-"الجدران الخشبية"-عبر المنحدر، أصبح بإمكانهم الآن أن يعتبروا أنفسهم مستعدين جيدًا لحصار طويل.

ومع ذلك، لا بد أن معنوياتهم، قد هبطت عند رؤيتهم الأولى للعدو. لم يكن من الممكن رؤية وصول الملك العظيم إلى أثينا أفضل من رؤيتها من مرتفعات الصخرة المقدسة. النيران التي أحرقت الحقول المباركة وبساتين أتيكا بشرت بمجيء زركسيس. عند تحديقهم من الأسوار الغربية، راقب المدافعون بيأس الرايات الملكية ترتفع منتصرة فوق مدينتهم. كانت جحافل جيش الملك العظيم تتكدس بالفعل في كل مكان، واستولت على الشوارع المألوفة، ودمرت منازل المدافعين. في اغورا وعلى منحدرات اريوباغوس، التل الذي يرتفع بين بينكس والاكروبوليس، كان من الممكن رؤية المهندسين يغرقون الآبار: من الواضح أن البرابرة كانوا غير واثقين من الأثينيين كي يشربوا مياههم. انشغلت فرق العمل الأخرى بالنهب وتجريد المدينة حد العراء. كان المشهد الأكثر رعبا على الإطلاق بالنسبة للمدافعين في الأكروبوليس هو مشهد أعمال الطغيان البرونزية، تلك الرموز القوية للديمقراطية، التي تم إنزالها من قاعدتها، وتوظيبها، وتجهيزها للنقل. لا شك أن البيستراتيون، بعد عودتهم إلى وطنهم

أخيرًا، قد أوضحوا لأسيادهم الأهمية الدقيقة للتماثيل. تذكار مثالي لتزيين قاعات سوزا.

في هذه الأثناء، فوق أغورا، أنشأ الملك العظيم مركز قيادته على أريوباغوس. أُمر الرماة بالصعود إلى التل، وأمروا بإطلاق سهام النار على الحواجز التي تسد منحدر الأكروبوليس. الجدار الخشبي-"يخون المدافعين"[440]-سرعان ما أتت عليه النيران، لكن الدفاعات وراءه ثبّتت. كان الملك العظيم الحريص على إرسال الأخبار السارة إلى بلاد فارس بأن عش شياطين الديفا قد تم تدخينه، قد بدأ يفقد صبره. بعد أن تم استدعاؤه إلى الحضرة الملكية، إرسل بيسيستراتوس حسب الأصول على الطريق المنحدر للتفاوض مع مواطنيهم العنيدين. ورفضت مبادراته.وتجدد الاعتداء على المنحدر. تلاشت السهام، والصخور، التي رفعها المدافعين على جانب التحصينات، تحطمت وتدحرجت. وكانت فوضى المعركة شاملة.

ولكن الآن، والأثينيين في أقصى استطاعتهم، بدأ ضباط الملك العظيم في مسح الطرف الآخر من الأكروبوليس. هنا، حيث كان الهبوط شديدًا لدرجة أنه لم يتمركز حتى حارس واحد، نجحت قوات النخبة أخيرًا في تسلق وجه الجرف. كما هو الحال في ثيرموبيلاي، وحتى الآن، مكنت المواهب التي شحذها في زاغروس الملك العظيم من طعن الحامية اليونانية في الظهر. تم اقتحام الأكروبوليس. قام العديد من المدافعين بإلقاء أنفسهم من الأسوار مفضلين ذبحهم. سعى آخرون إلى ملاذ في معبد أثينا. من الطبيعي أن الفرس ذبحوا الكثير. ثم، كما أمر سيدهم، وضعوا كل شيء على قمة الصخرة واضرمت فيها النار. وما لم يحرقوه هدموه أو أسقطوه أو حطموه. قضي على المخزن الكبير للذكريات الأثينية، والذي تراكم على مدى قرون-ماضي المدينة ذاته-في غضون ساعتين.

بدأت أعمدة الدخان الكثيف، التي تصاعدت من الجحيم، في جعل سماء أتيكا سوداء. بالنسبة إلى الأثينيين، الذين يقفون مجمدين على سفنهم، أو على منحدرات سالاميس، كانت الرسالة التي أعلنوا عنها هي أكثر الرسائل رعبًا. بالنسبة لحلفائهم أيضًا. بينما كان المساء يتحول إلى الليل، بقيت الصورة

الظلية لجبل ايجالوس مضاءة باللون الأحمر الغاضب، كان المشهد بالكاد أقل إحباطًا. ومع ذلك، في حالات أخرى، على البحر أيضًا في تلك الليلة، كان من الممكن أن يثير مشاعر مختلفة جدًا. أمراء الملك العظيم، الذين لم يرغبوا في الوصول إلى أثينا حتى يتأكدوا من أن موانئ المدينة مؤمنة، أخذوا وقتهم للالتقاء بالجيش. الآن، ومع تحول سواحل أتيكا بأكملها، من صونيوم إلى اكروبوليس، الى شعلة من المعابد المحترقة، كان النصر الفارسي ينتشر بعيدًا في البحر. لم تكن هناك حاجة لأي من أسراب الملك العظيم، إذا كانت لا تزال تشق طريقها إلى الميناء في تلك الليلة، بالاعتماد على النجوم: كانت مجاديفها، التي تضرب المياه، ستسبب الأمواج التي أضاءتها النيران.

أظهر الفجر الأكروبوليس خرابًا أسود ودخانًا. كان عشًا من الشياطين، تم تطهيره الآن بالنيران، وتم تطهيره أخيرًا من الباطل. سادت مبادئ أرتا، وأدى زركسيس، خادم الرب مازدا، واجبه الملزم تجاه الحقيقة. وإثباتًا لذلك، استدعى الملك العظيم البيستراتيين للحضور مرة أخرى، وأمرهم بالصعود إلى الأكروبوليس، "وهناك يقدمون القرابين وفقًا لعاداتهم الأصلية[441]" لأنهم وحدهم من بين كل الاثينيون وقفوا بحزم ضد اغراءات الباطل. مع الامتنان، صعد المنفيون العائدون على النحو الواجب إلى cinderscape. وشقوا طريقهم فوق التماثيل المكسورة والأعمدة المنهارة والجثث المتفحمة لأبناء بلدهم المذبوحين، إلى تلك البقعة الأكثر قدسية على القمة القاحلة، حيث كانت شجرة الزيتون البدائية، هدية المدينة من أثينا، تقف دائمًا. كان الضريح المبني حولها قد سوي بالأرض بشكل متعمد، ولكن سرعان ما تم اكتشاف الجذع أسود تحت الأنقاض. بعناد، كما فعلت دائمًا، ظلت الجذور الحية تتشبث بالصخرة.ونبت من الجذع-معجزة معينة-برعم أخضر طويل كان يرتفع ليلتقي بالشمس.

الفصل الثامن-نمسيس

ضربة مفاجئة

وهكذا وصل الأمر إلى سالاميس.

"سوف يكون الخراب لكثير من أبناء الأم." بشكل أكثر خطورة من أي وقت مضى، مع إرساء أسطول الحلفاء قبالة الجزيرة، والفرس في فاليروم، كان غموض العرافة يثقل كاهل الناس. لكن لم تكن كلمات أبولو المثيرة للجدل فقط بين القيادة اليونانية العليا: فالفرس أيضًا، الذين كانوا مجتهدين دائمًا في عملهم الاستخباري، كانوا بالتأكيد قد علموا بالنبوءة. "هو الذي كشف الحق لأسلافي"[442]: كذلك وصف داريوس نفسه الإله القواس. ومع ذلك، وباحترام الفرس لأبولو كما أظهروا أنفسهم في كثير من الأحيان، فإن إيمانهم بتصريحات العرافة لم يكن بالطبع غريزيًا مثل إيمان أعدائهم. لابد أن العديد من أفراد طاقم الملك العظيم، كانوا حائرين بشأن عبارة "سلاميس الإلهية"، الذين وجدوا أنفسهم يناقشون تأليفها الدقيق. ربما يكون شخص ما بخلاف الإله قد نفخ كلمة في أذن بيثيا. كاهن مثلا؟ كانت دلفي مركزًا لشبكة كبيرة من الاتصالات الدولية، في النهاية، وكان خدام أبولو، بمعرفتهم العميقة بالشؤون الحالية، مؤهلين تمامًا مثل أي شخص آخر للتنبؤ بالتقدم المحتمل للحرب.

من المؤكد أنهم لن ينسوا مصير المحاولة اليونانية الأخيرة لهزيمة الأسطول الإمبراطوري. قبل أربعة عشر عامًا، تم تجهيز 350 سفينة أيونية ثلاثية المجاديف، فاق عددها بما يقرب من اثنين إلى واحد الأسطول الفارسي، للقتال قبالة جزيرة ميليسيان في لاد وتم القضاء عليها. مثلما كانت ميليتوس قلب مقاومة الفرس في ذلك الوقت، صارت أثينا كذلك الآن. وكانت الإمكانية الوحيدة المكافئة لليد قبالة أتيكا، بالطبع، هي سالاميس. سواء اعتقد الاستراتيجيون الفارسيون أن نبوءة العرافة مشتقة من السماء أو من مجرد حسابات مميتة، فمن المؤكد أنها ستدعمهم في اعتقادهم أن يد إله أكبر من أبولو كانت تقود شؤونهم. من الواضح أن عجلات الزمن العظيمة، التي دارت

كما فعلت بأمر من الساكن وراءها، أهورا مازدا، كانت تطحن بدقة لا هوادة فيها. في يوم من الأيام، كان التحالف المنقسم من الأسراب اليونانية، عندما صار مهددًا بالأسطول الفارسي الأكبر بكثير، قد تفكك وسط الغدر والطعن في الظهر-والآن، بتناسق غامض ولكن بلا شك، بدا أن التاريخ مقدّر له أن يعيد نفسه.

مما لا شك فيه، كان هناك البعض بين حاشية زركسيس الذين حثوا سيدهم على عدم الاعتماد على هذا. ديماراتوس، على سبيل المثال، مع تقديره العميق لما لا يرغب ابناء بلده في أن يفعله الملك العظيم، قد دعا إلى إطلاق عملية برمائية مباشرة ضد لاكاديمون-"لأنك لا تحتاج إلى القلق من أن الاسبرطيون، ولهيب الحرب يأكل وطنهم، سيكلفون أنفسهم عناء القدوم لإنقاذ أي شخص آخر في اليونان[443]". صحيح بما فيه الكفاية؛ ولكن العواصف وعمل العدو أدى إلى جعل البحرية الإمبراطورية مستنفذة لدرجة أن انفصال قوة صغيرة من الجسم الرئيسي للأسطول قد يجعل الإغريق قادرين في مواجهة أي منهما. ولذلك تم رفض الاقتراح. كذلك-على الرغم من المزيد من البحث عن الذات-كانت نصيحة الملكة العظيمة ارتميزيا من هاليكارناسوس. عندما استدعى الملك العظيم، الذي ينزل على فاليريوم، أميرالاته إلى مجلس الحرب، كان صوتها صوتًا وحيدًا محذرًا من خطة لفرض معركة ثانية. أصرت على أن المعركة كانت مجازفة لا طائل من ورائها. تم الاستيلاء على أثينا، وكان الخريف يقترب. والأفضل بكثير، إذن، الحفاظ على المواجهة، وترك الأسراب اليونانية إما للتجويع أو "للتشتت والإبحار إلى منازلهم[444]". تحليل داهية، كما كان زركسيس يدرك جيدًا؛ لكن الوقت كان ينفد، ولم يكن قادراً على تحمل تبنيه. كان من الواضح أن قضاء الملك العظيم فصل الشتاء على الحدود النائية للغرب أمر غير وارد: لم تكن أثينا المدمرة مكانًا ليدير العالم منه. بعد أن شرف الحملة ضد أوروبا بحضوره الملكي، كان من الضروري الآن بالنسبة له إنهاء الحرب قبل نهاية الموسم. انتصار ساحق وحسب في حين أن الطقس سيحقق النجاح.

كم يثلج الصدر، إذن، أن رؤساء التجسس الإمبراطوريين استطاعوا إبلاغ سيدهم الملكي بأن العدو، الذي يصخب ويزمجر في معسكره، كان يتصرف بشكل صحيح. تمامًا كما كانت الكراهية والشكوك والمخاوف قد مزقت الأسراب الأيونية قبالة ليد، كذلك الآن، عبر المضيق قبالة سالاميس، يبدو أن الأسطول اليوناني على وشك الانهيار الداخلي. من الصعب الشك في براهين الانهزامية. بالفعل، في يوم حرق الأكروبوليس، كان العديد من الطواقم قد انطلقوا في ذعر إلى قواربهم وحاولوا رفع أشرعتهم استعدادًا للهرب. في نفس المساء، ورد أن القيادة العليا نفسها قد انقسمت مرة أخرى إلى فصائل متنافسة، البيلوبونيزيين ضد الأثينيين وأنصارهم. كانت الإهانات التي تم تداولها من حديث المعسكر اليوناني بأكمله. قيل إن اديمانتوس قد سخر من ثيمستوكليس باعتباره "لاجئًا"، وحذره، عندما تحدث فجأة، من أن "الرياضيين الذين يبدأون سباقًا قبل إعطاء الإشارة يُضربون". "نعم،" زُعم أن ثيمستوكليس رد بمرارة، "وأولئك الذين تركوا وراءهم لن يفوزوا أبدًا بالتاج"[445]. فقط من خلال التهديد بسحب الأسطول الأثيني بأكمله من خط المعركة والإبحار في الحال إلى إيطاليا، والمنفى الدائم، كان في طريقه في النهاية. لكن كان من المستحيل تحديد إلى متى. ماذا لو اختار البيلوبونيزيين، الذين خافوا من احتمال تكدسهم في المضيق، أخيرًا استدعاء خداعه؟ ما هي الخيارات إذن للأثينيين وأسطولهم؟

كان رؤساء المخابرات الفارسية، الذين لديهم أكثر من ستين عامًا من الخبرة في استغلال الانقسامات اليونانية والاستفادة منها، يعرفون بدقة أفضل السبل لمعرفة ذلك. في أعقاب المؤتمر في فاليروم، مع رغبة الملك العظيم في استحضار لاد ثاني واضح الآن في أذهان خدامه، أمرت مجموعة من القوات الفارسية بالسير في الطريق إلى برزخ. منذ أن تم تدمير الكورنيش الواقع وراء ميغارا، وتم تحصين البرزخ بقوة، لم يكن لدى البعثة احتمال كبير لاقتحام بوابات البيلوبونيز-لكن هذه لم تكن مهمتها. مغادرين أثينا، حول جبل ايجالوس، باتباع الطريق المقدس نحو اليوسيس، سار الجنود على طول الروافد الجنوبية لساحل أتيكا. كانت أسلحتهم تلمع بشكل مشرق. ويمكن

سماع أغانيهم الحربية لأميال. طرقت ارجلهم الثلاثين ألف زوج الطريق. سحابة كبيرة من الغبار، تتصاعد في أعقابهم، تنجرف مع النسيم، وتُحمل عبر المضيق باتجاه سالاميس.

حيث كان رد الفعل-تمامًا كما توقع الاستراتيجيون الفارسيون أن يكون-رعبًا. بدأت الهمسات المتمردة في اكتساح الفرق البيلوبونيزية مرة أخرى. ثم، مع تلاشي فترة ما بعد الظهيرة في المساء، حاصر البحارة القلقون بالفعل قباطنتهم مطالبين بالإبحار إلى البرزخ، أصدر الملك العظيم تعليماته بإحكام الشد أكثر. بدأت أسراب من الأسطول الإمبراطوري، "بالهجوم على سالاميس، والاستيلاء على اماكنهم مع عرض مثالي على التبجح"، و القيام بدوريات مباشرة خارج الجزيرة-مهددين طرق الهروب[446]. عندما عكست الشمس غروبها عبر البحر من سلاميس إلى البرزخ، ظهر أن العديد من البيلوبونزيين على وشك التمرد.

> لأنهم هناك، تقطعت بهم السبل في سالاميس، مضطرون للقتال دفاعًا عن الأراضي الأثينية، ومن المؤكد انهم، إذا هزموا، سيجدون أنفسهم عالقين ومحاصرين على الجزيرة. وطوال ذلك الوقت كانت بلادهم تقف بلا حماية، حتى عندما سار البرابرة طوال الليل، وكانوا يتقدمون مباشرة إلى البيلوبونيز[447].

كان هذا، منذ الأيام الأولى للتواصل بين الشعبين، هو الطريقة التي لعب بها الفرس دائمًا لعبة القط والفأر مع الإغريق. وأكدت أخبار الجدل حول سلاميس ، التي قدمها العملاء إلى الملك العظيم، تأكده أنه قد قدر شخصية أعدائه إلى حد الكمال. الآن، مع استهدافف الأسطول اليوناني باكمله على ما يبدو، فقد حان الوقت لنصب الفخ الذي اعد بمهارة. كان الوقت قربيا من غروب الشمس. وأمرت الأسراب التي كانت تقوم بدورية قبالة سالاميس بالعودة إلى القاعدة[448]. هذا الانسحاب، الذي تم تنفيذه على مرأى ومسمع من حراس الحلفاء، ترك طريق الهروب إلى البرزخ مفتوحًا بشكل واضح للغاية ومغري للغاية. كما اكتشف الأميرالية الفارسية في ارتيميسيوم، كان البحارة اليونانيون بالكاد مترددين في إجراء انسحاب ليلي سريع إذا بدت الأزمة المفاجئة تتطلب

ذلك. كام البيلوبونزين، الذين لا يعرفون متى قد تظهر فرصة الخروج من جحر الفئران مرة أخرى، سيشعرون بالتأكيد أنهم يواجهون مثل هذه الأزمة في ذلك المساء. إذا كان الأمر كذلك-وبغض النظر عما إذا كان الأثينيون قد وافقوا على الإبحار معهم-فمن المحتمل جدًا أن ينتهزوا فرصتهم ويهربوا من المضيق. وتمامًا كما حدث في لاد، سيتفكك الأسطول اليوناني إلى أجزاء.

لكن زركسيس، الذي كان يوازن الاحتمالات في ذلك المساء، كان لا يزال يتعين عليه معرفة ذلك على وجه اليقين. يمكن محاولة نصب الكمين مرة واحدة فقط. لم يكن مجرد تعزيز الانقسام كافياً. كانت هناك حاجة إلى الخيانة الفاعلة أيضًا. سيكون المثالي عميلًا مزدوجًا في صفوف القيادة العليا اليونانية. ومن حسن الحظ، إذن، أن رؤساء المخابرات الفارسية لديهم خبرة طويلة ومثمرة في تجنيد الجواسيس رفيعي المستوى. في النهاية، كما لم يكن قادة التجسس الملكيين بحاجة للإشارة إلى ذلك، كانت رشوة قباطنة الساميين[449] هي التي قضت على خط المعركة الأيوني في ليد. بهذه السابقة الجميلة التي سبقتهم، فإن من المستحيل الاعتقاد أن عملاء الملك العظيم، المسلحين بالذهب والوعد بالرعاية الملكية، لن يكونوا ناشطين في تجنيد الحلفاء في سالاميس. وإذا كان الأمر كذلك-فمن قد يكون هدفهم؟ من المؤكد أن الفرس، في حرب الأعصاب التي كانوا يشنونها بمثل هذه المهارة ضد الفرق اليونانية المختلفة، قد يميلون إلى شن هجوم ذي شقين. حتى عندما كانوا يهددون البيلوبونيزيين، ويضغطون عليهم للفرار، فإنهم سيكونون متيقظين لمخاوف واستياء أولئك الذين واجهوا تداعياتهم: الإيجينيون، والميجاريون، والأثينيون.

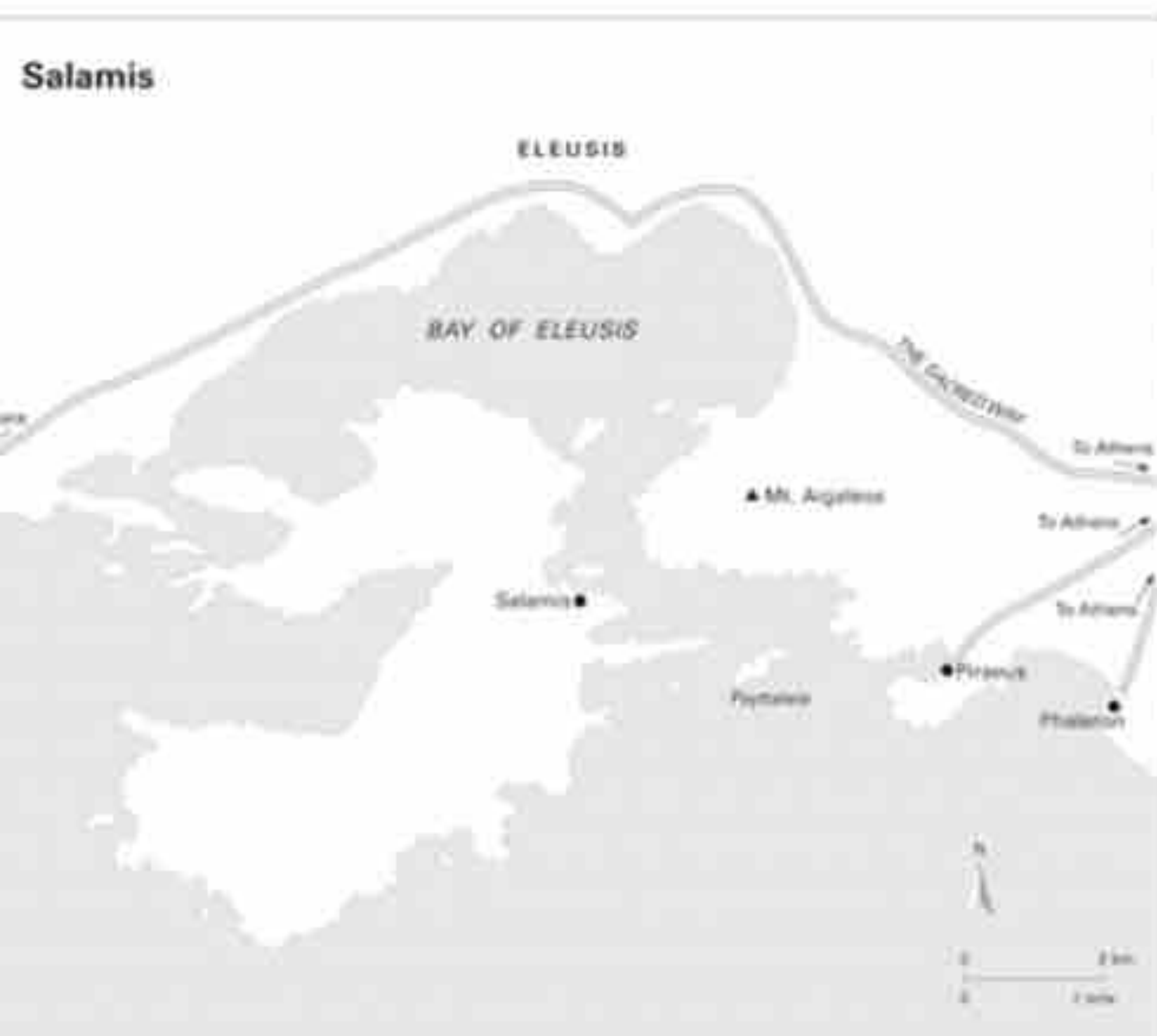
"الرجل الذي يتعاون معي، سأمنحه مكافآت كبيرة[450]." كان هذا، كما قيل بجرأة، هو البيان الرسمي للملكية الفارسية. ما الذي يكافئ إذن الرجل الذي كان في وسعه أن يخون الأسطول اليوناني بأكمله، وينتصر في الحرب، و يربح الغرب نفسه، للملك العظيم؟ رائعة ومجيدة لا مثيل لها، بلا شك. لا يهم أن كان ثيمستوكليس مواطنًا لما كان لسنوات معقلًا شيطانيًا للباطل-ليس الآن تلك النار، بعد أن التهمت الأكروبوليس، طهرت أثينا من الشر. إذا كانوا سيسجدون مع الندم المطلوب امام الحضرة الملكية، فقد يأمل الأثينيون

بالتأكيد في الحصول على عفو-وربما حتى، إذا قدموا خدمة جيدة، تنال استحسان الملك العظيم. لا يوجد رجل في العالم، في النهاية، لديه القدرة على أن يكون أكثر كرمًا، وأكثر سخاءً، وأكثر إحسانًا. "المكافآت التي أمنحها-تتناسب مع المساعدة التي تلقيتها[451]."

لم يتم إخبارنا صراحة في أي مكان عن الاتصالات بين ثيميستوكليس والعملاء الفرس. إن الظلمة التي تحجب الخيانة والتجسس غالبًا ما تكون غير قابلة للاختراق-والأهم من ذلك أنه بعد مرور ألفي ونصف عام. لكن ما نعرفه هو أنه بعد فترة وجيزة من عودة الأسراب الفارسية من دورية إلى فاليروم، وبينما ورد أن القادة اليونانيين المختلفين، وهم يستوعبون أحداث اليوم المقلقة، كانوا على خلاف مع بعضهم البعض، كان قارب صغير ينزلق. للخروج من صفوف الأسطول الأثيني المظلمة وشق طريقه عبر المضيق. على متن السفينة كان المعلم الموثوق به لأبناء ثميستوكليس، عبدًا اسمه سيسينياس. من الممكن، بما أن اسمه مشتق من فريجيا، وهي مرزبانية إلى الشرق من ليديا، أنه يتحدث بعض الفارسية[452]. من المحتمل أيضًا أن وصوله إلى البر الرئيسي لم يكن مفاجأة كاملة لأولئك الذين التقوا به-لأنه لم يكد سيسينياس يطأ أرضًا جافة حتى تم الإسراع به إلى القيادة الفارسية العليا. من المؤكد أن الرسالة التي كان عليه إيصالها كانت في غاية الإلحاح: فقد ذكر سيسيناس أن الإغريق كانوا يخططون لقضاء إجازة في تلك الليلة بالذات. وجاءت نصيحة ثيمستوكليس، "امنعوا هروبهم فقط، وستكون لديكم فرصة مثالية للنجاح". في هذه الأثناء، وصف العبد الأدميرال الأثيني نفسه، الذي ثار بسبب صرامة حلفائه، بأنه "متعاطف تمامًا مع الملك، ويتوق بشدة إلى النصر الفارسي[453]". كان رؤساء التجسس الإمبراطوريون، إذا كانوا بالفعل يبحثون عن اتصال من ثيمستوكليس، بالكاد يأملون في الحصول على أخبار أفضل.

حقا انقلاب مذهل. تم إبلاغ الملك العظيم، الذي لم يكن لديه شك في احتمال حدوث اختراق استخباراتي قادم في ذلك المساء، بذلك على الفور. تم وضع خطط الطوارئ، التي تم إعدادها بشكل واضح في ظل توقع مثل هذه الفرصة، بسلاسة في التنفيذ. أمر الأسطول بالاستعداد للمعركة. بعد أن نهضوا

من العشاء، أسرع المجدفون إلى مقاعدهم. مشاة البحرية إلى محطاتهم على سطح السفينة. "هتف الطاقم للطاقم، على طول خط المعركة[454]،" وبعد ذلك، صفا بعد صف، انسحبوا من فاليريوم إلى الظلام المنتظر، وأخذوا إلى البحر. لا مزيد من الهتاف الآن-لأن أدنى صوت قد ينبه العدو. بدلاً من ذلك، مع الضرب المحسوب فقط لمجاديفهم للاحتفال بتقدمهم، انزلقت الأسراب المختلفة طوال الليل إلى المواقع التي خصصها لها سيدهم. أحدها، المكون من مائتي سفينة من المصريين، قد أمرت بالدوران حول الساحل الجنوبي لسلاميس بأكمله، بهدف الوصول إلى عنق الزجاجة الضيق في أقصى غرب المضيق، هناك لإيقافه، في حالة محاولة الإغريق الهروب بهذه الطريقة. أما الآخرون، الذين كانوا يصطفون في صفوف ثلاثية، فقد انطلقوا في مواقع خارج القناة الشرقية، ومن بينها، لذلك أكد لهم قباطنتهم، أن البيلوبونيز المذعورين سينسحبون في أي لحظة. ما وراء المخرج مباشرة، حيث يؤدي إلى البحر المفتوح، كانت هناك جزيرة مقدسة لدى بان، معروفة لدى الأثينيين باسم بسيتاليا ؛ هنا، وضع الختم على الكفاءة القاسية لتحضيراته، وضع الملك العظيم حامية من أربعمائة من المشاة. عند حلول منتصف الليل، ستكون هذه القوات "مباشرة في ممر العمل المتوقع، وجاهزة لجميع الرجال والسفن المحطمة التي ستنجح قريبًا في صخور الجزيرة[455]." لم يترك شيء للصدفة. لم يُسمح لأي يوناني واحد بالهروب من فخ الملك العظيم المميت.



في هذه الأثناء، عاد سيسيناس، العبد الذي أدت رسالته إلى كل هذه الاستعدادات، إلى ثيمستوكليس. كانت شجاعته مدهشة. كان يتوقع بالتأكيد أن يُبقي على مزيد من الاستجواب؛ في الواقع، من الصعب تخيل سبب إطلاق سراحه، ما لم يكن ذلك لنقل رسالة من رؤساء التجسس الفرس إلى سيده[456].

كما أنه ليس من الصعب تخمين ما قد تكون عليه محتويات هذه الرسالة: الشروط النهائية للملك العظيم؛ عرض العفو، ربما، فرصة للأثينيين لاصطحاب عائلاتهم قبل أن يبحروا إلى المنفى؛ أو ضمان مستقبل متميز في أتيكا كخدم مفضل لملك الملوك. مهما كانت التفاصيل الدقيقة، لا بد أن ثيمستوكليس قد تنفس الصعداء عندما قرأها، لأنه كان سيعرف أنه حفظ بناته من سوق العبيد، وأبنائه من سكين الخصي، ورفاقه المواطنين من الطمس. حتى لو تم القضاء على الأسطول اليوناني في الصباح، فإن الأثينيين، على الأقل، سيطالبون برحمة الملك العظيم.

ولكن كان هناك احتمال ثانٍ، أكثر تألقًا وتمجيدًا، صار واردا أيضًا من خلال عودة سيسيناس. يُقال إن الأدميرالات اليونانيين، حتى عندما كانت

أسراب المعركة الإمبراطورية تشرع في مناوراتهم السرية، ظلوا في جلسة عاجلة، "لا يزالون يتشاجرون بشدة[457]". في وقت ما قرب منتصف الليل، ثيمستوكليس-الذي من الواضح أنه كان يقضي وقتًا مشغولًا ، وهو ينزلق داخل الاجتماع ويخرج منه-وقف على قدميه وقدم أعذاره مرة أخرى. خرج إلى الخارج، ووجد في انتظاره عدوًا قديمًا متخفيًا في الظل. أريستيدس، "العادل"، الذي تم استدعائه من المنفى مع زانثيبوس وجميع ضحايا النبذ الآخرين. استأنف مكانه بسلاسة في قلب شؤون الديمقراطية. عند عودته في ذلك المساء من مهمة إلى إيجينا، رأى، وهو ينزلق عائدًا نحو سلاميس ، الصور الظلية المشؤومة للأسطول الفارسي الذي ينتشر عبر الخليج لسد المخارج من المضيق. اعترف ثيمستوكليس، الذي جاءت له هذه الأخبار كمفاجأة بسيطة، بأنه سعيد، وأخبر أريستيدس أن كل ما يفعله هو-"لأنه كان لا بد من إجبار حلفائنا على اتخاذ موقف كان من الممكن أن يتراجعوا عنه، لو تُركوا لأنفسهم." بعد ذلك، محتضناً خصمه القديم، حث أريستيدس على نقل الأخبار إلى الأدميرالات الآخرين، "لأنني إذا أبلغت عن ذلك، فسيعتقدون أنني اختلقتها[458]".

كل ذلك، بالطبع، كان يجعل من البيلوبونيزيين عملاء سيئو الحظ. لا عجب أن الأثينيين، في السنوات القادمة، سيستمتعون بالعزف على القصة. ومع ذلك، هناك شيء غريب في ذلك. فأريستيدس، على الرغم من أنه أبلغ القادة اليونانيين بالفعل بأن أسطولهم محاصر، إلا أنه أهمل أن يذكر، على ما يبدو، أن هذا كان بفضل خدعة قام بها أحد زملائهم. من المفهوم، كما قد يُعتقد. ومع ذلك، من الغريب أن الإسبرطيين وغيرهم من البيلوبونزيين، حتى بمجرد أن أصبحت التفاصيل الكاملة لحيلة ثيميستوكليس معروفة عموما، لم يظهروا أدنى تلميح بالاستياء تجاه الرجل الذي كان من المفترض أن يتفوق عليهم بشكل شامل، ولكنهم، على العكس من ذلك، أشادوا به فقط لذكاءه وبُعد نظره. وعلى الرغم من تعرضهم لكمين، كما قيل لنا، من خلال إعلان أريستيدس، لا يبدو أن الأدميرالات اليونانيين قد أصابهم الذعر بسبب ذلك. وعلى العكس تمامًا-بدا أن تصرفاتهم في الصباح تعكس أدق الاشارات على

التخطيط للمستقبل. كما لو أن أخبار الحصار الفارسي لم تكن مفاجأة لهم أيضًا. وكما لو كانوا متواطئين في مخطط ثيمستوكليس منذ البداية.

وربما كانوا كذلك. لم يتم التركيز على تفاصيل حملة سلاميس إلا كما لو كانت عبر دوامة من الضباب ، ثم إما أنها كانت مفقودة أو مشوشة لدرجة أنه يمكن تفسيرها بأي عدد من الطرق. هذا محبط بالطبع-ومع هذا، هناك، في هذا الظلمة بالذات، لمحة محيرة عن ملامح حرب خفية بخلاف ذلك، نقطة مقابلة غامضة لكل ضجيج و زخم المعركة. يمكن للفرس أن يزعموا بشكل شرعي أنهم سادة الحيل القذرة، لذلك لا ينبغي أن يكون مفاجئًا أن رؤساء التجسس لديهم، عند وصولهم إلى أتيكا، قد جلبوا معهم الافتراض السهل بالتفوق الذي جاء بشكل طبيعي لأعضاء الطبقة الحاكمة في العالم. ومثلما كان ينبغي تحذير أميرالات الملك العظيم من أي تهاون في أداء اليونانيين في ارتيميسيوم ، كذلك كان يجب أن يكون عملاء مخابراته على أهبة الاستعداد بالمثل. لقد أظهر الحلفاء بالفعل كفاءتهم في الخدع والمعلومات المضللة. في سالاميس، لا يمكن أن يكون هناك شك في أن ثيمستوكليس، الذي أظهر فهمه المعتاد الذي لا يرحم لعلم النفس، قد غذى العملاء الفرس ليس فقط بما أراده سيدهم بل بما كان بحاجة ماسة إلى تصديقه بأنه حقيقي. ومع هذا، حتى في أشد حالات شغفه، كان الملك العظيم بالتأكيد يقلل من احتمالية الغدر الأثيني، لولا التباهي العلني للأدميرالات البيلوبونيزيين بإحباطهم المعنوي. سواء كانوا بالفعل عصبة من المتشاجرين، غير أكفاء، ليست لديهم النية للقتال في المضيق، على الرغم من كل الدروس التي تعلموها في ارتيميسيوم، أو بالأحرى شركاء في هجوم مدمر، لا يمكننا أن نعرف على وجه اليقين. لكن ما هو مؤكد، مع ذلك، هو أن الأدميرالات البيلوبونزيين، إن كانوا تواقين حقًا للهروب في تلك الليلة، قد تكيفوا مع الأخبار التي تفيد بأنهم محاصرون داخل المضيق برباطة جأش ملحوظة. بزغ الفجر في يوم مصيري مثل أي يوم في تاريخ البشرية-ووجد كل سرب في الأسطول اليوناني نفسه جاهزًا للمعركة.

وفوق المضيق، تخيل الرجال، كان هناك وميض شعور مفاجئ بشيء غريب، زيادة ملحوظة في الشدة على ضوء الصباح الباكر. إلى مشاة البحرية

الأثينية، قبل أن يأخذوا أماكنهم على ظهر السفينة، ألقى ثيمستوكليس خطابًا سيظل في الذاكرة لفترة طويلة، وحثهم على التفكير في "كل ما هو أفضل في الطبيعة والشؤون البشرية، وكل ما هو أسوأ-واختيار الأول[459]." ولكن حتى هذه الكلمات، قد لا تكون، قد أثارت العديد من الشعر على مؤخرة أعناق الرجال كما حدث مع التأكد-الذي يبدو فجأة أنه اجتاح الأسطول بأكمله-من أن أبناء الآلهة الذين كانوا في العصور القديمة الأوصياء على صخور وبساتين ومعابد اليونان كانوا حاضرين بينهم: حتى تحدث الرجال في وقت لاحق عن رؤية الأشباح وحتى الثعابين الشبحية تنزلق على سطح الماء، وعن سماع صرخات المعارك الغامضة التي تتردد حول المضيق. اولئك الأبطال الذين ماتوا منذ فترة طويلة سينهضون من قبورهم لصد الغزاة البرابرة كانت قناعة روجت لها القيادة اليونانية العليا بغرور. في الواقع، من المحتمل أن أريستيدس، عندما أدار محنة الحصار الفارسي، كان يبحر عائدًا مع ذخائر بعض الأبطال الإيجينيين، التي نشأت من زيوس نفسه. من المؤكد أنه لم يكن هناك شك في مدى إلحاح مثل هذه المهمة-وربما كان مقياس نجاحها هو حقيقة أن البيلوبونزيين، شبه المتمردين في الليلة السابقة، استعدوا للمعركة بقدر من الاقتناع مثل أي شخص آخر.

وللتأكيد، كان هناك شيء مخيف في الهواء لعدة أيام. يبدو أن حتى اليونانيين في بطانة الملك العظيم شعروا بأن السماء قد تنقلب على سيدهم. أثناء سيره في الحقول المهجورة خلف إليوسيس في اليوم السابق للمعركة، رأى ديماراتوس سحابة من الغبار تتصاعد من الطريق الساحلي. كان من الممكن فقط أن يكون هذا قد احدثته قبل الفرقة الفارسية المتجهة إلى البرزخ. ولكن أحد المتعاونين الأثينيين، الذي كان يتجول مع ديماراتوس، حدد على الفور الغناء الخافت الذي كان يسمعه قادمًا من الطريق المقدس على أنه صوت " إياكوس ": علت ترنيمة الفرح من المصلين أثناء سفرهم كل سبتمبر إلى إليوسيس. كان هذا مستحيلًا، بالطبع، على الرغم من أنه كان بالفعل وقتًا من العام للحج السنوي-إلا إذا كان يتم تنفيذ iacche بواسطة موكب خارق للطبيعة. احتفالًا بهذا السر العظيم لإيليوسيس، وعودة الحياة إلى ما بدا أن

يكون ميتًا تمامًا وبلا رجعة. هذا، بالنسبة للأثينيين، بينما كان يسير على أرض وطنه المحترقة، كان فكرة مقلقة للغاية. قال مطولاً وهو يحدق في سحابة الغبار: "أخشى أن هذا ينذر ببعض الكارثة الكبرى لقوات الملك". وديماراتوس، رغم ذعره بهذا الحكم، لم يطعن فيه. وحث رفيقه "التزم الصمت". "لأنه إذا وصلت كلماتك إلى آذان الملك، فمن المؤكد أنك ستفقد رأسك[460]".

نصيحة معقولة-بالنسبة لزركسيس، في تصميمه على فرض النصر، لم يكن بالتأكيد في حالة مزاجية تسمح له بالتسامح مع الانهزامية. بدا له أن الفشل في القضاء على الأسطول اليوناني في ارتيميسيوم كان بسبب نقص العزيمة من جانب خدمه أمر بديهي. وحرصًا على تصحيح هذا الأمر، فقد أصدر لقباطنته تحذيرًا لا هوادة فيه من أنه "إذا نجح اليونانيون في التملص من المصير الرهيب المخطط لهم، وخرجوا من الحصار، فسيفقد كل المسؤولين رؤوسهم[461]". على العكس من ذلك، فإن أولئك الذين قاتلوا بشكل جيد سيكون لهم الشرف الأعلى بأن يلاحظ سيدهم مآثرهم شخصيًا-وهو الحافز الذي كان يفتقر بشدة إلى ارتيميسيوم. لذلك، حتى عندما كان المجدفون اليونانيون يهرعون إلى مقاعدهم، كان الملك العظيم، متبوعًا ببطانة عظيم من الجنرالات والمسؤولين والقادة، يركب عربته متجاوزًا الحد الجنوبي لجبل إيجاليوس، ويدور حول " الحاجب الصخري / الذي يشبه سلاميس المولودة في البحر ". هنا، فوق معبد هرقل، أمر بتقييد خيوله النيسية. عندما نزل، أولاً على مسند أقدام ذهبي، وبعد ذلك-لأنه بالكاد يُسمح لكعب المنصة الملكية بلمس الأرض العارية-على طول سجادة غير منضدة على عجل، كان الخدم مشغولين بإقامة العرش. اختار الملك العظيم موقعه الأفضل بشكل جيد. تحته، أصبح أكثر وضوحًا مع مرور الوقت، تمتد بانوراما منقطعة النظير: سالاميس، والمضائق، والخليج وراءها، والبرزخ البعيد. ولكن ما الذي رآه زركسيس ذلك الصباح المشؤوم على المياه نفسها، بينما كانت الشمس تشرق من خلفه، ولحظة المعركة المصيرية، التي طال انتظارها، والمناورة الطويلة من أجلها، بزغ فجرها أخيرًا؟

ليس ما كان يأمل أن يراه، هذا مؤكد على الأقل: ليس مشهد الأسطول اليوناني المحطم في كمينه، الساريات التي تتمايل في البحر المفتوح، الجثث

الملتوية والمكدسة على صخور بسيتاليا. كان من الممكن إخطار الملك العظيم قبل وصوله الى سالاميس بأن اختراق البيلوبونزيين المتوقع قد فشل؛ ومع ذلك، فإن مشهد الأسطول اليوناني الذي تم رسمه في المضيق الموجودأسفله كان لا يزال يمثل خيبة أمل مؤلمة. وأسرابه-أين كانوا مع بزوغ الفجر؟ سؤال بالغ الأهمية: مثلما كانت استراتيجية الحلفاء تعتمد على خوض معركة في المضيق، فقد التزم أميرالات الملك العظيم طوال الوقت بمواجهة الإغريق في عرض البحر. وقد استمر الجمود الناتج بالفعل لمدة ثلاثة أسابيع. والاقتناع فقط بأن عدوهم كان بالفعل سيئ الحظ من شأنه أن يدفع قادة الأسطول الإمبراطوري بكسره والتقدم بأسرابهم إلى القناة. قرار مصيري مثل أي قرار في تاريخ الحرب؛ لأنه سيبنى عليه المسار المستقبلي ليس فقط للمعركة، لا للحرب، بل لأوروبا والحضارة الغربية نفسها. بشكل مثير للغضب، لم يتم إخبارنا متى أو لماذا تم ذلك-فقط تلك المعركة، عندما تم الانضمام إليها، حدثت بالفعل حيث كان الفرس تائقين للغاية لعدم خوضها: داخل مضيق سالاميس.

افترض المؤرخون عمومًا أن الفرس تسللوا إلى هؤلاء تحت جنح الظلام. ومع ذلك، يبدو هذا غير محتمل[462]. كانت التعليمات التي أعطاها سيدهم لقادة الملك العظيم واضحة تمامًا: "احرسوا المخارج المؤدية إلى بحر السبر[463]". من غير المحتمل، مع التهديد بقطع الرأس المسلط فوقهم، أن يكون هناك الكثير من الحماس في تلك الليلة لعروض جريئة للمبادرة. إن إخفاق الإغريق في التخبط في الكمين الذي تم وضعه بعناية شديدة لهم كان سيؤكد فقط للأدميرالات الإمبراطوريين عزمهم على عدم التزحزح عن موقعهم؛ بالنسبة إلى المجدفين، الذين كانوا يجدفون بقوة فقط لمنع سفنهم من الانجراف وإتلاف المخطط، بالكاد تم إعطاؤهم استعدادًا مثاليًا لليل للمعركة. قد يكون وصول الملك العظيم في الفجر الى سالاميس قد دفع بعض القباطنة، المتحمسين للحصول على خدمة ملكية، إلى إصدار الأوامر لسفنهم بالتقدم إلى القناة، ثم ترنح خط المعركة بالكامل واتبعهم. ومع هذا، فمن المرجح أكثر أن مشهد سيدها كان فقط لتأكيد انضباط الأسطول في حركته. في حين أن القباطنة الفرديين، بغض النظر عن مدى اليأس الذي حدقوا به من مقدمات سفن

التجديف الخاصة بهم، لم يتمكنوا من معرفة سوى القليل مما كان يحدث في المضائق التي أمامهم، يمكنهم أيضًا أن يروا كيف كان الملك العظيم في وضع جيد للقيام بذلك من أجلهم. ومن أفضل من زركسيس ليصدر الحكم النهائي؟ من الأفضل في أن يعطي إيماءة الموافقة على رهان تم القيام به كثيرًا؟

يبدو من المرجح، إذن، أن الأمر بإشراك العدو في المضيق قد أُعطي للأسطول الفارسي بعد شروق الشمس بقليل، وأنه جاء مباشرة من ملك الملوك نفسه. نحن لا نعرف كيف تم بث الإشارة، ولا ما إذا كان زركسيس قادرًا على توصيل مشهد مفاجئ ومثير لأدارته، يمكن رؤيته بوضوح من وجهة نظره فوق المضيق: التفكك الواضح لخط المعركة اليوناني بأكمله. يبدو أن حوالي خمسين من زوارق التجديف، المنحرفة في اتجاه إليوسيس، كانت في رحلة متهورة، مما أدى إلى تلك القناة الضيقة قبالة الشمال الغربي من الجزيرة حيث كان المصريون يتربصون، على ما يبدو، دون علم قائدهم. لقد حدث ذلك في لاد، ولذا بدا أنه يحدث الآن-تمامًا كما قال الأدميرال الأثيني الخائن. حان الوقت إذن لإغلاق فكي المصيدة المزدوجة. حان الوقت لإنهاء المقاومة اليونانية للأبد. حان الوقت لدخول المضائق.

بدأ ضجيج الأبواق المخيف، الذي تضخمت بسبب قرب التلال على أي من الشاطئين، والكتلة العظيمة لأسطول المعركة الفارسي، الذي يعلو جزيرة سيتاليا، حول البروز الجنوبي لسالاميس، في تسريع ضربات المجذاف. الفينيقيون في الجناح الأيمن، الأيونيون على اليسار، الكيليكيون، الكاريون والفرق الأخرى في الوسط، لا يزالون، خلال الدقائق الأولى من تقدمهم، دون رؤية واضحة للعدو، لأن زاوية القناة حالت دون ذلك، ورذاذ أوائل الخريف كان سيحجب المياه. ولكن بعد ذلك، بعد أن ارتقوا من أمامهم مع اقتراب الصفوف الأمامية من المواقع اليونانية، سمعوا الغناء، و علت الأنشودة إلى مثل هذه الدرجة التي "رجعت صدى مرتفعاً في صخور الجزيرة[464]". بالكاد صوت الرجال في حالة تراجع مذعور-ولكن لا يمكن أن يكون هناك عودة الآن لأسطول الملك العظيم، ولا حتى لو شعر بعض القادة في الصفوف الأمامية لخط المعركة بترنح مفاجئ في بطونهم، وشعور رديء مثل العرق البارد عبر حواجبهم لدرجة أنهم

كانوا يبحرون في الكمين. بالفعل، ممتدة وراءهم، يمكن رؤية كتلة هائلة من الشحن، تزاحم القناة، تتمايل على المياه المتدفقة، حيث سعت الأسراب المختلفة إلى المناورة في مواقعها، وتكافح حتى لا تفسد بعضها البعض في ضيق القناة. المضائق. عناق البر الرئيسي، حيث كان الشاطئ ممتلئًا بشكل مطمئن بقواتهم، لم يكن بإمكان القباطنة الفرس الآن الشك، وهم يتطلعون نحو سلاميس ، أن الملك العظيم قد تم خداعه حقًا. تم حشد المجاديف اليونانية، التي لم تهرب عند اقترابها، في خط معركة كبير خاص بها على طول الخلجان وجوانب الجزيرة، من الأثينيين في أقصى الجناح الشمالي الى الإيجينيون في الجنوب؛ وكان كبش مقدم كل سفينة موجهًا مباشرة نحو الأسطول الفارسي.



على الرغم من ذلك، في اللحظات الأخيرة المؤلمة قبل الانضمام إلى المعركة أخيرًا، كان الأدميرالات الإمبراطوريين ما زالوا يأملون في أن يكون العدو مجرد رعاع: لأن السفن الحربية اليونانية، كما لو كانت في خوف، استمرت في التراص قرب الشاطئ. ولكن بعد ذلك، وفقط عندما بدا الأمر وكأنهم سوف يهربون، خرجت سفينة واحدة واندفعت من بين صفوف المجاديف المتراجعة. ادعى الرجال لاحقًا أن أولئك الذين كانوا على متنها قد تأثروا بكلمات ظهور

أنثوي. شبح تجسد فجأة امام الرتل اليوناني وسألهم في ازدراء، "أيها المجانين، إلى أي مدى تتصورون التراجع؟[465]" وأجاب الطاقم: بأن شدوا مجاديفهم بقوة، وشغلوا سفينتهم، فأسرعوا عبر المياه المفتوحة التي ما زالت ما بين خطي القتال، مناورين بها حتى تلألأ نحاس الكبش وهو يقطع في وسطه. البحر، كان يستهدف مؤخرة سفينة فارسية ضالة. قعقعت مجموعة من السهام على سطح السفينة، ثم صوت تحطم وتكسر الخشب: تم إجراء أول اتصال في المعركة. ومع ذلك، لم يكن هناك قتل نظيف، لأن مجاديف المجدفين سرعان ما أصبحت متشابكة، بحيث علقت السفن معًا. عند رؤية ذلك، قام قباطنة السفن الأخرى بإحضار سفنهم إلى الأمام لدعم رفاقهم. سرعان ما كان الجميع في حالة تنقل، وكان اليونانيون يتقدمون "بانضباط وترتيب مثالي[466]"، وغنوا مع ذلك بفرح وهيجان القتل الذي كان سيأتي.

وفي وقت قصير سادت المعركة على طول مسار القناة. وعم الارتباك الاشتباك أنه حتى هوية السفينة الأولى التي تشتبك مع البرابرة كان يجب أن تكون موضع نقاش حاد في وقت لاحق: لأن كل من الايجينيون والأثينيين طالبوا بهذا الشرف. الحكم السليم كان مستحيلا. كانت الكتيبتان تقاتلان على طرفي نقيض من خط امتد لأكثر من ميل -ولم يكن لدى أي شخص في المضيق منظر بانورامي كامل للمعركة. لا عجب إذن أن تكون ذكريات ذلك اليوم الكئيب المجيد، لا تتعلق بالاستراتيجية ولا بأداء الأسراب المتنافسة، ولا عن مد وجزر القتال، بل بالأحرى عن إثارة الأفعال البطولات الفردية، التي كانت. تتألق بشكل أكثر إشراقًا لكونها على خلفية مثل ذلك الصخب والمذابح والفوضى.

أعظم سحر على الإطلاق تعلق ببعض نجوم السفن ثلاثية المجاديف. وكان من أشهر هؤلاء الأثينيين، أمينياس، من قرية باليني. في صدمة بداية المعركة، تجرأ على مهاجمة السفينة الرئيسية للأسطول الفينيقي، وهي سفينة شاهقة يقودها أحد إخوة الملك العظيم. أمر الأدميرال الملكي، الذي كان غاضبًا بشكل طبيعي من وقاحة مهاجمه، بإلقاء القذائف على الأثينيين أثناء قيادته لحفلة صعود على متن السفينة-لكن أمينياس خوزقه أثناء قيامه بالقفز، ونزل في البحر. كان أداء قائد ثانٍ من قادة الملك العظيم أكثر غموضًا إجمالًا حيث

هاجمهم نفس القبطان الأثيني: لا شيء سوى الملكة من هاليكارناسوس. عندما رأت أمينياس يحمل علمها، وهي مذعورة، وجدت طريق هروبها مسدودًا بسفينة ثلاثية لأحد أتباعها-ولذلك لجأت إلى وسيلة مذهلة تتمثل في صدمها بنفسها. أمينياس، مفترضا أن الملكة قد تخلت عن القضية الفارسية، تخلى على النحو الواجب عن ملاحقته لها. وهكذا حدث أن هربت أرتميسيا.

ورأى الملك العظيم، الجالس على مرتفعات فوق المعركة، رأى كل شيء، وقد تأثر بشدة. لكونه مخطئًا، بطريقته الخاصة، كما كان أمينياس، تخيل أن السفينة التي غرقت بسبب أرتميسيا كانت يونانية؛ بسبب ضراوة القتال، كان من الصعب على مساعديه التمييز بين الصديق والعدو. ومع ذلك، في حين أنه قد يكون بالتأكيد تحديًا في بعض الأحيان للأمناء الملكيين، الذين يقدمون بنشاط أمثلة على براعة معينة، لنسخ جميع التفاصيل بدقة تامة، كان من الممكن أن يكون لديهم هم وسيدهم بعض الأوهام فيما يتعلق بالتقدم الأوسع للمعركة. ويقال إن زركسيس بكى وهو يشاهد سفينة أرتميسيا الحربية وهي تبتعد عن حطام ضحيتها، "لقد تحول رجالي إلى نساء[467]". كانت مرارته مفهومة- فبالنسبة للملك العظيم، وبوضوح أكثر بكثير من أي من قادته المتورطين في القتال الفعلي، يمكن أن يأخذ في الاعتبار الكارثة التي تتكشف في المضيق. كان بإمكانه أن يرى كيف أن أسرابه الفينيقية، التي تركت بلا قيادة بسبب وفاة أميرالهم، وقد طوقها الأثينيون، كانت تُساق تدريجياً إلى الشاطئ، أو في رحلة مفتوحة. كان بإمكانه تحديد الفوضى التي نتجت عن محاولات أسرابهم الانسحاب، حيث بدأت صفوفهم صفا بعد صف في فقدان التنسيق، متشنجًا بعضهم البعض في الضيق، "كباشهم البرونزية تحطم جوانب جيرانهم، وتقطع جهات كاملة من المجاذيف[468]" استطاع أن يلاحظ عدم الايمان كان في تصاعد و كيف أن إسفينًا مميتًا من السفن اليونانية، كان يتجمع إلى الداخل، يقسم أسطوله إلى قسمين، تاركًا الفينيقيين على الجناح الأيمن من خط المعركة محاصرين مثل أسماك التونة في شبكة، ليتم ضربها بالرمح أو تمزيقها أو تقطيعها حتى الموت. ويمكنه أن يفكر، ربما، أن الأمر بإشراك الإغريق كان من تلقاء نفسه.

كان من الواضح له أنه أخطأ في إعطائه حتى قبل أن تبدأ المعركة. كانت السفن ثلاثية المجاديف التي لاحظها متجهة شمالًا إلى القناة باتجاه إليوسيس، والتي كان اليونانيون من بين مساعديه لا يشكون في أنها كورنثية، لم تكمل رحلتها بمجرد وصولها إلى رأس سالاميس الشمالي الشرقي. على العكس من ذلك: بعد مسح المضائق الواقعة بين إليوسيس وسالاميس، انحرف الكورنثيين، وأنزلوا أشرعتهم وصواريهم، وعادوا إلى خط المعركة. من الواضح، بعيدًا عن الذعر، أنهم شاركوا في مهمة استطلاعية، للتأكد من أن السرب المصري، الذي تم إرساله حول الجزيرة أثناء الليل، لم يكن يتقدم الآن في مؤخرة الأسطول اليوناني. وهو بالطبع لم يكن كذلك. كان السرب المصري، كما كان يدرك زركسيس نفسه بصورة مؤلمة، لا يزال على بعد ثمانية أميال من معركة كان من الممكن أن تكون أعداده الإضافية فيها حاسمة، مختبئا بالقرب من المضائق الغربية، في انتظار محاولة الهروب اليونانية التي لن تأتي أبدًا.

مما لا يثير الدهشة، أن الملك العظيم، في غضبه، كان شديد الجرأة مع أي ناجٍ من الفشل الذريع. عندما حاولت مجموعة من القباطنة الفينيقيين المكسورين، في محاولة لإعفاء خسارة سفنهم، إلقاء اللوم على خيانة الوحدات الأخرى في الأسطول، قام بقطع رؤوسهم على الفور. بطبيعة الحال، كان من غير الوارد للملك العظيم نفسه قبول أي مسؤولية عن الكارثة؛ والفينيقيون، بعد أن تحطمت قوتهم على الصخور أسفل عرشه، يمكن أن يخدموه بشكل جيد ككبش فداء. ومع ذلك، لا بد أن زركسيس، وهو يتابع مسار الكارثة من موقعه القيادي، كان يشعر بالمرارة على نحو متزايد بأن حيله الخاصة، التي ابتكرها بمثل هذه العناية والثقة بالنصر، قد انقلبت ضده. تحول منتصف النهار إلى فترة ما بعد الظهر، وبدأ الفرس في الخروج من المضيق. ربما نجا نصف تلك السفن ثلاثية المجداف التي دخلت القناة القاتلة لتغادرها. وخلفهم، استفزهم الإغريق وهم يترنحون ويضلعون بشكل يائس إلى فاليروم، وطاردوهم عبر تلك المياه المفتوحة نفسها التي كان الملك العظيم يخطط لها، في اليوم السابق، لنصب كمينه وتأمين سيطرته على اليونان.

ربما جاء أقسى جرح على الإطلاق بقرب غروب الشمس. الآن، باستثناء "الرثاء والصراخ التي تردد صداه عبر البحر" وتساقط الجثث الفارسية وهي تشتبك بمجاديف المنتصرين المفترسين، تم تطهير المضيق من رجال الملك العظيم. لم يتبق سوى عمل ذبح واحد آخر ليقوم به اليونانيون قبل مجيء "الليلة سوداء العينين"[469]. قوات الملك العظيم الأربعمئة المتمركزة في بيستاليا في الليلة السابقة تُركوا عالقين في موقعهم، لأنه لم تكن هناك فرصة، وسط كل الذعر واليأس من هزيمة البحرية الإمبراطورية، لتأمين إخلاءهم. الآن، بعد أن أُمروا بالعمل كجلادين لأي يوناني قد يتم اجتياحهم على الصخور، وجد الفرس بشكل مؤسف أنهم أصبحوا هم أنفسهم أهدافًا لفرقة الإعدام. جنى الرماة، ورماة السهام، ومشاة البحرية المدرعة بشكل كبير، الذين سقطوا من السفن الحربية المتحالفة، ثمارًا دموية لمحاصرة الاسبرطيين في تيرموبيلاي. بقيادة أريستيدس، "اندفع الإغريق نحوأعدائهم مثل موجة صارخة، وارتفعت أصواتهم في صرخة واحدة، وقطعت أطراف الرجال البائسين حتى ذُبحت الحياة منهم كل واحد آخر"[470]. تركت الصخور زلقة بعد الذبح، وانزلق رجال أريستيدس على الجثث، ودقوا عليها بسكاكينهم، وحصدوا خواتمهم وأساورهم، أو خاضوا في موجة حمراء من المياه الضحلة، ونبشوا من بين الأموات. الذين كانوا طافين هناك. وامتلأ البحر لأميال بأخشاب عدد لا يحصى من السفن الحربية، كانت تنجرف ببطء وتتشتت عند متسع الخليج المظلم.

وبذلك أنتهت محاولة الملك العظيم لقهر مضيق سلاميس .

قريب جدا، بعيد جداً

في عام 484 قبل الميلاد، بينما كان زركسيس، بعيدًا عن قمع التمرد في مصر، يضع خططه الأولى لغزو الغرب، أطلق سكان بلاد ما بين النهرين بشكل غير متوقع تمردًا خاصًا بهم. مرت عقود منذ أن تخلص داريوس من الرجل الذي توجه إليه بازدراء باسم "Nidintu-Bel"، آخر مواطن "ملك بابل، ملك الأراضي". كانت هذه الألقاب، المشبعة بكل البريق العريق للمدينة التي بين النهرين، من بين أروع الألقاب التشريفية التي تركها المغتصب لابنه. وليس بالطبع-كما كان داريوس نفسه يقدر جيدًا-أن الألقاب وحدها يمكن أن

يصنعها ملك بابل. أصبحت القبضة الفارسية على بلاد ما بين النهرين، خلال سنوات حكمه الطويلة، مسألة تأمين عقارات بشكل متزايد. مساحات شاسعة منها، صودرت من السكان الأصليين التعساء، وانتهى بها الأمر كممتلكات شخصية لملك الملوك. تم منح المقتنيات الأخرى، التي تم تقسيمها إلى الخدم المفضلين، على أساس أن يتم توطينهم مع مستعمرات من جنود الاحتياط من المناطق البعيدة للإمبراطورية. نتيجة لذلك، بدأت المسطحات الطينية لبلاد ما بين النهرين، مثل المدينة الضخمة التي كانت تغذيها، تمتلئ بالمهاجرين. عند المشي على طول القناة المحاطة بأشجار النخيل، يمكن للمرء أن يمر عبر قرى كاملة من الأجانب: الرماة المصريون، ورجال الفرسان الليديون، والساكا الحامليت للفؤوس. هذا، تحت حكم ملك الملوك، كان من المفترض أن يكون مستقبل العالم: بوتقة صهر عالمية.

عندما اندلع التمرد على ضفاف نهر الفرات، تحرك زركسيس بسرعة لسحقه. لم يكن من الممكن المجازفة برحلة استكشافية إلى الغرب بينما كانت بابل، المدينة الأكبر والأغنى في سيطرة الملك العظيم، في حالة تخمر. فلا تزال العاصمة العظيمة تحمل أهمية حاسمة في نظام الأشياء الفارسي. لم يكن البيروقراطيون في الخزانة الإمبراطورية وحدهم من يستطيعون الشهادة على ذلك. تمامًا كما اكتشف كلا من كورش وداريوس في المدينة القديمة مرآة تصمد أمام كل ادعاءاتهم المتفاخرة، كذلك كان زركسيس أيضًا، بغزوه لأوروبا، يُظهر رؤية للملكية العالمية التي كان يحلم بها لأول مرة منذ فترة طويلة في بابل-المدينة الدولية الأصلية. جلب معسكر قوات الملك العظيم، المليء بالجنود من كل ركن من أركان العالم، إلى أتيكا أكثر من مجرد لمسة من بلاد ما بين النهرين البعيدة. كان من المتوقع أن يضيف الأثينيون أيضًا، والبيلوبونيزين، وجميع اليونانيين، الذين وصلوا حتى جزر الغرب الأقصى، أعدادهم الخاصة قريبًا إلى هذا المزيج. بمجرد احتلالهم. بمجرد احتلالهم فقط.

لكن كيف صار تأمين هذا الخضوع الآن، بعد سلاميس ، صداعًا مفاجئًا وغير متوقع. كان ماردونيوس، في مجلس الحرب الذي أعقب المعركة، يرفض بكل سرور الهزيمة برمتها على أنها لا أهمية لها. "ماذا تهم بعض ألواح

الخشب؟" زمجر باستخفاف. "إذن ماذا لو أفسد الامر حفنة من الفينيقيين، والمصريين، والقبارصة، والصقليين؟ ليس الأمر كما لو كانت للفرس أي يد في ذلك. كلا، يا إلهي، لم تكن هزيمة لنا"[471]. تصريح بشكل رنان-وتعبير عن الشوفينية التي جاءت بشكل طبيعي إلى كل أرستقراطي فارسي. وإلى الملك العظيم أيضًا بالطبع-لم يكن زركسيس الرجل الذي يجادل في شجاعة وبسالة أبناء وطنه. ومع ذلك، فقد سار إلى اليونان بصفته أكثر من مجرد ملك بلاد فارس: لقد كان، حرفياً، "ملك الأراضي". هزيمة الأسراب المختلفة التي كان قد استدعاها لترفع رايته قد أثر في كبريائه. كان من الجيد جدًا أن يسخر ماردونيوس من الطبيعة المختلطة للبحرية الإمبراطورية-لكن هذا هو بالضبط ما جعلها، في رأي الملك العظيم، تجسيدًا فعالًا لقوته العالمية.

كما لم يكن بإمكان زركسيس، على الرغم من الضربات التي تلقتها، أن يدفع نفسه في البداية لقبول أن قدرته على الوصول ربما تقلصت نتيجة للهزيمة. ما إن جرف أسطوله من المضيق حتى كان يحاول فرض سيطرته بطريقة جديدة ومستمرة بشكل مناسب: من خلال إقامة جسر عبر سالاميس. تم إسقاط الصخور في المياه الضحلة، واصطدمت السفن التجارية ببعضها البعض في محاولة يائسة لعمل جسر في الأعماق الوسطى للقناة. لكن كان الرماة اليونانيون، وليست المضائق نفسها، هم الذين شكلوا في النهاية عقبة لا يمكن التغلب عليها أمام المحاولة. قام المهندسون الإمبراطوريون، الذين تعرضوا للمضايقة من السفن الحربية المفترسة، بتوفير اختيارات سهلة لنيران العدو، حتى اضطر الملك العظيم، الذي رضخ للحتمية، إلى التخلي عن المشروع على مضض. كان هذا إحباطًا مؤلمًا بالنسبة للرجل الذي كان قد وصل إلى هيلسبونت وشق شبه جزيرة جبل آثوس. بعد أن كان يحلم قبل أيام فقط بغزو قارة بأكملها، وجد الملك العظيم نفسه الآن متعرضا لتحدٍّ بامتداد ميل واسع من المياه.

ومن خلال المزيد من الأخبار القاتمة أيضًا. بدأت التقارير تأتي من صقلية، وهي مسرح حاسم لآمال الملك العظيم في توسيع سلطته إلى الغرب أكثر من أي وقت مضى، من انتصار يوناني ثان[472]. قيل إن جيلون، طاغية سيراكيوز

المبكر النضوج، تسبب في هزيمة مثيرة للقرطاجيين. كان تدمير جيشهم دمويًا بشكل لا يمكن مقارنته. تحت أسوار هميرا، وهي مدينة في شمال صقلية، ذبح 150.000 قرطاجي؛ وتم استعباد جميع الناجين؛ كان جنرالهم، متفاجئًا أثناء المذبحة، ضحى بنفسه في النيران. بالنسبة للملك العظيم، بينما كان يفكر في خطوته التالية في أثينا الموغلة في الخريف بشكل متزايد، كانت تداعيات هذه الأخبار واقعية إلى أقصى الحدود. بدت طموحاته، التي كانت في يوم من الأيام كبيرة جدًا، متضائلة ومقيدة بشكل مفاجئ. أحلام توسيع حدود العظمة الفارسية إلى مغرب الشمس لم تحسب إلا قليلاً مقابل حقيقة البرزخ المحاصر، البيلوبونيز غير المسالم. يبدو أن ما تم تصويره في السابق على أنه حملة غزو عالمية قد تقلص إلى حالة حرب حدودية محرجة.

وعلى هذا النحو، بالطبع، أصبحت بالكاد تستحق الاهتمام الشخصي للملك العظيم. أدرك ماردونيوس ذلك، فسَرع في اغتنام فرصته. وحث ابن عمه: "عد إلى مقرك الإقليمي في ساردس، واصطحب معك الجزء الأكبر من الجيش، واتركني لإكمال استعباد اليونان مع الرجال الذين سأختارهم شخصيًا لإنهاء المهمة[473]." هذه المأمورية كانت بالضبط ما كان ماردونيوس يصبو إليه لسنوات. والملك العظيم، الذي كان مترددًا في قضاء الصيف الثاني في حملته في اليونان، لم يعد لديه أي سبب لمعارضة استراتيجية ابن عمه. الحجم واللمعان اللذان ميزا الحملة الاستكشافية تحت قيادته سيكونان غير مناسبين بشكل فاضح بمجرد أنه لم يعد على رأسها. بصفته القائد الجديد للقوة الضاربة، سيتم الحكم على ماردونيوس من خلال مقياس واحد فقط: ما إذا كان قد نجح في إخضاع المرزبانية الجديدة. ضد الإسبرطيين وحلفائهم، كانت الجودة، وليس الكمية، هي المهمة. دروس ثيرموبيلاي، رغم أنها كانت كدمات، قد تم تعلمها جيدًا. نظرًا لأن الملك العظيم، بعد أن ترك أتيكا لا يزال تصدر الدخان خلفه، بدأ في قيادة قواته شمالًا، عبر بيوتيا ثم إلى ثيساليا، لذا بدأ ماردونيوس، بعد أن أطلق ابن عمه يده، في اختيار النخبة.

كان على رأس قائمة أمنياته سلاح الفرسان: المتحرك، المدرع بشدة، وفي حالة الساكا، كان قادرًا على إطلاق أمطار من السهام على أي صفوف ثقيلة من

المشاة الذين قد يعبرون. لقد بدا العجز الظاهري للجنود اليونانيين ضد هؤلاء المعارضين مرارًا وتكرارًا على مدى العقود الماضية، ويبدو أنه لا يوجد سبب للشك في أنه قريبًا سيعود مرة أخرى. ولم يكن ماردونيوس وحده في هذا الرأي. يمكن قياس ما قدمه المحايدون من وجهة نظره من حقيقة أن الملك العظيم، على الرغم من فشله في إخضاع اليونان، قد أتم انسحابًا هادئًا وخالٍ من الأذى[474]. من المؤكد أن الحلفاء نسجوا عددا من الحكايات البعيدة المنال-زاعمين أن جيشه قد اضطر إلى أكل العشب، وأنه قد تم القضاء عليه فعليًا بعد تحطمه في نهر مغطى بالجليد، وأن زركسيس نفسه قد عبر هيلسبونت مكوماً بمفرده في قارب صيد-لكن كل هذه كانت أكاذيب. يمكن لأي قبيلة أو مدينة تجرأت على خيانة قسم الاستسلام أن تتوقع استجابة فورية وقاسية. اختار معظمها اللعب بأمان. بقيت تراقيا ومقدونيا وثيساليا موالية لملك الملوك. وكذلك فعلت طيبة ووسط اليونان. حتى الأسطول الإمبراطوري، رغم تعطله بالتأكيد، كان بعيدًا عن الخروج. وعلى الرغم من مذبحة سلاميس، إلا أنها ظل يفوق عدد قوات البحرية المتحالفة. ظهرت كل الاحتمالات، في الصيف، بأن ماردونيوس "سينهي المهمة".

أو لعله يُذخر للحاجة. على الرغم من أن الفشل الاستخباري في سالاميس كان محرجًا، ومدمراً في عواقبه، إلا أن القيادة الفارسية العليا بقيت تتطلع الى سياسة فرّق تسد. من اللافت للنظر أن القنوات كانت مفتوحة حتى لثيمستوكليس. في النهاية، لم يكن بناءً على توصية الأثيني أن اختار الملك العظيم القتال في المضيق-وهو تفصيل يبدو أن ثيمستوكليس قد صنع منه مكافأة كبيرة. بعد أيام فقط من سالاميس، في عرض مذهل للصفاقة، أعاد سيسيناس مرة أخرى فوق المضيق برسالة ثانية إلى الفرس: طمأنه بأنه لا يزال "حريصًا على خدمة القضية الملكية" وكان بمثابة عنصر تقييد على بقية أسطول الحلفاء[475]. ادعاءات محيرة للعقل، ربما كان يُعتقد-لكن رؤساء التجسس لم يكونوا، كما يجب، متحمسين لاخضاع سيسيناس لموت طويل ومؤلم. وبدلاً من ذلك، تمامًا كما في عشية سلاميس، اختاروا إعادة العبد إلى سيده. لا نعرف ما هي الرسالة التي قدموها له، ولكن من المؤكد أنها كانت هناك

رسالة واحدة: لا شك في تضخيم شروط السلام الخاصة بالملك العظيم. لم يكن من المتوقع أن يقبلها الشعب الأثيني، الذي ما زال مبتهجا بانتصاره في سلاميس، لكن لم يكن هذا هو الهدف. تمامًا كما كان من الواضح أن ثيمستوكليس كان لعبة ملاكمة وهمية، كذلك كانت القيادة الفارسية العليا. كان كل جانب يشير للآخر عن تقديره لسر أثيم: أنه قد تأتي بعدُ اللحظة التي يكون من مصلحتهما المشتركة أن تُمنح أثينا استسلامًا متميزًا.

لكن لماذا يكون ثيمستوكليس، في لحظة انتصاره الأعظم، مستعدًا لإرسال مثل هذه الرسالة الخادعة؟ الجواب، بالنسبة لأولئك المهرة في الفن المظلم لتفسير المناورات الدبلوماسية اليونانية، لم يكن طويلاً حتى يظهر. بعد عدة أسابيع من مهمة سيسيناس الثانية، أرسل الأسبرطيون سفارة خاصة بهم إلى المعسكر الفارسي. وعند وصولهم إلى ثيساليا، حيث كان الملك العظيم يستعد للمغادرة إلى هيلسبونت، طالبوا بصراحة بتعويضات عن وفاة ليونايدس. انفجر الملك العظيم ضاحكًا، وصمت فجأة، كما لو كان يجري حسابات خاصة. وقال أخيرًا، مشيرًا إلى ابن عمه، "من ماردونيوس الذي هنا، ستحصلون على كل التعويضات التي تستحقونها"[476]. ذكي بما فيه الكفاية- ولكن من المؤكد أن زركسيس كان يفكر في أكثر من مجرد تهديد رائع. كان ليدرك أن وراء طلب الاسبرطيين الجامح على ما يبدو هناك تلميح مثير للاهتمام: أنهم قد يكونون مستعدين لتحمل الوضع الراهن إذا عُرضت عليهم رشوة ضخمة بما يكفي. فكرة كوميدية بالطبع: الملك العظيم لم يتفاوض مع أحد. ومع ذلك، فقد كان، من حيث نتائجه، مثيراً للاهتمام. في النهاية، سيلزم الاسبرطيين بغسل أيديهم من وسط اليونان بأكمله-بما في ذلك أتيكا. حسنًا، ربما يكون الملك العظيم قد توقف وجعّد جبينه.

وربما كان الأسبرطيين، الذين رُفضت سفارتهم، قد أصروا بصوت عالٍ على أنهم أرسلوا الرسالة في المقام الأول فقط لأن أبولو قد أبلغهم بتعليمات للقيام بذلك. كان الأثينيون، وكل شخص آخر، سعداء بتصديق ذلك. لم يكن لأي من اليونانيين الذين انتصروا في سلاميس أي مصلحة في زعزعة استقرار التحالف إذا كان بإمكانهم مساعدته. حتى مع اقتراب موسم الحملات من نهايته

وسط العواصف الخريفية، ظل شفق الانتصار الشهير يضيء الأمسيات المطالة. للاحتفال بإنجازهم، عادت الأسراب اليونانية المختلفة من الأسابيع القليلة المربحة التي أمضتها في التجول في بحر إيجه، وابتزاز الأموال من سكان الجزر، وتجمعت جميعها قبالة البرزخ. هنا، في معبد بوسيدون الذي خدم التحالف كمقر له طوال الصيف، أقيم مهرجان كبير من الترحيب المتبادل. تم تقديم الذبائح للآلهة ومُنحت الجوائز. كان الشعور بالارتياح هائلاً. "سحابة سوداء"، على حد تعبير ثيمستوكليس، "انجرفت بعيدًا عن البحر"[477].

ولكن ليس، للأسف من خارج الأرض-مع أن التداعيات على التحالف قد تكون مشؤومة، كما بدأ الأثينيون والاسبرطة الأذكياء بالفعل في التقدير. كان البرزخ، على الرغم من استضافته لمهرجان الوحدة العظيم، بمثابة اتفاق متصدع. إذا سئم المندوب من الاحتفالات، فيمكنه إحضاره إلى المنزل واستدعاء المصدر البديل الأكثر وضوحًا للترفيه في الحي. هناك يقف، على ارتفاع ألفي قدم فوق كورنث، على قمة أكروبوليس في المدينة، وهو معبد مخصص لأفروديت، إلهة الحب. هنا، لاستكمال التماثيل الرخامية، يمكن العثور على علامة أقل برودة من القرابين النذرية: البغايا. تم التبرع بهن إلى الإلهة من قبل الأبطال الأولمبيين المتنين وغيرهم من النجوم البارزين، وكان هؤلاء يتمتعون بسمعة فائقة لدرجة أنه في اليونانية تعني كلمة " korinthiazein "-"القيام بعمل كورنثي"-بافتراض ممارسة الجنس. لقد أمضت عاهرات المعبد في أفروديت، التي تتمتع بالوطنية والبراعة، الأسابيع التي سبقت قيام سلاميس برفع الصلاة العاجلة لعشيقتهم الإلهية، وتناشدها أن تلهم الحلفاء بحب المعركة. يمكن لأي بطل حرب أخذ إجازة من الاحتفالات في البرزخ لزيارتها وأن يتطلع إلى استقبال حماسي بشكل خاص. بعد ذلك، بعد أن تحطم بسبب الصعود وكذلك بسبب جميع جهوده اللاحقة، بإمكانه الانهيار، والإعجاب بالمنظر الذي لا مثيل له، وأن يرى بنفسه لماذا قد يكون التحالف الذي فاز في سلاميس في خطر وشيك بالانشقاق.

لأنه من أي مكان آخر يمكن تقدير الفرص والمعضلات التي قدمها البرزخ بسهولة أكبر. امتدت منطقة البيلوبونيز إلى الجنوب-والآن، بفضل جزء

كبير من الأسطول الأثيني، أصبحت محمية من الغزو. إلى الشمال منحنى الساحل الذي أدى إلى أتيكا-لا يزال مفتوحًا على مصراعيه لماردونيوس. ليس من المستغرب إذن أن الأثينيين، حتى عندما بدأوا في العودة عبر المضيق من سلاميس إلى وطنهم المدمر، كان عليهم أن يبقوا أعينهم على الطريق المؤدي إلى ثيساليا. استاءوا من ظلم الجغرافيا الفظيع، وكانوا بالكاد يستطيعون كبح جماح أنفسهم عن إلقاء اللوم على البيلوبونزيين، ضغطوا بصوت عالٍ من أجل التزام من حلفائهم بإرسال جيش شمالًا ضد ماردونيوس في الربيع. أحجم البيلوبونيزيين. وكلما زاد الأثينيون، الذين حاولوا وصمهم بالعار لدفعهم الى العمل، عزفوا على دورهم كمنتصرين في سالاميس، خاصة وأن شركائهم، المرتاحين والمتعجرفين خلف جدرانهم، كانوا يلاحقونهم.

والنتيجة، التي كانت تتلاشى تحت واجهة الصداقة التي ظهرت في البرزخ، كانت عبارة عن مزيج سام من الاستياء والحقد. حرص البيلوبونيزيين، الذين أغضبهم الغرور الأثيني، على منح جائزة الإنجاز المدني لإيجينا. بعد ذلك، بدلاً من تحمل مشهد ثيمستوكليس الذي يتجول مرتديًا التاج لتحقيق الإنجازات الفردية، قاموا بتقسيم التصويت بين المرشحين من مدنهم، بحيث لم يفز أحد بالجائزة على الإطلاق. كان رد الفعل الأثيني هو البدء في قذف الافتراءات كالطين-بما في ذلك، وهو الاختيار الأفضل للجميع، الاتهام بأن الكورنثيين في سالاميس قد توجهوا شمالًا إلى القناة، ليس لمواجهة المصريين، ولكن لأنهم كانوا يفرون مثل الجبناء. حسنًا، ربما كان المندوبون في البرزخ قد ابتهجوا بإحساسهم بالخلاص من الخطر البربري. التفاهة والحسد والغيبة: كان الحال كالأيام الخوالي.

لكن الأسبرطيين على الأقل، رغم إغراءهم بالانضمام إلى المرح، أدركوا ذلك على أنه تدليل ذاتي لا تستطيع مدينتهم تحمله. كان على أمنهم أن يأتي قبل المتعة الناتجة من تصيد ثيمستوكليس. ظل الأسطول الأثيني، كما كانت قيادة الاسبرطيين العليا تدرك بشكل مزعج، هو المفتاح لأمن البيلوبونيز. فقط إذا تمكن ماردونيوس من الفوز بطريقة ما بأثينا لصالح قضية الملك العظيم، فسيكون لديه أمل في اختراق البرزخ. حتى أن الأسبرطيين، الذين أظهروا

البراغماتية الخشنة التي ميزت فهمهم للطبيعة البشرية دائمًا، اختاروا عدم إهانة الأدميرال الأثيني، بل بدلاً من ذلك مداعبة غروره.

دُعي ثيمستوكليس، الذي ظل غروره يعاني من الإهانات الصغيرة التي تعرض له في البرزخ، على النحو الواجب إلى لاكاديمون. هناك، بعد أن عبر حدود تلك الأرض المريبة والمبهمة في العادة، تم الترحيب به بعربدة حقيقية من الإطراء. ومنح التاج الذي حرم منه في البرزخ الآن له في اسبرطة-"تقديراً لقدرته وذكائه[478]." وأعطي أيضا مركبة رائعة. عندما غادر، رافقه حتى تيجيا ثلاثمائة عضو من الخيالة. لم يُمنح أي أجنبي مثل هذا الشرف من قبل؛ ولكن من المحتمل أن يكون الحارس الشخصي قد مُنح لثيمستوكليس لسبب أكثر تحديدًا أيضًا. شق طريقه إلى المنزل عبر كاريا، المدينة التي كان يُشتبه بشدة في أنها كانت تدفع للبرابرة طوال الصيف: من الواضح أن الكاريين كانوا لا يزالون في مزاج تأمل. وراء حدودهم، كان هناك بدوره وحش أكثر خطورة: أرغوس، الكلب الذي فشل حتى الآن في النباح. لكن قد يكون الأمر كذلك: لأن الارغوسيين كانوا على اتصال مباشر مع ماردونيوس، ووعده "بأنهم سيفعلون كل ما في وسعهم لمنع الإسبرطيين من الزحف إلى الحرب[479]." من الواضح إذن، أن الإسبرطيين أنفسهم، من خلال منح ثيمستوكليس مرافقيه البالغ عددهم ثلاثمائة، كانوا يهدفون إلى تذكيره ليس فقط بالتضحية التي قدموها في تيرموبيلاي بل بالمخاطر التي ما زالت تهددهم في فناء منزلهم الخلفي. بحلول الوقت الذي وصل فيه الخيالة، عند وصول تيجيا، لتحية ضيفهم وتمني له التوفيق، كان الامر قد حسم بشكل جيد وحقيقي: لم يكن لدى الاسبرطيين أدنى نية لإرسال الجيش شمال البرزخ.

والذي كان بالكاد، من وجهة نظر ثيميستوكليس، الدفعة المثالية لمسيرته المهنية. تقارير التكريم الممنوحة لأميرالهم لم تعزِ الشعب الأثيني بشكل كبير حيث ارتجفوا وجاعوا وسط الأنقاض السوداء لمدينتهم. ولم يكن هناك شك في أن أسطولهم، حتى عندما كان يحرس البيلوبونيزيين المقيمين في الوطن، كان يوفر الحد الأدنى من الحماية لمزارع وعائلات الرجال الذين كانوا يعملون به. بدأ الغضب والاستياء يتصاعدان في المخيمات العشوائية التي تنتشر الآن في

المدينة. طبقة الهوبلايت، الذين لم يتأجج كرههم لثيمستوكليس إلا بسبب صراخه بعد سلاميس، استطاعوا فجأة شم رائحة دمه. بالفعل، خلال فصل الشتاء، كان هناك جهد مكثف لتدوير مذبحة الحامية الفارسية في بستاليا كنقطة تحول رئيسية في المعركة، واعتبار أرستيدس نجمها. الآن، عندما بدأ الشتاء يتحول إلى الربيع، وقرب موسم الحملات لعام 479 قبل الميلاد، أصبحت المناورة ضد بطل سالاميس شرسة بشكل متزايد. قد يكون للناخبين، كما ثبت مرارًا وتكرارًا في التاريخ القصير للديمقراطية، ذكريات قصيرة قاتلة. عودة إلى انتخابات فبراير، كانت مكافأة ثيمستوكليس لإنقاذ مدينته هي إزالته من قيادة أسطوله الثمين[480]. منحت الادميرالية بدلا من ذلك إلى كسانثيبوس، وأسرة ألكمايون المعتمدة. توجهت قيادة القوات البرية إلى أرستيدس-من غيره؟

كان تأثير هذه التغييرات على السياسة الأثينية فوريًا وبعيد المدى. تم الآن تحويل الطاقات التي كانت مكرسة سابقًا للأسطول نحو الاستعدادات لماراثون ثانٍ. في الربيع، عندما تجمعت أسراب الحلفاء في إيجينا، كان غياب الأثينيون ملحوظا. وجد الأسبرطيون، الذين أبدوا حماسهم لحملة بحرية عن طريق إرسال الملوك لقيادتها، في الشخص غير الملهم تمامًا للملك ليوتيخيدس، أن الأثينيين كانوا صارمين: لن تتم المساهمة بأي سفن في أسطول الحلفاء حتى تلتزم أسبرطة بقوة بشرية في رحلة استكشافية شمال البرزخ. رفض الأسبرطيون، الذين وصفوا الأثينيين بالمخادعين، قبول الصفقة. وكانت النتيجة مأزقا. قام ليوتيخيدس، مع بالكاد مئة سفينة ثلاثية المجاديف تحت قيادته، بالتجول قبالة ديلوس، متوتراً للغاية من الفرس بحيث لم يتمكن من الإبحار شرقاً. في هذه الأثناء، كان الأسطول الفارسي، الذي كان قلقًا بالمقابل من اليونانيين، يتجول بالقرب من ساموس. انطلق سكان البيلوبونيز خلف جدرانهم. أما ماردونيوس، فمع العلم أنه ليس لديه أمل في الفوز بالمرزبان إلا إذا استطاع إغراء الإسبرطيين شمال البرزخ، أو بطريقة ما تأمين أسطول أثينا، المتسلل الى ثيساليا. لم يكن لدى الأثينيون، المحاصرون في الوسط، سوى القليل من الخيارات سوى التسلل أيضًا. وهكذا استمر المأزق حتى شهر مايو.

كان ماردونيوس هو الذي تحرك أخيرًا لكسره. متعبًا من الدبلوماسية السرية، ومع ذلك متردد في تعريض ثمارها المحتملة للخطر، قرر وضع شروط الملك العظيم علانية على الطاولة قبل التقدم جنوبًا من ثيساليا. بعد أن استشار بتباهٍ عددا كبيرا من العرافين اليونانيين في جهوده لطمأنة الأثينيين بنواياه الحسنة، أرسل كسفير له ذلك المتحوط غير الجاد، الملك الإسكندر المقدوني. بصفته صهر جنرال فارسي و "صديق وولي نعمة الشعب الأثيني"، لابد أن يكون الملك ذو الكلام السلس قد بدا لماردونيوس الوسيط المثالي. وكان الاسكندر يمتلك بالتأكيد موهبة نادرة في تقديم عرض معقول. مع بانوراما الأكروبوليس المليئة بالحصى والأغورا الممتدة خلفه، والقلق الصادق، حذر الشعب الأثيني من أن مدينتهم، من بين كل أولئك الذين وضعوا أنفسهم في مواجهة الملك العظيم، "وقفت بشكل مباشر في خط النار." لذلك واجههم خياران. الأول كان رؤية بلادهم تصبح "أرضًا للا أحد، تدوسها الجيوش المتنافسة بالأقدام". والثاني هو أن تصبح ليست مجرد صديقة للملك العظيم، بل أصدقاء سيكون لديهم عدد قليل من المنافسين في الحصول على الخدمة الملكية طوال فترة سيطرة الفرس. عفو كامل، ضمان للحكم الذاتي، أعادة بناء معابدهم على حساب ملكي، يمكن أن يكون توسيع أراضيهم ملكًا لهم. صرخ الإسكندر، "ماالسبب المعقول اذن الذي يمكن أن يكون لديك، لرفع السلاح ضد الملك؟[481]"

تم تأطير عرض ماردونيوس بمهارة على أنه اللعب على كل شكوكهم المظلمة في اسبرطة، يجب أن يشعر الأثينيون في قلوبهم بأنهم سيكونون مبررين تمامًا لقبول مثل هذه الشروط السخية. لقد قاتلوا لفترة أطول من الناس في أي مدينة أخرى في اليونان، وبتكلفة أكبر بكثير-ومع ذلك فإن البيلوبونيزيين، كما أشار الإسكندر ببراعة، بدو قانعين بالتخلي عنهم لمصيرهم. بطبيعة الحال، كان الأثينيين أنفسهم، قبل السماح للإسكندر بتسليم عرض السلام الفارسي، قد تأكدوا من وجود وفد رفيع المستوى من اسبرطة في متناول اليد للاستماع إليه أيضًا؛ ولكن ظل الأسبرطيون، عندما جاء دورهم لمخاطبة المجلس، مصرين على المراوغة. لم يكن عرض استقبال اللاجئين هو ما كان الشعب الأثيني يأمل في

سماعه، ولم تكن المحاضرات رفيعة المستوى عن الطبيعة الغادرة للبرابرة. "أنت تعلم أنه لا يوجد حق ولا شرف في أي شيء يقولونه[482]." قول مأثور قد يكون الشعب الأثيني قد رجع إليه في وجه الأسبرطيين.

وربما بمجرد أن فعلوا ذلك. ربما بمجرد أن اختاروا التخلي عن كل أحلامهم في الاستقلال، قد قبلوا أن يكون هناك بالفعل خضوع بشرف، وأن يحنوا أعناقهم لملك الملوك. لكن الكثير قد تغير. إن الشعور بقيمة الحرية، الذي غرس في الشعب الأثيني من خلال تجربة الثلاثين عامًا التي كانت عليها ديمقراطيتهم، ومن خلال تجربة الكفاح من أجل الدفاع عنها ضد أكثر الاحتمالات المرعبة التي يمكن تخيلها، ترك المجلس غير راغب الآن في مقايضتها من أجل السلام. فأخبروا الاسكندر: "الدرجة التي تجعلنا غير ملحوظين بسبب قوة الميديين ليست شيئًا تحتاج إلى لفت انتباهنا إليه. "نحن ندرك ذلك جيدًا بالفعل. ولكن مع ذلك، فهذا هو حبنا للحرية، لدرجة أننا لن نستسلم أبدًا[483]". كلمة شجاعة حقًا: لأن الشعب الأثيني، بعد أن نطق بها، واجه مرة أخرى احتمال إبادة مدينته.

والسفراء الاسبرطيين؟ من الصعب تصديق أنهم لم يتأثروا بهذا التحدي. حتى عندما غادروا أثينا، بدأت المخيمات العشوائية تفرغ، حيث بدأ الأشخاص الذين تم إجلاؤهم، للمرة الثانية في غضون عشرة أشهر، في دفع عرباتهم إلى الشواطئ. لم يكن هذا الإعجاب بالروح الأثينية يعني بالضرورة أي إحساس بالالتزام من جانب الأسبرطيين أنفسهم-ومع هذا فإن السفراء، عند عودتهم، كانوا بالتأكيد قد حذروا الايفور من أن الأزمة التي تختمر في أتيكا قد عرّضت اسبرطة للخطر بالفعل. على الرغم من أنه تم الإعلان عن ذلك، إلا أن حب الأثينيين للحرية قد يندفع إلى نقطة الانهيار. و كان توهمهم فقط بأن الإسبرطيين قد تعهدوا بعبور البرزخ في دفاعهم هو ما يعمل على إبقاء الحديث عن التهدئة بعيدًا. "أدخل جيشك إلى الميدان بأسرع ما يمكن." كانت هذه كلمات فراق أرستيدس. "بسرعة، قبل أن يظهر ماردونيوس في بلدنا، يجب أن تنضم إلينا وتواجهه في بيوتيا[484]".

لذلك، عندما احتل البربري، الذي كان يكتسح جنوبًا إلى أتيكا، أثينا المهجورة للمرة الثانية، شعر سكان البيلوبونيز في كل مكان بهزة إنذار مفاجئة. الملك ليوتيخيدس، الذي لا يزال يبحر قبالة ديلوس مع أسطول الحلفاء، رأى، في الأفق الغربي، قبسا بعيدًا من نار، ثم آخر، ثم آخر بدوره، كمنارات، تربط أتيكا مباشرة بشبكة المعلومات الإمبراطورية، تبث إلى ساردس البعيدة أخبار سقوط أثينا. في هذه الأثناء، في لاكاديمون، كان لدى الايفور اتصال أكثر إثارة للقلق: كان ماردونيوس، كما ورد، قد أرسل مبعوثيه عبر المضيق إلى سلاميس وكرر شروط السلام التي قدمها إلى الأثينيين الذين تم إجلاؤهم. هذه المرة، تجرأ أحد النبلاء البارزين، وهو ليسيداس، على التحدث علانية لصالح قبولها. قشة في مهب الريح، بالتأكيد-على الرغم من حقيقة أن مواطنيه، المحاصرين واليائسين كما هم، قد رجموا على الفور الوسيط المحتمل. كانت زوجة وأطفال ليسيداس أيضًا، محاطين بالنساء المخيمات في سالاميس، قد تعرضوا للعنف حتى الموت. يبدو أن الاستخفاف الأثيني كان يتحول إلى مرض. فكلما ازداد وحشية، وأكثر شكاً، أزداد احتمال تعثره.

الآن صار الشهر يونيو. كان الاسبرطيون، حتماً، يحتفلون بمهرجان آخر، هذه المرة هياسينثيا، مشهد رائع من الأغاني والولائم التي أقيمت على شرف عاشق ميت لأبولو. مرة أخرى، تمامًا كما حدث في الأيام المظلمة التي سبقت ماراثون، وصلت سفارة أثينية إلى لاكاديمون في حاجة ماسة إلى المساعدة العسكرية، فقط لتجد كل شخص يحتفل[485]. لكن وراء الكواليس، كانت العجلات تدور بالفعل. بقي سفراء أثينا عشرة أيام في اسبرطة. عشرة أيام حتى ارتاحوا. في اليوم الحادي عشر، عيل صبرهم أخيرًا. ووجهوا إنذارًا صريحًا: إما أن يتخلى الاسبرطيون عن احتفالاتهم ويذهبوا إلى الحرب أو سيضطر الأثينيون إلى قبول شروط ماردونيوس. كان الأيفور، بعيدًا عن الذعر، أو العمل في نوبة من الامتعاظ النزيه، قد ابتسموا فقط، ثم كشفوا كل شيء. وهتفوا بلطف، لماذا لم يسمع السفراء؟ أن جيش الاسبرطيين قد شرع في المسير بالفعل.

مسرحية حقيقية -وكان الأثينيون بعيدين عن الوحيدين الذين أتت إليهم كأنها من العدم. بعد أن تعهد الارغوسيين بعرقلة أي رحلة استكشافية اسبرطية قبل أن تصل إلى البرزخ، استيقظوا فجأة ليجدوا أنفسهم وقد تم تجاوزهم. وأبلغوا ماردونيوس بشكل محموم: "إن القوة القتالية الكاملة للاكاديمون في مسيرة، ونحن عاجزون عن إيقافها[486]". ماردونيوس نفسه، الذي كان لا يزال مخيماً في أتيكا، تخلى على الفور عن محاولاته لادهاش الأثينيين ووضع ما تبقى من مدينتهم، "الأسوار، المنازل، المعابد وكل شيء" على النار[487]. بعد ذلك، قرر أن يجذب البيلوبونزيين إلى أقصى الشمال من البرزخ قدر استطاعته. انسحب من أتيكا إلى بيوتيا. هنا، بعد أن وجهه على طول المسارات الأكثر أمانًا ضباط اتصال متحمسين في طيبة، توقف أخيرًا. صار الآن في بلد الفرسان الرئيسية. المكان المثالي لبناء معسكره. المكان المثالي لخوض معركة.

أربعة أميال جنوب طيبة، على ضفة أوسع نهر في بيوتيا، أسوبوس، أمر ماردونيوس ببناء حاجز على النحو الواجب. مرة أخرى اختار موقعه بشكل جيد. وراء النهر امتدت المنطقة المتموجة بلطف لعدو طيبة القديم، بلاتيا. وراء الحقول البلاتية علت التلال، وما وراءها، مرتفعات جبل كيثايرون ونتوءات وتلال واسعة. إذا رغب الحلفاء في جلب ماردونيوس إلى المعركة، فسيتعين عليهم أولاً عبور مجموعة من الحواجز -وتجاوزها مدركين أن الهزيمة ستعني فنائهم الأكيد. لا يمكن أن يكون هناك تراجع سهل إلى البرزخ من بلاتيا. ولا يمكن، بالتساوي، لماردونيوس، إذا خسر، أن يعود إلى ثيساليا. إذا جاء الحلفاء، فإن لحظة الحقيقة ستأتي أيضًا.

الرمح الدوريسي

ربما يكون قد تأخر طويلًا، لكن لم تكن هناك أنصاف حلول في تقدم البيلوبونيزيين من ملجأهم عندما جاء ذلك. من أجل تحسين أعمال الهدم التي قاموا بها في الصيف الماضي، قام المهندسون بالفعل بإصلاح الطريق البري المؤدي إلى ميغارا، وكان من الجيد أيضًا أنهم لم يخلّوا بمسؤوليتهم، لان طريق البرزخ، الذي كان يرتجف تحت آلاف الأقدام المتعثرة، لم يسبق له من قبل

تحمّل ثقل جيش كهذا. في الواقع، لم تكن هناك قوة استكشافية يونانية تنافسه منذ الأوقات الأسطورية لحرب طروادة. من كورنث إلى ميسينا، من تيجيا إلى تروزن، استجاب تحالف هائل من البيلوبونيزيين لنداء الاسبرطيين. وبطبيعة الحال، فإن الإسبرطيين أنفسهم، خمسة آلاف منهم، أي ما يقرب من ثلاثة أرباع إجمالي القوى الفاعلة في مدينتهم، قد زودوا جنود الحملة بأكبر قدر من الرماح المهددة. مع خمسة آلاف مقاتل آخر تم تجنيدهم من البلدات النائية في لاكاديمون، وتم تجميع الآلاف من الهيلوت للعمل كمنظمين وكمشاة خفيفة، كان من المؤكد تقريبًا أنه أكبر جيش التزمت به اسبرطة في الميدان[488].

حتى الجبناء تم حشدهم. أو بالأحرى-وهو ما لم يكن بالضرورة نفس الشيء-الرجال الذين وصفهم الأسبرطيون بالجبناء. كان أحد هؤلاء، وهو محارب قديم مؤسف اسمه أرستوديموس، ممتنًا بشكل خاص لمنحه فرصة لاسترداد شرفه، لأن هذه لم تكن المرة الأولى التي يسير فيها إلى الحرب ضد البرابرة. فقبل أقل من عام، كان من بين الثلاثمائة الذين رافقوا ليونايدس إلى ثيرموبيلاي. عند وصوله إلى الممر، أصيب هو وزميل له من اسبرطة بالتهاب في العين، وتم فصل الرجلين وأمرا بالتعافي. ولكن عندما جاء الصباح المشؤوم لموقف ملكهم الأخير، مع ذلك، قام شريك أرستوديموس، الذي قام من فراشه مرضه، بتوجيه هيلوتي لقيادته، وهو أعمى كما كان لايزال، في خضم القتال. كان أرستوديموس، مفضلاً إطاعة أوامر ليونايدس المباشرة، قد قلل من قيمة نفسه في المدينة. هناك، عند وصوله، استُقبل بالاشمئزاز.ووصفه مواطنوه بـ "الرعديد": الكلمة الوحيدة المخزية في قاموس الاسبرطيين.

ظلم قاسٍ-ولكن كان من المتوقع فقط، في مدينة حيث تُحسب الشجاعة بأنها أعظم فضيلة، أن أدنى تلميح بالجبن لدى المواطن سيحكم عليه بالعار. كانت حياة "الرعديد" في اسبرطة بائسة بشكل واضح. كانت الرقع المخاطة على عباءته تنبه المدينة بأكملها إلى عاره. سواء أكان جالسًا على طاولة الطعام الخاصة به أو يحاول الانضمام إلى لعبة الكرة، وسيتجاهله ببرود جميع أصدقائه السابقين. في المهرجانات، كان عليه أن يقف أو يفسح المجال لأي شخص يطالب بذلك-حتى الأصغر منه. والأكثر قسوة على الإطلاق، بناته، فإذا

كان لديه أي منهن، سيجد أنه من المستحيل تأمين أزواج لهن: إجراء اسبرطي لتحسين النسل مصمم لمنع تلوث الجبن من أن ترثه الأجيال القادمة. وغير قادر على تحمل هذه الإهانات، كان الناجي الآخر الوحيد من ثيرموبيلاي، وهو ضابط اتصال أرسله ليونايدس في مهمة إلى ثيساليا، قد انتهى به الأمر لشنق نفسه. "لأنه في النهاية، عندما ينتج عن الجبن مثل هذا العار، فمن المتوقع فقط أن يُفضل الموت على حياة العار واللامبالاة[489]."

أما أرستوديموس، الرجل الذي رفض فرصة الموت في معركة بجانب ملكه، فكانت الأشهر الطويلة التي أعقبت عودته من ثيرموبيلاي مريرة بشكل خاص. أثبت الظل الذي ألقته نهاية ليونايدس أنه من المستحيل الهروب. لم يكن الحداد في لاكاديمون، كما كان في أثينا، على سبيل المثال، مسؤولية النساء فقط. كان كل رجل أيضًا، سواء أكان من الأيفور أو الهيلوت، كان مجبرًا على النحيب والضرب على جبينه عندما ينزل الملك إلى العالم السفلي. بالنسبة لليونانيين الآخرين، في الواقع، بدا الرثاء الاسبرطي مفرطاً لدرجة أنه يقترب من سلوك البرابرة. رسميًا، استمرت الجنازات التي صاحبت الجنازة الملكية لمدة عشرة أيام، لكن ليونايدس لم يكن روحا تسهل اراحتها. جثته المشوهة، التي تُركت كغذاء للطيور والكلاب في الممر البعيد، ولم يعثر عليها أبدًا[490]. إضافة إلى مصيره المثير للشفقة، والتذكير الدائم لشعب اسبرطة بالخسارة التي تكبدوها، كانت حقيقة أن ابنه، الملك الجديد، كان مجرد صبي. كان كليومبروتوس، الأخ الأصغر ليونايدس، يخدم باقتدار كوصي، لكنه توفي أيضًا، خلال فصل الشتاء. عندما قرر الإسبرطيون خوض المعركة أخيرًا، خرجوا من البرزخ، وفعلوا ذلك تحت قيادة شاب بالكاد في العشرينات من عمره: هو بوسانياس، ابن كليومبروتوس. ونظرًا لأنه كان، بصفته حاكم اسبرطة، أيضًا القائد الأعلى للقوات المتحالفة، فقد كان هذا عبئًا مذهلاً من المسؤولية على شخص صغير جدًا كي يتحمله-لكن بوسانياس نفسه، الذي لم تتجاوز أبداً صفاته كجنرال غروره تمامًا، تحملها بلامبالاة. ومع ذلك، لا بد أن الحقيقة الصادمة لشباب جنرالهم قد أبقت ثيرموبيلاي، وموت ليونايدس هناك، بكل ثبات في أذهان الاسبرطيين. في زحفهم لتحرير اليونان، كانوا أيضًا يسعون الى الانتقام.

وأريستوديموس على وجه الخصوص-لأنه كان بسبب البرابرة أنه كان يرتدي عباءة الرعديد المرقعة.

وكان هناك آخرون أيضًا، بالطبع، يريدون الثأر-رجال كانت خسائرهم أكبر بكثير من خسائر الأسبرطيين. في إليوسيس، على بعد خمسة وثلاثين ميلاً على طول الطريق الساحلي من البرزخ، انتظر بوسانياس بينما كان أرستيدس وثمانية آلاف من الأثينيين الآخرين يعبرون عبر سالاميس. كما انضم إلى البعثة ستمائة منفي من مدينة ثانية احتلها الغزاة وأحرقها: بلاتيا. الآن وأخيرًا، بعد عام من فرارهم من وطنهم، حلت لهم أخيرًا لحظة العودة العزيزة. لقد حان الوقت للبلاتيين، ولكل شخص آخر ملتزم بلقاء البربري، كي يسلكوا الطريق إلى بيوتيا.

متجهًا شمالًا، غادر الحلفاء إليوسيس حسب الأصول. بعد فترة وجيزة، بدأت التلال المغبرة من الحجر الجيري ومنحدرات الأخشاب المنبسطة في عرقلة أي نظرات متراجعة نحو البحر. مع تقدم المسير، تحولت الطريق أمام الهوبليت المتعطشين إلى وعورة متزايدة، والوديان المهجورة، والمنحدرات المليئة بالشجر في جبل كيثايرون والأكثر من ذلك، ليس مطاردة الرجال بل الوحوش البرية والغزلان والدببة والأسود-وفي بعض الأحيان، لأنه كان يحب كل هذه البقع المهجورة، الإله العظيم بان نفسه. في الأوقات الأكثر سعادة، اعتاد أهل بيوتيا على الاحتفال بعيد غريب، كانوا ينقلون أصنامًا ضخمة من الخشب من ضفاف نهر أسوبوس، وينقلونها على طول الطريق إلى جانب الجبل، ثم الى القمة، ويحرقونها، حتى يمكن رؤية الحريق لأميال حولها، كمنارة للآلهة. من المؤكد أن البلاتيين، الذين يمرون تحت مرتفعات جبل كيثايرون القاسية، كانوا سيواصلون الآن بحماس خاص، لأنهم كانوا على بعد ساعات فقط من مدينتهم: وانفتح الطريق فجأة بعد أن اجتازوا البروزات والصخور الخشنة، مانحًا إياهم، بعيدًا عن يسارهم، منظرًا أخيرًا لوطنهم الحبيب.

لكنه ليس كما تركوه. كانت حقولهم يكسوها العشب ومدينتهم هيكلا أسود. تمت تسوية الأشجار لأميال حولها. شكلت الأخشاب الآن، مجردة وخاماً، حاجز البرابرة. في هذه الأثناء، البرابرة أنفسهم، كانت أعدادهم تتمايل معًا في

الحرارة المتلألئة. يتدفقون عبر السهل، وفي كل مكان، على ما يبدو، كانت هناك خيول، سواء مقيدة، أو في حظائر، أو تُمتطى عبر التراب الجاف في بيوتيا، مظللة بظلالها لأنهم تفاخروا بسرعتهم وكفاءتهم. كان من الممكن أن يكون هناك عدد قليل من اليونانيين الذين لم يشعروا بهزة من الذعر من هذا المنظر؛ وباوسانياس نفسه، الذي كان متعجرفًا ولكنه بالتأكيد ليس متهورًا، لم تكن لديه أدنى نية للتوجه مباشرة ومواجهة العدو على الأرض المواتية لسلاح الفرسان. بدلاً من ذلك، أمر رجاله بشدة بالبقاء على التلال، ثم قام بمناورة نقلهم الى موقع مقابل لقوات ماردونيوس تقريبًا-ليس فقط فوق بل على بعد سبعة أميال إلى الشرق من بلاتيا. بالنسبة لسكان المدينة الستمائة، من الواضح أن العودة إلى ما تبقى من منازلهم ستتأخر.

ومع ذلك، على الرغم من أن بوسانياس كان يثبت أنه حذر، فمن غير المرجح أن تكون رؤيته الأولى للقوات الفارسية قد أثارت أي شيء من الخوف الذي لا بد أن ماردونيوس قد اختبره عندما نظر إلى أعلى من ضفاف نهر أسوبوس ورأى النطاق الكامل للقوة الفارسية. يتسلل الجيش عبر التلال فوقه. وقد قدم له عملاؤه بالتأكيد بعض التقارير عن استعدادات الحلفاء. لأيام، كان المزاج السائد بين القيادة العليا متوترا. في حفل عشاء استضافه أحد المتعاونين البارزين في طيبة، على سبيل المثال، التفت ضابط فارسي إلى جاره اليوناني وهمس بأن جميع الضيوف من حولهم وجميع القوات المعسكرة بجانب النهر، "سترى، في وقت قصير، بقاء عدد قليل منهم على قيد الحياة [491]". ماردونيوس نفسه لم يكن ليعترف بمثل هذه الانهزامية. لكن لم يكن ليتخيل، ولا حتى في أشد حالاته تشاؤمًا، الحلفاء المنقسمين على الدوام القادرين على تنسيق فرقة عمل مثل التي يتم جلبها الآن ضده على المنحدرات السفلية لجبل كيثايرون. مرارًا وتكرارًا، طوال اليوم، نزل اليونانيون من الممر، واتخذوا مواقعهم، حتى عندما تم دمجهم أخيرًا، وجد ماردونيوس أنه كان يحدق في أكبر جيش من الهوبلايت تم تجميعه في مكان واحد تقريبًا: أربعين ألف رجل[492].

ضد هذه الأرقام المخيفة، يمكنه هو نفسه حشد ضعف هذا العدد مرة أخرى؛ لكنه لم يكن لديه أي أوهام بأن المشاة، المدججين بالسلاح والمدرعات

الخفيفة، يمكن أن يأملوا في اجتياح المواقع اليونانية[493]. وبدلاً من ذلك، ظهر خياران فقط يمنحانه أي احتمال حقيقي للنصر. الأول كان بطريقة ما جذب الحلفاء إلى السهل، ثم الثقة في أن فرقهم المختلفة، غير المعتادة على القتال جنبًا إلى جنب، سوف تتفكك وتثبت أنها سهلة لسلاح الفرسان. والثاني هو زرع الانقسامات بين صفوف العدو من خلال نشر إستراتيجي للرشاوى، ثم انتظار المنافسات المستوطنة التي ابتليت بها جميع التحالفات اليونانية لتترسخ. الفرسان والجواسيس: أخطر الأسلحة. كما كانت في أي وقت مضى، في مستودع الأسلحة الفارسي.

وقرر ماردونيوس، الذي كان يتطلع إلى تنسيق انتشارهم، أن تكون خطوته الأولى هي استئناف حرب الأعصاب التي كان يشنها طوال الصيف ضد الأثينيين. وسرعان ما ظهر أن الأسبرطيين كانوا محقين في الاشتباه بوجود آفة طبية في مخيمات اللاجئين في سالاميس. لم يكن ليسيداس المقتول وحيدًا في آرائه المؤيدة للفرس. فقد كان مواطنين بارزين آخرين، دمرتهم الحرب، مستاؤون من الديمقراطية، ويتوقون لاستعادة ثرواتهم المفقودة، وكانوا يتآمرون أيضًا. وليس بمجرد الاسترضاء بل الخيانة الصريحة. كان ماردونيوس، الذي فقد الاتصال بهؤلاء المتعاونين بعد انسحابه من أتيكا، يتطلع بالتأكيد إلى إعادة الاتصال بهم على وجه الاستعجال؛ في الوقت نفسه، على أمل تركيز أذهان الخونة حتى عندما أرسل عملاء للتسلل إلى معسكرهم، أمر سلاح الفرسان بشن غارة كر وفر على خطوط الحلفاء.

هجوم كماشة متقنة الصنع-باستثناء أنه لم يتم وفقًا للخطة بالكامل. أولاً، بعيدًا عن إضعاف معنويات الإغريق، لم تؤد غارة الفرسان إلا إلى رفع معنوياتهم: فبالنسبة للقائد الفارسي، وهو متأنق ضخم دخل المعركة وهو يرتدي سترة أرجوانية ودرعًا ملفتًا للنظر من حراشف السمك الذهبية، كان لديه حصانه النيسي، الذي اصيب من تحته وانتهى به الأمر ميتًا وكشف العربة، وجعله عرضة أمام القوات المتحالفة. بعد ذلك بوقت قصير، كشف أريستيدس عن الخيانة في المعسكر الأثيني، الذي قرر أنه بالكاد يستطيع تجاهل المؤامرة ولكنه لا يرغب في أن يغرق أنفه بعيدًا في المحنة، واكتفى

باعتقال ثمانية من أبرز المتآمرين فقط[494]. هرب اثنان منهم. أما الستة الآخرون، الذين أمروا بتخليص أنفسهم في المعركة القادمة، فقد أطلق سراحهم دون توجيه تهم إليهم. كان أريستيدس، الذي وُصِف هو نفسه بمحب الميديين عندما نُبذ، يعرف جيدًا ما الذي يجب أن يُمنح كفرصة ثانية. لم يعد هناك حديث عن الخيانة منذ تلك اللحظة في معسكر أثينا.

ومع ذلك، فإن هذه الانتكاسات، بدلاً من تعيق إستراتيجية ماردونيوس، عملت بشكل مثير للسخرية على إعطائها دفعة ثانية. شعر بوسانياس، الذي تحسنت معنوياته كثيرًا، بالجرأة الكافية لتولي منصب جديد، أقرب بكثير إلى اسوبوس، وبالتالي إلى العدو. كان ماردونيوس، على أمل الإمساك باليونانيين في أرض مفتوحة، قد بدأ على الفور في الإسراع على طول الضفة المقابلة، وكمن لهم، في انتظار فرصة ليضرب. لم تأتِ الفرصة أبدًا. كان بوسانياس، حتى عندما كان يتقدم ببطء في السهل، على يقين من التحرك جانبًا إلى أراضي بلاتيا، ولم يكن هناك أي بروز على طول الطريق الذي سلكه، ولم يكن هناك امتداد للأرض المرتفعة، لكن البلاتيين كانوا قادرين على توجيه الحلفاء على طوله. بحلول الوقت الذي تم فيه الانتهاء من ترتيباتهم، حفر الأسبرطيون على طول سلسلة التلال المكسورة على يمين خط المعركة، وتم تثبيت الأثينيين على تل على اليسار. الوحدات المتبقية، بقيادة رجال لا يمكن أن يتنافس نفوذهم مع نفوذ بوسانياس أو أريستيدس عندما يتعلق الأمر بتأمين أكثر الأماكن أمانًا، كان لا بد من الاكتفاء باحتلال الأرض المنخفضة-وبالتالي الأكثر تعرضًا-في المركز. لا بد أن ماردونيوس، وهو يتطلع إلى فرصه من الجانب الآخر من اسوبوس، قد شعر بإثارة متسارعة. ربما لم يكن حتى الآن في وضع يسمح له بشن هجوم أمامي-لأن حقول بلاتيا، حتى في أوجها، ظلت متموجة بشكل خطير-ولكن إذا كان بإمكانه فقط إغراء بوسانياس بمواصلة تقدمه عبر النهر، فإن سلاح الفرسان الفارسي سيأخذه. كان ماردونيوس مقاتلاً يونانيًا متمرسًا. كان يعلم أن غريزة جيش المحاربين القدامى كانت دائمًا السعي وراء المعركة. لذلك عندما حذرت السماوات نفسها، من خلال نذر لا جدال فيه، القيادة الفارسية العليا بعدم المضي في الهجوم، كان ماردونيوس أكثر من

راضٍ للاستماع. بدا أن الوقت كان إلى جانب سياسة الانتظار والترقب: بالكاد على بعد خمسة أميال، في طيبة، "كان الطعام وفيرًا، بما في ذلك علف الحيوانات[495]" وكان لدى ماردونيوس احتياطيات من المال تكفي لإغراق المعسكر اليوناني كله بالذهب. فعل كما نصحت الآلهة: ظل في الضفة الشمالية؛ لم يعبر النهر.

لكن بوسانياس لم يفعل ذلك أيضًا. بدلاً من ذلك، أدى إلى إضعاف كل توقعات ماردونيوس حول الطريقة التي سيتصرف بها الجنرال اليوناني، أبقى على موقفه بتجهم. تشبث الأسبرطيون بمرتفعهم، وتشبث الأثينيون بتلالهم، وتشبث الجميع في الحقول الواقعة بينهما. رغم أن الخلافات كانت تندلع بشكل دوري بين مختلف الفرق-وخاصة عندما بدأ الأثينيون في إلقاء ثقلهم-إلا أن الخلاف لم يتصاعد أبدًا بحيث يهدد التحالف نفسه بالتفكك. في الواقع، بعيدًا عن الانقسام، تقوى خط المعركة اليوناني أكثر من أي وقت مضى: لأنه مع مرور اليوم الأول، ثم الذي يليه، وفي النهاية انقضى أسبوع كامل، استمرت التعزيزات في التدفق. وفي النهاية، في اليوم الثامن من المواجهة، فقد ماردونيوس صبره. وأمر فرسانه بالقيام بغارة على ممرات كيثايرون. نصب كمين ناجح لعربة ضخمة محمّلة بمؤن من البيلوبونيز. تم ذبح السائرين والبغال على حد سواء. بعد ذلك، ترك الفرس الجثث متناثرة على التلال حيث يمكن رؤيتها بوضوح لليونانيين في السهول، وكان الفرس "بمجرد أن شبعوا من الذبح". قد قادوا العربات في انتصار إلى معسكرهم[496].

الآن جاء دور ماردونيوس ليصبح أكثر جرأة. بدأ فرسانه، مدعومين بانتصارهم، في شن غارات مباشرة على مواقع العدو عبر الأسوبوس. مقتربين من الإغريق كلما غامروا بالاقتراب من النهر، كان الفرسان الذين يتنقلون على عجلات يتركون المياه الضحلة خرابًا من الجثث المنجرفة ذات الريش، وخطوط الحلفاء عطشى بشكل متزايد. بعد ساعات قليلة من ذلك، تم التخلي عن أسوبوس بالكامل لسلاح الفرسان الفارسي. كان المصدر الوحيد للمياه المتبقي لليونانيين الآن هو نبع واحد. مع اشتعال الشمس في السماء البوبوتية القاسية، بدأت صفوف من الرجال العطشى تتجمع حول البئر، مسلحين بالدلاء والجرار

وقرب النبيذ. بالنسبة للأثينيين، على وجه الخصوص، كانت مهمة الحفاظ على إمداد أنفسهم بالمياه شاقة: فالنبع، الذي ارتفع خلف مخيم الاسبرطيين مباشرة، وضع مسافة ثلاثة أميال كاملة بعيدًا عن أرضهم. ومع ذلك، فقد ضمنت على الأقل قدرتهم على التمسك بتلهم-وكان الموقف الدفاعي القوي، مع تكتيكات الكر والفر الفارسية التي يتم نشرها الآن مباشرة على طول الخط اليوناني بأكمله، هو الموقف الذي كان الأثينيون مترددين في التخلي عنه. مر يوم، ثم يوم آخر؛ وبدأ المشاة الأثينيون الساكنون، الذين تعرضوا للسع والعذاب من الهدير المتواصل للعدو، في التفكير في أفكار أخرى. في الواقع، كلما أظهر الفرس شجاعتهم، ازداد غضب أهدافهم الثابتة: "لأنه لم يستطع أي من اليونانيين التعامل مع الرماة المحملين[497]." ظل الفرسان الذين يركضون على عجلات، يواصلون اختبار حدود حركتهم الخاصة حتى، في اليوم الثالث من مضايقتهم لخط الحلفاء، نجحت مجموعة من الفرس في الالتفاف عليه تمامًا. عند الاقتراب من سلسلة التلال المكسورة التي كان الأسبرطيين قد اندمجوا فيها، اندلع سلاح الفرسان في مؤخرة الكتائب. أمامهم، مباشرة في طريقهم، يكمن الربيع الثمين-ويبدو أنه مكشوف-. بسرعة، قبل وصول الاحتياطيات اليونانية لمنعهم، حطم الفرسان الآبار وخنقوا النبع نفسه، ثم انسحبوا منتصرين. ضربة شجاعة هائلة-وأخرى قاتلة، بالطبع، لكل آمال بوسانياس في الحفاظ على خطه الأمامي.

في مجلس الحرب الذي انعقد على عجل، وزن اليونانيون الخيارات غير الجيدة الموجودة أمامهم الآن. من الواضح أن التخلي عن مواقعهم في وضح النهار يعد بمثابة انتحار: فالفرسان الفرس سيقطّعونهم ارباً. ومع ذلك، فإن تأجيل الانسحاب سيكون بنفس القدر من الكارثة: عطشى بالفعل، بدأ الإغريق أيضًا في الاحساس بالجوع، فحيث واصل البرابرة، الذين اقتحموا ممرات كيثايرون، كانت سياستهم في نهب قوافل الطعام المتحالفة. كان الحل الواضح، على الرغم من كل مخاطر الارتباك الوحشية التي قد تترتب عليه، هو التراجع ليلاً. لذلك أوعز بوسانياس لمختلف وحدات الحلفاء، عند حلول الظلام، بأن ينسحبوا ميلين إلى خط جديد شرق بلاتيا مباشرة. هنا، اتفق الجميع على أن

موقفهم سيكون أقوى بلا حدود. سوف توفر لهم التلال حماية ممتازة ضد سلاح الفرسان. سيكونون في وضع جيد لتأمين المرور فوق كيثايرون. وستكون لديهم إمدادات وفيرة من المياه. في الواقع، كان هناك عيب حقيقي واحد: كان على اليونانيين الوصول إلى خطهم الجديد أولاً.

وهذا لم يكن مسألة بسيطة. ففي المركز، حيث اضطر جنود مجموعة كاملة من المدن المختلفة، الذين تعثروا خلال الليل، إلى شق طريقهم فوق تضاريس غير مألوفة تمامًا، سرعان ما انحرف التراجع عن مساره بشكل سيء. كما كانوا عطشى وجائعين وعصبيين، لم يكن من المستغرب، ربما، أن يفوتوا الموعد المحدد وينتهي بهم الأمر بدلاً من ذلك على مسافة ميل واحد إلى الغرب، مباشرةً تقريبًا قبل أنقاض بلاتيا، حيث "تشتتوا ونصبوا الخيام عشوائيا[498]". وفي الوقت نفسه، على الأجنحة، كان الارتباك أسوأ. عندما بدأت السماء تضيء، لم يبدأ الأثينيون ولا اللايكادمونيون والتيجيون، على الطرف الآخر من خط المعركة، انسحابهم. يبدو أن الوحدات الثلاث، المكلفة بالعمل كحرس خلفي، وجدت نفسها، بسبب الفوضى العامة وتأخير انسحاب حلفائها، وقد تقطعت بها السبل في مواقعها طوال الليل. والآن بدأت الطيور تغرد على طول النهر، وخيم العدو على الضفة المقابلة وكان يموج.

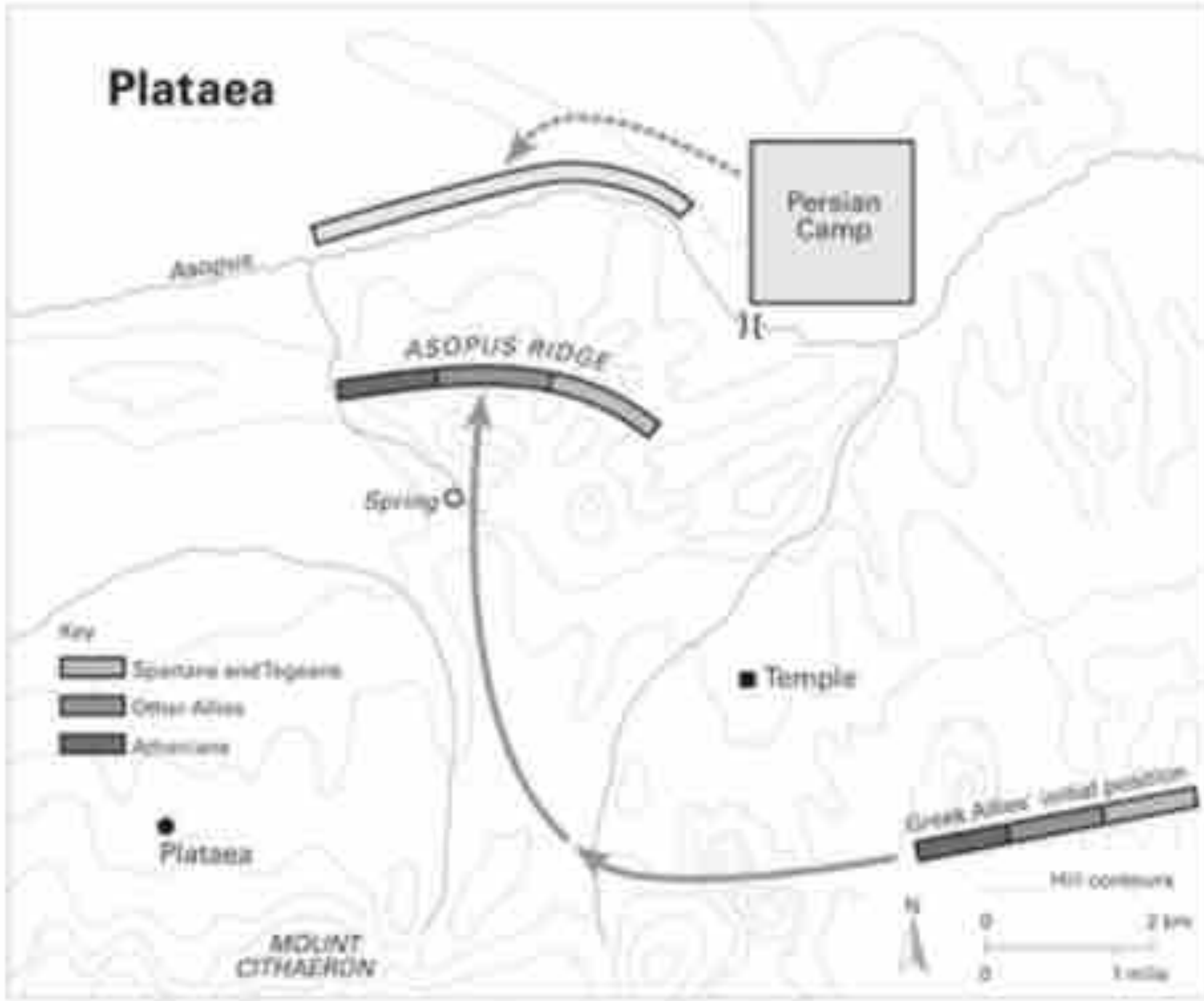
أصيب الأثينيون بالذعر. وإرسل فارس يركض فوق الحقول إلى معسكر الاسبرطيين، للمطالبة بما يجري. عند وصوله إلى هناك، وجد بوسانياس وضباطه في نقاش غاضب. ما كان يتم مناقشته على وجه التحديد سيكون لاحقًا موضع جدل كبير. قد يزعم البعض أن بوسانياس كان يواجه عصيانًا مباشرًا: فقد قيل أن ضابطًا اسبرطيا باسم أمفاريتوس أصر على أن الانسحاب ليس أفضل من الجبن، ورفض الانصياع لأوامر الجنرال. ومع ذلك، هناك تقليد آخر يحيي ذكرى الضابط نفسه كواحد من الأسبرطيين الثلاثة الذين قاتلوا بأكبر قدر من التميز في بلاتيا: هذه بالكاد جائزة تشير إلى سجل من التمرد. وبعيدًا عن عصيان أوامر بوسانياس، يبدو من المرجح أن أمفاريتوس كان يطالب رجاله بشرف مهمة محفوفة بالمخاطر بشكل فريد: لأن الشمس كانت على وشك أن تشرق، ولا يزال انسحاب اللايكادميونيين والتيجيين على وشك

البدء. كانت هناك حاجة ماسة إلى السيطرة على التلال حتى وقت متأخر قدر الإمكان. لذلك كان أمفاريتوس ورجاله، حتى عندما أعطى بوسانياس الأمر لرفاقهم الاسبرطيين والأثينيين لبدء انسحابهم، قد ظلوا في أماكنهم، ودروعهم وخوذاتهم على أهبة الاستعداد، عازمين بشدة على الاحتفاظ بمواقعهم طالما أنهم يستطيعون. وبالفعل، أثناء انتشارهم من الضفة البعيدة، كان يمكن رؤية الفرسان وهم يتناثرون عبر النهر ويتجهون نحو معسكرهم.

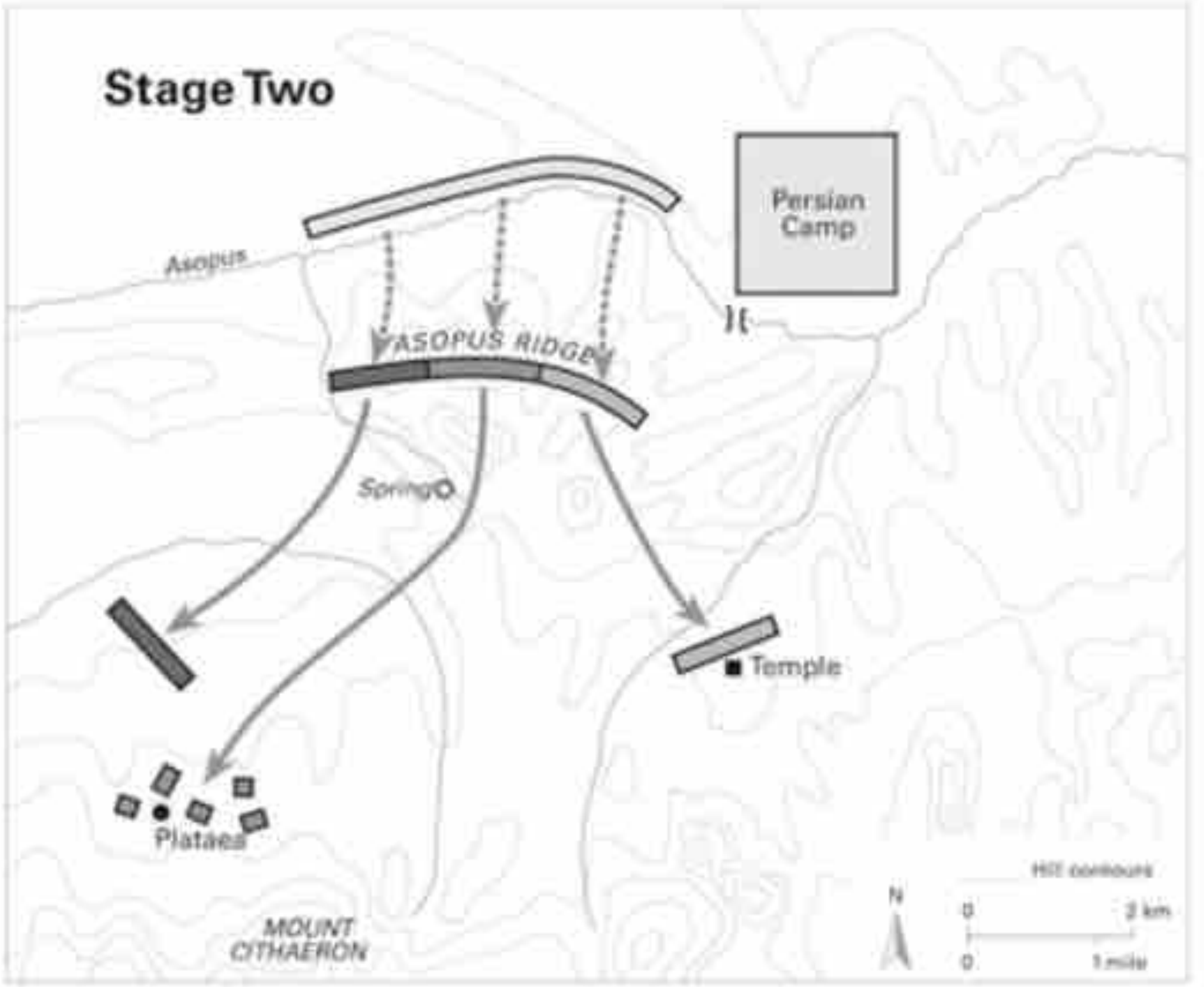
اكتشف الكشافة الفرس بعناية جميع مواقع الحلفاء المهجورة. أخبار انسحاب العدو، التي أعيدت إلى ماردونيوس حيث كان ينتظر مع المشاة، سرعان ما تأكدت له، مع شروق الشمس، من خلال الأدلة المفاجئة امام عينيه. تفكيك خط المعركة اليوناني، المهمة التي كلف بها بنفسه منذ بداية الحملة، أنجزت بشكل مذهل-ودون أن يضطر مرة واحدة لمحاربة العدو بشروطه الخاصة. الأمر الأكثر إرضاءً هو أن الأسبرطيين، الذين يُفترض أنهم لا يقهرون، الأسبرطيون ذوو الروح الحديدية، كانوا لا يزالون في تراجع مفتوح، معزولين عن حلفائهم، وعرضة للخطر كما لم يكونوا في أي وقت مضى. كان من المحفوف بالمخاطر، بالطبع، انخراط مع كتيبة في معركة مفتوحة-خاصة كتيبة من الاسبرطيين-لكن ماردونيوس كان يعلم أنه لن تكون لديه فرصة أفضل لتمزيق قلب جيش الحلفاء. بالفعل كانت نافذة الفرصة تغلق بسرعة. ان فشل في اغتنام اللحظة، فسوف يكمل الاسبرطيون الوصول الى مكان موعدهم. حتى أن ماردونيوس، الذي صعد إلى سرج فحل نيسي أبيض شاهق، أعطى فرق مشاة النخبة المتجمعة حوله الأمر المصيري للتقدم. وبدأوا الخوض في المياه الضحلة لأسوبوس. كما فعلوا ذلك، على طول خط المعركة الفارسي، رفعت الرايات وسط هتافات كبيرة، واندفعت كل وحدة في جيش ماردونيوس، وهي تتحرك في شغف مضطرب، سواء كان ذلك بإذن من جنرالهم أم لا، إلى الأمام أسفل ضفة النهر.

والآن، بينما كان ضباب الفجر يلمع ويحترق بفعل شروق الشمس، ارتجفت هناك من خلال صفوف اللايكادمونيون التي كانت "بريقًا كثيفًا ومتألقًا من الدروع والرماح والخوذ" والذي كان يعمل دائمًا على تنبيه المحاربين إلى أن

وقت الذبح كان يقترب، وأن الآلهة نفسها كانت قريبة. من جوار بستان المعبد حيث أمر رجاله بالتوقف والاستعداد للمعركة، استطاع بوسانياس رؤية



أمفاريتوس وفرقته يتراجعون صعودًا مع الانضباط المحسوب، حتى عندما كان الفرسان الفرس يتجمعون خلفهم، يطاردونهم. كان بوسانياس قد سمع صرخات البرابرة المتوحشة من النهر، ثم راقبهم وهم يعبرون النهر في موجة وحشية الرايات. كان يعلم أنه عن قريب ليس فقط سلاح الفرسان بل الوزن الكامل لكتائب مشاة النخبة في ماردونيوس سيهاجمون جدار درعه. وبجنون، بينما لا تزال لديه الفرصة، أرسل رسولًا إلى الأثينيين، متوسلاً إياهم الانضمام إليه، لكن الرسالة وصلت بعد فوات الأوان. حتى عندما استدار أريستيدس وبدأ يقود رجاله الى الخلف نحو مواقع اللايكادمونيون، شعر بالأرض تهتز، ورأى من فوق كتفيه طابور الطيبيين يحمل عليهم. رن اشتباك الكتيبتين عبر ساحة المعركة. وتأكد بوسانياس، على بعد ميل واحد إلى الشرق، في كل مخاوفه من الأسوأ.



صحيح، كان هناك بعض الراحة في الوصول منقطع الانفاس لأمفاريتوس ورجاله. ولكن لا يمكن أن يكون هناك أمل الآن في وصول أي تعزيزات أخرى لتضخم أعداد الكتائب. إذن، كان على الإسبرطيين والتيجيين وحدهم مواجهة ماردونيوس: 11500 رجل ضد نخبة القوة العظمى. بالفعل، أطلقت الساكا، التي كانت تندفع، السهام التي قرعت جدار درعهم. بعد ذلك، من خلف الفرسان، بالكاد يمكن رؤيتهم من خلال وابل القذائف، وما هو أكثر رعبا بالنسبة له، يمكن الشعور بالاقتراب المدوي والمحسوب لفرق مشاة البرابرة. انسحب سلاح فرسان ماردونيوس. زرع المشاة جدارًا من الدروع المصنوعة من الخوص، وحافظوا على بعدهم عن الكتيبة المدججة؛ وبدأ مطر السهام يتكاثف.

ظل اليونانيون المحاصرون يحافظون على انضباطهم. حملوا دروعهم، واستمعوا من داخل خوذهم إلى الهسهسة المخففة بشكل مخيف وارتطام القذائف المستمرة التي تدور حولهم. بدأ الرجال يتعثرون ويسقطون، والسهام التي تبرز من الأربية أو الكتفين ملطخة بالدماء. والآن، بدأ كل من اللايكادمونيون والتيجيين في التفكير، كان الوقت المناسب للكتائب لتوجيه

ثقلها عبر الأرض بين الجيشين، لتصطدم بجدار من الخوص الهش، لتطعن وتدوس معذبيها تحت أقدامها. لكن لا يزال بوسانياس يعيق محاربيه. بمجرد أن تتم موافقة أرتميس على المشروع الكبير للقتال الذي ينتظرهم بوضوح في التضحية بالدم، يمكنه أن يعطي الأمر بالتقدم؛ والإلهة، بغض النظر عن عدد الماعز التي ذبحت تكريما لها، رفضت منح الإغريق مباركتها. أخيرًا، وفي حالة من اليأس، رفع بوسانياس الصلاة مباشرة إلى السماء، "وبعد لحظة، وعدت الضحايا، عندما تمت التضحية بها، بالنجاح أخيرًا[499]". كذلك أيضًا: لأنه حتى عندما كان بوسانياس يأمر الكتيبة بالتقدم، بدأ التيجيين بالفعل في الجري نحو الخطوط الفارسية-وكان معهم اسبرطي واحد. من التيجيين، الذين يفتقرون إلى النظام اللاكورجي الأصلي، ربما كان من المتوقع مثل هذا التعصب؛ ولكن ليس من ارستوميدس، ذلك المتخرج من " التأهيل البدني ". ومع ذلك فإن "الرعديد"-على الرغم من أنه بالكاد يستحق التكريم لاخلائه مكانه في جدار الدرع الاسبرطي ، وإلقاء نفسه بيد واحدة على البرابرة، ليقتل ويُقتل في جنون هائج لدرجة أنه بالكاد يكون يونانيًا-ومع ذلك، وافق رفاقه في وقت لاحق، ففدوا اسمه. في الواقع، سيتذكر رجال المدن الأخرى شجاعته لفترة طويلة باعتبارها شيئًا استثنائيًا حقًا. إلى هذا الحد، على الأقل، يمكن اعتبار أن أرستوديموس قد مات إسبرطيًا.

وعلى الرغم من ذلك، فإن المجد الحقيقي في اسبرطة ذهب إلى أولئك الذين قاتلوا ليس من أجل شرفهم الأناني بل كروابط في آلة واحدة؛ ومجد عظيم، ربح في ذلك الصباح الرهيب، كل عضو في الكتائب. فقط "رماح دوريسية، تخثر أرض بلاتيا بذبح قرابين دموية[500]،" ربما كان من الممكن أن يضمن النصر: فقط الرجال الذين قبضوا عليهم تميزوا منذ الولادة ليقاتلوا ويقتلوا ولا يستسلموا أبدًا. عند النزول من المنحدر المظلم للأسهم للأرض بين الجيشين، محطمًا خط الجبهة للعدو، واجه الأسبرطيون اختبارًا كانت حياتهم كلها تستعد له. رجال آخرون، ربما، كانوا يدافعون ضد عدو محتشد ومحتفل وشجاع مثل الفرس، ليجدوا معنوياتهم تنهار، وأذرع دروعهم متعبة، وأجسادهم تتألم؛ ولكن ليس الاسبرطيين. على الرغم من أن المعركة بدت

معلقة في الميزان، إلا أنهم لم يتوقفوا عن المضي قدمًا بعناد. بغض النظر عن أن الفرس، في يأسهم المتزايد، سعوا إلى إعاقة تقدم أعدائهم من خلال الاستيلاء على رماح الأسبرطيين وتقسيمهم؛ لم يكن ثلم السيوف بسهولة، ولم يتوقف ثقل الأجساد المكسوة بالبرونز. بقي ماردونيوس، "شجاعًا مثل أي فارسي في الميدان[501]،" وسعى إلى حشد قواته؛ لكن في الوقت الحالي، كان الأسبرطيون يقتربون من النخبة التي شكلت حارسه الشخصي، وصنع ماردونيوس نفسه، المتألق بجواده الأبيض، هدفًا سهلاً. قام أحد الاسبرطيين بالتقاط الحجر وقذفه باتجاهه، فاصطدم بجانب جمجمته. ونزل من سرجه سقط ابن عم الملك العظيم، الرجل الذي كان يعتقد أنه مرزبان اليونان.

وعلم الفرس، وهم يراقبونه وهو يسقط، أن المعركة خاسرة. تم القضاء على حراس ماردونيوس، الذين كانوا يتمسكون بأرضهم بشكل بطولي، حيث وقفوا، لكن بقية الانقسامات، التي أحبطت معنويات قائدهم الكاريزمي، بدأت في الانطلاق، وسرعان ما كانت الهزيمة عامة في ساحة المعركة. تمكن أربعون ألف رجل، بقيادة ضابط سريع التفكير، من الفرار شمالًا على الطريق المؤدي إلى ثيساليا، لكن معظمهم، بدافع الذعر، لجأوا للقلعة، وطاردهم اللايكادمونيون والتيجيين هناك. بعد فترة وجيزة، انضم الأثينيون إلى بوسانياس أمام بوابات الحصن، حيث انتهت مباراتهم المريرة ضد الطيبيين بكسر الوسطاء وفرارهم إلى مدينتهم. الآن، أخيرًا، فرض الحلفاء المنتصرون الحاجز. كانت المذبحة التي أعقبت ذلك شبه كاملة: من بقايا جيش ماردونيوس الممزق، بالكاد تم إنقاذ ثلاثة آلاف. وهكذا أنهت مشروع الملك العظيم ضد الغرب.

عند التحديق في الثروة والرفاهية المعروضة في معسكر ماردونيوس، وجد الإغريق أنفسهم مرة أخرى يتساءلون لماذا شعر بهذه الرغبة الشديدة في غزو أرضهم، في حين أنه من الواضح أنه كان لديه أكثر من الكافي بالفعل. أحد الألقاب، على وجه الخصوص، ساعدهم في جلب الحجم الكامل غير المحتمل لانتصارهم: خيمة ملك الملوك. قيل إن زركسيس، ترك اليونان في الخريف الماضي، ومنح ماردونيوس استخدام مقر حملته؛ وهكذا، استحوذ بوسانياس،

وهو يفصل ستائرها المطرزة، ويمشي فوق سجادها المعطر، على ما كان العام السابق مركز الأعصاب في العالم. نظر الوصي في ذهول إلى المفروشات، وفكر في ما سيكون عليه الحال عندما يجلس حيث تم التخطيط لوفاة عمه؛ ولذلك أمر طهاة ماردونيوس بإعداد عشاء ملكي. وعندما صار جاهزًا، تناول العشاء الثاني من المرق الاسبرطي الأسود بجانبه، ودعا زملائه القادة للحضور والاستمتاع بالتباين. ضحك بوسانياس، "رجال اليونان"، "لقد دعوتكم حتى تقدروا بأنفسكم الطابع غير العقلاني للميدي، الذي لديه نمط حياة كما ترونه هنا معروضًا أمامكم، ومع ذلك جاء إلى بلدنا ليجردنا من فقرنا المدقع[502]". نكتة. ومع ذلك، بالطبع، ليس كذلك تمامًا. لم تكن الحرية مسألة تُضحك. قلة من القادة اليونانيين الملطخين بالعرق، الذين كانوا يحدقون في الفخامة الفاحشة لطاولة الملك العظيم ثم يقارنونها بأوعية الحساء البسيط، يمكنهم أن يشكّوا في ما يدين به البرابرة بهزيمتهم، و مايدينون هم به لمدنهم من الحرية.

في هذه الأثناء، وراء مداخل الخيمة المزينة بالشراشيب، كانت الهوبليت يعملون بجد، وهم يتعثرون في المخيم. بأمر من بوسانياس لعمل كومة كبيرة من المسروقات، قاموا بسحب الأثاث من الخيام، ودفعوا الصفائح الذهبية في أكياس، وخلعوا الخواتم من أصابع الجثث. وبطبيعة الحال امتنعوا عن التصريح بكل ما وجدوه. بما في وسعهم، اذخروا شئياً للمستقبل. مع هذه الكنس، كان الهوبليت يأملون في تأمين حريتهم؛ لكنهم كانوا جاهلين ومتخلفين، لذلك ثبت أنه يسهل خداعهم. نجح ائتلاف من الايجينيون، مشتما رائحة ربح سهل، في إقناع الهوبليت بأن ذهبهم كان نحاسا، ودفعوا ثمنه وفقًا لذلك. يبدو أن الهوبليت، الذين تم نهبهم بشكل شامل، لم ينالوا حريتهم؛ لكن الأيجينيون، كما يقال، صنعوا ربحا ضخما.

غطرسة

رويت قصتان عن نسب هيلين، المرأة التي أغرق جمالها لأول مرة أوروبا وآسيا في الحرب. زعمت أشهرهما أنها كانت اسبرطية، فقست من بيضة بعد أن اغتصب زيوس والدتها الملكة التي على شكل بجعة عملاقة. ومع ذلك، زعمت الثانية أن ملكة اسبرطة لم تكن سوى الحاضنة، وأن البيضة نفسها قد

وضعتها في الأصل ضحية مختلفة تمامًا لاهتمام زيوس: إلهة. ليس أقل من ذلك، كانت مهيبة كما كانت قوية، وهادئة بقدر ما كانت قاتلة. في إحدى يديها، حملت وعاءًا يحتوي على ما كان مقدرًا أن يكون؛ في الآخر، قضيب قياس، يستخدم لقياس حجم الفائض المميت. أولئك المذنبون بـ "التباهي المفرط" وكانت ستحبطهم[503]. لا أحد يستطيع تحملها، والأقوى على الإطلاق. كانت عادتها، عندما تمشي، أن تدوس الجثث تحت أقدامها. كان اسمها نمسيس.

استفزها، وقد ينقلب العالم نفسه رأسًا على عقب. وكدليل على ذلك، أشار الإغريق دائمًا إلى مهنة كرويسيوس، التي كانت ذات يوم مزدهرة وانيقة لدرجة أنه تجرأ، حين أدخلت نمسيس يدها في حياته المهنية، "على أن يفترض أنه أسعد الرجال[504]." ومع ذلك، لا يمكن حتى لتلك الجريمة، على الرغم من قيمتها، أن تُقارن على نطاق من الرعب بتلك الخاصة بالملك العظيم، ملك الملوك، ملك الأراضي: الرجل الذي كان هدفه جعل نفسه سيد جميع البشرية. في اليونانية، يمكن استخدام كلمة واحدة فقط لوصف مثل هذا السلوك الجنوني: " الغطرسة."فهذه هي الجريمة التي يرتكبها أي رجل يكتسب حماسته من خلال الدوس على الآخرين، والشعور، وهو يفعل ذلك، باثبات أنه متفوق[505]." ربما يكون فشلًا بشريًا للغاية؛ ومع ذلك، كان البرابرة، بطبيعتهم المفرطة، والملوك، حسب رتبهم، عرضة لها بشكل غريب. اليونانيون، الذين كانوا يشتبهون دائمًا في أن هذا هو الحال، أصبح لديهم الآن، في زركسيس، دليلهم الحاسم. ما هي ثمرة طموح الملك العظيم المذهل، قوته غير المسبوقة، جيوشه، أساطيله، عظمته؟ سجلٌ لا مثيل له للجرائم ضد نيمسيس.

كان انتقامها سريعًا ومؤكدًا. "هذا الاستغلال ليس لنا"، كان ثيمستوكليس، الرجل الذي بالكاد يتحلى بالتواضع، ولديه الكثير مما يجب أن يكون غير متواضع بشأنه، قد اكّد بعد سلاميس:

الآلهة، الأبطال الذين يحرسون مدننا، استاءوا من الغرور
الأثيم للملك: رجل لم يكتف بعرش آسيا بل سعى أيضًا إلى
حكم أوروبا: والذي تعامل مع المعابد وكأنها مجرد تجمعات من

الطوب والملاط. أحرق وأسقط تماثيل الآلهة. تجرأ حتى على جلد البحر وربطه بالسلاسل[506].

كان بإمكان غزاة ماردونيوس أن يؤكدوا نفس الشيء، وهم يسيرون في حقول بلاتيا المليئة بالدماء، يفحصون الجثث المتشابكة لأفضل رجال القتال عند الملك العظيم، ويجردون خيمته الرائعة حتى العراء. الكل يعرف لمن كان النصر. كان عمل الإلهة واضحًا.

لكنها لم تنته بعد: بقي تطور أخير. لطالما كانت ممارسة-ومتعة- لنمسيس التسبب في ان تعود الجرائم مرة أخرى على مرتكبها. الآن كان الملك العظيم، بعيدًا في ساردس، وعلى وشك تعلم هذا الدرس بنفسه. في الصيف الماضي، بعد أن أضرم النيران في المعابد المقدسة في الأكروبوليس، كان قد تجرأ على التباهي بجريمته التي لا توصف بإصدار أوامر لإشارات التنبيه لإشعال النيران عبر البحر: ماردونيوس، الذي استولى على أثينا للمرة الثانية، فعل الشيء نفسه. ظلت المنارات قائمة. ولكنها الآن بشكل آمن في أيدي اليونانيين. يمكن أن يضمن بوسانياس، الذي أمرهم بإشعالها، وصول خبر انتصاره إلى ساحل إيونيا في غضون ساعات. وهذا، على ما يبدو، هو بالضبط ما فعله[507].

من الصعب خلاف ذلك تفسير صدفة مؤلمة. على بعد أكثر من مائة ميل من بلاتيا، على الجانب البعيد من بحر إيجة، في نفس يوم النصر العظيم، "انتشرت شائعة فجأة عبر صفوف الأسطول اليوناني بأن مواطنيهم قد هزموا ماردونيوس في بيوتيا[508]". الزيادة الناتجة عن الثقة بين أفراد الطاقم لم يكن من الممكن أن يكون توقيتها أفضل: لأنهم أيضًا، في عصر ذلك اليوم، واجهوا جيشًا من البرابرة. بعد شهور من الخمول، كان ليوتيخيدس قد غامر أخيرًا، قبل أيام قليلة، بالخروج شرقًا من مقره الرئيسي وأصبح الآن راسياً في ميناء ساموس العظيم، مباشرة مقابل سلسلة جبل ميكالي. هناك، على منحدر الجبل، انتصب البانيونيوم، الضريح الجماعي القديم للأيونيين؛ الى الجنوب، على طول الساحل، تقع ميليتوس المدمرة؛ و بعيدا على الشاطئ من موانئها، في الخليج، نشأت جزيرة ليد. كل المشاهد المصيرية، ودليل واضح على يد نمسيس: بأن في بداية الحرب كانت نهايتها.

كما لم يكن صعبا تمييز يد الإلهة في حقيقة أن الصعاب التي كانت في صالح الفرس قبل خمسة عشر عامًا قد تم عكسها الآن بشكل كبير. الأسطول الحربي الإمبراطوري، الذي كان في يوم من الأيام رعب البحار، قد فقد للأسف أبهته المعتادة. كانت سفنه محطمة في المعركة. أطقمه محبطة. وبحاراتها متمردون. طرد الفينيقيون من صفوفه تمامًا، الذين كانوا في يوم من الأيام عمادها الأساسي. على النقيض من ذلك، تلقى ليوتيخيدس مؤخرًا تعزيزًا كبيرًا في شكل سرب المعركة الأثيني: لأن زانثيبوس، بعد أن أضاع وقته في الانتظار عبثاً في سالاميس طوال النصف الأول من الصيف، كان قد انطلق بمرح إلى ديلوس في اللحظة التي تأكد فيها أن باوسانياس قد ترك البرزخ. نتيجة لذلك، أصبح الحلفاء-في تحول مذهل عن الصيف الماضي-يمتلكون الآن ميزة الأعداد. أثناء مسحهم الأفق بعصبية، كان على الأدميرالات الفرس إلقاء نظرة خاطفة فقط على الأسطول اليوناني الذي يضغط عليهم ليقفزوا خارج سفنهم. رسوا مباشرة في ظل جبل ميكالي، وقاموا بجر السفن الثلاثية إلى الشاطئ، وارتجلوا بشكل محموم حاجزًا من الصخور وأشجار التفاح، وحاصروا أنفسهم بداخله.

وكان هذا هو نفس الحاجز الذي قرر ليوتيخيدس، في يوم معركة بلاتيا، مهاجمته. في الظهيرة، بدأت هبة من الدخان تتصاعد في الأفق الغربي، وسرعان ما أجابت منارة مشتعلة على مرتفعات ساموس. في هذه الأثناء، كان مشاة البحرية-الأثينيون والكورينثيون والتروزينيون-ينزلون على الشاطئ بالقرب من حصن الفرس المؤقت. المدافعون، الذين ابتهجوا بالحجم الصغير لقوة الحلفاء الهجومية، خرجوا من خلف حاجزهم. فحمل عليهم اليونانيون على الفور. تلا ذلك قتال يائس، حيث قاتل الفرس بشجاعة من خلف جدار مؤقت من الدروع. لكن في النهاية، كما في ماراثون وبلاتيا، تغلب عليهم جنود المشاة. في هذه الأثناء، بعد أن نزل ليوتيخيدس مع البيلوبونزيين في الجزء الخلفي من الحاجز، حصل على انتقام جميل لما حدث في ثيرموبيلاي من خلال الخروج فجأة من سفح جبل ميكالي واستكمال الطريق. هرب جزء ضئيل من الحامية الفارسية إلى ساردس. تم التخلي عن الحصن وجميع السفن المصطفة بداخله. بعد أن تأكد ليوتيخيدس أولاً من نهب كل ما في وسعه، أضرم النار في الأسطول

الفارسي في نفس الليلة. لم يعد اليونانيون يقاتلون دفاعًا عن أراضيهم، فقد نجحوا الآن في الهجوم. استقر الغسق فوق إيونيا، وأضاءت النيران على حافة آسيا طوال الليل.

"كثيرة هي علامات الأدلة التي تثبت تدخّل يد الإلهة في شؤون البشر الفانين[509]." بالنسبة لليونانيين، بدا أنها معجزة أن ينتصروا مرتين في نفس اليوم على ما كان لا يزال، في النهاية، القوة العظمى في العالم. بالكاد يستطيع ليوتيخيدس نفسه أن ينسيها. فحتى بالعودة إلى ساموس، بعد أن ترك الأسطول الفارسي ليحترق عبر المضيق، استمر هو وزملاؤه في الخوف من غضب ملك الملوك. بالتأكيد، كما تخيلوا، كان انتقامه سيضرب في أي لحظة. ولكنه لم يفعل. بدلاً من ذلك، بعد أسابيع قليلة من ميكالي، تم الإبلاغ عن أن زركسيس، "في حالة من الحيرة[510]،" كان قد غادر ساردس تمامًا، وكان يسلك طريق العودة الطويل إلى سوزا. معه كان يذهب معظم جيشه. تمكنت مجموعة مداهمة، أُرسلت من ساردس، من توجيه ضربة إلى كيس اللكم الفارسي المفضل، الضريح المقدس في ديديما، ومرة أخرى نقلت عربة تمثال أبولو؛ لكن بخلاف ذلك كان هناك القليل من التصرفات من البرابرة. مر عام ثم آخر. ولم يعد الملك العظيم.

أدى هذا الخمول إلى الكثير من التخمين بين الإغريق. وقد قُدِّم الجبن والتخنث والليونة على أنها تفسيرات معقولة. إن فكرة انحطاط البرابرة، التي كان من شأنها أن تصدم الجميع على أنها منافية للعقل قبل ماراثون، بدأ الآن معظم اليونانيين ينظرون إليها على أنها حقيقة بسيطة. ولم يكن الأمر مجرد أن فشل الفرس في شن غزو ثالث قد أدى بشكل متزايد إلى تغذية هذا التحيز المريح. كان كل شيء في غزو زركسيس الذي طرق الإغريق على أنه مرعب للغاية في ذلك الوقت-الأعداد المزدحمة لجحافل الملك العظيم، والموارد اللامحدودة في متناول يده، والثروة، والعرض، والمشهد، وبذخ حاشيته-كل ذلك، بعد فوات الأوان، بدا وكأنه قد جعله مميزًا على أنه فاعل. ربما كان الفرس غزاة آسيا؛ لكنهم ربما كانوا أيضًا نساء عند قياسهم على الرجال اليونانيين المولودين أحرارًا والذين يرتدون ملابس برونزية.

حتى أن البعض بدأ يتساءل عما إذا كان الصدام الدموي الذي عانى منه الملك العظيم قد قضى على نظامه تمامًا. كان أحد هؤلاء المتفائلين أثينيًا اسمه إسخيلوس-رجل لديه كل الأسباب لرعاية مثل هذا الأمل. كان أحد قدامى المحاربين في كلا من ماراثون وسلاميس، وقد عانى أيضًا من خسارة شخصية مريرة على أيدي البرابرة: فقد كان شقيقه هو الذي تشبث بإحدى السفن الراسية قبالة ماراثون، وقُطع معصمه بفأس. حسنًا، ربما كان إسخيلوس يحلم بانهيار القوة الفارسية. في عام 472 قبل الميلاد، بعد ثماني سنوات من سلاميس، أعطى تفاؤله رؤية حقيقية في مدينة ديونيزيا، مسابقة الدراما السنوية للأثينيين. عندما كان الجمهور يتجمع في ظل الأكروبوليس، ويتدفق إلى المسرح، كان بإمكانهم أن يروا، أينما حدّقوا، ندوبًا وتذكيرات بمحنة مدينتهم الأخيرة. خلفهم، على الصخرة المقدسة، ظلت الصورة الظلية للدمار: لأن الحلفاء-بمن فيهم الأثينيون-قد تعهدوا قبل دخول الميدان ضد ماردونيوس بأن أي معبد يحرقه البرابرة سيُترك إلى الأبد خرابًا، " كشهادة للأجيال القادمة[511] ". المدرجات التي جلس عليها الجمهور قد صُنعت، بشكل شبه مؤكد، من الأخشاب التي تم إنقاذها من أسطول البرابرة المحطم. أثناء التواجد على المسرح نفسه، تم اقتراح ذلك بشكل معقول، ربما كان هناك هذا الأكثر إثارة من بين جميع جوائز المعركة: الخيمة الملكية التي تم الاستيلاء عليها[512]. إذا كان الأمر كذلك، فإن الجلد الذي كان يحمي ملك الملوك في يوم من الأيام صار يوفر الآن مظلة فوق مسرح ديونيزيا-وخلفية مثالية للتراجيديا التي أطلق عليها إسخيلوس اسم الفُرس.

عُرضت في سوزا، ولإسعاد الشعب الأثيني، اظهرت إعادة بناء دراماتيكية لعودة زركسيس إلى الوطن من سلاميس. تم تصوير الملك الذي غادر بلاد فارس في أبهة جلالته وهو يعرج ويلبس الخرق. وسُمع رجال البلاط الذين ظنوا انهم سيحيون البطل المنتصر وهم ينوحون من البؤس. كل ذلك ممتع-ومريح-للجمهور بالطبع. كان الملك العظيم خائفًا بالفعل، وإسخيلوس طمأن مواطنيه؛ وأثينا، المدينة التي هزمته، أصبحت الآن منارة للحرية للأمم في كل مكان. "لأن شعوب آسيا لن يحتملوا أن يبقوا عبيد بلاد فارس طويلا. أن

يكونوا قوة في اجلال سيدهم؛ أن يسجدوا له على الأرض. لقد ماتت الملكية نفسها وكل قوتها[513] ". وبعبارة أخرى، أصبح العالم آمنًا لأثينا-وللديمقراطية. لا عجب أن إسخيلوس كان يجب أن يحصل على الجائزة الأولى.

حتى عندما احتفل بفوزه، لم يكن مواطنوه قد تركوا خالين تمامًا من الخوف المتبقي. كان من الجيد جدًا أن يزعم إسخيلوس أن سالاميس قد تركت الملك العظيم "مُجردًا من الرجال القادرين على الدفاع عنه[514]"، لكن لماذا، في هذه الحالة، كانت الحاميات الفارسية لا تزال في تراقيا وبجانب هيلسبونت؟ ماذا كانوا يفعلون في ساردس؟ كيف يمكن أن يكونوا في كل عاصمة في كل مرزبانية، إلى حدود شروق الشمس؟ وبعيدًا عن الترنح، ظلت إمبراطورية الملك العظيم في الحقيقة قائمة على أسس متينة وقوية كما كانت دائمًا. كان لا جدال في أن الصرح العظيم قد تلقى اثرأ على واجهته الغربية، لكن القليل من داخل الامتداد الشاسع للإمبراطورية كان سيدرك ذلك. في النهاية، لم يكن الملك العظيم معتادًا على بث إخفاقاته. إذا كان رعاياه قد سمعوا عن أثينا من قبل، فعندئذٍ فقط كمدينة وضعها سيدهم في حريق. وإذا كانوا قد سمعوا من قبل عن الأسبرطيين، فعندئذ كان ذلك فقط كشعب قتل ملكه في المعركة. "أتمنى أن يحميني أهورا مازدا وكل الآلهة. وليحمي مملكتي. وآمل أن يحمي كل ما جاهدت لبنائه[515] ". كان زركسيس يصلي عادة. ومن سيقول إن أهورا مازدا لم يستمع إليه بعد؟

لكن إسخيلوس، الذي كان يتخيل "شعوب آسيا" تموج تحت نير الفارسي، لم يكن منغمسًا بالكامل في التمني. لماذا، في النهاية، سارع الملك العظيم بعيدًا عن ساردس-ولماذا بالضبط فشل في العودة؟ كان حل اللغز بعيدًا عن اليونان، في قمرة القيادة تلك في الشرق الأدنى، بابل. هناك، في أواخر موسم الحملات عام 479 قبل الميلاد، حتى عندما كان زركسيس يحضر الأخبار الكارثية عن بلاتيا وميكالي، اندلعت ثورة جديدة[516]. لقد وجد الملك العظيم نفسه محاصرًا بين جبهتين، مما أثار رعبه. تخلى زركسيس عن حملته على الأطراف المتصدعة لإمبراطوريته، وعاد بسرعة إلى قلبها-حيث تم قمع التمرد، بكل تأكيد. ظلت بابل، التي تعلمت درسها مرة واحدة وإلى الأبد، هادئة منذ تلك

اللحظة وصاعدًا. لكن يبدو أن زركسيس نفسه، على الرغم من التهدئة الناجحة للتمرد، قد استوعب أيضًا درسًا مؤلمًا. لقد اعتبر كل من كورش وقمبيز وداريوس أن حدود الهيمنة الفارسية ستثبت أنها لا نهائية. لقد أعلن داريوس، على وجه الخصوص، ذلك المستبد المتدين والساخر، أنه مخول ليس فقط بالحق ولكن بواجب مقدس لإخضاع الباطل أينما وجده، إلى أقصى حدود العالم. وهو على الأقل تقي في عبادة أهورا مازدا مثل والده، ورث زركسيس هذا الإحساس بالمهمة العالمية جنبًا إلى جنب مع التاج الإمبراطوري. هذا، في النهاية، كان السبب في أنه قاد غزو الغرب. لكن هذا الغزو فشل. وعربة الرب مازدا، التي كانت تجوب بمثل تلك المراسم المهيبة على طول الجسر العائم فوق هيلسبونت . انتهى بها الأمر أن سرقتها عصابة من قطاع الطرق التراقيين وألقيت في حقل. بالنسبة إلى الإغريق، بدا الجسر بين آسيا وأوروبا، والرغبة في حكم القارتين، دائمًا أكثر الحماقات التي ارتكبها الملك العظيم فتكًا. وربما كان زركسيس قد وافق في قلبه. بالتأكيد، لن يكون هناك المزيد من المحاولات لغزو أوروبا بعد عودته من ساردس. لقد كان زركسيس، من بين جميع ملوك بلاد فارس، من اضطر لقبول حقيقة غير مريحة، تلك التي لم تكن في يوم من الأيام موافقة لنظام بلاده: وهي أنه حتى أقوى الإمبراطوريات يمكن أن تعاني من الإمتداد المفرط.

لم تتخل القوات الإمبراطورية عن القتال في بحر إيجه-لكنها لم تعد في طليعة مخطط للغزو العالمي. كانت هزيمة الملك العظيم في الغرب بمثابة ضربة قاتلة لذلك الحلم المتبجح. صارت الطموحات الفارسية الآن أكثر تواضعًا بشكل لا نهائي: لمجرد تثبيت السيطرة على إيونيا. حتى عندما كان ليوتيتشيدس ينعم بذكري الانتصار في ميكالي، فقد أدرك أن هذه ستكون سياسة الملك العظيم، وكان يخشى عدم قدرة الإغريق على الوقوف في طريقها. ولكن عندما اقترح نقل الأيونيين من مدنهم وإعادة توطينهم في البر الرئيسي، انفجر زانثيبوس ساخطا. كان قد احتج على أنه ليس من اختصاص الإسبرطيين أن يقترحوا حل ما كان في الأصل مستعمرات أثينية: وقد تعهدت مدينته إلى الأبد

بالدفاع عن الحرية الأيونية. "وبعد أن عبّر هو ومواطنوه عن أنفسهم بقوة كبيرة، تراجع البيلوبونيزيين مطولاً"[517].

لذلك تم تأجيل التطهير العرقي لليونانيين من آسيا لمدة 2400 سنة، حتى عهد أتاتورك. وكان ادعاء أثينا بقيادة الحرب المستمرة ضد بلاد فارس صريحًا. بعد عام تم إضفاء الطابع الرسمي عليه أيضًا. تم تشكيل تحالف قانوني، مع خزنته في جزيرة أبولو المقدسة ديلوس، وقيست رسوم الاشتراك إما بالسفن أو نقدًا. الأيونيون، وسكان الجزر، والإغريق في هيلسبونت: اشتركوا جميعهم تقريبًا. مع القوة المضافة التي قدمتها لهم الرابطةالديلية الجديدة هذه، يمكن للأثينيون الآن توجيه الهجوم مباشرة إلى البربري. خلال سبعينيات القرن الرابع قبل الميلاد، تم تقليص الحاميات الفارسية في تراقيا وحول هيليسبونت بشكل منهجي. شهد العقد التالي نجاحات أكثر إثارة. اكتسح الأثينيون، بقيادة كيمون، ابن ملتيادس، العدو من بحر إيجه، وعززوا التمرد في جميع أنحاء ايونيا وكاريا. وجاءت ذروة هذه الانتصارات في عام 466 قبل الميلاد، عندما واجه كيمون أكبر تجمع للقوات الفارسية تم تنظيمه منذ عام سلاميس، وحقق انتصارًا مزدوجًا مثيرًا. أولاً، انحدر الى مصب نهر يوريميدون، وهو نهر يقع جنوب ما يعرف الآن بتركيا، ما أدى إلى القضاء على أسطول فينيقي بأكمله. بعد ذلك، انزل مشاة بحريته المرهقة على الشاطئ، وطبق نفس المعاملة على الجيش الإمبراطوري. كانت هذه المعركة، مرة وإلى الأبد، هي التي دمرت أي احتمال باقٍ لغزو فارسي ثالث. لقد تم الفوز بالأمن لليونان أخيرًا. والحرب الكبرى، في الواقع، قد انتهت.

لكن أثينا، المدينة التي ضمنت الانتصار في يوريميدون، بدت وكأنها تتراجع عن الإحساس بإنجازها الخاص: كما لو أنها لا تتحمل التخلي عن صراع استمر لمدة ثلاثين عامًا في تحديد هويتها. لذلك استمرت تسمية بلاد فارس، في الصلوات التي أقامها المجلس، على أنها العدو القومي. وهكذا أيضًا، صوّت الأثينيون، بعد أن طردوا الفرس من بحر إيجه ولكنهم بقوا مدمنين على شن الحرب عليهم، ومطاردتهم في الحقول الأجنبية. في عام 460، إرسل أسطول ضخم إلى قبرص ومصر. بعد ست سنوات من القتال، تم القضاء عليه بشكل

شامل. الأثينيون، في حالة ذعر من أن البرابرة قد يعودون الآن مكتسحين بحر إيجه، سارعوا بنقل مقر الرابطة من ديلوس إلى مدينتهم. وحتى عندما لم يظهر الفرس في المياه اليونانية، ظلت الخزانة في الأكروبوليس. بطبيعة الحال، كما فعلوا دائمًا، طلب الأثينيون دفع اشتراكات الرابطة بالكامل. فالحرية، كما أشاروا، لم تكن رخيصة. لكن العديد من الحلفاء الساخطين بشكل متزايد بدأوا يتمتمون بأن الحرية التي ترعاها أثينا أثبتت أنها أغلى بكثير من العبودية التي كان يمارسها ملك الملوك في أي وقت مضى.

في العقود التي أعقبت الغزو العظيم، لم يكن من الممكن أن يبدأ يوناني تعهد بإسقاط الاستبداد الفارسي بنفسه في تقليد أخلاق الفارسي. بمفارقة جديدة تمامًا. على سبيل المثال، أصبح بوسانياس، الذي اعماه الغرور، متحمسًا سيئ السمعة للأناقة البربرية. ومواطنيه، الذين شعروا بالفزع لرؤية جنرال من شعب اسبرطة يتجول في الريف وهو يرتدي بنطلون المرزبان، أصبحوا متشككين بشكل متزايد في بطلهم السابق. بعد مرور عقد من الزمن فقط على بلاتيا، اتهمه الايفور بالتآمر لقلب الدولة. بوسانياس، الذي كان يلوذ بداخل المعبد ذي الجدران البرونزية في الأكروبوليس الاسبرطي، كان محاطًا بالجدران هناك لتجويعه: وفقط في اللحظة الأخيرة تم إخراج جسده الهزيل، حتى لا يلوث موته الضريح. الرجل الذي ضحك على ثروة مائدة الملك العظيم، فقط ليصنع لنفسه ذوقًا شرهًا للمطبخ الفارسي الراقي، وانتهى به المطاف الى الموت جوعاً.

أثبتت نمسيس، كما كانت دائمًا، أنها بارعة لا ترحم: وللتأكيد فقط على أن الغطرسة قد تكون سببا في فشل الإغريق وكذلك الملوك البرابرة، فقد جرّت إلى أسفل، في الأسابيع التي تلت نهاية بوسانياس البائسة، بطلًا أعظم حتى من الوصي. كان ثيمستوكليس مكروهًا منذ سالاميس لأنه كان على حق ومثابرة بشكل مذهل، وقد نبذه بالفعل بحلول عام 470 قبل الميلاد مواطنيه الساخطين. الآن، متورطًا في خيانة بوسانياس، فر من اليونان تمامًا. بعد التجوال والمغامرات التي تليق بأوديسيوس، انتهى به الأمر أخيرًا في سوزا، حيث ابتهج ابن زركسيس، الملك العظيم الجديد، بالقبض على ألد أعداء والده.

"ثعبان اليونان الخفي[518]." الآن بعد أن ازيلت انيابه، أثبت أنه المفضل لدى سيده الجديد؛ وجميع الصفات الرائعة لعقله، التي كانت قاتلة جدًا للطموحات الفارسية، تم وضعها في خدمة الملك العظيم. تم إرسال ثيمستوكليس إلى الجبهة الغربية، واستقر في الداخل مباشرةً من ميليتوس، حيث أصدر عملات معدنية وأدار جيشًا، تمامًا مثل أي مرزبان. قضى أيامه الأخيرة في تقديم المشورة للمحكمة في ساردس حول أفضل السبل لمقاومة تجاوزات مواطنيه. وهكذا كان ثيميستوكليس، كخادم ملكي وخائن، قد لفظ أنفاسه أخيرًا في عام 459 قبل الميلاد.

سابقة مقلقة: أن ينتهي المطاف بمنقذ اليونان كعدو للحرية. حتى في المنفى، بدا للكثيرين أن ثيمستوكليس استمر في تقديم نموذج لمدينته. على نحو متزايد، طوال 450 قبل الميلاد، وجدت المدن المحررة من الحكم البربري شعورها بالامتنان تجاه أثينا يتحول إلى الحسد والريبة والرهبة. لم يروا فرقًا كبيرًا بين الجزية التي دفعوها ذات مرة لسوزا والاشتراك الذي اضطروا الآن إلى إرساله إلى الأكروبوليس. بالفعل، في 460 قبل الميلاد، وجدت المدن التي حاولت الانفصال عن العصبة نفسها يزورها الأسطول الأثيني. وكذلك، في العقد التالي، لم تكن هناك مدن حتى في التحالف. في 457، على سبيل المثال، دفع الأثينيون نصف قرن من السجال من خلال محاصرة منافستهم القديمة إيجينا، وتفكيك جدرانها، ومصادرة أسطولها، ثم دعوتها للانضمام إلى العصبة. عرض لم يستطع الأيجينيون البائسون أن يرفضوه-والذي ربما كان حتى أكثر الطغاة الشرقيين قوة يفخرون به. بدأ الرجال يتذكرون وصول أثينا الأول إلى إمبراطوريتها كلحظة مشؤومة ومصيرية: بالنسبة لزانثيبوس، كما قيل، بعد أن أبحر شمالًا من معركة ميكالي، رسى قبالة هيلسبونت، استولى على الكابلات في جسر زركسيس كغنيمة، ثم سمّر الفارسي الأسير حياً على لوح خشبي. بدأ هذا الصلب، الذي ظل يلوح بشكل أكبر في ذاكرة الناس، كافياً لإلقاء كل اليونان تحت ظله.

ومع ذلك فإن الأثينيين أنفسهم كانوا يعرفون بشكل أفضل. على الرغم من أن مدينتهم أصبحت رائعة وقوية وغنية، إلا أنهم لم ينسوا أبدًا للحظة ما

مرت به، وما الذي كان شجاعاً، لكسب مثل هذا التفوق. "حصن اليونان، أثينا الشهيرة، مدينة الرجال الذين كالآلهة": العالم الذي وضعته في ظلها أضاءته أيضًا بمجدها. حرفيا كان: فالبحار الذي يدور حول رأس سونيوم، قد يتطلع نحو "المدينة المشرقة، المتوجة باللون البنفسجي، المشهورة في الأغاني[519]"، ويرى، على مسافة ثلاثين ميلاً، وميضًا من الضوء الساطع. كان هذا انعكاسًا للشمس على رمح لامع، ممسوكة في قبضة أثينا العملاقة، التي يبلغ ارتفاعها حوالي خمسة وثلاثين قدمًا، والتي كانت تقف بطولية وجميلة، على قمة الأكروبوليس، تحرس مدخل الصخرة، النظرة ثابتة بهدوء في اتجاه سالاميس. صُنع البرونز من النهب الذي تم الاستيلاء عليه من البرابرة، بتمويل من أعضاء العصبة وصنعه فيدياس، أعظم نحات أثيني في عصره، جسد البرونز مجمل المسار المظفّر لتاريخ الديمقراطية. وكان حقا تمثال الحرية.

ولما لا، بدأ الأثينيون يتساءلون عن الأخوة اليونانية أيضًا؟ في عام 449 قبل الميلاد، تم التوصل أخيرًا إلى تسوية مباشرة مع البرابرة، ووضع حد نهائي، بعد نصف قرن من الحرب، لكل الأعمال العدائية بين الملك العظيم وعدوه الأكبر[520]. في نفس العام، وجه الأثينيون دعوة إلى مدن اليونان وإيونيا، يطلبون منهم إرسال مندوبين إلى مؤتمر حول الأكروبوليس[521]. كان الغرض الظاهري من هذا المؤتمر المقترح هو مناقشة ما إذا كان من المقبول إعادة بناء المعابد التي أحرقها البرابرة. ولكن كان هناك أيضًا، حائما فوقه، هدفًا أكثر ارتفاعًا. "دع الجميع يأتون وينضمون إلى النقاش حول أفضل طريقة لتأمين السلام والازدهار لليونان[522]،" إعلان الدعوة. نداء مثالي-واستدعى، في الأشهر الأولى من السلام مع بلاد فارس، روح أفضل أوقات الأثينيين. "كلنا يونانيون"، أكد أريستيدس بفخر للسفراء الاسبرطيين، في عام 479 قبل الميلاد، عند مواجهة الاتهام بأن مدينته قد تقف إلى جانب ماردونيوس. "نتشارك جميعًا في نفس الدم، ونفس اللغة، ونفس الهياكل، ونفس الطقوس المقدسة. نتشارك جميعًا في طريقة الحياة المشتركة. سيكون أمرا مروعا لأثينا أن تخون هذا التراث[523]". ولم يفعل الأثينيون ذلك، فقد ترقوا إلى مستوى كلام أريستيدس المثير، ورأوا مدينتهم تحترق. لا يزال من الممكن رؤية الدليل على تضحياتهم متصدعًا

ومسودًا عبر الأكروبوليس. لماذا طلب الأثينيون الآن من البربري تذكير اليونانيين بأنهم جميعهم يونانيون؟ لماذا لا يمكن لمثالهم أن يكون مصدر إلهام لعصر من الصداقة والسلام العالميين؟

رد البيلوبونيزيين، بقيادة اسبرطة، بازدراء. من الذي سيقود مدن اليونان إلى هذا العصر الذهبي الموعود؟ كانت الإجابة التي تصورها الأثينيون ضمنية في دعوتهم: المدن التي أرسلت مندوبين إلى الأكروبوليس ستتخلى فعليًا عن الأسبقية لأثينا. اسبرطة، حتما، رفضت أن تفعل ذلك. فعل حلفاؤها في البيلوبونيز الشيء نفسه بإخلاص. وفشل المؤتمر. متجاهلة هذه الانتكاسة، ردت أثينا بتشديد الخناق على تلك التي يمكن أن تجبرها على التصرف حسب إرادتها. ربما تكون الحرب مع بلاد فارس قد انتهت، لكن الأثينيين لم يكونوا في حالة مزاجية تسمح برؤية الاتحاد ينحل لمجرد أن السلام قد حل في بحر إيجه. إن أي تلميح إلى عناد دولة عضو، أو تمرد أكثر انفتاحًا، وقمعهم سيكون بلا رحمة. استمرت الاشتراكات المرسلة إلى الأكروبوليس، والتي تم الكشف عنها الآن على أنها جزية، في الابتزاز كل عام. كلمة "الحلفاء" ذاتها، التي عفا عليها الزمن بشكل ميؤوس منه، تم استبدالها بعبارة "المدن الخاضعة للشعب الأثيني"- وصف كان على الأقل يستحق الدقة. بعيدًا عن الاتحاد، وجد العالم اليوناني نفسه مقسمًا إلى كتل قوى متنافسة، كل واحدة تقودها مدينة وضعت أفرادها في الظل بشكل مهين، وبررت هيمنتها من خلال التباهي بصوت عالٍ بسجلها في الدفاع عن الحرية.

لأن أثينا لم تكن المدينة الوحيدة التي تطالب بلقب منقذ اليونان. في الميزان، يمكن لاسبرطة، حليفتها السابقة، وخصمها اللدود الآن على نحو متزايد، تعيين بلاتيا و-قبل كل شيء-تيرموبيلاي. بالنسبة لبقية اليونان، ظلت اسبرطة منقطعة النظير كنموذج للبطولة والفضيلة. ولا شيء، ولا حتى أعظم انتصاراتها، قد قام أكثر من ذكرى الثلاثمائة وهزيمتهم النموذجية بترسيخ هذه السمعة. "اذهب وأخبرهم في اسبرطة، أيها المار / انه هنا، في طاعة لأوامرهم، نحن نرقد[524]." يمكن قراءة هذه السطور، المنحوتة على نصب تذكاري بسيط من الحجر، في موقع المدرج الأخير الشهير: مرثية لاكونية ومتجهمة مثل

ليونايدس نفسه. ومثله خالدة أيضًا-بالنسبة إلى ثيرموبيلاي، من بين جميع المعارك التي جرت ضد جيوش الملك العظيم، كانت المعركة الأكثر روعة التي تحولت إلى أسطورة. ومع ذلك، فإن الأثينيين-الذين يتمتعون بالذكاء والبلاغة وسرعة الذكاء مثلما كان أضدادهم الاسبرطيين متزنين، ومع ذلك فإنهم يتفوقون على ذاكرتهم. في أواخر عام 449 قبل الميلاد، تم تقديم اقتراح عجيب أمام المجلس. قبل بضعة أشهر فقط رفضت اسبرطة إرسال مندوبيها إلى أثينا والموافقة على إعادة بناء المعابد المحترقة؛ الآن صوّت الأثينيون على هذه المسألة دون الرجوع إلى رأي بقية اليونان. تم تمرير اقتراح إعادة بناء الآثار في الأكروبوليس بشكل مدوي. ووضعت خطط التحول المذهل للصخرة المقدسة حيز التنفيذ على الفور.

مثل هذا المخطط كان طويلا في الإعداد. وكان المحرك وراءه هو أحد النبلاء الكبار واسمه بريكليس، وهو ناشط سياسي محنك أظهر لأول مرة شغفه بالمشاريع الثقافية الجذابة من خلال رعايته، في عام 472 قبل الميلاد، مأساة إسخيلوس الشهيرة عن الفرس. بريكليس حاز بالتأكيد نسبا منقطع النظير في ذوقه غير المسبوق للمشاريع المهمة: ومع كونه ابن كسانثيبوس، كان أيضا، على جانب والدته، من أسرة ألكمايون. هذا يعني، بالطبع، أنه كان وريثًا لتقليد عائلي طويل في رعاية الآثار في الأكروبوليس؛ ولكن لم تمنح أسرة ألكمايون فرصة مثل التي كان بريكليس يستوعبها الآن. دمرت المحرقة البربرية قمة الصخرة بأكملها، لذا لم يكن معبدًا واحدًا بل الأكروبوليس بأكمله ما كان بريكليس يخطط لإعادة بنائه. من خلال توظيفه كريم الموهبة الأثينية، بما في ذلك النحات العظيم فيدياس، كان يهدف إلى رفع، على حد تعبيره، "علامات وآثار إمبراطورية مدينتنا" بشكل مثالي بحيث "سوف تتعجب الأجيال المستقبلية، كما يتعجب العصر الحالي منا الآن[525] ". في عام 447 قبل الميلاد، بدأ العمل في معبد مصمم ليكون أفخم وأجمل معبد تم بناؤه على الإطلاق. وستعرفه الأجيال اللاحقة باسم البارثينون[526].

ومع ذلك، فمهما كانت جريئة وأصلية جميع المعالم الجديدة في الأكروبوليس التي كان مقدرًا لها أن تكون، إلا أنها بقيت ترتكز على أسس وطيدة

في اعماق ما مضى من قبل. البارثينون، على سبيل المثال، هذا النصب الجريء للعصر الجديد للعظمة الأثينية، كان مقاما على قاعدة محترقة لمبنى قديم غير مكتمل: المعبد العظيم الذي بدأ في 480 قبل الميلاد كاحتفال بالنصر في ماراثون. الآن، مع خططه للأكروبوليس، كان بريكليس يتطلع إلى تكريس ذكرى ماراثون إلى الأبد. كانت ذكريات المعركة في كل مكان على الصخرة المقدسة. سواء في القاعدة الأرضية لبارثينون نفسه، أو في الجوائز التي تم رفعها إلى النصر، أو في أفاريز توضح القتال، كان الاحتفال بأعظم لحظة في تاريخ أثينا بتألق من شأنه أن يعلن أن أثينا ليست مجرد منقذ اليونان، بل مدرستها وسيدتها أيضًا.

بالنسبة لأولئك الذين سقطوا في ماراثون لم يكونوا موتى تمامًا. تاركا خلفه الغبار والضجيج في موقع البناء في الأكروبوليس في الصباح، وقد يصل الأثيني إلى ساحة المعركة بحلول الليل. هناك، مظللًا بظلاله على خلفية النجوم، يرى الضريح الضخم الذي رفع فوق رماد القتلى، وبجانبه نصب تذكاري أكثر حداثة، مصنوع بمحبة من الرخام الأبيض، بالكاد يبلغ عمره عقداً من الزمان. ومع ذلك، لم يكن بالإمكان رؤية النصب التذكاري الأقوى والأكثر غرابة-وكان يُسمع فقط. ففي كل ليلة، كما قيل، كانت شبحية عبر السهل، تُسمعُ أصوات قتال غريبة من شأنها أن تزعج هدوء منتصف الليل: رنين المعدن، صفير السهام، صرخات الحرب، الدوس، الصراخ. لا يوجد ميدان معركة آخر شهد قتالاً مع البرابرة يمكن أن يتباهى بمثل هذه الزيارة؛ وكان الاثيني، رغم كونه سيخشى الاقتراب من الأشباح، ربما يجد في وجودهم مصدرًا معينًا للفخر بمدينته. لقد كانوا ممثلين، في النهاية، في أعظم دراما في التاريخ- عندما وقفت أثينا بمفردها وحافظت على حرية كل اليونان. "لأنهم لم يكونوا آباء لأطفال فحسب، للحمِ ودمٍ فانٍ، ولكن لحرية أطفالهم، وحرية كل شخص يسكن في قارة الغرب[527]." كان كل شيء نابعا من ماراثون. كما كان كل شيء مبررًا به أيضًا.

ما وراء السهل، بآثاره وقبوره وأشباحه، كان الطريق يمضي باتجاه الشمال، مؤديًا عبر التلال الفارغة إلى معبد واحد على منحدر فوق البحر. كان

هذا رامنوس، حيث قيل إن زيوس، بعد أن سعى وراء نمسيس في جميع أنحاء العالم، استطاع أخيرًا ان يطرحها أرضاً. من هذا الاغتصاب، ظهرت هيلين وحرب طروادة وكل قصة الكراهية الطويلة والعنيفة بين الشرق والغرب. وجلبت داتيس الميدي وأسطوله العظيم إلى ماراثون، على بعد خمسة أميال فقط إلى الجنوب: "وكان متأكدًا جدًا من أنه لا شيء يمكن أن يمنعه من أخذ أثينا لدرجة أنه أحضر معه كتلة من الرخام، كان ينوي نحت كأس منها احتفالًا بانتصاره".[528] "بعد هزيمة بعثته، عُثر على كتلة من الرخام مهجورة في ساحة المعركة. ولذا نقلها السكان المحليون إلى رامنوس. لم يكن من الممكن تخيل مكان أفضل لها-لأن المعبد الذي كان يقف هناك فوق المنحدر المؤدي إلى البحر كان مكرسًا لنمسيس نفسها. كان من الواضح أن غضبها هو الذي قضى على حملة البرابرة. وهكذا تم التخطيط لبناء معبد ثان لها، وتذكارًا لماراثون. كان القصد منه جعل الرخام في صورة الإلهة. طُلب من فيدياس العظيم نحتها. كما هو الحال في الأكروبوليس، كذلك في رامنوس، قد يهدف الأثيني إلى إلقاء نظرة خاطفة على المستقبل. وإذا وصل إلى حيث تقف الكتلة الرخامية، في انتظار أن يتم نحتها، فقد يتخيل بسهولة أنه يمكن أن يرى في النقاوة الطيفية لبياضها نذيرًا للمنحوتة التي كان يجب أن تكون؛ وأنه كان يلقي نظرة خاطفة على وجه نمسيس نفسها.

خاتمة

في عام 431 قبل الميلاد، اندلعت التوترات المتزايدة بين أثينا واسبرطة نهاية المطاف في أعمال عدائية مفتوحة. استمر الصراع الذي أعقب ذلك، والذي أطلق عليه الأثينيون "الحرب البيلوبونيزية"، مرارًا وتكرارًا لمدة سبعة وعشرين عامًا. وانتهى عام 404 قبل الميلاد بالهزيمة الكاملة لأثينا. تم تفكيك إمبراطوريتها وتدمير أسطولها وتعليق ديمقراطيتها. على الرغم من أنها في القرن التالي ستشهد انتعاشًا مذهلاً، إلا أن أثينا لن تكون مرة أخرى القوة المهيمنة في اليونان.

ولا اسبرطة بعد 371 قبل الميلاد. بعد مائة وثماني سنوات من فوز بوسانياس بانتصاره العظيم على ماردونيوس، تعرض الجيش الاسبرطي لهزيمة مثيرة على يد طيبة في قرية ليوكترا، على بعد خمسة أميال فقط من بلاتيا. واستغلهم الطيبيين لغزو لاكاديمون. ألغيت الرابطة البيلوبونيزية. تم تحرير ميسينيا. وتحولت اسبرطة، التي حُرمت من الهيلوت، بين عشية وضحاها من قوة مهيمنة في اليونان إلى قوة متوسطة.

على مدى العقود التالية، استمرت المدن اليونانية في تمزيق نفسها. في هذه الأثناء، في الشمال، كان مفترس جديد يُجهز نفسه للصراع القاتل ليكون أعظم قوة في اليونان. في عام 338 قبل الميلاد، اقتحم الملك فيليب الثاني ملك مقدونيا، على خطى زركسيس، جنوبا إلى بيوتيا. جيشاً من الأثينيين والطيبيين، في محاولة لعرقلة طريقه، وقطّعه إلى أشلاء. "نحن نرقد هنا لأننا سعينا جاهدين لمنح الحرية لليونان." هكذا كُتب على قبر الذين سقطوا. "المجد الذي نتمتع به لن يشيخ أبدًا."[529] كلمات فخورة-ولكن حتى أكثر نقوش المرثية إثارة لايمكن أن تحجب الحقيقة القاتمة المتمثلة في أن الاستقلال اليوناني قد انتهى فعليًا. بعد أربع سنوات، عبر نجل فيليب، الإسكندر، نهر هيليسبونت لمهاجمة الإمبراطورية الفارسية. الآن جاء دور الملك العظيم لتوضع قوته في الغبار. خسر الغازي ثلاث معارك كبيرة متتالية. سقطت بابل. وأحرقت برسيبوليس. عانى ملك الملوك الاخير من الموت البائس والمؤلم عطشاً. ادعى الإسكندر الحق في تاج كورش، وإمبراطورية امتدت من البحر الأدرياتيكي إلى نهر السند.

لأول مرة، اعترفت اليونان وبلاد فارس بحكم سيد واحد.

حتى أن نمسيس، ربما، سمحت لنفسها بأن تبتسم.

التسلسل الزمني

جميع التواريخ قبل الميلاد.

1250: حرب طروادة.

1200 تدمير القصور الملكية في ميسينا واسبرطة.

1200-1000: هجرة الدوريين إلى البيلوبونيز.

1000-800: هجرة الميديين والفرس إلى غرب إيران.

814 تأسيس قرطاج.

750-700: فرض الملوك الآشوريون سيطرتهم على الميديين في زاغروس.

750-650: اسبرطة تغزو وتحتل ميسينيا.

670: فقدان السيطرة الآشورية على الميديين.

632: فشل محاولة كايلون أن يصبح طاغية على أثينا.

612: الميديون والبابليون يسلبون نينوى.

608: الانهيار النهائي للإمبراطورية الآشورية.

600: نفي أسرة ألكمايون من أثينا.

594: سولون يصبح أرخوناً.

586 نبوخذ نصر يسلب القدس.

585: استياجيس يصبح ملك الميديين. توقيع معاهدة سلام مع ليديا بعد حرب غير حاسمة.

566: تدشين الباناثينا العظيم.

560: أول طغيان لبيسستراتوس. عودة أسرة ألكمايون إلى أثينا.

559: أصبح كورش ملك بلاد فارس.

556 نابونيدوس يصبح ملك بابل.

555: الطغيان الثاني ونفي بيسستراتوس.

550: قورش ينتصر على الميديين.

546 قورش ينتصر على ليديا. "معركة الأبطال" بين اسبرطة وأرغوس. معركة باليني: الطغيان الثالث لبيسيستراتوس؛ عودة أسرة ألكمايون إلى المنفى.

545-540: قورش يندفع نحو آسيا الوسطى.

539: قورش ينتصر على بابل.

529 موت قورش. وقمبيز يصبح ملك بلاد فارس.

527 موت بيسستراتوس. وهيبياس وهيبارخوس يصبحان طاغيا أثينا.

525: قمبيز يغزو ويحتل مصر.

522 ثورة بارديا ضد قمبيز. وفاة قمبيز. داريوس وستة من شركائه يغتالون بارديا. داريوس يصبح ملك بلاد فارس ويخمد ثورة في بابل.

521: قمع داريوس للتمردات المنتشرة عبر الإمبراطورية.

520: كليومينيس يصبح ملك اسبرطة.

519 أثينا في حالة حرب مع طيبة دفاعا عن بلاتيا.

514 اغتيال هيبارخوس.

513: داريوس يغزو سيثيا.

512-511: الفتح الفارسي لتراقيا.

510: طرد هيبياس من أثينا.

508: إيساغوراس يصبح أرخوناً. كليسثينيس يقترح إصلاحات ديمقراطية.

507: نفي كليسثينيس من أثينا. كليومينيس وإيساغوراس يحاصران في الأكروبوليس. يعود كليسثينيس من المنفى وينفذ إصلاحاته. سفراء أثينا يقدمون الأرض والماء لأرتافرنيس.

506: هزيمة غزو كليومينيس لأتيكا. انتصار أثينا على طيبة وخالسيس.

499 :فشل الهجوم الفارسي على ناكسوس. أريستاغوراس يقود ثورة أيونية ويسافر إلى اليونان بحثًا عن الدعم.

498: الأيونيون، بدعم من الأثينيين والإريتريين، يحرقون ساردس.

497 : موت أريستاغوراس.

494 :هزيمة الأيونيين في معركة ليد. هزيمة أرغوس على يد كليومينيس في معركة سيبيا. سلب ميليتوس.

493: ثيمستوكليس يصبح أرخوناً . يهرب ميلتيادس من كيرسونيس إلى أثينا.

492: محاكمة ملتيادس وبراءته. ماردونيوس ينتصر على مقدونيا.

491: سفراء داريوس يقومون بجولة في اليونان للمطالبة بالأرض والمياه. أولئك الذين يزورون أثينا واسبرطة يتم إعدامهم.

490: داتيس و ارتفارنس يقودان رحلة استكشافية عبر بحر إيجه. سلب إرتريا. معركة ماراثون.

487: أول نبذ في أثينا.

486: تمرد في مصر. وفاة داريوس. زركسيس يصبح ملك بلاد فارس.

485: أصبح جيلون طاغية سيراكيوز.

484: زانثيبوس منبوذ. تمرد في بابل.

483: العثور على عرق غني من الفضة في مناجم لوريوم.

482: نبذ أريستيدس. أثينا تصوت لبناء مائتي سفينة ثلاثية المجاديف.

481: زركسيس يصل إلى ساردس. يجتمع مؤتمر المدن اليونانية المصمم على مقاومة الغزو الفارسي في اسبرطة. إرسال المبعوثين إلى جيلون. وإرسال الجواسيس إلى ساردس.

480: عودة المبعوثين خالي الوفاض من جيلون. زركسيس يعبر هيلسبونت. يصوت الأثينيون لإخلاء مدينتهم. معارك ثيرموبيلاي وارتيميسيوم. معركة هيمرا. أثينا تُحتل وتُحرق. معركة سلاميس. زركسيس يتراجع إلى ساردس. ماردونيوس لا يزال في ثيساليا.

479: أثينا تُحتل للمرة الثانية. معارك بلاتيا ومايكالي. ثورة في بابل. زركسيس يترك ساردس.

472: إسخيلوس يعرض مسرحيته: الفرس.

470: ثيميستوكليس منبوذ.

469 : موت بوسانياس. رحلة ثيمستوكليس إلى سوزا.

466 : معركة يوريميدون.

460: أثينا ترسل بعثة استكشافية إلى قبرص ومصر.

459: موت ثميستوكليس.

457: إيجينا تضطر للانضمام إلى التحالف الديلي.

454: تدمير الحملة الأثينية على مصر. نقل خزانة التحالف الديلي من ديلوس إلى الاكروبوليس.

449: توقيع اتفاقية السلام بين أثينا وبلاد فارس. البيلوبونيزيين يرفضون دعوة أثينا لحضور مؤتمر عموم اليونان. تصويت الأثينيين على إعادة بناء المعابد المحترقة في الأكروبوليس.

447: بدأ العمل في البارثينون.

ملاحظات

Unless otherwise stated, author citations refer to the following texts: Aelian, Miscellany; Aeschylus, The Persians; Aristides, Aelius Aristides Orationes, ed. W. Dindorf (Leipzig, 1829); Athenaeus, The Learned Banquet; Cicero, On Divination; Ctesias, Fragments; Diodorus Siculus, The Library of History; Diogenes Laertius, The Lives and Doctrines of Eminent Philosophers; Herodotus, Histories; Pausanias, Description of Greece; Polyaenus, Stratagems; Quintus Curtius, The History of Alexander; Strabo, The Geography; .Thucydides, History of the Peloponnesian War